

المجلد
العدد

الكتاب

المؤلف

الطبعة

297

H4

DATE DUE

~~16 JUL 1986~~

~~2 NOV 1986~~

[REDACTED]

حي الصيني و بدرالدين .

العلاقات بين العرب والصين

[REDACTED]

[REDACTED]

~~21 1 67~~

~~DEC 21 1961~~

~~JAN 9 1962~~

~~JAN 26 1962~~

~~20 1 67~~

~~1 Oct 67~~

JAFET LIB.

~~3 JUN 1977~~

J. Lib.

~~22 MAR 1964~~

J. LIB.

~~1 1964~~

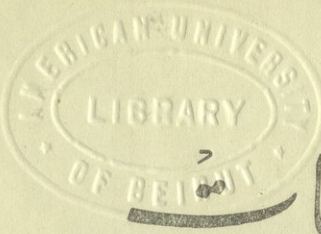
~~JAFET LIB.~~

~~14 DEC 1980~~

Cat. Rec. 51

A S.

297.0951
H41aA



العلاقات

بين العرب والصين

تأليف
بدر الدين محمد عيسى
مدرس التاريخ في جامعة الأزهر بدمياط
مدرس التاريخ في جامعة القاهرة
مدرس التاريخ في جامعة عين شمس

بدر الدين محمد عيسى

(خريج الجامعة الإسلامية بدهلي والجامعة الأزهرية بمصر)

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

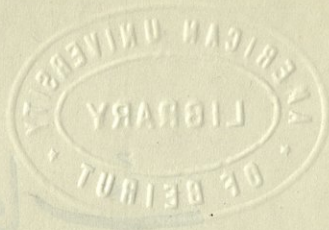
١٣٧٠ - ١٩٥٠



77911

الناشر: مكتبة النهضة المصرية
أصحابها: حسن ورفعت محمد وأخوتهم
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

Cat. Part. 51



لغة النعا

تبرعات

الاهراء

الى الأمير الجليل محمد حسين الذي حباني بعطفه ، وغمري ببره ،
وكانت له أياد بيض على الاسلام والمسلمين في الصين
أهدى ذلك الكتاب رمزاً للوفاء ، وعنواناً على التقدير

بدر الدين محمد صديقي

بدر الدين محمد صديقي

١٩٥١ - ١٩٧١

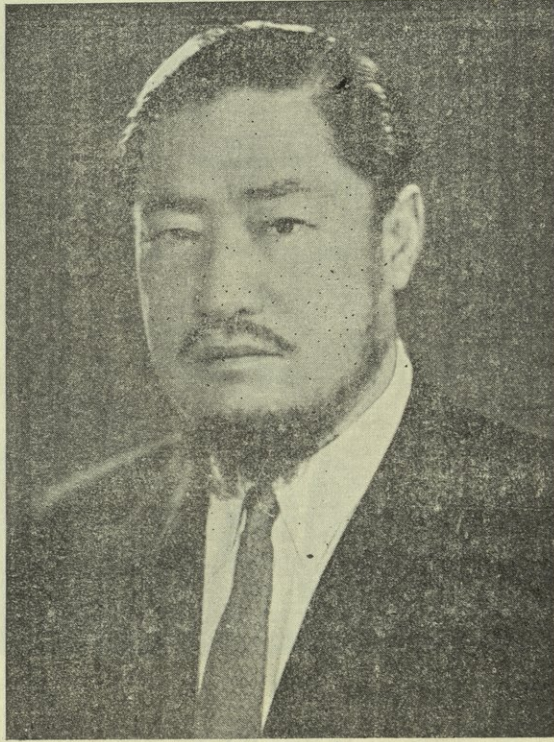
١١٤٣٣

١١٤٣٣

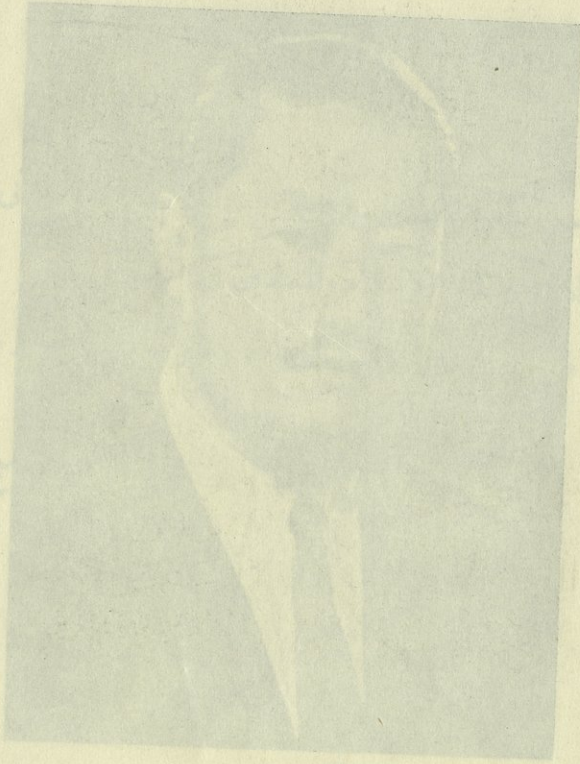
تبرعات

١٩٥١ - ١٩٧١

بدر الدين محمد صديقي



حضرة صاحب الولاية والقيادة
الامير محمد حسين مابوفانغ



الى ال
وكانت له أيد
أمدى

قليلًا في الأ
وكانت له أيد
أمدى

فهرست كتاب (العلاقات بين العرب والصين)

مقدمة من م إلى س

الباب الأول (١ - ٢٢)

- ١ - حالة الصين قبل ظهور الاسلام - (١ - ٧). تاريخ الصين في العهد الخرافي (١ - ٤) كانفوشيوس وعهده (٤ - ٥). جنشى وانى وأحراق السكتب وبناء سور الصين (٥). أسرة هان وتجديد الحياة الادبية (٥ - ٦). سفر جانغ جيانغ إلى بلاد الغرب (٦ - ٧)
- ٢ - علاقة الصين بغرب آسيا وبلاد العرب قبل الاسلام (٧ - ٢٢) - فتح باب التجارة (٨ - ٩). أغراض سفر جانغ جيانغ وأثره في علاقة الصين بالغرب (٩ - ١٠) طرق القوافل في آسيا الوسطى (١٠). مدينة الصغد مركز التجارة (١١) الطريق الجنوبي والطريق الشمالى (١١ - ١٢). علاقة الصين بايران والرومان الشرقى (١٢). سفر ماركس أورليوس أنتونيوس إلى الصين (١٢ - ١٣) تجارة الشام ومصر مع الصين (١٣ - ١٤) الاسكندرية مدينة الصناعة والحرفة (١٤). البحر الاحمر في التجارة مع الصين (١٥) طريقة الشاميين في الاتجار مع تجار الصين (١٥). الطريق البحرى الذى سافر منه ماركس أورليوس أنتونيوس إلى الصين (١٦ - ١٧). من الذين لهم الفضل في كشف الطريق البحرى إلى الصين (١٧ - ١٨). احتكار الايرانيين لتجارة الحرير الصينى (١٨). علاقة الصين مع جنوب بلاد العرب وشمالها في العهد الساسانى والرومان الشرقى (١٩). اتصال الصين بدولة الخيرة (٢٠). اتصال الصين بقريش (٢١). كلمة الصين ، في الحديث (٢٢)

الباب الثانى فى العلاقة السياسية فى الاسلام (٢٣ - ٤٤)

- ظهور الاسلام (٢٣). استغاثة يزيدجرد بامبراطور الصين (٢٣ - ٢٤) التجاه فيروز الى عاصمة الصين (٢٤). زحف قتيبة بن مسلم الى اواسط آسيا (٢٥).

مخيم الاضنام بسمر قند وتأسيس جامع قتيبة ببخارى (٢٥ - ٢٦). تقدم قتيبة إلى كاشغر (٢٧). أقوال ابن الاثير في وفد العرب الى امبراطور الصين (٢٧-٢٨) وفاة الخليفة الوليد وتخاصم الصين من غزو العرب (٢٩-٣٠) ظهور شعب ابو غرى في تركستان (٣٠). تأسيس أسرة تانغ (٣٠). علاقة أسرة تانغ بقبائل التتار في آسيا الوسطى (٣١). اتساع نفوذ الصين إلى أواسط آسيا (٣٢). الصين والعرب في أواسط آسيا (٣٤). واقعة تالاس ونتيجتها (٣٤-٣٥). ثورة في داخل الصين (٣٦). آنلوشان الثائر (٣٧). استنجد الصين بقوات المسلمين (٣٨). أقوال العلماء في البعثة العسكرية من أبي جعفر المنصور إلى الصين (٣٩-٤٠). توطن عساكر المسلمين بالصين (٤١). المصاهرة بين أمراء الاوغرة وأسرة تانغ (٤٢) علاقة الصين ببغداد (٤٤)

الباب الثالث في العلانة العلمية (٤٥-١٠٦)

الصين وكتاب الاسلام (٤٥-٧٧). وجرب النظر الى معلومات العرب وكتاب الاسلام عن الصين (٤٥). ابن خرداذبه وكتابه الممالك والمسالك (٤٦) سليمان التاجر السيرافي وكتابه سلسلة التواريخ (٤٧). الموازنة بين أقوال سليمان التاجر وابن خرداذبه (٤٧). اهتمام علماء أوروبا بكتاب سلسلة التواريخ (٤٨). أبو زيد حसन السيرافي (٤٩-٥٠) اليمقوبى وأقواله عن الصين (٥٠) ابن الفقيه (٥٢). المسعودى (٥٤) أبو دلف الينبجى (٥٥). الادريسى (٥٥). الغرناطى (٥٦-٥٨). ياقوت (٥٩) ابن بيطار (٦٠)، القزوينى (٦١). ابن سعيد (٦١-٦٢). رشيد الدين فضل الله وكتابه جامع التواريخ (٦٣-٦٥) الدمشقى وأبو الفدا وابن الوردى (٦٧). ابن بطوطة (٦٧-٦٨) الاصطخرى والباكوى والجلابى (٦٩). ميرزا الصادق الاصفهانى الهمدانى (٧١) القلقشندى (٧٠). الشيخ بىرم التونسى (٧٢) الأمير شكيب أرسلان (٧٠-٧٣) (٧٤-٧٤) أبو العز باشا (٧٤-٧٧)

٢ معلومات العرب عن الصين (٧٨-١٠٧)

أقسام ثلاثة من علماء الاسلام الذين قد تكلموا عن الصين (٧٨). النواحي التي قد تكلموا فيها (٧٨-٧٩). أقوال العرب عن بلاد الصين ومدنها (٧٩-٧٩)

٨٠) . ملاحظة على هذه الأقوال (٨١) . المسافات بين المدن الكبرى وأحوالها
(٨٢ - ٨٥) . ملك الصين وأوصافه (٨٥ - ٨٦) الموازنة بين مقال الادريسي
والسيرافي عن أوصاف ملوك الصين (٨٧ - ٨٨) أهل الصين وعاداتهم (٨٨ -
٨٩) . أكل الصينيين ومشربهم (٨٩ - ٩٠) . الزواج في الصين (٩٠) . عناية
الصين بالطب والتعليم (٩٢) . معاملتهم الموتي (٩٣) . أقوال العرب في ديانات
الصين (٩٤ - ٩٥) عمائد الصينيين وعاداتهم (٩٦) . عبادة الملوك والاسلاف
(٩٨) . اتصال الصين بديانات الهند وإيران (٩٩) ، الصناعات الدقيقة في الصين
(٩٩ - ١٠١) طريقة نقل الكتب وحفظها في الصين (١٠٢ - ١٠٣) . معلومات
العرب عن الأدوية الصينية (١٠٤ - ١٠٥) . ع جسر معلق بين الجبال
الشائعة (١٠٦)

الباب الرابع في العلاقة التجارية (١٠٨ - ١٤٠)

التجارة البحرية بين العرب والصين (١٠٨) . طريق البحر الى الصين (١٠٩) .
المراعى التي كانت تمر بها مراكب التجارة (١١٠ - ١١٢) . حالة التجارة في بحر
الهند (١١٢) سفن الصين بخليج فارس (١١٣) . قول ابن بطوطة في مراكب
الصين (١١٤ - ١١٥) مكانة هرمز في التجارة البحرية (١١٦) . ما أبدونفوذ الصين
فيها (١١٧) جزيرة الرامى (١١٨) . بلاد جاوه (١١٩) . طريق البرالى الصين
(١٢٠) الاحوال السياسية بماوراء النهر ايام انحطاط العباسيين (١٢١) مملكة
السامانيين والنشاط التجارى فيها (١٢١ - ١٢٢) النهضة الصناعية بماوراء النهر
(١٢٢) خيرات الارض (١٢٤) طريق البربين الصين وخرسان (١٢٥) حالة
التجارة بين الصين وماوراء النهر في القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٦) بعثة
تجارية من خوارزم شاه الى الصين (١٢٧) ظهور جنكيزخان (١٢٧) وصف
مؤلف خطاى نامه ، لطرق البرالى الصين (١٢٨) (٧٠ - ٧١) لندل جلال
تجارة العرب فى الصين (١٢٩) مدن التجارة (١٢٩ - ١٣١) مراقبة التجارة
البحرية فى موانى الصين (١٣٢) البضائع الواردة والصادرة بين العرب والصين
(١٣٣ - ١٣٤) مراقبة سفن التجارة (١٣٥ - ١٣٦) الملاحه فى القرن الثانى

عشر للميلاد (١٣٧) حرية انتقال التجار المسلمين في مدن الصين (١٣٧) طريقة عقد الدين (١٣٨) المراقبة على الفنادق (١٣٩) ترويج دراهم الكاغذ في البيع والشراء (١٤٠).

الباب الخامس في العلاقة الدينية (١٤١ - ١٧٩)

ديانات الصين قبل الاسلام (١٤١) - حكماء الصين ومباهم (١٤٢) . الفوارق بين ديانات الصين والاسلام (١٤٢) دخول الديانات الاجنبية الصين (١٤٣) - الاغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الاسلام في الصين (١٤٤) . وصول الاسلام برا في آخر سنة ٧١٥ م (١٤٥) : العرب عرفوا عند الصينيين باسم «تاشي» (١٤٦) . أقوال «تافع شو» عن ظهور الاسلام ونهضة العرب (١٤٧) . الامويون والعباسيون (١٤٧) . أقوال متضاربة عن وصول الاسلام الى الصين بحرا (١٤٨) رواية «اصل المسلمين في الصين» (١٤٩) رواية «النسل من الغرب» (١٥٠) : مرسوم ديني كشف في بكين (١٥٠ - ١٥١) . ملاحظات على الاقوال السابقة (١٥٢ - ١٥٠) من هو صاحب المقبرة بكاتون (١٥٥ - ١٥٦) . سعد بن ابي وقاص لم يذهب الى الصين (١٥٧ - ١٥٨) وصول الاسلام بحرا في سنة ١٥١ م (١٥٩ - ١٦٠)

انتشار الاسلام في موالي الصين (١٦١) . احوال المسلمين في كاتون (١٦١) . الاسلام في هايتان (١٦٢ - ١٦٣) . معبد الربان العربي (١٦٤ - ١٦٥) . الاسلام في جوانشو (١٦٦) الاسلام في جانغ آن (١٦٨ - ١٦٩) . اقدم كتابة اسلامية في الصين (١٧٠ - ١٧٢) . انتكار المؤرخين الصينيين لصحة نصوص الكتابة وادلتهم عليها (١٧٣ - ١٧٤) . امكان وقوع التغيير في الكتابة (١٧٥) . كلمة بدر الدين في السكتاتين العربية والصينية (١٧٦) . وصول الاسلام الى سيلابكوريا وعدم استقراره فيها (١٧٨)

الباب السادس في العلاقة الدبلوماسية (١٨٠ - ٢٤١)

١ - من عهد تافع الى عهد منغ (١٨٠ - ٢٠٨) المراد من العلاقة الدبلوماسية في هذا الباب (١٨٠) . ذكر السفارات العربية في السكتب الصينية (١٨١ - ١٨٢)

وفود العرب الى الصين في عهد الامويين (١٨٣). وفود من قواد العرب بما وراء
النهر واوراسيا (١٨٤ - ١٨٥). السفارات في عهد العباسيين (١٨٥).
اجتماع وفود العباسيين بوفود الاوغرة في عاصمة الصين (١٨٦). العلاقة بين الصين
وبغداد (١٨٧) علاقة العرب باسرة سونغ (١٨٩ - ١٩٠) اهم السفارات في سنة
٩٤: ١٩٥ م. (١٩١ - ١٩) مقدمة ابراهيم بن اسحاق الى امبراطور الصين (١٩٢-١٩٣)
هدايا ابراهيم بن اسحاق الى امبراطور الصين (١٩٤-١٩٥). بيان الوفد عن
بلاده (١٩٦). السفارات الاخرى (١٩٧-١٩٨). علاقة السامانيين بمملكة
الصين (١٩٩) ظهور المغول في القرن الثالث عشر الميلادي وتحول العلاقات من
العرب الى المغول (٢٠٠) ما بين جنكيز خان وخوارزم شاه (٢٠٠ - ٢٠١).
بين قبلاي خان في الصين والخوانين في ايران (٢٠٢). وفد غازان خان الى الصين
(٢٠٣ - ٢٠٦). سفر ابن بطوطة الى الصين سفيرا عن تغلق شاه صاحب
دهلي (٢٠٦ - ٢٠٨)

ب - العلاقة الدبلوماسية في عهد منغ (٢٠٨ - ٢٤١)

اسرة منغ وعلاقتها بالممالك الاسلامية (٢٠٩). ما بين منغ تائي جو وتيمور
كوركاز (٢١٠) رسالة التقدمة من تيمور الى منغ تائي جو (٢١١ - ٢١٢).
اعتراف تيمور بسيادة الصين عليه (٢١٣) بين امبراطور الصين وشاهرخ (٢١٤)
رسالة الامبراطور الى شاهرخ (٢١٥ - ٢١٥). رسالة فارسية من شاهرخ الى
امبراطور الصين يدعوه الى اعتناق الاسلام (٢١٦ - ٢١٩). رسالة عربية من
شاهرخ الى امبراطور الصين (٢٢٠). سفارات اخرى (٢٢١ - ٢٢٢) بعثة
دبلوماسية من امبراطور الصين الى خاقان سعيد (٢٢٢ - ٢٢٣). رسالة
امبراطورية الى شاهرخ (٢٢٤ - ٢٢٥). سفارة شاهرخ وغيره الى بكين
(٢٢٦ - ٢٢٧). سفارات اخرى من سمرقند (٢٢٧ - ٢٢٩). بين الصين
وآل الشيبانيين (٢٢٩).

علاقات الصين بسلاطين المسلمين في خليج فارس وسواحل بحر العرب
والبحر الاحمر (٢٣٠) سفر الحاج جهان الى الممالك الاسلامية (٢٣١ - ٢٣٢).

بين ملوك منغ وامراء مسكة المذكومة (٢٣٤ - ٢٣٥). علاقة الصين بسطان عدن
(٢٣٥ - ٢٣٧). وبسلطان احساء وظفار (٢٣٧ - ٢٣٨). علاقة الصين بمصر
وشرق افريقيا (٢٣٩ - ٢٤١)

الباب السابع في العلاقة الصناعية والفنية (٢٤٢ - ٢٨٤)

مباحث هذا الباب (٢٤٢). ترويج صناعة الورق في الممالك الاسلامية (٢٤٣).
اختلاف الآراء في وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل سنة ٧٥٠م (٢٤٣ - ٢٤٤).
نقل الورق الى مكة (٢٤٥). الأوراق المالية (٢٤٦ - ٢٤٧).
البارود ليس من اختراعات الصينيين (٢٤٧). علم الصينيين باستعمال البارود
والمدافع عن المغول (٢٤٨). استخدام المدفع الناري في فتح مدينة سيانغ يانفو
(٢٤٩ - ٢٥٠). تاريخ الصين ينسب المدفع الى صناعة المسلمين (٢٥٠). كلمة
« هوى هوى بهو » في ديوان لغات الصين وعلاء الدين واسماعيل (٢٥١).
معرفة العرب والمسلمين عن استعمال المدفع والبارود قبل القرن الثاني عشر
للميلاد (٢٥١)

الفخار والخزف - الصناعات التي اشتهر بها أهل الصين (٢٥٢) غزوة كش
ونقل اثر الصناعة الصينية الى الممالك الإسلامية (٢٥٢). كشف الآواني الصينية
لعهد تانغ في سامرا (٢٥٣). تقليد الخزاف الصينية في الصناعات الاسلامية
(٢٥٤). محاكاة الايرانيين لفخفوريات منغ (٢٥٥). أثر الصين في صناعة ايران
ومصر وتركيا (٢٥٥ - ٢٥٦)

في المنسوجات الاسلامية - عوامل التأثير الصناعي الصيني في المنسوجات
الاسلامية (٢٥٨ - ٢٦٠) ظهور المغول وتأثيرهم في نقل الخزاف الصينية الى
المنسوجات الايرانية (٢٦٠ - ٢٦١) أثر الصين في منسوجات مصر (٢٦٢ - ٢٦٣)
التصوير - اختلاف المبادئ في التصوير الصيني والايراني (٢٦٤). نقل اثر
الصين الى التصوير الايراني (٢٦٥). علم العرب عن التصوير الصيني (٢٦٥).
تصوير الفنان الصيني لديوان « رودكي » (٢٦٦). حكاية مسابقة التصوير بين مصور
صيني ومصور رومي في اسكندر نامه (٢٦٧). نقل النقاشين والكتيب المصورة

الى العراق ايام المنول (٢٦٨). صور في كتاب «منافع الحيوان» و «جامع التواريخ» (٢٦٨ - ٢٦٩). الرسوم الفلكية في (زيج اولغ بك، ٢٧٠ - ٢٧٢) ب - اثر الاسلام في فنون الصين (٢٧٤ - ٢٨٤)

بحث الاستاذ جينيوان في الفنون الاسلامية في الصين (٢٧٤) بحث الاستاذ برتولد لوفر (٢٧٥ - ٢٧٦) ابتداء تاثير الاسلام في الصناعة الصينية (٢٧٦) تحقيق الاستاذ بالولوغ (٢٧٧ - ٢٧٨) تحقيق الاستاذ بوشل (٢٧٨ - ٢٧٩) نماذج من الصناعات الصينية الاسلامية (٢٧٩ - ٢٨٤)

الباب الثامن في نتائج العلاقات (٢٨٥ - ٢٢٠)

نتائج العلاقات السياسية - كلمة كاغد في اللغة الفارسية والعربية (٢٨٥) توغل الاسلام برا (٢٨٦) اختلاط الدم العربي بالصيني في شمال الصين الغربي (٢٨٧) . نتائج العلاقات الدينية - انشاء المساجد (٢٨٧ - ٢٨٨) انتشار الاسلام في

الصين (٢٨٩) عوامل ازدياد المسلمين (٢٩٠ - ٢٩١) المساجد مراكز الحياة الاجتماعية (٢٩٢). تاثير الفارسية والعربية في الحياة الاجتماعية (٢٩٢ - ٢٩٣). حالة العربية في الصين (٢٩٣ - ٢٩٤) نبذة تاريخية عن اللغة العربية في الصين (٢٩٥). محمود الكاشغري ووزناته في العربية (٢٩٦) العربية في مدينة هانغجو في عصر المغول (٢٩٧). تقدم العربية في عهد مانشو (٢٩٩).

الحاج نور الحق وعربيته (٣٠٠). رواج الاصطلاحات الفارسية في أمور الدين (٣٠٠). غناء فارسي في مدينة هانغجو (٣٠١). تقدير ملوك منغ للغة

الفارسية (٣٠٢) حالة الفارسية في عهد مانشو (٣٠٣). تاثير الفارسية في الحياة الاجتماعية (٣٠٣). كلمات عربية يستعملها المسلمون الصينيون على نحو كلمات

فارسية (٣٠٤). نقل علم الطب العربي الى لغة الصين (٣٠٥ - ٣٠٦): علم الهيئة الاسلامية في الصين (٣٠٧). ابرة المغناطيس عند الصينيين ونقلها الى اوربا

(٣٠٨ - ٣٠٩). كلمة «كنخاب» في الفارسية (٣١٠) الشاي ورواجه في البلاد الاسلامية (٣١١ - ٣١٢). كلمة «بك» (٣١٢)

كلمات عربية في آداب الصين. - الزعفران (٣١٢ - ٣١٣). الياسمين (٣١٤) يابروه (٣١٥) الحنّام (٣١٦). الحلبة (٣١٧). كلمة ختامية (٣١٧).

المراجع (٣١٨ - ٣٢٠)

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

أن المسلمين في الصين كانوا خاملي الذكر في الغابر وفي الحاضر . فانقطعوا عن العالم الإسلامي وانقطع العالم الإسلامي عنهم فلذا قل الحديث عنهم في كتب التاريخ وفي أفواه المسلمين في جميع الاقطار

ولقد استشعر المسلمون الصينيون هذا الخمول وشعروا انهم من المنسيين أو في حكم المنسيين . ففكروا في رفع ذكرهم في العالم الإسلامي ودبروا طريق الاتصال به . فسئحت لهم الفرصة في سنة ١٩٣١ م اذ كانت الجمعيات الإسلامية في الصين قد قررت إرسال بعض ابنائها الى مصر ليتزودوا من الثقافات الإسلامية والعربية والدينية . فوصلوا في بعثات في سنوات مختلفة والتحقوا بالازهر الشريف فأوجدوا للمسلمين الصينيين في مصر وفي العالم الإسلامي اسما عظيما ومقاما محمودا . وكان ذلك فاتحة عهد جديد بين مسلمي الصين وأخوانهم وقد كنت في احدى الجامعات بالهند فاقترنت خطواتهم وجمت ألى مصر في سنة ١٩٢٣ م . حيث انضمت إلى البعثات الصينية بالازهر الشريف .

وكان على رأس الازهر استاذ العصر ، المرحوم الشيخ مصطفى المراغي الذي كان يهتم باحوال المسلمين في البلاد القريبة والبعيدة ، وكان رجال الثقافة والعارف يعنون باخبار العالم الإسلامي عنائتهم يشتمون العالم العربي ومنذ قدمت البعثات الصينية إل مصر أخذت الروابط تزداد توثقا بين البعثات الصينية وأخوانهم المسلمين من مختلف الاقطار، فقد كانوا يسألوننا عن أحوال المسلمين وتاريخهم في بلاد الصين ، فنعرض عليهم جانبنا من الاخبار عن طريق الصحف والمجلات التي

تعتبر منبراً لنشر الآراء ولأفكار . وقد كان لتساؤل الاصدقاء والاخوان من العالم الاسلام والعربي عن المسلمين في الصين واهتمامهم بأحوالهم وقع عظيم في نفسي ، فاهمني بضرورة وضع كتاب جامع في تاريخ الاسلام في الصين فلذا عقدت نيتي على جمع المواد والمعلومات من المصادر الوثيقة والمراجع المعتبرة لاجل تدوينه فاستحضرت الكتيب من أوروبا ومن الصين مع مطالعة مستمرة ايام دراستي في الأزهر ، في دار الكتيب المصرية بباب الحلق ، حيث تمكنت من قراءة عدد وفير من المراجع العربية .

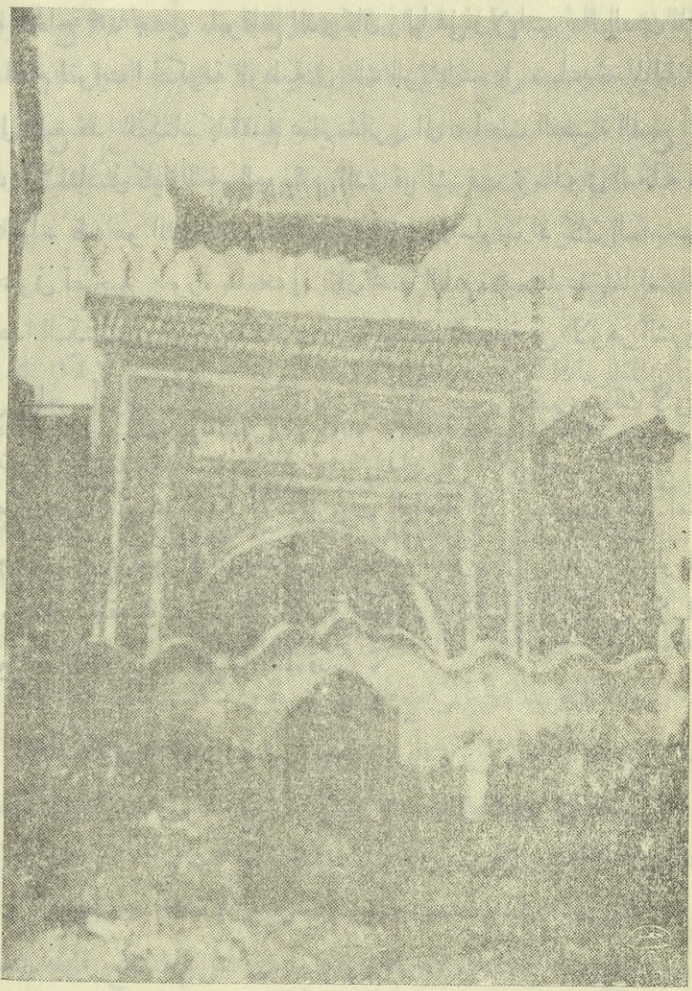
بيد أن المعلومات التي أخذتها من المراجع التي كانت بين يدي لا تكفي لتدوين كتاب في تاريخ الاسلام في الصين ، لأن هناك بعض مسائل تتعلق بتاريخ الاسلام في الصين ، وتحتاج الى تحقيق مفصل وبحث مستقص ، مثل حالة المسلمين في عهد المغول ، والثقافة الاسلامية في عهد (منغ) وثورات المسلمين في تركستان وقانصو وشانسي ويونان في عهد (ماشو) ولكسب المعلومات عن هذه الاحوال والحوادث على التفصيل ريتني في حاجة الى السفر الى ولاية يوننان وإلى إقامة بيكين على الأقل مدة سنة واحدة للتحقيق عن المراجع الصينية في دور الكتيب بتلك العاصمة القديمة وان هذا لم يتيسر لي حتى اليوم ، ومع الشعور بهذه الصعوبات والعقبات رأيت ترتيب بعض ما جمعته من المعلومات عما يتعلق بتاريخ الاسلام في الصين وجعلته كتاباً سميت (العلاقات بين العرب والصين) ورأيت أن أبحث فيه العلاقات بين العرب والصين من شتى نواحيها مع تضمين جزء من تاريخ الاسلام في الصين . ولقد انتهيت من وضع هذا الكتاب في سنة ١٩٤٦ ، غير أنني لم استطع طبعه بسبب الحرب وماجرته من غلاء يعجز عن مقاومته مثلي ، وبسبب غيبتني عن مصر مدة من الزمن في خدمة الصين . فلقد سافرت إلى ايران سنة ١٩٤٣ م ملحقاً بالسفارة الصينية بطهران ثم نقلت الى الهند في نفس الوظيفة حتى أول هذه السنة ولم أعد الى مصر إلا في الربيع المنصرم ، وذلك لطبع هذا الكتاب ، والله الحمد ، قد تم المراد الآن .

ومع تقديم الكتاب الى القراء ، أقدم هنا جزيل شكرى الى صاحب الولاية والقيادة الحاج محمد حسين مابوفانغ الذى كان واليا على ولايات شمال الصين الغربى والقائد العام لقوات الحكومة الوطنية فى تلك الولايات على مساعدته المالية التى يسرت لى طبع هذا الكتاب كما أقدم عظيم شكرى الى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد موسى ، الاستاذ فى كلية اللغة العربية ، الذى قد تشرفت بزمالته فى الكلية مدة دراستى فيها ، فانه هو الذى قد ساعدنى فى تهذيب الاسلوب اذ كان الكتاب فى مسودته، وفى تصحيح صورة خامه ، إذ كان تحت الطبع . فبمسا عدهما استطعت أخراج هذا الكتاب الى الوجود، ذكرى دائمة للبعثات الصينية فى الأزهر الشريف.

وإنى لشاعر بأن فى الكتاب عيوباً من حيث الترتيب والتقسيم، وذلك لانى قد كتبته من تلقاء نفسى ورتبته من حيث فهمت دون أن ألتجأ الى ارشادات كبار المتخصصين ، وما حلتنى على هذا الألا الظروف القاسية التى يستهدف لها أمثالى فلذا أرجو من القراء الكرام أن يغمضوا عن هذه العيوب إلى ما فيه من معلومات جديدة مفيدة ، كمقدمة لتاريخ الاسلام فى الصين . والله أسأل أن يكتب للأسلام والمسلمين نصراً عزيزاً أنه على ما يشاء قدبر .

٢٢ أكتوبر ١٩٥٠

بدر الدين حى الصينى



واجهة امامية
 جامع « تشوان جو » يظهر فيها امتزاج الفن العربي بالصيني

الباب الأول

الصين وعلاقتها بالعرب قبل الاسلام

١ - حالة الصين قبل ظهور الاسلام :

لا شك أن كلامنا سيتناول شتى النواحي من العلاقات بين العرب والصين في عصور الاسلام ، ولكن أشياء وقعت قبل ظهور الاسلام بين الامتين ، يجب علينا أن نلقى نظرة عليها ، تمهيدا للموضوع الذي سنبحثه بالتفصيل ، ولأن بلاد الصين ، وهي عريقة في التدين والحضارة ، ومشهورة بالصناعات الدقيقة ، لا تزال أحوالها القديمة مجهولة لدى الامم الإسلامية والناطقين بالضاد ، أرى مناسبا أن أذكر طرفا من تاريخها القديم إلى ظهور الإسلام إجمالا ، تمهيدا للفائدة وتعريفا بمملكة الصين التي سنتكلم عن علاقتها بالعرب فيما بعد .

من القواعد العامة أن المؤرخين إذا لم يجدوا سبيلا إلى معرفة حقائق الامم القديمة يبدأون تاريخها بالخرافات التي جرت على ألسن الرواة ودونت في كتب القصص بعد اختراع الحروف والطباعة ، ثم زينت بالتأويلات والتفاسير فلذا نرى أن تاريخ العصور الخالية لا ية أمة من الامم ، يقبلها بعض الناس ويردها الآخرون .

وأما تاريخ الصين - كما يقول الباحثون الاخصائيون - فقد بدأ أيضا من الخرافات التي هي أصل التاريخ المدون لجميع الامم القديمة : الشرقية ، والغربية ، البائدة والباقية . لكن الخرافات التي أسس عليها الصينيون تاريخهم القديم ، تسكاد توافق

الواقع ويقبلها العقل ، لأن قادة السياسة في الصين الأقدم ، كما هو شأن المؤسسين الأول لكل شعب ذى سيادة على جزء من الكرة الأرضية تصفهم القصص والروايات بأنهم كانوا حكماء عقلاء ، آراؤهم سديدة وأعمالهم نافذة . فمثلا (فوني Funi) أول من حكم على أرض الصين ، كتب شهرته الخالدة ، باختراع ستة أنواع من الحروف الكتابية ، وبوضع نظام الأوقات وبإيجاد ثمانية رموز ، هى أصل (كتاب التطور Book of Changes)^(١) وبهداية الناس إلى الصيد والقص ، واتخاذ المساكن في الكهوف وبين الصخور . والذي خلفه في السيادة والحكم سماه المؤرخون الصينيون (شينغ لونغ Shing Lung) أى ملك الفلاحين فعلم الناس الحرث والزراعة وإنشاء الأسواق للمعاملات والمبادلات ، وعرف فوائد طبية من الاعشاب والجذور ، فيها شفاء للناس وتخفيف للألام .

ومن العاهلين المشهورين في تاريخ الصين (هو انغ تي Hwang - Ti) الذى جلس على عرش الصين فى سنة ٢٣٢٢ قبل المسيح وهو الذى ينسب إليه صنع السفينة ، واختراع البوصلة وينسب إلى زوجته ، علم تربية ديدان القز وصناعة الحرير والغزل والنسيج .

وبدأ وضع القانون المدنى ، بعهد الامبراطور (ياو Yao) الذى حكم الصين من سنة ٢٠٨٥ الى ٢٠٠٤ قبل الميلاد . انتهى به فصل الخرافات من تاريخ الصين ، وعندئذ أخذ كونفوشيوس (حكيم الصين الأكبر) ، يدون الوقائع التاريخية من هذا العهد . فوصفه بأنه كان عارفا ، عاقلا ، ذا بصيرة مفكرا مدبرا كاملا ، مصلحا عظيما . كان يحكم بالعدل والحكمة ورأى الناس فيه المثل الأعلى للحاكم ، فلذلك كان كونفوشيوس دائما يحن إلى عصر هذا الامبراطور ، حينما يبين ما دخل من الفساد فى نظام البلاد وما انتشر من المظالم فى وقته .

وتولى الأمر بعده الامبراطور (شو نغ Shung) ، الذى ظهر فى زمنه طوفان عظيم غرب كثيرا من المدن المعمورة والأرض المزروعة . فأمر (يو Yu) أحد المرظفين

(١) أقدم كتاب باللغة الصينية يبحث فى دوران الافلاك وتقلب الدهور .

الكبار في الحكومة ، أن يرد الماء الفائض الى مجراه بفتح القنوات وحفر الترع ؛
قم ذلك في تسع سنين ، فكان جزاؤه على هذه الخدمة الجليلة ، أن خلف
الامبراطور (شونغ) على عرش الصين بعد وفاة صاحبه فسمى أسرته (هيا Hsia)
ابتداً حكمها من ٤١٩ ق م فقسم مملكته الى تسع ولايات . وظل هذا التقسيم
باقيا حتى عهد المغول في القرن الثالث عشر للميلاد . فمتابع ستة عشر امبراطورا
من هذه الأسرة ، الواحد تلو الآخر ، حتى انقرضت حكمهم في سنة ١٦٨٧ ق م
بسبب الثورة التي قام بها (نانغ) على (شيك كوي) ، آخر ملوك هيا . لانه لم
يكن صالحا للحكومة ؛ فأنزله عن العرش وتولى هو زمامها .

وأما أسرتنا (شانغ) و (اينغ) فلم تكونا . إلا تجديدا لاسرة هيا البائدة ؛ لأن
أسرة (نانغ) ، قد انتهت حكمها على يد الملك الثامن والمشرين من ملوكها ، والحقيقة أن
أولاده لم يكونوا صالحين للامارة والسيادة ، سوى اثنين منهم وأما الباقون فكانوا
من الفاسدين المفسدين ؛ لأنهم قد استغرقوا في الشهوات الذاتية والمظالم الوحشية ،
وفي سلب حقوق الناس والإسراف في سفك الدماء . فكان الأمن في عهدهم غير
موجود في البلاد والنظام معدوما بين العباد ، وكان السكان كبيرهم وصغيرهم
تحت رحمة قطاع الطريق والاشرار والناهبين . فكانت النتيجة أن فنيت هذه
الأسرة على يد تائر يسمى (شوسين Chow Sen) .

كان شوسين في رتبة أمير البحر ، وبعد ثورة ناجحة ، قبض على زمام الحكومة
ونادى بسيادته على البلاد ، ونصب نفسه امبراطورا . وكان جلوسه على العرش
وفق رغبة الشعب ورضاه .

وأما نظام الحكومة الذي وضعه للبلاد ، فقد نال المدح والثناء من جميع
المؤرخين الصينيين حتى من الحكيم كونفوشيوس ، وقد قيل أن عصره كان
عصر القوة والرفاهية ، وجاءه السفراء من كوريا ومن آنام .

أخذت هذه الأسرة تضعف وتضمحل رويدا رويدا ، كما هي الحال لكل
دولة من الدول التي لا بد أن يأتي عليها دور من الضعف بعد دور من القوة

والقوة ، واشتد ضعفها في عهد الإمبراطور (مو وانغ Mo Wang) ١٠٠١ - ٩٤٨ ق م. وهو أول من خلص أصحاب الجنايات الكبيرة من الاعدام ، وأحل محله الغرم المادى فكان لذلك أثر سيء في أخلاق الناس وكثير المجرمون وانتشرت الفوضى في الدولة . فكانت حالة البلاد تستدعى استعمال القوة للقضاء على هذه الفوضى وإحلال النظام محلها .

ذهبت هيبة الحكومة . فوجد الفاسدون ميدانا فسيحا للفساد وقاب النظام ، كان هذا هو الوقت الذى ولد فيه حكيم الصين كونفوشيوس فوجد أن الدولة القائمة قد أحاط بها النفاق والخيانة ، والناس خائضون في الفتنة والفساد ، فكان الأمراء لا يعرفون شيئا غير النزاع والصراع فأصبح الشعب بين الماء والنار . فرأى من واجباته أن يقود الناس والأمراء بأفكاره وتعاليمه إلى الحالة المطمئنة التى كانت سائدة في أرض الصين في عصر الإمبراطور (ياو Yao) .

لم يدع كونفوشيوس أنه نبي أو رسول من خالق السموات والأرض وما بينهما وعلى الرغم من ذلك فقد عاش غير معترف به وبتعاليمه من معاصريه ، ولم يقدره حق قدره غير الأجيال التالية فقد قبلت تعاليمه واعتقدت بأنه أكبر معلم ظهر في أرضهم ، وأنه جاء بمبادئ سامية إنسانية خالدة ، فظلت تعاليمه منذ ٢٣ قرنا هداية للشعب الصينى الذى سار على مبادئه الخلقية وأصوله التعاونية حتى هذه الأيام .

كان كونفوشيوس يتألم تألما بالغا من حالة الظلم والفوضى في زمانه . ومن القصص المشهورة في الأدب الصينى أنه رأى ذات يوم امرأة تبكى بكاء مرأ ؛ فتعجب من أمرها . وبعث واحدا من تلاميذه ، يسأل عن سبب بكائها ، فقال التلميذ : إنى أراك حزينة فما السبب ؟ قالت : كان لى أب قد افترسته الوحوش ، وكان لى بعل لقي حتفه من الوحوش . وكان لى ابن ، فلم ينبج من افراس الوحوش ...

قال : فما المانع إذن من انتقالك من هنا إلى مكان آخر تأمنين فيه الوحوش المفترسة .

قالت : لأنى لا أجد هنا حكومة ظالمة . !
فالتفت كونفوشيوس إلى تلاميذه قائلا : اسمعوا ، إن الانسان يستطيع الصبر
على الوحوش المفترسة ، ولا يستطيع الصبر على الحكومة الظالمة ، فانها أشد فتكا
بحياته من الوحوش .

لم ينفخ الأمراء الظالمين ، انذار كونفوشيوس ولا نداء (لوتش - Tze = Lao)
بل انغمسوا فى الفتنة ، والفساد ، حتى قام كل واحد من الرؤساء الصغار يطالبه
باستقلال المدينة التى كان حاكما عليها ، وبجارب أخاه إذا لم يرض بما يطلب .
فكثرت الحروب وانتشرت الأمراض فى العادات والأخلاق حتى ضاقت الناس
بالحياة . وبقيت الصين فى هذه الحالة مدة طويلة الى أن ظهر (جتشى واتى
Chen - Shih - Wanti) وحارب جميع الأمراء الصغار وأزال دولهم فوحد جميع
الولايات تحت لواء أسرته ، ثم شيدسورا كبيرا بشمال الصين يحول دون هجوم التتار
على غرة . ثم فطن إلى أنه لا يأمن من الثورة العسكرية والسياسية ، أن ترك كلام
السياسيين والمجادلين باقيا فى خزانة السكتب وبيوت العلماء ، يستنير به كل باحث
فى تكوين أفكاره وآرائه ؛ فلذا عمد إلى إحراق جميع السكتب على اختلاف أنواعها
إلا ما يتعلق بالزراعة والطب ، لأنه رأى فى تلك السكتب مصدر الثورة وينبوع
العصيان . فأمن البلاد بسيف مسلول وقوة قهارة . ولقد أكمل هذا العاهل بعض
الإصلاحات للصين بأوامر قاسية وسد غارات التتار بتشبيد السور العظيم بشمال
الصين الغربى ، الذى فنى فى بنائه آلاف من الأرواح البريئة والنفوس الزكية تحت
سوط هذا الجبار فلما مات سنة ٢١٠ ق م ، شلت أعضاء دولته وسقطت على أثر
الثورة التى قام بها (هانكاوتسو Han Kaotzu) . ومات ابنه الصغير قتيلا
فى القصر ، فأُسست دولة هان .

أسرة هانكاوتسو

وأما (هانكاوتسو) أول عاهل فى هذه الأسرة العظيمة ، بعد رد
نظام البلاد إلى نصابه إذ أنه فكر قبل كل شىء فى تحديد الحياة العلمية فى أرض

للصين؛ فأمر بالبحث، عن النسخ الضالّة من الكتّاب في الكهوف والمغارات،
ومن تحت الرّماح ومظلات السقوف، ومن أجواف الأشجار والأكواخ في
الجبّال. فجمع تاريخ الصين في أيامها الخالية من صدور المسنين المعمرين ومن الروايات
السائرة. فأحيا العالم بهذه الطريقة وصانته من الفناء. وكان عهده عهدا ذا مجد
وعظمة في تاريخ الصين.

لقد ارتقى (هان كاوتسو) عرش الصين في سنة ٢٠٦ ق م واستمر أولاده
في الحكم إلى ٢٢٠ بعد الميلاد وكانت له اليد البيضاء في إحياء الكتّاب المملية
القديمة التي كادت تفتى من الوجود بسبب السياسة القاسية التي اتبعها (جنشى وانتي)
في طول البلاد وعرضها. وانك لا تستطيع تقدير خدمته للعلوم، إلا إذا علمت
عدد الكتّاب التي قد جمعها في الخزّانة. يقول تاريخ الصين إن دار الكتّاب
الإمبراطورية التي أسسها (هانكاوتسو) كانت تحوى قبل الميلاد ٣١٢٢ نسخة من
الكتّاب الكلاسيكية و ٢٧٠٥ نسخة من الكتّاب الفلسفية و ١٣٨٣ في الشعر.

لم يكن عهده عهدا للهضة الأدبية فقط، بل للهضة السياسية أيضا فقد كانت
مشهوريا وبوتنان وآثام غير خاضعة لسلطة الصين، فخضعت لها في القرن الثاني
قبل الميلاد. وذلك أن (ووتى Wuti) العامل الخامس من هذه الأسرة،
قد بعث سفيرا كبيرا معروفا باسم (جانغ جيانغ Chang Chieng) إلى البلاد
الغربية التي كانت تطلق في اصطلاحات جغرافيا الصين القديمة، على بلاد التتار
وإيران والهند لإيجاد العلاقة الودية والتجارية وسنّين نتائج هذه السفارة فيما
بعد إن شاء الله. وإنما الكلمة التي أحب أن أضيفها هنا، هي دخول الديانة
البوذية إلى الصين. وكان ذلك في عهد (منغ تي Ming Ti ٥٨ - ٧٦ م).
ومن الروايات المشهورة في تاريخ الصين أنه رأى مرة في منامه، تمثال الذهبيا
يسطع نوره إلى قلبه. فعبّر عن أن هذا التمثال يدل على ظهور مصلح عظيم
في بلاد الهند. فبعث رسولا خاصا إليها باحثا عن هذا المصلح. فلم يجده حيا. غير
أنه عاد ببعض التماثيل التي قد صنعها أيدي المعتقدين لبوذها، تقربا وعبادة،

وبعض الكتب السنسكريتية التي حفظت فيها تعاليم البوذا أو الآقوال التي نسبت إليه .

عند ابتداء القرن الثالث للميلاد، ظهرت آثار الضعف في دوله (هان) وأخذت في الازدياد على مر الايام حتى ثار قائد على الامبراطور (يانغ تي Yang Ti ١٩٠ - ٢٢١ م) فسلب منه زمام الحكومه . وبعدئذ كانت الحروب الدامية تستمر في الصين بين المتنازعين على السالطة والمنافسين على الحكم . وأخيرا غلبت أسرة (شى جن Shee Chen) على جميع المنافسين في سنة ٢٦٥ م . وهو العصر الذي سافر فيه (فاهيانغ Fa Hsien) السائح الصينى الشهير الى الهند لي شاهد عجائبها وغرائبها . فحذا حدوه (يوان تسوانغ Yuan Tzuan) الذى يستند اليه الآن جميع المؤرخين في أبحاثهم عن آسيا الوسطى للعصور التي بين القرن الثالث والسادس للميلاد .

من رماد هذه الأسرة التي انقرضت في أوائل القرن السادس للميلاد، ظهرت أسرة (تانغ Tang) التي بسطت نفوذها على البلاد بالقوة أولا، ثم استحكمت أركانها بالحكمة وبظهور هذه الأسرة على مسرح سياسة الصين الامبراطورية، ابتدأ عصر جديد في تاريخها .

فقد دخل الاسلام الصين في عهد هذه الأسرة، بعد النسطورية والمناوية بقليل من الزمان .

٢ - علاقة الصين بغرب آسيا وبلاد العرب قبل الاسلام :

لقد تكلمنا إجمالاً عن حالة الصين قبل الاسلام ووصلنا إلى نقطة، منها نستطيع الدخول في البحث عن تاريخ الاسلام في الصين والنظر إلى طريق دخوله . هل دخلها برا عن بلاد تركستان وما وراء النهر، أو بحرا عن سواحل الهند وجزائر

جاوة وفي أية سنة؟ لكنني لا أحب أن أدخل في صميم هذا الموضوع الآن، لأن تاريخ الاسلام في الصين، من المسائل العلمية التي لا يستطيع باحث تجليلها، إلا بعد تحقيق علاقات العرب بالصين، مباشرة كانت أو غير مباشرة. وللوصول إلى حل صحيح لهذه المشكلة التاريخية التي اختلف فيها الكتاب المسيحيون، ولا تزال مجهولة عند علماء المسلمين، أرى من الضرورة أن نبحث أولاً عن علاقات العرب بالصين ثم نبحث عن تاريخ الاسلام في الصين. وذلك يحتاج إلى كتاب على حدة واستقلال وأما هنا فباحثنا مقصورة على موضوع العلاقات المختلفة التي تحتاج إلى كتاب مستقل أيضاً

وسترى فيما بعد أن علاقة الصين بالعرب لم تكن وليدة لعصر الاسلام، بل ابتدأت قبل الاسلام بقرون. غاية الأمر أن عراها لم تكن أو ثقت كما في زمن الاسلام. لكن العلاقة كانت موجودة على طريقة غير مباشرة أولاً، ثم تطورت إلى علاقة مباشرة عندما قرب ظهور الاسلام. والتاريخ على هذا شاهد.

ولمعرفة متى اتصل بالصين وكيف، يجب علينا أن ننظر إلى الوراثة بقرن على الأقل قبل الميلاد وكان ذلك هو الوقت الذي نرى فيه على ضوء الوقائع التاريخية أن التجارة قد فتحت أبوابها بين بلاد الصين والبلاد التي تقع غربها، وأن طرق القوافل قد سهلت إلى حد كبير بآسيا الوسطى وفي بيان هذه النقطة، لا أريد على كل حال، أن أستشهد بتلك الأقوال التي ذكرت في حياة (موتيان تز Mo Tientze) فقد قيل أن موتيان تز، وهو أمير من أسرة (تشو Chow) الشهيرة قد حكم قسماً من أرض الصين من ١٠٠١ إلى ٩٥١ ق م.

لقد ذكر مؤلف هذا الكتاب القديم الذي يرجع تاريخ كتابته إلى سنة ٢٢٨١ مسيحية هذا الأمير الجري، على جواده إلى البلاد الغربية، وحتى وصل إلى سواحل بحر الخزر. ثم رجع إلى عاصمته بقرب (سى آن) الحاضرة.

ليس من همي أن أصدق أو أكذب هذا الواقع لأن المحققين البارزين يعرفون كيف يقولون كلمتهم في مثل هذا الواقع التاريخي المشكوك في صحته،

غير أنتى أجد فى كتاب (شانهاى جن) أى كتاب الجبال والأنهار ، وهو من مؤلفات أواخر عهد (تشو) ، وفى (التذكرة التاريخية) التى دونها (ليوبوى Lui Puwei) وزير الامبراطور (جنشى واتى) فى سنة ٢٥٠ ق م وبحث مفصل عن الاحوال التجارية بغرب الصين وعن البضائع التى كانت توجد بأسواقها .

بيد أنتى أرى أن هذين الكتابين على كل حال ، لم يخبرانا بشىء عما وراء تيان شان (جبل السماء) أو عما وراء جبال (كونلون) بآسيا الوسطى . ومع ذلك نستطيع أن نقول أن لهذه الأقوال جانباً من الأهمية فى الاستشهاد للصينيين على أنهم قد عرفوا بعض البلاد بآسيا الوسطى قبل الميلاد .

لكن لا يصح لنا أن نستشهد بها على الاتصال التجارى بين الصين ويران ، أو بين الصين والامبراطورية الشرقية ، وذلك كما اعتقد ، قد وقع متأخراً على الأقل بقرن أو أكثر من قرن .

فالروايات الوثيقة المدونة فى تاريخ الصين القديم ، والتى تستطيع أن تهدينا إلى معرفة شىء عن ابتداء الرابطة التجارية بين الصين والبلاد الغربية فى قارة آسيا ، نقول أن الامبراطور (ووتى) الذى قد سبق ذكره بعث فى سنة ١٢٢ ق م واحداً من أمراءه العظام ، معروفاً باسم (جانغ جيانغ) سفيراً له ، الى الممالك الوسطى والقصى لإيجاد رابطة ودية مع قبائل التتار الذين كانوا يقاجثون الصين ويهددون حدودها بين حين وآخر وينهبون مدينها المجاورة لأوطانهم .

وقد ورد فى (تونغ جيان) أى تاريخ الصين العام فى جزئه السادس عشر ، أن (جانغ جيانغ) السفير ، قد زار فى أثناء سفره ، ستاً وثلاثين ملكة صغيرة كانت أو كبيرة ، منها بلاد ايلي ، والصغد ، والختن ، وخيوا ، ويران ، والهند (أى شمال الهند) .

وبما لا شك فيه أن سفارة (جانغ جيانغ) إلى هذه الممالك ، قد فتحت باباً جديداً للسفر برا من الصين إلى غرب آسيا عن طريق بلاد التتار أو تركستان

وكانت نتيجةها أن اتصلت الصين بإيران بطريق البر مباشرة وبالعراق والقسطنطينية بواسطة إيران .

ومن ذلك الحين كانت القوافل التجارية تسيير غربا من الصين وشرقا من العراق وإيران والبلاد الأخرى بغرب آسيا ، فتبادلوا البضائع في الصغد .
ولقد دون تاريخ الصين حركات هذه القوافل تحت عنوان « تجار جاؤا من البلاد الغربية » ، والمراد من (البلاد الغربية) في تاريخ الصين القديم ، هو البلاد التي وقعت فيما وراء حدود الصين الغربية من كاشغر إلى البحر الأسود بما بينهما من البلاد والممالك ، منها بخارى ، وخبوا ، والعراق ، وأرمينيا وجميع الممالك الساسانية .

وأغلب الظن أن العلاقة التجارية بين هذه البلاد والصين قد بدأت في زمان قبل عصر (جانغ جيانغ) على طريق غير منظم . غير أننا لا نستطيع اثباتها بدليل قاطع ، أو تحديد وقتها بسنة معينة ، وذلك لعدم الشهادات التاريخية الصحيحة . وأما سفارة (جانغ جيانغ) فهي من الوقائع التاريخية ، التي لا تقبل الشك في العلاقة التجارية بين الصين وجاراتها القريبة والبعيدة مثل سمرقند ، وبخارى ، وخبوا ، والعراق بعد مدة قصيرة نحو ثلاثين سنة ، من هذا الواقع التاريخي قطعت شوطا كبيرا . حتى (شى ما جيساى Shih Ma-Chien) أكبر مؤرخى الصين في ذلك العهد ، وله مكانة بين المؤرخين الصينيين مثل ابن خلدون بين مؤرخى العرب لم يستطع أن يغفل ذكر هذه الأحرار التجارية في كتابه الخالد المسجوب (شى جيه Shih-Chih) أى الأخبار التاريخية ، الذى قد تم تدوينه في سنة ٨٨ . فخصص فصلا فيه لأحوال بلاد (داوان Dawan) اسم قديم للبلاد التي كانت تمتد من الصغد إلى خبوا . ومن الأمور المدكورة في كتابه « البضائع الواردة من بلاد داوان إلى الصين ، ومن هذه البضائع الخيول التي كان ملوك الصين يقدرونها أكثر من غيرها .

ومن المعلوم ، من الناحية التاريخية ، أن أواسط آسيا لم تكن بلادا تعرف أصيل خيولها . فتميل إلى الاعتقاد بأن تجار (داوان) وكانوا يترددون شرقا وغربا ،

قد استوردوا الخيول الجيدة من شرق الغرب بقرب حدود العراق الحاضرة أولاً الى خيوا، ثم الى الصغد. ثم أخذها تجار الصين من الصغد الى سى آن، عاصمة الصين الاقدم.

ويثبت في تاريخ الصين، أن القوافل التجارية لم تقف بمعاملتها في الصغد أو سمرقند بنصف الطريق الى الصين، بل كانت لهم رحلة سنوية منظمة الى عواصمها. ولقد أشار مؤرخ الصين (شى ما جيان) في الفصل نفسه، الى زيارات القوافل التجارية لقاعدة الامبراطورية الصينية قائلًا أن التجار من البلاد الغربية، يردون سنويًا، في جماعة يكون عددها في بعض الاحيان زائداً عن المائة، وفي أحيان أخرى، أقل من ذلك، وقد يكون في عشرات فقط، وقد يكون في بضعة مئات و (البلاد الغربية) ولو أن المراد بها في تاريخ الصين القديم غير واضح، تشمل على أغلب الظن بلاد العراق وأرمينيا، والشام. فمن المحتمل إذن أن تجار العراق أو الشام قد زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التي كانت تتردد إلى (سى آن) بين حين وآخر.

ومن كثرة تردد قوافل التجار إلى الصين برأ، فتح الطريقان المنظمين على ظهر الجبال بآسيا الوسطى، ترتبط بهما عواصم الصين بعواصم البلاد المجاورة لها ويعرف أحد الطريقين في الكتب الجغرافية باسم (نان لو) أي الطريق الجنوبي والآخر باسم (بيلو) أي الطريق الشمالي. وكانت المحطة الابتدائية لكل واحدة منهما هي مدينة (سى آن)، والمحطة النهائية هي مدينة خيوا، عاصمة الدولة الساسانية. وقد اشترك هذان الطريقان في محطات (لان شو Chow - Lan) ولوينور إلى تسيمو (Tsie Mo) حيث يمتزقان، أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب وبينهما صحراء (غوبي) و (تيان شان) أي جبل السماء. فالطريق الجنوبي يمر بجنوبي نهر طارم، إلى ختن ويارقند حيث يصعد إلى سقف العالم وهو بامير، ثم ينزل عن غرب نهر جيحون إلى خيوا، أو عن جنوب هذا النهر ذاهباً إلى نهر أندوس، والمياه الخمس (بنجاب) بشمال الهند. وأما بيلو أو الطريق

الشمالي ، فيمر بشمال نهر طارم عن طرفان وكشار وأقصور إلى كاشغر ثم يمر بمضيق تيراك إلى سيحون وسمرقند حيث يوجد طريقان ، أحدهما يذهب بصاحبه جنوبا إلى خيوا ، والآخر يعطف ناحية الجنوب الغربية ، إلى مرو ، عاصمة خراسان . وكان هذان الطريقان قد أصلحا إلى حد كبير بأمر القائد الصيني المعروف باسم بان جو (Pan Chao) الذي قاد جيشا جرارا إل قتال التتار الذين لا يزالون يغيرون على حدود الصين الشمالية الغربية . فهن مهم شرمهزيمة حتى فتح حصونهم المنبجعة التي منها ختن وكاشغر في سنة ٩٤ م .

وهذه الوثائق التاريخية التي انفق جميع المؤرخين على صحتها ، تشهد من ناحية بأن الصين قد ربطت برا في أوائل القرن الثاني من الميلاد مباشرة بالبلاد التي بغربي آسيا . خصوصا إيران ، وتخرنا من ناحية أخرى عن علاقة الصين بالامبراطورية الشرقية علاقة غير مباشرة . ويؤكد هذا القول مؤرخ روماني كبير بتصديقه سفر (ماركس أورليوس أنتونيوس Marcus Aurelius Antonius) من قبل امبراطور الروم الشرقي إلى الصين في سنة ١٦٦ م (١) . ثم أن الأستاذ جيبون ، مؤلف (انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها قد ذكر أيضا أن التجار الرومانيين الذين اختلفوا إلى أسواق الشام وأرمينيا ونصيبين ، كانوا يتبادلون بضائعهم بالبضائع الصينية بوساطة الايرانيين من حين إلى آخر . وفي زمان بعد ذلك ، عند ما شعروا بمظالم الايرانيين وعدم انصافهم في المعاملات ، جهدوا في تخلصهم من هذه الذلة ، فمجدوا في انشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا في القرن الثاني من الميلاد .

وأما الأستاذ هيرت مؤلف ، الصين والرومان الشرقية ، فقد صدق هذا القول غير أنه يشك في كون ماركس أنتونيوس مبعوثا من قبل الامبراطور . بل هو يعتقد أن ماركس هذا ، قد أوفده التجار الرومانيون الى الصين فسافر اليها بحرا وكانت سفارته اذن غير سفارة رسمية ، بل سفارة خصوصية لمهمة تجارية . ومهما

(1) Chao Ju-Kua: P. 5.

يكن من أمر ، فان سفر ماركس أنتونيوس ثابت في التاريخ ومتأكد من قبل المؤرخين الرومانين أنفسهم . وبعد هذا نستطيع أن نفهم من كلمة الأستاذ هيرت ، أن العلاقة التجارية بين الروم الشرقية والصين كانت موجودة ثم انقطعت . فذهاب ماركس الى الصين لم يكن إلا تجديدا للعلاقة التجارية القديمة (١) .

ومن رأيه أن التجارة بين الروم والصين كانت عن بلاد الشام والموانئ التي بسواحل مصر . وأن النيل كان معروفا عند الصينيين . فاستشهد من المصادر الصينية التي ترجع إلى القرن الثالث من الميلاد . وأقواله هذه ، تؤكد ما قلناه عن علاقة الصين بالعرب علاقة غير مباشرة في القرن الثاني من الميلاد ، إذ كانت بلاد الشام تحت سيطرة الروم الشرقي على أنها جزء منه لا تنفك عنه .

وأما أمبراطورية الرومان الشرقية فقد ذكرها فقد تاربخ الصين تحت اسم (Tansin) وهذا الاسم بطبيعة الحال كان شاملا للممالك التي كانت تحت الروم بسواحل البحر الأبيض مثل الشام وفلسطين ومصر . وما يلي هو نص ورد في (وى ليو Wei-Lui ص ٧) ، كتاب قديم باللغة الصينية ، كتب في القرن الثالث من الميلاد .

وأن هذه البلاد واقعة على غرب البحر فلذا تسمى ببلاد ، هاى سى ، أى بلاد غرب البحر ومنها يخرج نهر يصب في بحر عظيم ... ويقول الأستاذ هيرت ، أن هذا النص تعريف تام لبلاد مصر . لأن البحر الأول الذي يقع غربيه مصر هو البحر الأحمر ، والنهر المشار اليه هو نهر النيل . وأما البحر العظيم الذي يسقط فيه هذا النهر فهو البحر الأبيض . وأضاف الى ذلك قائلا أن في بلاد ، غرب البحر ، مدينة يقال لها ، كسند ، محرفة عن اسكندرية ، كما يظهر ذلك من تقارب حروفها ووضعها الجغرافي المحدد في ذلك المصدر (٢)

(1) Hirth: China and Roman Orient. P. 175.

(2) Hirth: China and Roman Orient. PP. 180-181

وقال في مواضع عديدة أخرى ، أن بلاد الشام كانت مركز التجارة ، لأنها وقعت في موقع مركزي بين المدن المتفرقة في آسيا الصغرى وقبرص ومصر وآرمينيا ومدین وبابل ، ولأنها قد تملكك من زمان بعيد ، جميع الوسائل التي تمكنها من احتكار تجارة اليراقيت على اختلاف أنواعها والزمرد وعيون الهرة واليصب وفرخ جمر واللازود والعقيق وغيرها من الأحجار الكريمة .

ومن المدن التي كانت البضائع تصدر منها إلى الصين عن طريق البحر الأحمر ، مدينة أسكندرية ، فانها قد ورثت عظمتها التجارية من الشاميين والفنيين ، إذ كانت تحت سيطرة امبراطورية الروم الشرقية فأصبحت بلا نزاع مدينة الصناعة والحرفة ، وكانت صناعة الزجاج بمدينة الأسكندرية مشهورة في العالم والمصانع التي قد فتحت لتركيب الأحجار الكريمة وصقلها وتجميلها ونظمتها ، كانت بلا شك من مفاخر امبراطورية الروم . وقد أخبرنا الاستاذ هيرت أن من بين البضائع التي كانت تصدر من الروم الشرقي إلى الصين ، الذهب والفضة والعنبر والعقيق واللؤلؤ والمرجان ثم المنسوجات القطنية المصنوعة بالولايات الشرقية من امبراطورية الروم : والاستاذ هيرت يعيل إلى الاعتقاد بأن أغلب الجواهر والأحجار الكريمة التي كانت تصدر من الروم الشرقي إلى الصين ، ليس من صناعات الامبراطورية الشرقية نفسها بل من منتجات مصانع الجواهر ومصاقلها بالأسكندرية (١) .

يرى هذا لمؤرخ الرومان أن أغلب البضائع التي كان تجار الروم يأخذونها من تجار الصين ، لا يحتاجون إلى دفع ثمنها بالنقد ، بل يبادلونها بالبضائع الأخرى التي من خاصة منتجات الروم . فالزجاج والمفارش والبطانيات والمزركشات والمطرزات والمنسوجات المذهبات والأحجار الكريمة كانت من بين هذه البضائع المتبادلة . فكان التاجر الصيني يستطيع أن يحمل هذه الأشياء من الشام ، مع أشياء أخرى من أنواع الأدوية وأعواد الطيب ، يأخذها بالطريق وقت عودته (٢)

(1) Hirth: China and Roman Orient. P. 245.

(2) Hirth: China and Roman Orient, P. 228.

وقد علمنا من المصادر الرومانية، أن طريق البحر بين سواحل البحر الأبيض وخليج فارس كان مفتوحاً من زمان بعيد قبل الميلاد وكان ذلك عن البحر الأحمر كما أشرت إليه من قبل . فالمدينة التي لعبت دوراً هاماً في العلاقة التجارية بين مصر والهند والصين في القرون الأولى للميلاد هي مدينة عدن على ساحل البحر الأحمر بجنوب جزيرة العرب حينما كانت إيران تتوسط في هذه التجارة حتى أيام جوستيانيان (١) .

كان للتجار الذين جاؤا من سواحل البحر الأبيض الى خليج فارس، طرق عجيبة في كسب الاموال وتحصيل المنافع . وكان - كما أخبرنا الاسناذ هيرت - البحارون الذين جاؤا بالمراكب التجارية الى خليج فارس قد حذوا حذو أسلافهم الفنيقيين في معاملة التجارة من حيث أنهم لا يساعدون أحداً من جمع الأخبار عن أحوال التجارة بسواحل البحر الأبيض يخافون، أو يمنعون المنافسة في التجارة، وربما كانت هذه المنافسة سيئاً قاضياً على احتكارهم في بعض البضائع الخاصة . وكان بحاروا المراكب يكتفون كتباً تاماً حقيقة التجارة في أسواق الشام ومصر لانهم كانوا يشتغلون بنقل البضائع الصينية من حدود إيران الى أسواق الشام في السفن التي يملكها الهوريون . فالاخبار عن التجارة في البحر الأبيض مقصورة عليهم دون غيرهم . فلذلك وجدنا أنهم قد اجتهدوا وسع طاقتهم ، في الامتناع عن اطلاع غيرهم من الذين لهم اتصال بتجار الصين بخليج فارس أو بسواحل الهند من الإيرانيين وغيرهم ، عن الاحوال التجارية وحقيقة الاسواق بسواحل البحر الأبيض ، خوفاً من اذاعة حقيقة قيمة الحرير بالصين ، أو من تعرف الاثمان الاصلية لمصنوعات الزجاج والجواهر بالشام . فجلب المحتكرون السوريون بهذا السكتان ، نفعا بالغا في الاتجار بهذه البضائع الخاصة ، وكانت الارباح تبلغ مائة في المائة في معظم الاحايين (٢) .

(1) Chao Ju-Kua: P. 3.

(2) Hirth: China and Roman Orient, P, 168

ولا ريب في أن السوريين كان لهم باع طويل في التجارة البحرية مع تجار الصين والهند واكتسبوا فيها من ناحيتين . ناحية التصدير وناحية التوريد . لانهم كانوا يبيعون صادراتهم في خليج فارس أو عدن الى تجار الصين وهم لا يعرفون قيمتها الاصلية ، بتم مضعف . ثم ضاعفوا قيمة الواردات في أسواق الشام لجهل أهلها بأصل الثمن ومن المعلوم أن أهم الواردات من الصين في ذلك الوقت كانت الحرير على اختلاف أنواعه وقيل أنهم باعوه في أسواق الشام بالذهب على قاعدة الوزن بالوزن^(١) . وسواء أكان هذا القول صحيحا أو غير صحيح ، لا نستطيع ان ننكر أن هذه البضائع كانت غالية جدا في أسواق امبراطورية الروم فلم يقدر على شرائها والتمتع بها إلا الامراء والاغنياء ولا نستطيع أن ننكر أيضا أن أغنياء الروم الشرقي ، كانوا ينفقون مبالغاً عظيماً من أموالهم في اقتناء هذه البضاعة النفيسة التي لم يتمهر في صناعتها إلا الصينيون فقط .

وأما سفر ماركس أتونيوس ، فقد انفق المصدران الصيني والروماني ، على أنه قد تم ذلك بطريق البحر ومن المعلوم أن طريق البحر بين قسطنطينية وموانئ الصين لا تكون الا عن سواحل الشام والفرات ، أو البحر الاحمر ، ثم خليج فارس وملابار وسرنديب ، وسماطرة ، ومالاکا ، وتونكين ، ومن ثم الى أقرب المرافئ بجنوبي الصين وإذا سئل متى بدأت المواصلات البحرية بين الصين وغيرها من البلاد التي بسواحل المحيط الهندي والبحر الأبيض ، ولا نستطيع ان نحدد تاريخها ، الا أن (جويوكوا Chao Ju Kua) قد ذكر في كتابه (جوفان جي) وأى تذكرة عن الأمم الأجنبية ، أن جماعة من الأجانب قد وصلوا مع أتونيوس ، بحرا الى تونكين . ومن ثم سافروا برا الى عاصمة الامبراطور (يوان تي Ynan Tí) . ثم جاء في سنة ٢٢٦ م ، الى الصين تاجر آخر من الامبراطورية الرومانية . فوصل الى تونكين أولا . ثم بعث برا الى عاصمة الصين في عهد الامبراطور (سيون جيون^(٢)) .

(1) Hirth : China and Roman Orient. P, 225.

(2) Choa Ju Kua : P. 5.

ونظرا الى ما جاء في تذكرة عن الأمم الاجنبية ، مؤلفة (جويوكوا) الذى اتفق بالمصادفة ، مع ما ورد في كتاب الاستاذ هيرت ، وهو من ثقات التاريخ الرومانى عن سفر ماركس أنتونيوس بحرا الى الصين ، وكان ذلك فى سنة ١٦٦ م ، نستطيع أن نقول أن طريق البحر قد نظم على الأقل فى القرن الأول من الميلاد حتى استطاع ماركس أنتونيوس ان يصل الى الصين آمانا فى وقته .

ولقد علمنا طرفا من الحركات البحرية بين البحر الأبيض وخليج فارس وكان ذلك بفضل التجار السوريين الذين كانوا يشتغلون فى التجارة مع تجار الصين فى خليج فارس والبحر الأحمر . لكن من الذين يمكن أن يرجع اليهم فضل كشف الطريق البحرى بين موانئ الصين وخليج فارس هل كانوا رومانين ، أو صينيين ، أو غيرهم من الأمم ، أما التاريخ فيشهد من ناحية بوجود التجار الصينيين بسواحل ايران والهند قبيل الميلاد ، ومن ناحية أخرى يدل على علم الرومانين بهذا الطريق فى الوقت نفسه . ولو لم يعرفوا ذلك لما ركب البحر رجل رومانى مثل ماركس أنتونيوس الى الصين فى منتصف القرن الثانى للميلاد . فى هذه النقطة ننظر الى رأى مؤرخ آخر ، لا هو صينى ولا هو رومانى . ذلك هو الاستاذ هادى حسن الذى له بحث مفصل فى هذا الصدد . فيجب علينا أن نأخذ رأيه السديد . قال فى كتابه « تاريخ الملاحة الايرانية ، أن الطريق البحرى الى الصين لم يكن على أية حالة من الاحوال ، من اكتشافات الرومانين ، لأن جنود الصين قد وردت إلى سواحل ملابار فى القرن الثانى قبل الميلاد ومن المحتمل أن (جاءت فى زمن قبل هذا القرن . لكن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين بل متخللة بالفترات (١) . لقد أشار الاستاذ جيبون مؤلف انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها ، إلى هذه النقطة أيضا حينما تكلم عن طريق البر والبحر الى الصين . فأن قوافل تجار الحرير الذين خافوا من غارات التتار ونهبهم لاموالهم ، أو من سوء

(1) Hadi Hasan : History of the Persian Navigation. P. 54.

معاملة التجار الإيرانيين لهم ، بحثوا طريقا آخر إلى الاجتماع مع التجار الصينيين بسواحل الهند . فاختروا أن يشقوا طريقا في جبال التبت ونزلوا عن طريق الكنجج أو نهر الاندس ، إلى موانئ كجرات وملابار وانتظروا هناك وصول مراكب التجارة من الصين في مواسمها بفارغ الصبر (١) .

كان الاستاذ جييون ، ولو أنه لم يعتقد بسفر الصينيين إلى خليج فارس في القرون الأولى للميلاد ، اضطر إلى الاعتراف بأن تجار الحرير الصينيين الذين قد جمعوا في أسفارهم البحرية إلى جزيرة (تيرنك مال Trianque Mai) بضائع شتى مثل الصبر والقرنفل والنارجيل وأعواد الطيب ، نالوا قسما عظيما من التجارة مع أهل خليج فارس . .

وكان السبب الذي يدعو الرومانيين إلى التفكير في إيجاد علاقة مباشرة مع التجار الصينيين بسواحل الهند ، هو احتكار الإيرانيين تجارة الحرير الصيني برا وبحرا . فإن هذه البضاعة ، كما قال الاستاذ جييون ، قد أصبحت من ضروريات الرومانيين في الملابس والكسرة في زمن الامبراطور جوستينيان ، الذي كان ينظر بعين الاهتمام والقلق إلى احتكار الإيرانيين البضائع التي تحتاج إليها بلاده وبعين الحسد والحقد إلى الثروة الهائلة التي يسلمها أعداؤه من رعاياه كل سنة . فالحكومة الرومانية الشرقية ، نند ما استيقظت من غفلتها وانتهت إلى تقصيرها في التجارة البحرية ، قد تستطيع أن تسترد نصيبا من تجارتها في مصر وقوتها البحرية في البحر الأحمر إلى يدها . كانت هذه التجارة قد نقصت ، والقوة البحرية قد ضعفت إلى حد كبير بسبب انحطاط الدولة وضعفها ، ومن المظنون أنها قد صممت على إرسال مراكب رومانية إلى مرفأ مالاقا ، وإلى الصين لا شراء الحرير . غير أن الضعف الذي أخذ يأكل قلب الدولة ، منعه عن هذا الأقدام . لكن جوستينيان على كل حال لم يغفل عن حاجات رعاياه ، كما أنه لم يجهل سوء معاملة الإيرانيين لهم . نعم أنه لم يستطع إرسال المراكب من عنده رأسا إلى الصين ، غير أنه تمكن من إيجاد وسيلة تزيله

(1) Gabbon; Vol, 11. 40,

غاياته . فالأحباش - وكانوا من حلفاء المسيحيين - ، تدهضوا نهضة بحرية وقبضوا على ناصية التجارة في سواحل البحر الأحمر ، فساعده في تحقيق مراده ، بارسال بعض المراكب الى سواحل الهند لنقل البضائع الصينية الى الامبراطورية الرومانية

ولقد أثبتنا أن الرومانيين قد استطاعوا انشاء رابطة تجارية مع الصين في القرن الثاني من الميلاد عن طريق خليج فارس والبحر الأحمر ، لأهماماتحان لتصدير البضائع الرومانية الى الصين ، أو لتوريد البضائع الصينية الى أمبراطورية الروم . والآن نستطيع أن نتصور وجود العلاقة بين الصين والعرب في ذلك الوقت أيضا ، خصوصا بعد ما تكلمنا عن أن عدن كانت ، مدينة عظيمة وقد لعبت دورا هاما في التجارة البحرية مع الصين وبلاد الروم الشرقي كليهما .

صحيح أننا لا نجد ذكرا في المصادر العربية عن هذه العلاقة . غير أننا لا نستطيع أن ننكر وجودها على حال من الأحوال . والسبب في ذلك أن بلاد العرب في ذلك الوقت لم تكن متحدة تحت دولة قوية . ومن الجائز أيضا أن مؤرخي الغرب لا يعترفون بوجود هذه العلاقة ولهم عذر معقول . ومن المعروف أن شمال بلاد العرب كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الرومان الشرقية ، وجنوبها تحت بلاد الفرس ، فن المفهوم اذن أن علاقتها التجارية مع الاجانب ، قد أخفيت تحت ظلال الرومان أو الايران . فاعتبر المؤرخون معاملة التجارة التي وقعت في أسواق الشام ونيبيين وأرمينيا ، معاملة بين الصينيين والرومانيين كما نسبوا المعاملة التي وقعت في موافي واليمن وجزائر عمان ومسقط وبحرين الى عظمة الايران التجارية وكان الامر غير منحصر في هذا ، بل البضائع التي كان أصلها من شرق أفريقيا ، حسبوها من منتجات ايران ، وسموها البضائع الايرانية . حتى أوائل القرن السابع من الميلاد . لقد صح ما قال الاستاذ هادي حسن في كتابه ، تاريخ الملاحة الايرانية ، عندما تكلم في هذه النقطة ، حيث قال أن ، تاريخ الصين الذي يتعلق بالعصور التي بين أواخر القرن الرابع الى أوائل السابع من الميلاد ، يذكر جميع البضائع التي كان أصلها من بلاد العرب أو من شرق أفريقيا تحت اسم (بضائع

بوسى) . لأنها هي المملكة التي كان يصدر منها أغلب بضائع البلاد المجاورة للصين

اتفقت المصادر الثلاثة ، الصينية والایرانية والرومانية ، على وجود العلاقة بين العرب والصين قبل الاسلام ببضعة قرون في شكل غير مباشر اذا اعتبرنا السلطة الحاكمة التي كانت سائدة على شمال بلاد العرب وجنوبها ، قبل الاسلام وفي شكل مباشر إن أخذنا في حسابنا الحدود الجغرافية . وبما لا مرية فيه ، أن نشاط الايران التجاري أثر في هذه العلاقة أكثر من حركة التجار الرومانيين لأنهم لم يشعروا بحاجتهم الى ايجاد علاقة مباشرة ، إلا بعد أن ذاقوا القساوة من الايرانيين الذين كانوا يتوسطون في تجارة الصين مع الرومان ، وكانت ايران هي المملكة التي اتصلت الصين بواسطتها بدولة من الدول العربية القوية العظيمة حينما كانت جزيرة العرب لا تزال باقية في وثنيها وجاهليتها الاولى . وهي دولة الحيرة تحت أصحاب الخورنق والسدير . وكان الملك الذي قد عاصر خسرو برويز ، وهو النعمان بن المنذر ، الذي حكم تلك المملكة بالقوة والحكمة مدة ثمان وعشرين سنة (٥٨٥ - ٦١٣ م) وهو الذي أرسل في أثناء حكمه ، وفدا يشتمل على عشرة أعضاء ، الى خسرو برويز . وكان كل واحد منهم فصيح اللسان ، طلق البيان ، شريف النسب ، مفتحرا بعرويته . وقد اجتمع عنده وفود الروم والهند والصين . وأما الخطب التي ألقاها وفد العرب أمام كسرى (خسرو) فن أفضح كلام العرب نثرا ، أن كان اسناد صاحب العقد الفريد صحيحا ولم يخطئ في نسبة هذه المنثورات الى أصحابها . فن المتصور اذن ، أن أعضاء الوفد العربي ، بعد تأدية رسالتهم التي بعثوا لاجلها ، كانوا يطعمون في الحصول على بعض المعارف عن البلاد التي قد اجتمعوا مع وفودها عند كسرى . وهذا من طبيعة حالة السفراء في كل وقت وكل مكان . وبعد هذا فلا عجب عندنا ، في أن أكثم بن صيفي وزملائه

قد سالوا وفد الصين عما يريدون أن يعرفوه ، من أحوال بلاد الصين وعاداتها فسمعوا وصف بلاد الصين من أفواه وفدها . هذا من الناحية السياسية

وأما من الناحية التجارية ، فيحكى المسعودى ، أن العلاقة التجارية كانت قائمة مباشرة بين الصين ودولة الخيرة . قال في مكان من كتابه أن الفرات يصب في البحر الحبشى في الموضع المعروف بالححف . وكانت تتقدم هناك سفن الصين والهند ، ترد إلى ملوك الخيرة . وقد ذكر ما قال عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني ، حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه ، حين قال له ما تذكر قال أذكر سفن الصين رراء هذه الحصون (١) .

فكنتفى بهذا التعليل في إثبات وجود الاتصال بين العرب والصين قبل الاسلام ولا أظن أحدا يتكر هذا الجانب من الوقائع والحقائق التاريخية . غير أنه يستطيع أن يقول أن صاحب الرسالة هو من قریش بقلب الحجاز . ومن المشكوك فيه أن يتصل القرشيون بالصينيين قبل الاسلام مع ثبوت أن اليمانيين والقحطانيين كان لهم إتصال بتجار الصين بخليج فارس من عهد قديم منذ القرن الثالث من الميلاد على الأقل . لكننا نجد على كل حال ذكرا في الكتب العربية ، عن زيارة التجار القرشيين للعراق في الوقت الذى كانت فيه جزيرة العرب لا تزال في وثنيتهما . فسافر هؤلاء التجار إلى عاصمة كسرى وأمدوا اليه بعض البضائع النفيسة التى منها خيول العرب . ونظرا إلى أن اسم أبي سفیان قد ذكر في زمرة هذه القافلة التجارية (٢) . أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر قد وقع قبل النبوة بزمن قليل .

لقد أثبتنا فيما تقدم أن تجار الصين كانوا يترددون على المدن الكبرى بيران بين حين وآخر وعلى موانئها بالخليج . فمن المحتمل إذن أن هؤلاء التجار

(١) هوامش نفخ الطيب . ج ١ ، ص ١٢١

(٢) العقد الفريد ج ١ - ص ٩٠ (الطبعة الأميرية)

الباب الثاني

العلاقة السياسية

قد تكلمت في الباب السابق على ضوء الوثائق التاريخية عن اتصال العرب بالصين من عهد قديم إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وكان ظهوره قد قلب ورقا جديدا في تاريخ العالم. فالتغيرات التي ظهرت على أثر مناداته بالنبوة في الشرق والغرب، وخصوصا في محيط البحر الأبيض ظاهرة بالغة يشعر بها كل صغير وكبير من جميع الاجناس والالوان. فهي غير محتاجة إلى شرح في هذا المقام. وأما الصين فلا شك في أنها كانت بعيدة عن مهبط الوحي ومهد الاسلام، غير أن بعدها لم يغز عنها شيئا. فوقعت أيضا تحت تأثير هذا الانقلاب المدني والديني، الذي ظهر أولا في جزيرة العرب في أوائل القرن السابع للميلاد، ثم أخذ يفيض على البلاد المجاورة حتى عم أكثر ربوع العالم.

أن الاسلام الذي كلف الله محمدا (ص) نشره في الامة العربية أولا ثم في الأمم الأخرى في أقطار العالم هداية ورحمة، انتشر سريعا، بعد استحكام نفوذه في الجزيرة، إلى بلاد الشام ومصر والعراق والفرس. وكانت واقعة القادسية (636م) تهدد حياة الامبراطورية الساسانية التي كانت في حالة الاحتضار، وانتصار العرب في نهاوند (642م) قوض دولة كسرى إلى الأبد. ففر يزيدجرد، آخر الملوك من الساسانيين من أرض أجداده، وكان فراره إلى الصين نذيرا للامبرطور (نانغ تائي جونغ) بتقدم القوة الجديدة الناهضة من بلاد العرب نحو

الشرق الأقصى . ولا شك في أن (تانغ تائي جونغ) كان يعطف على آخر الورثة لعرش الأكاسة فوعده بأن يمدّه باعانات عسكرية ولوازم حربية من ممتلكاته المجاورة لبلاد الفرس ، وكان لهذا الوعد أثر بالغ في نفس يزيدجرد حتى جدد أمنيته وعادت الحرارة الجوية إلى عروقه . فرجع مع جماعة من عساكر التتار الذين كانوا يدترفون بسلاطة (تانغ تائي جونغ) عليهم آملا بذلك في استرداد تركة أجداده إلى وازهم الاصيل . غير أن نجوم العرب الذين سيطروا على الامبراطورية الساسانية الآن ، في مطلع الارتقاء ورأوا هلاك يزيدجرد وآخر أيامه بدون اشتباك مع العساكر الذين جاؤا معه بحكم امبراطور الصين . وكان ذلك أن حفيد خسرو برويز ، قد خابه خادمه بالمرور فتمرد أهلها عليه واعتدوا عليه فتمقبوه إذ كان هاربا منهم . فوصل فارا بحياته إلى شاطئ نهر حيمت أراد العبور على عجل فلم يجد الا مركبا لمطحن . وكان يزيدجرد كما هو حال كل رجل في وقت المصائب لم يجد في جيبه شيئا من النقود . فعرض على صاحب المركب خاتما وسوارا لعبور عاجل . فأجاب ذلك القروي وكان جاهلا شخصية يزيدجرد الخطر الذي كان فيه أنه يحصل من مطحنه يوما على أربعة دراهم . وأنه لا يستطيع أن يعطل المطحن عن العمل إلا إذا عرض عن خسارته . في هذه الساعة من التردد والتأجيل ، وصل المتمقبون فقبضوا عليه وانزعوا روحه من جسده ، فأنهت حياة آخر ملوك الساسانيين في السنة التاسعة من حكمه

وأما ابنه فيروز وكان تابعا لامبراطور الصين وخاضعا لحكمه فقد رضى بمركزه في قصر (سيآن) حيث كان رئيسا لفرقة حراسه . وكانت الديانة الجوسية قد تسربت إلى بخارى مع جماعة من المنفيين ومنهم ابن فيروز الذي كان يحمل اسم جده . فعاد إلى الصين بعد ثورة فاشلة . فمضى نجسه في قصر (سيآن) بين الحزن واليأس .

فابتدأت العلاقة السياسية مباشرة عند ما كان الامراء الساسانيون يلتجئون إلى عاصمة الصين (١) .

(1) Huarts: Ancient Persian and Iranian Civilization P. 137.

وأما الحلقة الثانية من العلاقة السياسية فهي زحف قتيبة بن مسلم الباهلي إلى آسيا الوسطى ، كان قتيبة مطيعاً لأوامر الحجاج بن يوسف وإلى العراق . فقاد قوة جديدة من العرب إلى خراسان ، ثم إلى ما وراء النهر ضد الأتراك الذين لم يخضعوا لحكم العرب حتى الآن ، مع أنهم قد انهزموا مراراً أمام قواد العرب الآخرين من قبل . فأعد عساكره بالمرو ، وشجعهم بالاناشيد العسكرية والخطب الحماسية . فوحد بهم أولاً إلى بيكند (Beikend) وقد فتح في طريقه إلى كاشغر ، أدنى مدن الصين ، مدينة الصغد ورامتين وبخارى ووردن وكش وسمرقند . لقد اشتبك بقوة تركية تحت قيادة رئيس معروف باسم (غوزك) . ويقول البلاذري أن قتيبة بعد الانتصار عليه ، فرض عليه جزية سنوية مقدارها ٢٠٠٠ و ٢٠٠ و ٢٠ درهم . وكان أول عمله ، بعد دخول سمرقند بعساكره ، أن صلى ركعتين شاكرًا للقادر المطلق الذي قد أعزه بفتح مبين على أعدائه المشركين ثم أصدر أمراً بإنشاء أول بيت لله في هذه المدينة الوثنية . فتقدم بغزواته إلى الشرق الأقصى ، تاركاً وراءه في سمرقند جماعة من الموحدين لنشر رسالة محمد رسول الله (ص) وإعلاء كلمة الله بين أهلها .

ووجد في سمرقند عدداً كبيراً من المعابد الوثنية التي فيها أصنام وأوثان وكان الناس في تلك المدينة يعبدونها ويعظمونها . وكان طبعياً لا يسدح قتيبة بعبادة تلك الأصنام أو التقرب إليها ، بعد أن فتح تلك المدينة وشيد جامعاً فيها . لأنها آلهة لا تضر ولا تنفع ، إذ أنها مصنوعة من صخور أو أحجار أو أخشاب أو أشجار . فعزم على تحطيم هذه الأصنام ، فضج المجوسيون غضباً لأنهم كانوا يدينون بتقديس هذه الأصنام وبمجزأتها . فأقبل كبارهم يتذرون المحطمين قائلين — كل من يرفع يده معادياً هذه التماثيل المقدسة ، يهلك في وقته ولا مفر له من ذلك لكن قتيبة بن مسلم الذي كان قلبه يفيض بنور الإيمان ، وكان جبينه متلألئاً من نغز الغزو والانتصار ، لم يخش تهديدهم . فأنزل الأصنام واحداً بعد الآخر ، وألقاها في النار . وكان الناس على ذلك شاهدين ، فلم يروا إلا لهيباً في لهب ، ثم رمادا بين رماد تزروه الرياح . وأما المعجزة ، وأما هلاك المحطم في وقته ، وأما غير ذلك من

قداسة الأصنام وفعلها في الأحياء فلم يظهر لها أثر أبداً . وأما الجماهير الذين قد عاشوا في الجهل فانتبهوا في الحال فقاموا وثاروا على الرهبان وكذبوا أقوالهم ثم تولوا عن عبادة الأصنام ودخلوا في دين الإسلام .

سرف قتيبة بن مسلم مدة من الزمن ومقداراً بالغاً من التفكير في إخضاع سكان بخارى الذين كانوا يخضعون لحكم العرب حينما ويتمردون عليهم حيناً آخر . وكانت الصعوبة ليست في فتح مدينة بخارى بالقوة العسكرية ، بل في فتح قلوب السكان التي قد تجمدت في الوثنية والأيهام غير شاعرة بالهزات التي أحدثها الإسلام في المتقدات الآن . نعم ، أنهم قد سلموا أنفسهم إلى سلطة العرب مراراً ، غير أنهم عند ما رأوا أن الفرقة الرئيسية من قوات العرب قد ارتحلت إلى جهة أخرى ، خرجوا من بيوتهم . فأخذوا أسلحتهم للمرة الثانية ورفعوا لواء العصيان ضد حكام البلد . ولقد وقع مثل هذا ثلاث مرات . فكان السبب الأصلي لهذه الثورات يرجع إلى أن أكثر السكان قد لبسوا ثياب الإسلام في الظاهر . لكنهم في الباطن قد بقوا في الوثنية كما كانوا في حالتهم الأولى . فلما فتح قتيبة بلاد بخارى للمرة الثالثة ، مكث يفكر في وسيلة يستعين بها على إسلام أهلها وتبديل معتقداتهم من أصلها . فأسس في مدينة بخارى جامعاً معروفاً باسم (جامع قتيبة) في سنة ٧١٤ م ، ولا يزال باقياً إلى يومنا هذا . وكان يمنح عطاء قدره درهمان لسكل مصل جديد في هذا الجامع يوم الجمعة . زد على هذا أنه قد بعث المعدلين والواعظين إلى أسر قد دخل أهلها في الإسلام حديثاً ليعلموهم الدين ، ويزيلوا الشكوك من قلوبهم . فبينوا لهم تلك الأحكام الضرورية التي يحتاجون إليها في إقامة الصلاة وشعائر الدين . ولرفع الصعوبة في فهم معاني القرآن بلغته الأصلية ، أجاز ترجمته إلى اللغة الفارسية ^(١) التي كانت وسيلة التفاهم في الآراء ، وآلة التبادل للأفكار في الإمبراطورية الساسانية في ذلك الزمن . فعملوا سكان بخارى يفهمون معاني القرآن باللغة المترجمة إليها فهما تاماً . ولقد أفادت هذه الطريقة التي تعتبر من أحدث

(1) Vambury: History of Bukhara. P. 30

أساليب التبليغ لإفادة عظيمة في نشر الإسلام، وتقوية هذا الدين الخفيف في بلاد
النتار العليا التي انتشر منها في الأيام اللاحقة إلى تركستان الصينية، ومن ثم دخل
شمال الصين الغربي.

فلما فرغ قتيبة بن مسلم من تنظيم سمرقند وبخارى، واطمأن على النظام الذي
وضعه لحل الأمور وعقدها في تلك الولايات النائية عن مركز الخلافة، زحف
بجيشه نحو خوقند. ففتحها بلا مقاومة تذكر في سنة ٩٥ هـ ثم توجه إلى شطر
الشرق عن مضيق (تيرك) حتى دخل كاشغر فاتحاً في السنة نفسها. وكانت له
محاربات خطيرة مع رؤساء الترك. ومن حسن حظه، أن وجدهم مشغولين بالزراع
الداخلي غير متفقيين على أمر الدفاع العام المشترك، فأصبح إخضاعهم، واحداً واحداً
من السهولة بمكان على قتيبة وفي هذه الفترة كان بعض قواد التار قد استغاثوا
بأمراء القلموك بشمال تركستان الصينية، لكن اغاثتهم لم تفهم شيئاً، لأن
كاشغر ويارقند وختن - وكانت فيها حصونهم المنيعة - قد سقطت واحدة بعد
أخرى في أيدي العرب فتقدموا حاملين لواء النصر حتى وصلوا إلى مدينة طرفان.
كان من عادات العرب في الغزوات، أن يعرضوا دين الإسلام، أو الجزية،
على أهل البلاد التي يغزونها، ولقد فعل قتيبة بن مسلم ذلك مع أمباطور الصين أيضاً.
فبعث وفداً مع رسالة منه، إلى الأمباطور (يوانغ جونغ Yuang Chung)
(٧١٣ - ٧٥٥ م)، يطلب منه الطاعة والجزية. ولابن الأثير في هذا الأمر
أقوال طريفة - طريفة جداً حتى لا نستطيع أن نميز حقيقة الواقعة من زخرف
البيان. وأياماً كان فلا أريد أن أدخل هنا في نقد ابن الأثير، لأن المتخصصين في
التاريخ يعرفون كيف يقولون كلمتهم الفاصلة، ويبدون آراءهم السديدة في النقط
التاريخية الدقيقة. غير أنني أعتقد أن لأقواله قيمة عظيمة في تمثيل آراء المؤرخين
العرب في هذا الواقع التاريخي. فلذا أراني بحاجة إلى تلخيصها هنا.

قال ابن الأثير... في سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) غزا قتيبة بن مسلم كاشغر وحمل
مع الناس عيالهم ليضعهم بسمرقند. فلما عبر النهر، استعمل رجلاً على المعبر

ليمنع من يرجع إلا بجواز منه. ومضى إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام من يسهل
الطريق إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين. وبعث جيشا تحت قائد كبير إلى كاشغر
وختم أعناق أهلها وأوغل حتى بلغ قرب الصين فكتب إليه ملك الصين ،
وابعث إلى رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم .

فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح . فأمر لهم بعدة
حسنة ومتاع حسن من الخبز والشئ وغير ذلك من الخيول وكان منهم هبيرة
بن مشمرج السكلابي . فقال لهم ، إذا دخلتم عليه ، فاعلموه أني قد حلفت لا
أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، واجبي خراجهم . فساروا وعليهم
هبيرة بن مشمرج وحضروا عند امبراطور الصين ثلاث مرات ولبسوا ملابس
تختلف كل مرة عن الأخرى . فلقد لبسوا في المرة الأولى ثيابا بيضا تحتها الغلاثل
وتطيبوا ولبسوا النعال والآردية ، وفي المرة الثانية لبسوا الوشي والعمائم الخبز
والمطارف ، وفي المرة الثالثة شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا
السيوف والرماح والقسي وركبوا . فتمعجب امبراطور الصين من مظاهرهم وسأل
هبيرة عن حقيقة التنوع في اللباس ، قال :- زينا اليوم الأول لباسنا في أهلنا وفي اليوم
الثاني لباسنا أمام أمرائنا ، وفي اليوم الثالث زينا أمام عدونا . قال ما أحسن
ما دبترتم دهركم . فقولوا لفتاندكم ، ينصرف . فاني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت
اليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك
وأخرها في منابت الزيتون . وأما تخويفك لإيانا بالقتل ، فان لنا آجالا ، إذا حضرت
فأكرمها القتل ، ولسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم
ويختم ملوككم وتعطوا الجزية .

قال الامبراطور فاننا نخرجه من يمينه ونبعث إليه تراب أرضنا فيطؤه وبعض
أبنائنا فيختمهم وجزية يرضاها . فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم
ثم أجازهم فأحسن .

قد ذكر هذا الواقع سواده بن عبد الملك السلولي في ثلاثة أبيات وهي جزء من

بيان ابن الأثير عن علاقة العرب السياسية بالصين مباشرة . وما هي ذى :

لا عيب في الوفد الذين بعثهم للصين أن سلكوا طريق المنهج كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج أدى رسالتك التي استدعيته فأنك من حنك اليمين بمخرج وأما قتيبة فرضى بما أهداه به أمبراطور الصين لأن الخبر قد وصل إليه في هذا الوقت عن وفاة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان الذي تولى الخلافة الأرومية مدة وجيزة . وهو الذي أهلك كثيرا من أبطال الإسلام الذين كانوا أعمدة القوة وأركان الدولة ، بسبب الحقد الشخصي الحكام في ذاته نحو هؤلاء الأبطال وكان قتيبة من الهالكين أيضا . والسبب في ذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، قد استشار الحجاج و قتيبة في عزل سليمان من ولاية العهد وجعل ابنه عبد العزيز مكانه . فأجاباه الى ذلك . فلما مات الوليد وتقلد سليمان مقاليد الخلافة ، عزله عن الولاية في خراسان وولى وكيعا عليها بدلا من قتيبة . فأحدث قتالا هائلا بين الجماعتين حتى جرح قتيبة في المعركة وقتل فيها . وقتل معه أحد عشر ذكرا من أهل بيته .

وكان قتل قتيبة إيدانا باضعاف الإسلام فيما وراء النهر وإثارة الخلاف والشقاق بين صفوف العرب والمسلمين ، وأما هبيرة بن مشمرج الذي كان يرأس الوفد العربي الى أمبراطور الصين بعد عودته الى ما وراء النهر ، فأوفده قتيبة الى الوليد . لكنه لقي حتفه في طريقه الى دمشق ، في قرية بفارس . فرثاه سوادة هذه الأبيات

لله در هبيرة بن مشمرج	ماذا تضمن من ندى وجمال
وبديهة تزهى بها أبتاؤها	عند احتفال مشاهد الأقوال
فسقى بقرية حيث أمسى قبره	غر يرجن بمسيل هطال
كان الربيع إذا السنون تتابعت	والليث عند تكعكع الأبطال
بكت الجياد الصافات لفقده	وبكاه كل مثقف عسال
وبكته شعث لم يجدن مواسياً	في العام ذى السنوات والأعمال

وقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بسبب قتل قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي قد شاركه في تناول كأس الموت ، كثير من أبطال الإسلام . فتخلصت الصين

من حملة العرب عسكريا لكنهم لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامي الذي كان ينتشر بسرعة الى اواسط آسيا ، مع التقدم العسكري ، فدخل الصين بعد أيام قلائل ورسا في غربها وشمالها .

لا شك أن لفتية بن مسلم بدأ طول في نشر الاسلام في آسيا الوسطى ، إذ كان واليا عليها . أما نصيبه في نشر الاسلام في ولايات الصين القاصية التي تقع بين سور الصين وسقف العالم فذلك ما لم يرو لنا التاريخ عنه شيئا . فلذا لا نستطيع أن نتكلم عنه هنا . غير أننا نرجح أن بعض الناس من أهالي تركستان الصينية قد تقبلوا الاسلام دينا في زمنه ، وخضعوا بعد وفاته لقواد العرب الذين كانوا يطلبون المجد الشخصي لأنفسهم في ولايات بخارى وسمرقند والصغد . وكان من الذين أسلموا من أهالي آسيا الوسطى في أواخر القرن الأول الهجري ، في أغلب الظن ، قوم أو يوغرى آباء المسلمين الصينيين الذين نشأت بينهم وبين الصين علاقة سياسية بعد توقف الفتح العربي في الشرق .

ويشهد تاريخ الصين بأن الأراغرة شعب جديد تفرغ عن التتار في أوائل القرن الثامن من الميلاد ، لأننا لا نجد ذكرا عنهم قبل هذا الزمن ، مع أن تاريخ الصين مليء بالحوادث التي وقعت على حدودها من غارات التتار وهزائمهم ، أو خضوع رؤساء الترك لسلطة أمباطور الصين و تقربهم اليه بتقديم الهدايا أو الخراج من هذه الحوادث خروج سابلو خان على الامباطور (صوي وين تي Sui Wenti) الذي كان يتربع على عرش الصين في سنة ٥٨٩ إلى ٦٠٥ م ، إذ كان محمد رسول الله (ص) ، لم يكلف بأعباء النبوة وتبعة الرسالة إلا بعد سنوات أخرى . وكان طبيعيا أن انهزم سابلو خان أمام القوات الصينية فالتمس الصالح من الامباطور (صوي وين تي) فقبل التماسه فصالحه . ثم نتجت عن هذا الصالح رابطة عائلية بزواج أميرة من أسرة (صوي) بي (كيمين خان) ، رئيس من رؤساء التتار .

ولقد انقضت أسرة (صوي) في سنة ٦١٧ م ، أي بعد النبوة بست سنوات وانتقل حكم البلاد إلى أسرة (تانغ = Tang) ، وكان أول عامل من هذه

الأسرة العظيمة هو (تائع كاوجو Tang Kao-Tzu) وكان رجلا عسكريا شجاعا في الحرب مدبرا عظيما في تنظيم الجيش وإدارة الامور ، محبا للعلوم والفنون محترما لرجال الأخلاق والعدل مقربا لهم .

كانت علاقته بقبائل التتار على أساس المودة والصداقة . فأنعم في سنة ارتقائه العرش بلقب « أمير الوفاء » ، على خسر وخاع ، وهو ورئيس من رؤساء التتار الغربيين . فرجع خسر وخان شكره الخالص إلى الامبراطور (تائع كاوجو) على هذا الانعام الممتاز وقدم له هدايا نفيسة منها درة يتيمة .

ولقد ذكر تاريخ الصين كثير من أمارات آسيا الوسطى ، اللاتي كن خاضعات لحكم الصين في ذلك الوقت . منها أمانة (ووسين Wu - Sen) وهي بلاد خولجة الحاضرة . قد أرسلت هذه الأمانة خراجها إلى امبراطور الصين سنة ٦١١ م تقريبا وتطوعا . وكان السبب في ذلك أن خسر وخان قد زار الصين في عهد (صوي) فنار الامراء في عاصمته أيام غيابه عنها ونصبوا عمه ملسكا عليهم . فعاد خسر وخان بنجدة من الجيوش الصينية ويمكن من القبض على ناصية الامارة للمرة الثانية . فاستقر فيها وقوى حتى استطاع في أيام متأخرة ، إخضاع بعض الامارات الصغيرة لحكمه . وحصل منهم الضرائب وأرسل قسما منها إلى الامبراطور (تائع كاوجو) ، شاكر له إيعانته له أيام الثورة السابقة (١) .

من رأى الاستاذ كاركورن (Corcorn) مؤلف « تاريخ ممالك الصين » وهو أحسن كتاب قرأته في هذا الموضوع بلسان الأردو ، وطبع في كلكتة (الهند) أن نفوذ (تائع كاوجو) من الناحية السياسية ، قد اتسع إلى سمرقند وبخارى وبلاد قفجاق . وكان يأخذ الخراج من ملوكها لأنهم كلهم قد رضوا بحكمه وسيادته عليهم .

وظهرت أيام حياة هذا العامل العظيم ، حوادث خطيرة في بلاد العرب ، ذات أثر بعيد في سياسة العالم ومدنياتها ، كخلافة أبي بكر رضى الله عنه ، بعد وفاة رسول الله (ص) ، وفتوحات عمر رضى الله عنه ، وسقوط دولة كسرى وغيرها من الوقائع الشهيرة في تاريخ الاسلام والعالم .

فلما قطع الاجل حبل حياته في سنة ٦٢٦ م ، تولى ابنه (تانغ تاي جونغ Taug Tai Tsung) زمام الحكم فتربع على عرش الصين آمرا ناهيا . وكان من أولى العزم والحلم ، وكان شجاعا مثل أبيه وذا رأى سديد في الأمور السياسية وهمة عالية في إدارة البلاد . وقد احتفظ بتركة أبيه من الممتلكات بآسيا الوسطى لا ، بل وسع سيادته إلى بلاد التبت وكشمير ونيبال . وهو الذى قد استغاث منه يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عند ما كان العرب يغزون بلاده فسقطت في أيديهم في سنة ٦٤٢ م ، سقوطا لا عودة لها إلى القوة من بعده أبدا . ونقد روى مؤلف تاريخ ممالك جين ، أن ملك جيبيور بن ملوك الهند قد بعث سفيرا إلى الامبراطور (تانغ تاي جونغ) في سنة ٦٤١ م لايجاد علاقة ودية بينهما . فأرسل وفدا من عنده إلى الهند ردا لزيارة سفير ملك جيبيور له . مع هدايا ثمينة إلى ملكها . فافتق بعد ذلك ، كثير من راجوات الهند أثر جيبيور . فجاء السفراء من إمارات كشمير وأوجين ونيبال إلى عاصمة الصين للاغراض ذاتها (١) .

بعد وفاه تانغ تاي جونغ ، ارتقى ابنه (تانغ كاوجونغ كاوجونغ Tang Kao Tsung) عرش الصين . وهو الذى قد رحب بفيروز بن يزدجرد واسكنه في عاصمته . وكان لفيروز ابن باسم جده أى يزدجرد . وكان في نية تانغ كاوجونغ ، أن ينصبه ملكا على إيران بعد وفاة فيروز . لكنّه فشل في محاولته . أولا لأن العرب قد تقدموا إلى آسيا الوسطى واستحكم حكمهم فيها ، وثانيا لأن المسافة بعيدة والمواصلات غير منظمة كما ينبغي فاقنع بالانعام عليه بلقب ملك إيران عليه ، بدلا من

نصبه ملكا عليا . فولاه ولاية من ولايات تركستان وكانت جزءا من ملكة جده .

ويظهر من تاريخ الصين أن العلاقة بين (تانغ كلوجونغ) ورؤساء التتار في هذا الوقت قد تغيرت من الود إلى النفار ومن الصداقة إلى العدوان . حتى نرى رئيسا من رؤسائهم ، معروفًا باسم قطلو قد حمل على مدينة (بنشو Pin-Chow) في سنة ٦٨٢ م فانهزم . فعادوا الكرة مرة أخرى بعد سنتين على مدينة (سوشو Cu Show) ففتحها ثم توغل إلى داخل الصين على رأس ٢٠٠٠ مقاتل (١) ومرة ثالثة في سنة ٦٩٢ م على ليانج شو (Liang Chow) بقانصو . لكن الصين لم تكن ضعيفة في قمع هذه الحملات وتفريقها . فدافعت عن حدودها بتدابير وقوات معا . وطردت المغيرين إلى ما وراء الحدود بالقوة العسكرية حتى خضعت لسيادتها ثمانى أمارات أخرى بتركستان ، في السنة الثالثة من حكم الامبراطور (يونج جونغ Yung-Tsuug) وكان السبب في ذلك أن صاحب طرفان قد زحف على إمارة أيلي . ففر ملكها إلى آنسى (An-Si) مستغيثا من حاكمها . فأعانه بعشرة آلاف جندي ، وزحف بهم إلى بلاد التتار وفتحوا كثيرا من المدن . فمن الامارات التي كانت قد خضعت لسيادة الصين ، إمارة (تاشي) ولعلها تاشقند الحاضرة .

ومن المعلوم أن العرب الذين فتحوا أواسط آسيا بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي لم يستطيعوا المحافظة على النظام فيها بعد أن قتل قائدهم ، بسبب الاختلاف الذي ظهر بين رؤساء العرب . فاشتد هذا الاختلاف في آخر عهد بني أمية . فالصينيون وهم أقرب إلى ما وراء النهر من الناحية الجغرافية ، قد سعوا إلى تقوية سيادتهم في بعض مدنها ، باعتماد حالة الضعف في الأتراك والخلاف الداخلي بين قواد العرب وقد قبل أن رؤساء الأتراك الذين خضعوا لقوة العرب في وقت قتيبة ، قد بعثوا

(1) Thong Chiang : Vol 53. P. 7.

رجالهم إلى الصين أنجاد الامبراطورها في رد سلطانهم المفقودة اليهم راضين بحمايتهم عليهم . فالذين قد تعهدوا مع امبراطور الصين في هذه المسألة السياسية ، تلقوا من قبله ، ألقاب الشرف . وكانوا يلاقون حشفيهم منه في بعض الأحيان أن خرجوا أو هموا بالخروج عن طاعته . ولقد روى الاستاذ برتولد الرومى في كتابه و تركستان الى غزو المغول ، أن الصينيين قد سيطروا على مدينة سوياب وكان ذلك بسبب الاختلاف الداخلى بين العرب أنفسهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب عدم كفاية الاتراك في تكوين قوة جديدة بعد خضوعهم الى حكم العرب . فقتلوا حاكم شاش في سنة ٧٤٩ م ، لأنه لم يوف عهده بكونه تابعاً للصين ونقل عن ابن الاثير قائلاً : أن آل أخشيد بفرغانة ، استجدوا بالصينيين على حاكم شاش (١) ، عندما ظهر الخلاف بين المدينتين . وكان طمع الصينيين في وضع يدهم على شاش ، هو الذى دفعهم الى الاصطدام مع قوات العرب فمادوا بخسارة فادحة وذلك لأن ابن حاكم شاش القليل ، التجأ الى أخذ المساعدة من العرب ، بدلا من الخضوع لحكم الصين . فأجابه زياد بن صالح الذى بعثه أبو مسلم الخراسانى الى ماوراء النهر لاطفاء نار الثورة التى قد أوقدها شريك بن المهدي من أيام قرىبة فجاء بجيش جرار فاصطدم بقوات الصين بموضع (تالاس) فاخذت معركة فاصلة للعرب على الصينيين في سنة ٧٥١ م . وكان قائد القرات الصينية (كاوشيان كى (Kao Shian·Chi

وبناء على رواية الاستاذ برتولد ، أن العرب قد قتلوا في هذه المعركة الفاصلة ، ٥٠٠٠ من جيش الصين ما عدا ما أسروه من عدد هائل ، قد بلغ ٢٠٠٠٠ رجلا . أعتقد أن هذا البيان لا يخلو من المبالغة لأن القوات الصينية التى كانت تحت قيادة كاوشيان كى ، كما ورد في تاريخ الصين ، لم تتجاوز ٣٠٠٠٠ جندي . فليس من المعقول اذن أن يقع في أيدي العرب ٢٠٠٠٠ أسير بعد قتل ٥٠٠٠٠ منهم . وأما القدماء من ورخي العرب الذين اشتغلوا بتدوين الوقائع الشهيرة ،

فلم يذكروا هذه المعركة. لكن على كل حال نجد إشارة إليها في لطائف المعارف للنعالي ويظهر أنه أسند روايته الى كتاب المالك والممالك الجويني . ومن قول النعالي أن الصينيين الذين وقعوا أسارى في أيدي العرب عدوا أهل سمرقند صناعة الورق فانتشرت هذه الصناعة في البلاد الاسلامية الأخرى من بعد .^(١)

لاشك أن هذه الواقعة مهمة جدا بالنسبة الى الاتراك في أواسط آسيا . لأنها عملية حربية فاصلة في حل مسألة خطيرة وهي المدنية المستقبلة في تركستان . كانت هناك مدينتان تتنازعان السيطرة على آسيا الوسطى ، مدينة صينية ومدنية عربية . وكان انتصار العرب على الصينيين في هذه المعركة التاريخية قد وضع حدا فاصلا لهذه المسألة . فظلت المدنية العربية سيطرة منذ ذلك اليوم على تلك البقاع من أرض الله حتى الآن .

ويظهر من تاريخ الصين ، أن الصينيين قد ساعدوا الأمراء الآخرين من الترك في نزاعهم مع العرب . لكنهم امتنعوا عن إعلان الحرب ضد العرب مباشرة ، بعد تجارهم مع صالح بن زياد في واقعة (تالاس) . فلتعد ذكر في بعض الكتب الصينية ، أن قوات الصين ، قد نالت انتصارات هامة ببعض الجهات النائية بما وراء النهر ، القرية حدود الهند . لكن تاريخ العرب لم يصدق هذا القول فلا نعرف اذن مبلغ صحته ، بل على العكس نجد دليلا على خلاف ذلك فإن أبا داود الذي عينه أبو مسلم واليا على بلخ ، نال انتصارا باهرا في حملته على خودال وكش ففر حاكم خودال الى الصين وقتل أمير كش في المعركة تاركا أخاه في الولاية^(٢) ففي سنة ٧٥٢ م ، التمس أمير (أو شروسانة) من حكومة الصين ، أن تساعده دلي العرب . نأبت ، فإن لها تجارب مع قوات العرب من قبل فترى من الخير أن تتمتع من إرسال المساعدة وعدم التدخل في هذا النزاع القائم بين العرب وأمير تركي .

(1) Turkistan Down to the Mongol Invasion : P. 196.

(٢) الطبري ج ٢ - ص ٧٩ - ٨٠

والحقيقة أن الصين في هذه الأيام ، كانت تواجه ثورة هائلة في داخل
الامبراطورية . ظهرت هذه الثورة في سنة ٧٥٤ م وكادت تسقط دولة (تانغ)
من أساسها ، لولا مساعدة الأواغرة والمسلمين لها . ولعل هذا هو السبب الأصلي
الذي كان يمنعها من التدخل في الأمور السياسية بآسيا الوسطى ، لا ، بل
اضطرها إلى الصلح مع العرب والترك الذين دخلوا في حظيرة الإسلام في آخر
عهد بنى أمية وكان من هؤلاء ، الأواغرة .

أن الأواغرة قوم جدد تفرعوا عن التتار في أوائل القرن الثامن من الميلاد
كما أشرت إلى هذا من قبل واقعد أسلم رئيسهم بعد قتيبة بن من قليل ولاسلامه قصة
عجيبة طويلة ذكرها آغا جان محمد خان في كتابه « أو يماق مغول » باللغة الفارسية
ونقلها في كتابي « الإسلام وتركستان الصينية » وخلاصة القصة « أن أو يغور بن
قراخان ، قد أسلم سرا مع أمه ، فلما علم ذلك أبوه غضب عليه ، فشد جيشا
عظيما لمقاتلته بعد الفشل في المفاوضات في رده إلى دين آباهه الأولين فكان
لاويغور أنصار يدافعون عنه ويقاتلون له . فقاوموا قراخان وكان ملكا على
« قراقوم » فهزمه وقتلوه . فاختره ملكا عليهم . فاشتهر أنصاره باسم الأويغورين
من بعد . ومعنى كلمة « أو يغور » في اللغة التركية ، المعادة أو « المرابطة » ، ومن
هنا نعرف أصل الشعب الأويغوري الشهير في تاريخ آسيا الوسطى . وكانت
لهم علاقة سياسية مع الصين بعد العرب الذين ذكرناهم آنفا . لانهم قد كونوا
شعبا قويا ، عند ما كثر الدعاة لبني العباس فيما وراء النهر واتسع اختلافهم مع
حملة بنى أمية في النصف الأول من القرن الثامن من الميلاد ، حتى اتجاأ أمراطور
الصين وهو سوجونغ (Su - Tsung) إلى مساعدتهم في قمع ثورة آنلوشان
(An Lushan) الذي قد رفع لواء العصيان ضد الحكم القائم في سنة ٧٥٤ م .
كان هذا الثائر حاكما على مدينة صغيرة يقال لها (يون تشو Yun Chow)
فترقى الى منصب المحافظ بولاية (هاتونغ Ho-Tung) ، في السنة التي
انقرضت فيها الدولة الاموية وابتدأ حكم العباسيين في الامبراطورية العربية
(٧٥٠ م) . كان يرهب في هذه الأيام عنده ثمانية آلاف من التتار مثل الجائناثيين

عند السلاطين العثمانيين . فتوجس وزير من الوزراء خيفة من تمرد آنلوشان ونبه الامبراطور إلى ذلك وكان من الغافلين .

ففي سنة ٧٥٤ م ، التمس آنلوشان من الامبراطور (يونغ جونغ) ترخيصا بالحضور الى العاصمة وتقديم ثلاثة آلاف من الخيول اليه . فزاد طلبه هذا في قلب الامبراطور خوفا بالغالم يكن يعهده من قبل . لأنه عرف من بعض العيون أن آنلوشان لم يطلب الترخيص بالحضور إلى العاصمة ، إلا لأجل القبض على أمرها فدير ورأى أن أظهار تقديم الخيول الى الامبراطور ، يكون آمن طريقا للتقرب من صاحب العرش ، وأسهل وسيلة الى اغتياله . وما كانت هذه الهدايا إلا خيلا على كل جواد مقاتلان وحوله اثنان وعشرون حارسا في الظاهر وما هم في الواقع إلا قواد الجيوش . فلما عرف الامبراطور ما بطن في قلب آنلوشان وحقيقة الاغراض التي أراد أن يرمى اليها بهذه الهدايا ، أصدر أمرا في الحال بمنعه من الحضور الى العاصمة ولكن كيف يمنع رجل قد عزم على الخروج والعصيان . فأعلن عصيانه علانية في أواخر هذه السنة وعلى أثره هاجم العاصمة الشرقية وهي (لويانغ Lo Yang) الآن في ولاية هانان (Honan) ثم بعث فوجا من الجيوش لمهاجمة (تونغ جونغ Tung - Kung) ، نقطة عسكرية ذات أهمية عظيمة في الطريق الى العاصمة الغربية وهي (شانغ Chang An) في ولاية (شانسي) ففتحها ودخل شانغ - آن وقتل عشرات من أفراد الأسرة المالكة . ثم نادى بنفسه امبراطورا على الصين . هذا ما يتعلق بآنلوشان الثائر .

وأما الامبراطور يونغ جونغ فقد فرحت ضغط الثوار الى (بوآن Pao - An) بولاية سيچوان (Sze - Chwan) . ولم يعرف الأمراء والوزراء عنه شيئا ، وأما ولي المهدي فكان في مدينة بنليان (Pin - Liang) وقت الثورة . فطار اليه الوزراء وتشارروا فيما بينهم على ما يجب أن يعملوه . وانفقوا على نصب ولي العهد امبراطورا عليهم فتنقلب بسوجونغ - (Su - Tsung) وكان ذلك من وقائع سنة ٧٥٥ م .

كان أول عمل يعمل، ويجب أن يعمل، بعد المناداة به أمبراطورا على الصين، هو اتخاذ التدابير اللازمة لقمع الثوار ورد الأمن الى البلاد. فلما رأى أن قواته العسكرية لم تكن كافية لمقاومة كتائب الثوار الهائلة قرر الاستنجاد بالدول الصديقة المجاورة حدود الصين فكلف (ليمي) وزيرا من الوزراء، أن يسافر الى بلاد الأواغرة بتركستان. مستغنيا بأمرائها على أن يكافئهم. فكانت عزيمة في نهاية الثورة، وطلب اليهم أن يزحفوا عن طريق (سى - آن Si - An) ففي أواخر سنة ٧٥٥ م. وصلت قوات الأواغرة وهم خمسة آلاف محارب تحت إمرة القائدين (خولوكي) و (وانشين) كما ورد في تاريخ الصين العام (١١). فدارت الحروب سجالا بين قوات الأواغرة وبين جيوش آنلوشان الناشر سنتين. ولم تظهر النتيجة. فطالب قائد الأواغرة التعزيزات من أميرهم. فجاء في الدفعة الثانية، أربعة آلاف فارس في سنة ٧٥٧ م، بقيادة ابن الأمير واسمه (يعفور) الى مدينة (فونغ هيانغ Fong-Hiang) حيث اجتمع مع حاكم (كوانغ ينغ) من حامية الامبراطور. فقبضا على آنلوشان، زعيم الثورة وقتلاه. ثم زحفا بجيوشهما الى العاصمة الغربية وهي (شانغ آن) الآن وقد ساهم في الاعمال الحربية قائد صيني كبير معروف باسم (كوتسى Kuo Tze-i) ثم انفقوا على الزحف الى العاصمة الشرقية وهي لويانغ في ذلك الوقت ففتحوها، وجاء في تاريخ الصين العام أن القائد (كوتسى) قد حارب الثوار ففشل في كسر قواتهم حتى قدم جيوش الأواغرة من خلفهم. وقيل أنهم عندما علموا بقدم الأواغرة، وقد ملئت قلوبهم منهم رعبا، صاحوا - يا ويلنا من الأواغرة! فولوا عندئذ مدبرين. فدخل جيوش المسلمين العاصمة الشرقية مع القائد الصيني، فاتحين منصرين وبهذه الطريقة ردوا ساطة الحكم إلى الامبراطور (سوجونغ) فانتهت ثورة آنلوشان، بعد استئصال اذنايه وتطهير البلاد منهم، فاستطاعت الصين أن تتمتع بالأمن والنظام مرة أخرى، واستطاعت أسرة تانغ أن تستمر في الحكم حتى منتصف القرن العاشر من الميلاد.

(1) Thong Chiang : Vol. 55.

وروى عن بعض المؤرخين ومنهم موسيو دابرى ، مؤلف كتاب «المحمدية في الصين» ، أن أمبراطور الصين قد طلب الاعانة العسكرية من الخليفة أبي جعفر المنصور في قمع ثورة (آنلوشان) . ولقد بحثت عن هذا الخبر في المكتب العربية القديمة من الطبرى الى ابن خلدون فلم أجد فيها أية إشارة اليها وما ذكر في «صفوة الاعتبار» مستودع الامصار ، الشيخ بيرم الزونسى المتوفى سنة ١٨٨٩ م ، وهو أن أصل المسلمين في الصين وهم ينيغون على الستين مليوناً من السكان ومن المهاجرين المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة الهامى أبي جعفر المنصور ، حيث نارت عليه رعاياه ، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدي معلوماً اذا أنجده فأرسل اليه أربعة آلاف من جنود المسلمين وقهر بهم رعاياه ، وجازاهم على ذلك بجواز الإقامة في مملكته الخ ، من أقوال القرن التاسع من الميلاد ، وطبيعى أنه قد أخذ هذا الكلام عن غيره . لكننا نأسف لانه لم يذكر مأخذه مع أن كلامه في هذه المسألة التاريخية أوزن من كلام غيره إذ يحسم به النزاع وينتهى به البحث . فلا تحتاج الى السؤال عن الشهادات الأخرى . غير أن عدم ذكره للمأخذ يقينا في شك لا يزيله عن قلوبنا إلا أوثق مصدر وأوضح دليل مما قال الشيخ بيرم في كتابه . أما ما قال الاستاذ غسٹاف لبون في كتابه «حضارة العرب» ، وهو منقول عن موسيو دابرى ، فلا نعتبره أصح من قول الشيخ بيرم الزونسى ، إلا أن هناك بياناً آخر لمستشرق معروف باسم (بريتش نائدر Breitschneider) في كتابه (علم الصينيين القدماء عن العرب Ancient Chinese Knowledge on the Arabs) وهو يستند الى «تافغ شو» ، أو كتاب تاريخ تافغ (ص ١٥ من الباب العاشر) أن أمبراطور الصين قد استرد عاصمته الشرقية والغربية (شانغ آن ولو يانغ) وفتح ثورة آنلوشان ، بمساعدة الجيوش التي بعثها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ٧٥٧ م^(١) . فراجعت المصدر الاصلى فوجدت أن اسم الخليفة لم يذكر ثم الجيوش

(1) - Breitschneider : P. 9.

التي اشتركت في شمع الزورة ، كانت مكونة من الاواغرة والعرب والتتار وهم ٢٠ ألفاً^(١) .

لقد ثبت على الأقل من تاريخ الصين أن العرب قد ساعدوا امبراطور الصين في أيام هذه الزورة . ولا ينبغي أن نقبل هذا القول على أنه القول الفصل ، إلا بعد التحقيق من جهة تاريخ العرب والنظر الى إمكان هذه المساعدة من قبل أبي جعفر المنصور .

ومن المعلوم أن أبا جعفر المنصور قد أخذ زمام الخلافة بعد أخيه السفاح في سنة ١٣٦ هـ ٧٥٤ م - وكان أول عهد خلافته مليئاً بالحوادث والاضطرابات مثل خروج عمه عبد الله بن علي في صفر ١٢٧ هـ أو في نوفمبر سنة ٧٥٤ م . فرأى أنه لا يستطيع أن يكون جاساً طامشاً على كرسي الخلافة ، ما دام أبو مسلم الخراساني واقفاً أمام طموحه . فاحتال عليه وذبحه في ٧٥٥ م . فأدى هذا القتل الى ثورة هائلة في خراسان استمرت ثلاث سنوات وانتهت في سنة ١٤١ هـ ٧٥٨ م بعد مكافحة جبارة من قبل أبي جعفر المنصور . ومن المعلوم أيضاً أن الثورة التي ظهرت في الصين كانت في السنة التي تولى فيها أبو جعفر الخلافة فاستمرت الى ثلاث سنوات أيضاً ولم تقمع إلا في سنة ٧٠٧ م . ومن المتيقن اذن أن البعثة العسكرية التي جاءت الى الصين في سنة ٧٥٥ م ، لم تكن من قبل أبي جعفر المنصور ، لأن الوقت لم يتسع لذلك . ثم أن الحوادث التي كانت تسود أرجاء الخلافة في أول عهده ، لا تسمح له أن يفرق قواته العسكرية الى وحدات متفرقة ، وحدة لتعضيد أركان الخلافة ، وأخرى لمقاومة أتباع أبي مسلم الخراساني ، وثالثة لاعانة امبراطور الصين . وأما التي جاءت في سنة ٧٥٧ م ، فمن المحتمل أن يوجد فيها عدد كبير من العرب ، كما أشار الى ذلك ، (تانغ شو) القديم ، مؤكداً بمصدر آخر صيني^(٢) ، وإن سكنت المصدر العربي في هذا الصدد سكوتاً تاماً . بيد أننا نميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء

(1) The Old Tang Shu : Vol. 10. P. 15.

(٢) أنظر باب العلاقة الدبلوماسية

الغرب لم يكونوا يبعثون من بغداد ، بل من أواسط آسيا . لأن قتيبة بن مسلم
والذين جاءوا بعده من أولى الأمر قد أمروا جيوشهم أن يحملوا عيالهم ليضدوها
في المدن التي استوطنوها . وبما لاشك فيه أن للعرب جيوشا في هذه المدن ، فكان
سهلا على المنصور أن يأمر والى بخارى مثلا أو والى سمرقند ، أن يساعد امبراطور
الصين بما تحت قيادته من الجيوش ، إن جاء يستنجده ، لأن ذلك أسرع طريق الى
النجدة وأقرب مسافة الى حدود الصين . وكان قائد هذه البعثة يعبور ، كما ذكرت
من قبل . وهو أو يغوري لا عربي . ومن المحتمل أيضا أن العرب الذين في البعثة
كانوا تحت إمرة هذا القائد . ويجب علينا أن نتمسك بهذا الرأي في هذه المسألة
التاريخية ، حتى يظهر لنا دليل جديد من المصادر التي لا تزال عنها غافلين .

لقد قلت أن ثورة آنلوشان قد وقعت في سنة ٧٥٧ م نهائيا ، وكان ذلك بفضل
أولئك الاوغرة والعرب الذين جاءوا الى مساعدة الامبراطور (سو جونغ) .
وبعد ذلك خيروهم بالعودة أو الإقامة . فقد عاد من عاد بعد مالتى من الحفاوة
والاكرام من أمراء الصين الذين حاولهم في تثبيت أركان الدولة ورد الحكم الى
ذويه . وأقام من فضل الإقامة فيها . ويروى الشيخ بيرم التونسى الذى قد تقدم
ذكره ، أنهم أقاموا على شروط وهم استقلالهم في إدارتهم الخصوصية وعباداتهم
وشعائرهم فأجاز لهم مطالبهم . لكن فرقهم على المدن العظيمة في ملكته . وصار
في كل مدينة ، مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين في
أحكامهم الخصوصية متسكين بالدين ^(١) وأجاز لهم أية التزوج بينات السكان
ومصاهرة الأعيان فكثروا في مدة وجيزة وانتشروا . ومن ذلك الحين ازداد
الود بين أسرة تانغ ورؤساء الاوغرة من جهة ، وكثرت السفارات بين الصين
والعرب من جهة أخرى . وستجد تفاصيل السفارات في باب مستقل .

وأما العلاقة الودية التي بين أسرة تانغ ورؤساء الاوغرة ، فقد ازدادت
توثقا بعلاقة دموية ومصاهرة . ونعرف هذا من تاريخ الصين العام الذى ذكر فيه

أن ثلاثة من رؤساء الأواغرة قد تزوجوا في سنوات بين ٧٥٠ و ٧٨٥ م ، بأميرات تانغ . لأسباب سياسية . وكان أول من تزوج من رؤساء الأواغرة ، أميرة يقال لها (نينكو) ، هو باشل خان المعروف في تاريخ الصين باسم (اينفو) وكان (وانيو) ، أمير (هانجون) مكلفا بمرافقة الاميرة الى تركستان . وقد صاحبها إمبراطور الصين من عاصمته الى مدينة (هانغ يانغ) ، حيث ودعها بدموع حارة وأنين حزين^(١) . (هذا من وقائع سنة ٧٥٨ م) .

وبعد أربع سنوات استنجد إمبراطور الصين مرة أخرى بالأواغرة على أحد أنصار آنلوشان وقد خرج وهاجم العاصمة الشرقية ومدينة (هانغ يانغ) . فإي قطن خان استغاثه وجاء بجيوشه فرد ما سقط في أيدي النوار من المدن الى ملك الإمبراطور (داي جونغ Dai Tsung) ابن (سوجونغ) . فالجائزة التي نالها قطن خان لهذه الخدمة الجليلة ، هي يد أميرة من صلب أمير (واي غين Wei Ghen Wang) ، الذي قد استعان مرة بقوات المسلمين على إشعال ثورة على الإمبراطور . فقتل ، وبعد وفاته أدخل ابنته في قصره ، فرباها الى الرشد . ثم زوجها بقطن خان^(٢) .

ألا أننا نرى واقعا محزنا قد وقع في هذه الايام ، وهو قتل تسعمائة أويغوري في مدينة (جنغ وو) في سنة ٧٨٠ م . وكان ذلك بسبب غضب حاكم المدينة على رئيس قافلة الأواغرة ، وقد نشأ ذلك من سوء التفاهم . وكان الواقع ، كما أخبرنا تاريخ الصين ، أن بعض العشائر من التتار كانوا يترددون على عاصمة الصين للتجارة وكانوا يختلطون مع أهلها ويظهرون أنهم من الأواغرة . ثم أنهم لم يصفوا في معاملاتهم مع السكان فلاهم أهل العاصمة وكان فيها بعض تجار الأواغرة أيضا . غير أن السكان لم يستطيعوا التفريق بين هؤلاء وأولئك ، فأمر إمبراطور الصين رئيس الأواغرة وهو (جون تون) أن يعود مع أصحابه إلى

(1) Thong Chinag : Vol 56. P. 9.

(2) Thong Chinag : Vol. 57. P. 1.

تركستان ، فسافروا مطيعين أمر جلاله الامبراطور حتى وصلوا إلى مدينة (جنغ وو) ، حيث مكثوا بضعة شهور . وكان بها رئيس التجار التتار الذين قد تقدم ذكرهم فزومت مشاجرات بين القريةين لأجل الامور التجارية . فحمل رئيس التتار حاكم المدينة على قتل (جونون) وجميع التجار الذين كانوا معه فهلك في هذا الحادث أكثر من تسعمائة أو يغورى .

وقد أسف الامبراطور أسفا شديدا على هذا الحادث ، فأخذ الخوف من حملة الاواغرة بسببه فاستشار الوزير (لي مي) فيما يجب أن يفعل . فقال : ليس من مصلحة الدولة أن تبقى منقطعة عن الاواغرة بعد استخدامهم في دعم أركانها . فإن الصلح مع الاواغرة شمالا ، والاتصال ببلاد بوننان جنوبا ، وإيجاد الرابطة مع الهند والعرب غربا ، من الامور التي يجب ألا تؤجل على أى حال من الاحوال . فقال الامبراطور : لماذا ؟ قال : أن الصلح مع الاواغرة ، قوة تمنع هجوم التتار على الحدود ، والاتصال ببلاد يونتان ، أول خطوة في ضمها إلى الامبراطورية ، وأما العرب فأقوى الشعوب في هذه الايام ، وأما الهند فقد أظهرت ودها نحو الصين من قديم الزمان .

فاقتنع الامبراطور بما قال الوزير . فبعث رسولا إلى بلاد الاواغرة ليحدد علاقة الصداقة بين الطرفين . فعقد معاهدة الود معهم ، وقواها بتزويج أميرة (هانغ آن) من أميرات (تانغ) بقطلو خان رئيس الاواغرة (١) .

لقد صدقت الحوادث الاخيرة ، ما قال الوزير (لي مي) ، لأن قبيلة من التتار قد هاجمت حدود الشمال ، فأرسل رئيس الاواغرة قائدا من قواده إلى مساعدة الامبراطور . وطرده المغيرين إلى حيث أتوا .

والحقيقة أن الاواغرة المقيمين بتركستان كانوا أصدقاء للصين وأنصارها في مصائبها ومحنتها فلدلك نرى في تاريخ الصين التنويه بخدماتهم في مواضع كثيرة وكانت علاقة المصاهرة بين رؤسائهم وأمرأه أسرة تانغ أكبر عون على تعزيز

(1) Thong Chinag : Vol. 58. P. 22.

علاقة حسن الجوار - حتى اعتمد كل طرف على الآخر ، في النجدة والمساعدة في أيام الحرب ، والتعاون والتعاقد في أيام السلم .

هذا وأما علاقة العرب بالصين من الناحية السياسية ، فلا نعرف عنها كثيرا بعد واقعة (تالاس) ، لأن تاريخ العرب وكذلك الصين صمت بعد ذلك اليوم المشهور . إلا أننا نجد في تاريخ مالك جين ، مؤلفه الأستاذ كاركورن ، ما يأتي : « ما هو جدير بالذكرى في آخر عهد (سوجونغ) ، الذي حكم الصين سبع سنوات (٧٥٦ - ٧٦٢ م) ، أن السفير قد ورد من خليفة بغداد ، يحمل التحف والهدايا . فودعه بالتعظيم الوافر والاكرام الفائق^(١) . ثم تكلم عن علاقة أسرة سونغ (Sung) بخلفاء بغداد وقال : كان (جوكوانغ أين) وزيرا لآخر عاهل من أسرة تانغ . فلما رأى ضعفه في تنظيم أمور الدولة ، غصب منه زمام الحكم ، نأسس دولة لاسرته المعروفة في تاريخ الصين بأسرة سونغ . وكان شجاعا ، مدبرا كبيرا ، وسياسيا عظيما . نعم ، أنه لم يكن عالما أو فاضلا ، غير أنه يعرف الناس خيرهم وشرهم . وإنك لتعظم شخصيته وتقدر عظمته ، حين ترى العلماء يكون بكاء الأطفال إذ نعى اليهم فترامهم أسفين أشد الأسف على فراقه يعزى بعضهم بعضا أياما .

وكان ملك الختن وأمراء تركستان أوفدوا سفراهم اليه وقد بعث اليه هدية نفيسة مطيع الله أبو القاسم من خلفاء بغداد ، في سنة ٣٦٢ هـ ، مرفقة برسالة المودة والاخلاص^(٢) .

لكن كل هذا ليس من صميم العلاقة التي نحن بصدد ما هنا لأن العلاقة السياسية هي ما نرى فيها من حركات عسكرية ، ووقائع حربية ، ومظاهر الغزوات وآثار الخوف على الوجوه وعلامات الرجاء في الأخذ والرد . وأما حضور السفراء بالهدايا والرسالات الودية : فله باب مستقل تحت عنوان « العلاقة الدبلوماسية » ، وستمر بك فيما بعد .

(١) كاركورن . ص ١٧٥

(٢) أيضا : ص ١٨٣

الباب الثالث

في العلاقة العلمية

(١) الصين وكتاب الاسلام :

لقد عرفنا في الباب السابق العلاقة التي كانت بين الصين والعرب من الناحية السياسية والحد الذي وصلت اليه. لكن ليس معنى هذا أننا نظن أن علاقة العرب بالصين كانت منحصرة في هذه الناحية الوحيدة ، غير متعدية الى النواحي الأخرى لأن العلاقة التجارية كانت أقوى وأطول مدة من العلاقة السياسية . وعندنا أدلة كثيرة من المصادر العربية وغير العربية ، تنطق بوجود هذه العلاقة بين الصين والعرب وامتدادها مدة طويلة . لكن قبل أن أخوض في البحث عن العلاقة التجارية أرى من الضروري أن نحقق العلاقة العلمية بين هاتين الامتين . لأن بحثنا عن العلاقة التجارية يحتاج الى معرفة ما قال كتاب الاسلام عن الصين وأحوالها المختلفة ، كما يحتاج الى معرفة ما علمه الصينيون عن العرب وبلادهم . فلذا أقدم العلاقة العلمية على العلاقة التجارية .

ولتقف هنا قليلا أمام ما كتب كتاب الاسلام ، وأكثرهم العرب ومنهم الايرانيون عن الصين وما يتعلق بها من الأحوال والامور التي لها صلة إما بالتجار ، أو بالدين ، أو بالصناعة ، ونفحصها فحصادا دقيقا . فنقبل ما هو من المعقول ، ونرفض ما هو بعيد عن المعقول ، حتى نعلم من أقوال العرب أنفسهم ، كيف صوروا الصين في الأيام الغابرة ، والى أي حد قد أصابوا في تصويرهم لها ؟

وأما علم الصينيين عن العرب وبلادهم ، فله كتاب خاص طبع منذ زمان ، باللغة الانكليزية وهو بقلم الاستاذ براتشنايدر (Breitschneider) سماه « علم

الصينيين القدماء عن العرب، فمن يريد التوسع في هذا الموضوع، يستطيع أن يراجع هذا الكتاب بدون أي تعب ولم أدخل في أبحاثي فصلاً خاصاً عن علم الصينيين عن العرب، لأنني أرى أن هذا الكتاب يغني عن هذا الفصل. غير أنني سأشير إليه بين حين وآخر، عندما يدعو المقام إلى ذلك في الصفحات الآتية.

وبما لا ريب فيه أن معرفة علم العرب عن الصين، متوقفة على معرفة الكتاب الذين يوجد في مؤلفاتهم المتنوعة، ذكر الصين وأحوالها. فحينئذ يجب علينا أن نستقصى هؤلاء الكتاب أولاً، ثم نلقي نظرة فاحصة إلى خصوصيات بياناتهم عن الصين في زمنهم. ومن المعلوم أن كثيراً من كتاب العرب والإسلام قد تكلموا عن الصين. ومنهم من قد عاشوا في القرن التاسع من الميلاد ومنهم من عاش بعد ذلك، حتى القرن الحاضر — القرن العشرين — وأياماً كان أنفسهم في هذا الباب بالترتيب الزمني لما نذكره من هؤلاء الكتاب.

وأولهم ابن خردادبه — هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خردادبه، فارسي الأصل. وكان جده مزدكياً ثم أسلم، وكان أبوه حاكماً على طبرستان مدة طويلة ولقد سافر ابن خردادبه إلى بغداد واتصل بإسحاق الموصلي. فسكك بعراق العجم مدة بوصف أنه مدير عام لديوان البريد، وله كتاب سماه المسالك والممالك، كتبه في مدينة (سامرا) بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م. بين فيه محطات البريد ومبالغ الإيرادات لكل ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة العباسية (١).

وقد طبع هذا الكتاب بمدينة ليدن (Leiden) في سنة ١٨٨٩ م مع ترجمة فرنسية، ذكر فيه طريق البر والبحر إلى الشرق، والمراحل التي بين كل مدينة وأخرى، أو المسافة بين كل مرفأً وآخر. وذكر فيه ما يتعلق بالتجارة في مرفأء الصين وما إلى ذلك مما تجده في مكانه من هذا الكتاب.

سليمان التاجر السيرافي. يقول علماء الغرب ومنهم غسٹاف لبون، أن أول من ترك لنا معلومات عامة محفوظة في اللغة العربية عن بلاد الصين وتجارة العرب فيها،

(1) Ferard: Relation des Voyages. P. 33.

هو سليمان التاجر السيرافي الذي سافر إلى بلاد الصين بحرا ، أكثر من مرة ، عن طريق سواحل الهند وجاوة . ولست عارفا بمبلغ صحة هذا الرأي من جهة الحقيقة . لأنني أجد أن ابن خرداذبه لم يكن متأخرا عن سليمان . بل أنه سبقه فعلا من جهة تاريخ الكتابة . لأنه قد كتب كتابه « المسالك والممالك » ، بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م . وأما كتاب سليمان المعروف الآن باسم « سلسلة التواريخ » ، وأضاف إليه أبو زيد الجزء الثاني ، فتمت كتابته في سنة ٨٥١ م ، أي بعد ثلاث سنوات بالنسبة إلى كتاب ابن خرداذبه . ومن الممكن أن معرفة سليمان عن بلاد الصين ، أسبق من معرفة ابن خرداذبه ، لكنه لم يسبقه في الكتابة عنها . وإنما نقول أن ما كتبه ابن خرداذبه عن الصين هو من مجرد علمه الذي حصله بسؤال الناس عنها وهو مقيم ببغداد ، أو بوسيلة أخرى لا سبيل لنا إلى معرفتها اليوم . إذا كان الأمر كذلك ، كما اعتدنا ، فعلمه عن الصين لم يكن مبنيا على التجارب والملاحظات ، بخلاف ما قاله سليمان السيرافي ، لأنه قد سافر إليها مرارا فشهد أحوالها بعينه . فجاء في كتابه بما عرف لم يسبقه إليها أحد . وكانت أقواله تتفق مع الواقع والحقيقة في أغلب الاحوال ، إلا ما ذكر عن غيره ولم يكن شاهدا عيانا .

وإذا قابلنا ما قال سليمان عن الصين مع أقوال ابن خرداذبه في « المسالك والممالك » ، فأننا نجد أنهما يتفقان في أكثر الأشياء ومختلفان في بعض الأمور . فمما يتفقان فيه ، طريق البحر من البصرة إلى الصين ، مارا بسواحل الهند وسرنديب وجاوة إلى أول مرافئ الصين (خانفو) ، وبيع التجارة التي كانت العرب تستوردها إلى الصين . وما يخيلنا فيه ، أن ابن خرداذبه ، لم يذكر المسلمين بالزيتون ، مع أنه ذكر وجودهم بسيلا (كوريه) . ولعله أول من ذكر ولاية قانسو في أقصى الصين وجزيرة القوق (اليابان) بشرقها ، ولم يكن سليمان عالما بوجود المسلمين بسيلا بسبب عدم ذهابه إلى هناك ، لأن مواضع وروده كانت منحصره في مرافئ الصين الجنوبية فقط ، مثل الزيتون ، وخانفو ، وخنسا ، وغيرها من المدن الساحلية فجمع في كتابه معلومات كثيرة عن الصين وإن كان رجلا تاجرا لا يعرف كيف يتعمق

في المشاهدات أو يعمل ما يراه من الغرائب . وأنه قد وازن أيضا بين بعض طادات الصين وعادات الهند . وعندنا أن لهذين الكتابين قيمة علمية عظيمة تختلف من جهة واحدة . فقيمة كتاب المسالك والممالك ، ، فيما يتعلق بالصين ، في صواب النظرية العلمية التي لم تخالف الواقع ، وقيمة كتاب سلسلة التواريخ ، ، في صحة المشاهدات التي لا تختلف كثيرا عن آراء أهل الصين أنفسهم . فلذا أصبح هذان الكتابان منبعين لمن جاء بعدهما من علماء الجغرافيا والتاريخ في تحقيقهم أحوال الصين وما يتعلق بها من العادات والأخلاق .

وأما كتاب سلسلة التواريخ ، فكما نراه ، في الجزء الأول بقلم سليمان الناجر السيرافي وقد أتمه في سنة ١٨٥١ م . واتفق على صحة هذا التاريخ جميع العلماء . والجزء الثاني لأبي زيد الحسن السيرافي وهذه الرحلة هي أول كتاب عربي وقف منه علماء أوروبا على أحوال الصين وعلاقتها بالعرب من ناحية التجارة . ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٧١٨ م بقلم ريناندو (Abbe Renandot) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب كما في رأى الكثير من علماء الغرب هو أقدم الكتب العربية في الرحلة والجغرافية ، وقد بقي على الدهر ولم يتطرق إليه البلى والفناء كغيره من المصادر الأخرى . ووجد في هذا الكتاب نور يهدى علماء أوروبا إلى معرفة أحوال البلاد الشرقية القاصية في القرنين الثاني والثالث من الهجرة أو الثامن والتاسع من الميلاد ، فلذا أنكروا صحته وحملوا على المترجم ورموه بارتكاب جرم علمي وقالوا : أن ريناندو هو المخترع لهذه الأقوال عن علاقة العرب بالهند والصين (١) ، أنه لم يذكر في نسخة الترجمة أو نسي أن يذكر في الترجمة . النسخة الاصلية التي نقل منها إلى اللغة الفرنسية ، قال السير أيليو (Sir Elliot) ولكن الزمن منصف ، ولا يظلم من صنع صنيعا للعلم . فكشف للناس بعد مئات من السنين ، أن المترجم كان بريئا من تلك التهمة . فأن النسخة الاصلية التي نقل

(1) Sir Elliot : History of India, Vol 1, P. 3.

مهارين اندوه كانت محفوظه في خزانه جوارب (Golburt Library) فوقعتم بمجموعات هذه الخزانة بعد وفاة صاحبها في يد كونت دى سائتلاى (Comte de Seignley) ثم فى ملكية دار الكتب الفرنسية الالهية . وهذا على هذه النسخة الفريدة عالم فرنسى ذو صيت بعيد ، معروف باسم دى جينيه فكتب عنها عدة مقالات فى مجلة الجمعية الآسيوية فى الجزء الثالث والثلاثين .

لقد ذكر سليمان أن أهل الصين والهند انفقوا على أن فى الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت أربعة ملوك ، وحسبوا أن ، أعظمهم هو ملك العرب أى خليفة بغداد . لأنهم اعترفوا بلا نزاع ولا تردد بأنه أكبر الملوك فى العالم لثروته الواسعة ، ولعظمة قصره الشاهق ، ولشوكته العسكرية ، ولأنه رئيس للدين الخفيف السامى الذى ليس له نظير فى الاديان .

فوضعوا ملك الصين فى الدرجة الثانية عظمة وقوة ، ثم ملك اليابان ثم ملك بلهرا بالهند . وذكر سليمان أيضا حالة البحر والتجارة وأسماء البضائع والموانئ بمخيلج فارس وسواحل الهند وجنوب الصين ونظام الحكم وعادات الصينيين وغيرها من الأمور الأخرى التى سنعالجها فى محلها .

أبو زيد الحسن السيرافى - فى الجزء الثانى من « سلسلة التواريخ » ، وهو بقلم أبى زيد الحسن السيرافى ، تجد تصديق ما حكى سليمان عن الصين فى الجزء الأول . غير أن ما ذكر فيه من الطعام الذى يقدمه أهل الصين إلى موتاهم ، وأنه إذا وضع بالليل عند الميت ، أصبحوا فلم يوجد فقال أبو زيد - لا أصل لهذه الحكاية المنسوبة إلى الصينيين .

كان أبو زيد - ولو أنه لم يذهب إلى الصين وقد اعترف بذلك علانية فى كتابه - مواظبا على الاشتغال بتكميل ما كتب سليمان عن الهند والصين . ولعله قد سأل كثيرا من الذين قد سافروا إلى تلك البلاد عن أحوال أهلها . فجاء بمعلومات أفيد بما رواه سليمان من جهة تاريخ الاسلام فى الصين . وهو أول من ذكر مهجة

وهيان بن الأسود إلى عاصمة الصين فقل عنه المسعودي في كتابه الشهير «مروج الذهب ومعدن الجوهر»، وأهل كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان، لم يطلع على ماورد في كتاب أبي زيد الحسن السيرافي في هذه النقطة. فلذا ينسب أصل الرواية إلى المسعودي، حتما أجرى قلمه السيال في بيان وصول الإسلام إلى الصين، تمليقا على كلمة (الصين) في «حاضر العالم الإسلامي». لقد لاحظ أبو زيد تغير الأمور في الصين في سنة ٢٦٤ هـ وبين سببه. ويظهر أن ماجاء في تاريخ السكامل لابن الأثير في الجزء السابع، منقول عن أبي زيد، فنقل عن ابن الأثير غيره من العلماء المتأخرين، غافلا عما ورد في الجزء الثاني من سلسلة التواريخ.

كان سليمان تاجرا لحسب، لم يعرف كيف يكتب على أصول علمية. فلا ترى في كتابه إلا مشاهدات تافهة ومعلومات مجردة عن التعميلات العملية والفرص المنطقية. غير أن لهذه المشاهدات أو المعلومات أهمية علمية كبيرة في نظر المحققين، لأنها من التجارب، ومبنيّة على الحقائق لم تشوهها التعميلات المنطقية. وأما ما أضافه إليه أو زيد من المعلومات فلم يكن أقل أهمية من ناحية العلم والتاريخ، مما كتب سليمان فان بيانه عن مهمة وهيان بن الأسود، يكشف لنا إلى حد كبير موقف أمبراطور الصين من الإسلام.

اتفق علماء الغرب على أن كتاب «سلسلة التواريخ»، من الكتب العربية التي يجب على الباحث أن يستند إليه أو يراجعها، إن أراد البحث عن علاقة العرب بالصين، أو كتابة شيء عن هذه الناحية، كما يجب عليه أن يراجع المسعودي والبيروني في البحث عن أحوال الممالك الشرقية الآسيوية في القرون الوسطى من الميلاد وسنعود إليه في الفصل الثاني.

اليقوبى - كان من معاصري أبي زيد الحسن السيرافي، أحمد بن أبي يعقوب ابن جعفر بن وهب وادبة، المعروف باليقوبى وهو من بنى العباس، وكان له اتصال بالعائلة الطاهرية بخراسان. وقد قام برحلات إلى الهند وإلى مصر، وإلى المغرب فألف كتابا في تاريخ بنى العباس ورأى الأستاذ فران (Ferand)،

أن هذا الكتاب في الحقيقة يعتبر خلاصة تاريخ العالم . وهو في جزئين وقد انتهى من وضعه في سنة ٨٧٢ م .

ولقد ذكر اليعقوبي طريق البحر من السيراف الى الصين . ويظهر من بيانه في هذه النقطة أنه يختلف مع ابن خرداذبه . فن أقوال اليعقوبي أن الصين بسلام واسعة ، اذا أراد أحد السفر الى الصين بحرا ، يجب عليه أن يجاوز سبعة أبحر ، يختلف كل واحد منها ، في اللون والريح والأمواج وغيرها من المخلوقات البحرية والاول من هذه البحار ، بحر فارس ، يبحر فيه تاجر من السيراف وينتهي برأس الجمجمة . ورأس الجمجمة ضبق يصاد فيه اللؤلؤ . والاني البحر الذي يتدى برأس الجمجمة ويقال له بحر (لاروى) . وهو بحر كبير فيه جزائر وقواق (١) وسكانها من جنس الزنج ، لهم ملوك وفي هذا البحر أسماك عظيمة ، وعجائب كثيرة ، وأشياء غير معروفة . والثالث هو بحر (المهركنه) ، حيث تجد جزائر سرنديب المشهورة ، بالأحجار الكريمة والأشياء الاخرى . وفيها يوجد القصب وكذلك الورد . والرابع يقال له بحر كلاه بار ، والماء فيه قليل والافاعي فيه عظيمة ، توجد فيه أشجار الكافور بكثرة . والخامس بحر (سلاهط) ، بحر عظيم كثير العجائب وفير الغرائب . والسادس بحر (كندرنج) والسابع بحر صنخي وهو بحر (تشان هاى) المعروف في جغرافيا الصين حيث يلتقى ببحر آخر يقال له (كينجلى) وهذا بحر الصين يصعد منه الى كورنهر عظيم . ومنه الى مدينة (خانفو) . وهذا النهر هو سد الرباط المسكرى والبلاد المسكونة للصين وأما (خانفو) فهي مدينة عظيمة من وادي الصين يقصد اليها ملاحو المسلمين (٢) . وابن خرداذبه الذي كتب قبل اليعقوبي بأربع وعشرين سنة ، لم يذكر هذه الابحر السبعة . وما ذكر عن طريق البحر الى الصين ، إنما هو من البصرة الى

(١) من الظاهر أن (وقواق) هذا غير ما ذكر في ابن خرداذبه وذلك بشرق الصين .

(٢) Ferand : Vol. 1. P. 50.

مايط ، مارا بسواحل فارس ، ومن مايط ذات اليسار الى جزيرة تيمومة ، وفيها العود الهندي ، والكافور . ومنها الى قمار مسيرة خمسة أيام . ومن قمار الى الصنف (الصنخي في اليعقوبي) على الساحل مسيرة ثلاثة أيام . ومن الصنف الى لوقين (تونكين Tonkin) الآن وهي أول مرافئ الصين ، مائة فرسخ في البر والبحر . ومن لوقين الى خانفو وهي المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام في البحر ، وعشرين يوماً في البر . ومن خانفو الى خانجو (Hangchow) مسيرة ثمانية أيام . وفيها مثل ما في خانفو . ولكل مرفأ من مرافئ الصين نهر عظيم تدخله السفن ويكون فيه المد والجزر (١) .

وإذا وازنا بين أقوال السكاكين ، نجد أن اليعقوبي ذكر هذا الطريق من حيث الابحر ، وأما ابن خرداذبه فقد قرر مسافات السفر بين المرفأ والآخر . فلذلك لا نرى في اليعقوبي أسماء المدن بسواحل الهند وجاوة ، كما لا نرى ذكر الابحر في ابن خرداذبه . إلا أننا نجد أنهما متفقان على ذكر مدينة خانفو ، بأنها إحدى موانئ الصين الكبرى ، التي اجتمع بها تجار العرب والفرس وزادوا فيها رونقا وبهاء بوجودهم ووجود بضائعهم .

ابن الفقيه - أبو بكر بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمداني ، يستحق ذكرنا هنا ، لأنه من علماء الاسلام الذين عاشوا في أوائل القرن العاشر من الميلاذ . وكتاب البلدان الذي ألفه ابن الفقيه في سنة ٩٠٣ م ، يتعلق بموضوعنا ، ولو أنه لم يأت بشيء جديد من المعلومات عن علاقة العرب بالصين ، لكننا نجد في كتابه تأكيداً كيداً لما قال ابن خرداذبه وسليمان واليعقوبي عن الجزائر والمدن التي في الطريق البحري إلى الصين . ثم هناك فرق بين بيانهم وبين السالفين . وهو أن ابن خرداذبه لم يذكر إلا جزيرة واحدة باسم وقواق وكذلك اليعقوبي . والمراد منها في اليعقوبي هو جزيرة بين رأس الجمجمة وهر كند . لكننا إذا نظرنا الى كتاب البلدان نجد أن ابن الفقيه قد ذكر وقواقين ، وقواق بخلاف الصين وهذا يوافق ما جاء في ابن

(١) ابن خرداذبه ص ٦٨

خرداذبه ، ووقواق آخر سماه ابن الفقيه بوقواق المتوسط الذى يوجد فيه ذهب أدنى درجة مما يوجد بوقواق الصين . ويظهر من وصف ابن الفقيه لهذه الجزيرة ، أنه يريد بها جزيرة مدغا سكر ، أو جزيرة فى وسط بحر الهند بين خليج فارس ومومباى . فوصف بحر الهند بأنه بحر عظيم يتصل بالفلزم عن وادى القرى إلى البريرة وعمان ، يسير إلى ديبل وملتان ، حتى ينتهى إلى جبال الصنف والصين .

وفرق آخر . عند ابن الفقيه هو أنه إذا أراد أحد أن يسافر إلى الصين ، أو إلى عدن ، أو إلى سلاط ، يأخذ الطريق عن المغرب ويمامة وعمان . وإذا أراد السند فليأخذ الطريق عن خليج فارس والسيراف (١) .

وأما ما قاله ابن الفقيه عن « أبواب الصين » فهو منقول عن سليمان السيرافى . ثم أتى الأستاذ فران فى كتابه « علاقات الأسفار » ، بمقارنة بين عبارة ابن الفقيه وعبارة سليمان السيرافى . ولا يظهر فرق كبير بين العبارتين (انظر ابن الفقيه فى كتاب « علاقات الأسفار ») . وما يلى هو من كلمات سليمان فى كتابه « مسأله التواريخ » .
« من صندرفولات إلى أبواب الصين وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة ، وتمر فيها المراكب ، فإذا سلم الله من صندرفولات ، وصلت المراكب إلى الصين فى شهر الا أن الجبال التى تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، فإذا جازت السفينة ، والأبواب ودخلت الخور ، صارت إلى ماء عذب ، إلى الموضع الذى ترسى إليه من بلاد الصين وهو خانفو (٢) . »

وزاد ابن الفقيه بعض كلمات بعد خانفو وهى : « يكون فيه مدوجزر فى النهار والليل مرتين ويقولون أن البضائع الصينية ، أعلاها وأحسنها يستوردتها تجار العراق . »

وما قال عن تباين العادات بين أهل الهند وأهل الصين ، منقول عن سليمان أيضا . لكن أقواله عن الفخار الصينى والمصاييح الصينية وأشياء أخرى من

(1) Ferand : Vo1 . 1 . P. 56.

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٢١

الأواني الخزفية ، من معلوماته الخاصة عن صناعة الصينيين . ويظهر من كتب العرب ، أن ابن الفقيه ، هو أول من ذكر صناعة الصين اليدوية من كتاب الاسلام .

ابن رسته - من معاصري ابن الفقيه ، واسمه أبو علي أحمد بن عمر ألف كتابا سماه العليقة النفيسة في سنة ٩٠٣ م . فالقسم الجغرافي من هذا الكتاب ، كونه الجزء السابع ، محفوظا في متحف لندن الآن ولقد نشر هذا الجزء بعناية المستشرق (دي جوز De Goeje) في مدينة ليدن سنة ١٨٩٢ م . ومن كلام ابن رسته ، أن من أراد الصين يقطع شرق بحر الهند^(١) . وأقواله عن بلاد سيليا ، كانت منقولة من غير شك ، عن ابن خردادبه .

المسعودي - يجب علينا ألا نترك المسعودي ، ونحن في سبيل ذكر كتاب (الاسلام الذين نمنى بالنظر الى مؤلفاتهم في هذا الفصل . أن هذا العالم الجليل ، كما يعرف القراء ، قد ولد في آخر القرن التاسع من الميلاد ببغداد . وكان عالما كبيرا ، عميقا في العلم ، سياحا كثير السياحة ، وأنه قد صرف من عمره ٢٥ عاما في السياحة العملية والجولان في الممالك الاسلامية المجاورة لقاعدة الخلافة العباسية ، مثل ماوراء النهر والهند . وله تحقيقات علمية ومشاهدات قيمة دونت في الكتب والاسفار وأشهرها مروج الذهب ومعادن الجواهر ، قد طبع عدة مرات في السنين المختلفة في عواصم الغرب والشرق ، في الهند ومصر ، وفي أوروبا ، وعلى هوامش نفع الطيب .

وأنة ذكر أشياء كثيرة عن الصين منها سفر وهبان بن الأسود الى بلاد الصين فنقل هذا الخبر عن أبي زيد الحسن السيرافي ، الذي اجتمع معه في البصرة في سنة ٥٣٠٣ - ٩١٦ م . ومنها رسالة ملك الصين الى أنشروان ووفد الصين إلى الخليفة المهدي ، ومنها عادات الصينيين في العبادة وديانانهم ، ومنها أخلاق ملوكهم ومراكب الصين الى عمان وسيراف ، ومنها أنهار الصين وظباء المسك . وكل

(1) Ferand : Vol. 1 . P , 69 .

ما ورد في مروج الذهب ، له قيمة علمية ، سواء أكانت منقولة عن غيره ، أو من مشاهداته نفسه . ولقد اعترف جميع العلماء بهذه القيمة العلمية ، واتخذوها في أبحاثهم حجة على غيره ، عند ما يتكلمون عن الصين والامم الشرقية في الايام الغابرة وسنعود اليه عند ما نتحدث عن معلومات العرب عن الصين .

أبودلف الينبجي - (٩٤٠ م) . بعد المسعودي ، كتب أبودلف الينبجي شيئا غير قليل عن الصين . وكان شاعرا معروفا ، بأبي دلف مصعار بن مهمل ، المولود بينبوع ، على ساحل البحر الاحمر . سافر الى خراسان واتصل بأل سامان في القرن العاشر من الميلاد . وله رحلات من خراسان الى الصين ، وقد دون مشاهداته في كتاب سماه (عجائب البلاد) وقال الاستاذ فران في (علاقات الاسفار) ، أن كتابه هذا ، قد نشر لأول مرة في ترجمة ألمانية ، ملحقا بعجائب المخلوقات للقزويني في سنة ١٨٤٥ م . فنعته أن هناك نسخة مخطوطة بألمانيا ، لا يتبع بها إلا العلماء المتخصصون . لكننا لسنا محرومين من معرفة ما ورد في هذا الكتاب . لاننا على كل حال ، نجد طرفا مهما في ياقوت ، والقزويني ، وابن النديم . قال السير ايليوت ، أن القزويني يشير اليه كثيرا في كتابه (عجائب المخلوقات) (١) . وأما ياقوت فيروي عنه بعض الشيء ، عند التكلم عن الاحوال في تركستان ، وكان سفر أبي دلف الى الصين في حكم السلطان نصر بن أحمد المتوفى سنة ٩٤٣ م ، ليخطب ابنة ملك الصين لأحد أبنائه . وأما ماورد في ابن النديم ، فستراه في موضع آخر .

الادريسي — من الشخصيات البارزة في عالم العلم ، أبو عبدالله محمد بن الادريسي المولود بسبته المراكش سنة ٩٣٣ هـ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ . قد جال هذا السياح الجغرافي بلاد الغرب فرجع واستوطن بجزيرة صقلية حيث كتب كتابه الشهير المعروف بـ بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ولا يخفى على أحد من العلماء أن لهذا الكتاب قيمة علمية ، خصوصا في جغرافيا الممالك الاسلامية والشرقية لكن المسلمين لم يعتقوا بهذا الكتاب كما ينبغي ولم يخرجوه للباحثين بطبعة جديدة

(1) Sir Elliot : History of India . Vol . 1 . P . 96

أنيقة ، سليمة من الاغلاط ، مقرونة بالاصطلاحات الحديثة في أسماء الجغرافيا ،
خلافًا لعلماء أوروبا فهم قد نقلوا هذا الكتاب إلى لغاتهم ، استفادة وإفادة . وأما
الترجمة الفرنسية فوضعها الأستاذ يانبر (Janbert) وطبعها في باريس
بين ١٨٢٦ و ١٨٤٠ م .

كان هذا المؤلف يتكلم في ذلك الزمان البعيد ، عن مدن الصين وطرقها
والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، وأحوال الترك وتجارهم مع الصين ، وطريق رفع
الشكاري إلى ملك الصين ، وقد كتب كل هذا وهو قديم بصقلية ولم يسافر إلى
بلاد الصين ، أو إلى البلاد المجاورة لها . أما من أين جاءته هذه المعارف وكيف
حصلها ؟ فذلك مالا سبيل إلى معرفته في الوقت الحاضر . إلا أننا نقيس بمقياس
الظن ، أنه اقتبس بعضها ، من الكتب القديمة لمؤلفين قبل زمنه وبعضها الآخر كان
يستفيده من كل من ورد من بلاد الصين من التجار والرحالين ، كما فعل أبو زيد الحسن
السيرافي من قبل . لأن حصول المعارف بهذه الطريقة ، لم يكن مستحيلًا ، إذ
كان أهل الأندلس والمغرب يعرفون شيئًا كثيرًا عن الصين في القرن الرابع
الهجري . ويظهر من ابن النديم أن الأندلس كانت لها علاقة تجارية مع الصين
وقد تردد تجارها على الصين مع أخوانهم من الإسلام من العرب أو الإيرانيين .
وأول من ذكر ذهاب أهل الأندلس إلى الصين هو أبو دلف الينبعي الذي
ذكرته آنفاً (١) .

الغرناطي - لا شك أن اسم الإدريسي يجري دائمًا على ألسن العلماء فيعتبرونه
ركنًا من أركان المفاخر التي أنجها الدهر للرب والإسلام . فلا يذكرونه
إلا بالاحترام لمعارفه الواسعة ، ولا يتحدثون عنه إلا بالتعظيم والتقدير لنبوغه
العلمي ، ولا يتكلمون عن منزلته العلمية ، إلا ويعتبرونه من طبقة البيروني
وإبن الأثير والمسعودي وإبن بطوطة وإبن خلدون ، لكن قليلًا من القراء
يعرفون شيئًا عن شخصية محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع الغرناطي

الاندلسي من معاصري الادريسي لان هذا العالم الجليل ، مع تركته العلمية في اللغة العربية . لا يزال مجهولا عند كثير من العلماء ، وكأنه ليس له وجود في العالم بالنسبة إلى الشهرة العالمية التي أحرزها الادريسي مع أنهما متعاصران وكاتبان في موضوع واحد .

وقد عثرت على هذا الكتاب لصاحبه الجليل من غير قصد ، إذ كنت أطلب كتابا يحمل عنوان « جغرافية المأمون » ، وهو منسوب إلى عالم مجهول في فهرست الكتاب الجغرافية مدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١١ ش من فهرست التاريخ نأخرته . فاذا هو نسخة مخطوطة بخط مغربي .

لقد اطلع قبلي على هذا المخطوط عالم اسمه أحمد محمد الأقدمي فكاتب علي أول ورق الكتاب هذه الكلمات . - وأن هذه المخطوطة لكاتب من أهل غرناطة في أوائل القرن السادس من الهجرة ، اسمه محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع الغرناطي الاندلسي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . واسم الكتاب الأصلي (تحفة الأرباب ونخبة الأرباب) .

وقعت هذه النسخة المخطوطة في جزين وفي الجزء الأول ذكر في مواطن مختلفة أشياء كثيرة عن الصين وعجائبها . ومن هنا نفهم أن هناك في المغرب والاندلس علماء غير الادريسي وابن بطوطة ، كانوا يعرفون الصين ودونوا معلوماتهم عنها إلى درجة الصحة والقبول . وما ذكر الغرناطي في كتابه ، من سعة أرض الصين وعدل ملكها وصناعة الصين كالفضة والدياج ، وعبادة الأصنام ، كما يفعل أهل الهند ، واختصاص الصين بالظروف والفراطيس ، والجزائر ببحر الهند والصين ، منها مسكونة ومنها غير مسكونة ، سواء أكانت من المنقولات أو من المجموعات ، كلها مقبولة حتى عند العلماء في الوقت الحاضر . ويظهر من كلام هذا المؤلف ، أن مسوعاته أكثر من منقولاته لأنه يقول - « كنت بمصر سنة ٥٩٢ هـ واجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحجازي وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة

سنة (١). وكان الناس يحدثون عنها بالعجائب وقلت له: يا أبا العباس ،
أنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب . والآن أريد أن أسمع منك
شيئا من عجائب خلق الله . وكان الشيخ الامام أبو بكر محمد بن الوليد
الفهرى حاضرا . فقال أبو العباس : رأيت أشياء كثيرة ولا يمكننى الاخبار بها ،
لأن أكثر الناس يحسبونها كذبا . وقال الشيخ الامام أبو بكر . ذلك يكون
من العوام الجهال . أما العقلاء وأهل العلم فاهم يعرفون الجائز من المستحيل .
فقص عليه ما رآه من الغرائب والعجائب ، منها طير الرخ وكبرأياشها ، وذكر
أن رجلا من التجار من سافر الى الصين وأقام بها مدة ، ووصل الى بلدة بالمغرب
بأموال عظيمة وكان عنده ريشة من جناح الرخ ، تتسع لقربة ماء . وكان
الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف هذا الرجل بعبد الرحيم الصينى بسبب
سفره الى الصين وإقامته بها (٢) .

ولأن طير الرخ من الطيور الخيالية التى ذكرت فى ألف ليلة وليلة ، وفى
كتاب الحيوان ، للمجاط ، ولأن علماء العصر الحاضر يدرسون صراحة ، بعدم
علمهم عن هذا الطير العجيب فلا نصر على التمسك بصحة هذا القول . ، غير
أننا ، مع هذا ، نقول -- إذا سلمنا بكذب قوله عن الرخ ، فذلك لا يكون
دليلا قاطعا على عدم صحة الأقوال الأخرى عن عجائب الصين والهند التى قلبنا
رأوها فى بلاد المغرب والأندلس . ولا تعجب أيضا من رجل يلقب بالصينى ،
كما ورد فى الغرناطى لأننا إذا نظرنا إلى معجم البلدان لياقوت ، فاننا نجد فيه كثيرا
من تجار الأندلس والمغرب يلقبون بالصينى للسبب المذكور . وهذا دليل على
علاقة الأندلس والمغرب بالصين ، وسفر تجارهما اليها بين حين وآخر . ثم عادوا
بمعلومات جديدة عنها مع ثروة طائلة قد كسبوها فى الصين . فأخبروا علماءهم بها
فدونوا ما سمعوا عنهم فى الكتب . كذا فعل صاحب تحفة الألباب ونجدة
الأرباب ، الذى توفى فى سنة ٥٦٥ هـ أى بعد وفاة الادريسى بخمس سنوات فقط

(١) الغرناطى ج ١ - ص ٣١ (٢) الغرناطى ج ١ - ص ٣٧

ياقوت - من علماء الاسلام البارزين في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد وهو ياقوت بن عبد الله الرومي الذي عاش بين ١١٧٩ و ١٢٢٩ م وكان أول من سلك مسلكا جديدا في ترتيب كتابه (معجم البلدان) على الحروف الأبجدية وبهذا الترتيب المبني على القاعدة العلمية الصحيحة، سهل السبيل إلى أخصى حد لمن أراد أن يراجع كتابه، والناس يرون أن طريقة ياقوت في معالجة معجمه الجغرافي، الذي يتعلق بالعالم الاسلامي في ذلك الوقت طريقة نموذجية لمن يقصد معالجة أي علم من العلوم الأخرى. لأن طريقته طريقة علمية مبنية على أصول علمية منظمة، فيسهل لمن يريد الاستفادة منه ولا يحتاج إلى تعب أو مشقة في المراجعة، خلافا لمن قد ألفوا قبل ياقوت. ولو أنهم قد جمعوا في مؤلفاتهم معارف جمّة ومعلومات قيمة لا توجد في كتب أخرى، فأنهم لم يضعوا نظاما علميا في ترتيب كتبهم. فكم كثيرا ما تراهم يخلطون مباحثهم بعضها ببعض. فليس من السهل أن تخرج ما تريد من النقط المخصوصة من كتبهم، إلا بعد قراءة أكبر جزء منها. وفي بعض الأحيان لا تجد ما تريد من الأبحاث حتى تنتهي من مراجعة الكتاب من أوله إلى آخره إنك تنفق ساعات طويلة في التنقيب راجيا أن تعثر على ما تريد. وأخيرا لا تجد ما تريد. لأنك قد دخلت في البحث ولا تعرف عن محتوياته شيئا، وكان هذا شأن المؤلفات قبل زمن ياقوت. لكنك لا تحتاج إلى هذا التعب في معجم البلدان لحسن ترتيبه الذي يمكنك من استخراج ما تريد منه في دقيقة واحدة. مثلا، إذا أراد أحد أن يعرف شيئا عن الصين في كتاب ياقوت، فيكل ما ينبغي أن يفعله في هذه الناحية هو إخراج كلمة (الصين) ثم ينظر ما كتب تحت هذه المادة. فيعرف عندئذ كل ما كتب عنها في لحظة واحدة. وهذا الترتيب الذي سلكه ياقوت هو الذي يسير عليه العلماء المحدثون إلى يومنا هذا.

أما ياقوت فله علاقة بموضوعي. لأن مادة الصين في كتابه تنفعني في أبحاثي والصين في رأيه، وقع في الأفليم الأول طولها من المغرب مائة وأربع وستون درجة وثلاثون دقيقة. ويظهر مما كتب في هذه المادة، أن معلوماته عن الصين كلها منقولة عن غيره. لكنها جديدة لم ترد في الكتب الأخرى من قبل. وكلامه

عن الذين يلقبون ألقاب (الصيني) وإسوا من أهل الصين ، من المعلومات الجديدة التي لم نقف عليها حتى عصره . ثم حديثه عن مدن تركستان ومسافاتها وحاصلاتها ومصاهرة أبنه ملك الصين بابن السلطان نصر بن أحمد ، استنادا الى أبي دلف الينبعي الذي قد سبق الكلام عنه ، يكشف لنا أن التجارة بين الصين والممالك الاسلامية ، بطريق البر كانت تجرى على قاعدة منظمة ويؤكد هذا القول ما كتبه الايرانيون في كتبهم عن هذا الزمن وسنعود إلى هذه النقطة عند ما نبينك طريق التجارة الى الصين برا في الباب الخاص بالملاقة التجارية .

ابن البيطار - وهذا عالم عربي ليس من علماء الجغرافيا ، ولا من علماء التاريخ . لكننه على كل حال من العلماء الذين قد تكلموا عن الأشياء التي أصلها من الصين . نذكره هنا لنشير اليه في المواضع التي تتطلب ذكره فيما بعد .

واسمه الكامل ، عبد الله بن البيطار ، المولود بمالقة في سنة ١٠٩٧ م على أغلب الظن وهو كما قلت ليس جغرافيا ولا مؤرخا ، ولا لغويا أيضا ، بل هو عالم من علماء النبات قد سافر إلى مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، بصفة أنه عالم النباتات ، فحقق النباتات التي وجدها بالبلاد التي سافر إليها .

يروى الأستاذ فران في كتابه ، علاقات الأسفار ، أن ابن البيطار ، قد دخل في خدمة الملك الكامل بدمشق كرئيس علماء النباتات بها . فلما مات الملك الكامل ، عاد الى القاهرة لكننه ظل يختلف الى دمشق ، إذ كان الملك الصالح دعاه إليها . فذهب وأحرز ثقة الملك الجديد . فصار مكرما معززا لديه ومات في عاصمة الشام سنة ١١٤٨ م .

ولقد ترك هذا العالم النباتي ، كتابين باللغة العربية ، المعنى ، وجامع المفردات ، ولكل واحد منهما ترجمة ألمانية بقلم الأستاذ فون زون ثامر (Von Son) (Theimer) وترجمة فرنسية (١٨٧٧ م) بقلم الأستاذ (ل لكليرك (L. Leclerc) وأنه ذكر في جامع المفردات أشياء كثيرة صينية الأصل ، منها ييش وجزع ،

وتوتيا، وواوند، والمسك وكل هذه الاشياء مفيدة في مداواة بعض الأمراض
وسنشير اليها فيما بعد، عند ما نتكلم عن علم العرب عن الصين .

القزويني — (١٤٠٣ - ١٢٨٣ م) . هو محمد زكريا ، المولود في سنة ١٢٠٢ م
بمدينة القزويني بأذربيجان، من بني أنس بن مالك قدم الى دمشق سنة ١٢٣٢ م وتعرف
بابن الاعرابي وتوفي سنة ١٢٨٣ م . وله كتابان — آثار البلاد وأخبار العباد ،
و ٢ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وكان جغرافيا كبيرا ، ذكر في
كتابه ، الجزائر التي في بحر الصين والهند منها جزيرة الزنج على حدود الصين ،
فيها ملك يقال له: (مهاراجا^(١)) . ثم نقل عن زكريا الرازي وابن الفقيه وزكريا بن
يحيى بن خاقان ، فيما قالوا عن هذه الجزيرة .

ثم ذكر جزيرة الرامني (سماطرة) وعجائب المخلوقات فيها ، مثل الفيل
والافاعي ، ونقل عن ابن الفقيه وزكريا الرازي فيما قالوا عن هذه الجزيرة
والحيوانات فيها . ومن العجيب أنه ذكر جزيرة وقواق بقرب الجاوة مع أن سالفه
ذكروها بشرق الصين . وزاد بيانا عن جزيرتين في بحر الصين ، جزيرة الينان ،
(هاى ناى) وجزيرة أطوران (ناى وان) . وما قاله عن جزيرة سيللا ، منقول
عن سالفه . لكنه زاد بعض البيان عنها وقال : من بين الاشياء الغريبة أن
ملوكها يتبادلون الهدايا مع ملوك الصين وبلادهم تشكو قلة الماء لأن المطر هناك
ليس بكثير . ثم ذهب الى الكشف عن المخلوقات الغريبة التي توجد في بحر
الصين . وأما التفاصيل فتجدها في كتابه وعجائب المخلوقات ، وذكر الاستاذ
فران ، بعضها في علاقات الاسفار ، (٢) .

ابن سعيد — هو أبو الحسن علي بن سعيد المولود سنة ١٢٠٨ م ، على رواية
وفي سنة ١٢١٤ م ، على رواية أخرى ، بقرية يحسوب بقرناطة . وقد تعلم

(١) (مهاراجا) لقب لملوك الهند القديم ولا يزال مستعملا عند أمراء
الهندك حتى الآن ، فكلمة (مهاراجا) مركبة من كلمتين : مها - وراجا ، فعنى
(مها) كبير ، ومعنى (راجا) الملك .

بأشبيلية وكان يرافق أباه في سنة ١٢٤٠م الى مكة المكرمة . لكن أباه توفي في الطريق بأسكندرية فامتنع عن الذهاب الى مكة واستوطن القاهرة . ثم سافر إلى بغداد ومكث بها ١٢ عاما فعاد عن طريق دمشق وزار مكة عند عودته . وبعد وصوله إلى المغرب ، دخل في خدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر بالله صاحب تونس (١٢٥٤ م) ، ثم رحل الى الشرق ينوي أن يتصل بهلاكير ببغداد . لكنه بعد وصوله الى أرمينيا ، علم بنذيل أميرها ثم تركه ورجع الى تونس ومات بها سنة ٢٨٦ . م على رواية السيوطي والمقرئزي ، وبدمشق سنة ١٢٧٤ م على رواية ابن تغريبردي .

وقد جمع عالم فرنسي معروف باسم (فولر Vollers) بعض أوراق شتى لكتاب ابن سعيد المسمى (بالمغرب) ونشرها على نفقته الخاصة وله كتاب آخر في علم الجغرافيا ، سماه (بسط الارض) ذكر فيه أشياء كثيرة عن بلاد الصين وهو مثل سالفه ، من علماء العرب والاسلام ، ذكر (حمدان) ، و (لوقين) و (خانفو) و (الزيتون . لكن ببيان يختلف عن هذا البيان وكان سلفه ، مثل المسعودي والادريسي ، وابن الفقيه وغيرهم ، لم يذكروا هذه الاسماء مصحوبة بذكر الانهار . بخلاف ابن سعيد . فانه يقول : أن نهر حمدان ، أكبر أنهار الصين ، وفي غربه تقع مدينة حمدان ، أشهر مدن الصين . . . ومدينة الزيتون معروفة عند التجار المسلمين الذين سافروا الى الصين والمراكب التي جاءت من بحر الصين ، قد تتوغل ١٥ ميلا في نهر الزيتون . . وعلى نهر لوقين وهو خامس أنهار الصين ، توجد مدينة لوقين ، مشهورة من بين مواليء الصين وبشرق لوقين يوجد نهر حمدان ، وفوق هذا النهر مدينة خانفوه ، التي تذكر كثيرا في الكتب .

ويقول أيضا : والصينيين يشبهون ، أهل الخطا وهؤلاء يستوطنون بين بلاد الأترک والهنود ويقول أن فغفور ، أي ملك الصين يسكن في مدينة (تاجة) (١) .

(١) ذكر الادريسي هذه المدينة باسم باجة بالبساء . انظر الادريسي

وأما مدينة (الصينية) ، فهي عاصمة قديمة يسكن فيها الملك قبل (تاجة) ومدينة (منزي) هي عاصمة (صينية الصين) .

رشيد الدين فضل الله المنو في سنة ١٣٠٥ م .

من الشخصيات التي لا نستطيع أن نغفلها ، عند ما نتكلم عن تاريخ الاسلام في الصين ، رشيد الدين فضل الله مؤلف (جامع التواريخ) باللغة الفارسية ، وكانت تجتمع في شخص هذا العالم ، صفات كثيرة محمودة وكان مشهورا بالطب ، وفعل الخيرات وبالسياسة والتاريخ ولد بمدينة حمدان ببلاد الفرس في سنة ١٢٤٧ م ، وكان جده موفق الدولة على معاصر الأبرار عالم فلكي أنجب الاسلام وهو نصير الدين الطوسي ، الذي بنى مرصدا بحكم هلاكو ، بمدينة مراغة ، والذي ترك لنا زيجيا ، قارن فيه بعض المدن الصينية مثل خانبالق ، وبانجو ، مع البلدان الاسلامية في درجات الطول والعرض ، كما أنه كان معاصرا لسعد الدين صدر الدولة المغولية بالعراق . وكان ثلاثهم قد دخلوا في خدمة هلاكو بعد فتح المغول لبغداد .

كان رشيد الدين من حيث أنه طبيب القصر ، يتمتع بنصيب عظيم من الامتيازات ونال جانبا عظيما من التعميم والاحترام ؛ أثناء عهد عباقة خان لكن فضائله المتنوعة لم تشتهر إلا في عهد غازان خان الذي ارتقى العرش في سنة ١٢٩٥ م . وبعد ثلاث سنوات من قتل صدر الجهان ، صدر الزنجاني استوزره غازان خان مع إشراك سعد الدين في أعمال الوزارة .

لقدر افاق رشيد الدين غازان خان في غزواته الى الشام بصفة كاتب السر له . وفي هذه الايام إذ كان المغول يتخذون مدينة (آنه) وهي على ضفة الفرات عاصمة لهم ، قدم رشيد الدين الى غازان خان عالما كبيرا ، وهو مؤلف تاريخ الوصاف الشهير فعرفه به في ٣ مارس ١٣٠٣ م .

أثناء عهد أولجا تنوخان (خانداندة) ، مازال رشيد الدين يتمتع بتلك الامتيازات التي كان يتمتع بها أيام أبيه . فأقره في مركزه الذي كان فيه . فنال على يد السلطان الجديد مكانة ممتازة لم يشهدها أحد من وزرائه وذلك لمواهبه القذة وصفاته الحميدة .

وفي أوائل سنة ١٣١٢ م ، سقط زمييل رشيد الدين من السلطة اوزارية فسيب الى فم الموت بسبب دسائس على شاه الذي قد حصل مركزه في الوزارة الآن ، وعلى اثر سقوط سعد الدين ، وجهت الى رشيد الدين تهمة خطيرة كادت تسقطه من الوزارة أيضا .

وظهر نزاع شديد في سنة ١٣١٥ م ، بين رشيد الدين وعوده على شاه ، فانتهى الثاني كل فرصة لغناؤه . فأراد أن يوقعه في مشكلة ، عند نظر المسألة المالية التي تتعلق بمهمات الجيش ، لكنه نجح هذه المرة من الخطر المحدق به ، بعد مقاساة مظالم شديدة

فلما ارتقى أبو سعيد العرش بعد وفاة خدابنده ، وجه على شاه دسائسه القديمة الى رشيد الدين . فخرمه أولا من الوظيفة الرسمية في أكتوبر ١٣١٧ م ثم قتله بعد تسعة أشهر وكذلك ابنه الذي لم يتجاوز عمره ستة عشر عاما ، بتهمة أنه قتل السلطان الراحل بالسم ، وقد صودرت ممتلكاته ، واضطهد أقاربه ، ونهبت أمواله وحرمت مؤسساته الخيرية من الاوقاف ثم هدمت و (ربع الرشيدية) التي أنفق رشيد الدين في بنائها ستمين ألف دينار تعرضت للسلب والنهب ، وهكذا مضى هذا العالم الكبير من الدنيا دون أن يرثي له أحد .

وقد كان غازان خان كلفه بتدوين تاريخ المغول ، ولو أنه كان مشغولا بأمرور الدولة ، لكنه نجح في تخصيص بعض الاوقات لهذه المهمة اللممية ، قد روى عن دولة شاه أن رشيد الدين كتب كتابه الشهير المسمى بجامع التواريخ ، بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

مات غازان خان قبل أن يتم رشيد الدين كتابه في تاريخ المغول . لكن خليفة أولجايتو خان أمره أن يكمله وينسبه كما كان في الاصل الى غازان خان فلذا يسمى أول الجزمين من كتاب رشيد الدين تاريخ الغزاني كان أولجايتو أيضا من محبي العلم وأنصاره فكلف رشيد الدين أن يكتب جزء آخر عن بلاد الاسلام ، وجزءا ثالثا عن الجغرافيا ولكنه لم نعهثر على الجزء

الثالث أما لأنه فقد أو لم يكتب . فلذلك وجدنا اليوم ، أن كتاب رشيد الدين ، كما هو المعروف عند العلماء ، يشمل جزئين فقط . والجزء الأول في تاريخ المغول والثاني في التاريخ العام . ولقد فرغ منه ، كما حقق الأستاذ بروان ، في سنة ١٣١٠ ويظهر أنه كان يعزف كثيرا من اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والكشميرية وغيرها من الألسن التي كانت تساعده على إتمام هذا الكتاب الجليل . فجاء بأجمع كتاب في التاريخ . فيعتبر العلماء ، ولا سيما المستشرقون أن كتابه هذا ، من أهم المصادر التي لا يستغنى عنها الباحثون في تاريخ آسيا ، ونفوذ الإسلام في الصين في عهد المغول .

وليس من الصعب أن نعر على نسخة أو نسخ مخطوطة من هذا الكتاب ، لقد عرفنا أن في دار الكتب الاملية بباريس نسخة مخطوطة ، فيها عدة من الصور رسمها المؤلف نفسه ، وقد طبع لأول مرة في مدينة لندن سنة ١٩١٥ م ، متنا وحاشية ، ووضع له الأستاذ بلوشة (Blochet) مقدمة مستقلة عن الكتاب الاصلى باللغة الفرنسية فطبع في سلسلة المطبوعات التذكارية لجيب (Gibb) .

وأما محتويات الكتاب فكما يلي على سبيل الاجمال . الجزء الاول ، القسم الاول منه ، في بيان القبايل التركية والمغولية ، والقسم الثاني في بيان نسب جنكيز خان وآبائه وأرلاده إلى غازان خان ، وفي أول الجزء الثاني ، مقدمة في بيان انتشار البشر على وجه الأرض ، ثم أحوال الانبياء ، وقصصهم ، والقسم الاول من هذا الجزء ، في بيان ملوك الفرس قبل الاسلام ، وفي القسم الثاني ذكر صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين ، ثم خلفاء بني أمية وبني العباس إلى سقوط بغداد في أيدي المغول ، ثم حكومات إسلامية في بلاد الفرس كالغزنويين والسلجوقيين وآل خوارزم شاه ، وآل بويه والصفدية وأتابك ، ثم الاسماعيليين في الشرق والغرب ثم أوغوز وأولاده ، ثم الاتراك الآخرين ، ثم الصينيين ، ثم اليهود ، ثم الافرنج وملوكهم وباباواتهم ، ثم الهنود والبوذا ومذهبه .

من هذا الأجمال الوجيز ، تعرف أهمية هذا الكتاب في تاريخ الاسلام خصوصا فيما يتعلق بالمغول في بلاد الفرس والصين .
الدمشقي ، أبو الفداء ، ابن الوردي .

لقد عاش هؤلاء العلماء الثلاثة ، في زمان واحد على التقريب ، لأن شمس الدين أبا عبد الله الصوفي المعروف بالدمشقي عاش إلى سنة ١٣٢٥ م ، وأبا الفداء إلى ١٣٣١ م ، وابن الوردي إلى ١٣٤٠ م ، وكان أبو الفداء أشهر الثلاثة ولعل ابن الوردي أشهر من الدمشقي بدرجات في عالم العلم .

أما الدمشقي فكان إماما بقرية ربوة ؛ بقرب دمشق ، كتب بها كتابا معروفا باسم (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) ، وابن الوردي وهو زين الدين أبو حفص عمر بن الوردي ، ولد بمعرة النعمان في بلاد الشام ، تعلم الفقه بحماة ، فنال رتبة الكاتب للقاضي ابن نقيب بحلب ، وقد ترك لنا كتابا سماه (خريطة العجائب وفريدة الغرائب) وكل واحد منهم ذكر في كتابه أشياء عن الصين ، لكن معلوماتهم غير مبتكرة ، بل منقولة عن العلماء السالفين . فأسماء وقواق ، وقار وجزيرة السيلان وخانفو ، ورحدان ، ومدينة الصينية ، وأبواب الصين ، والصنفة وسر نديب وصندر فولان وجاوه وجين ما جين في كتاب الدمشقي ، قد ذكرها سالفوه كلهم ، فنقلها كما وردت في كتبهم ، إلا أن جزيرة الداميات (اندامان) ومعبره ، اسمان جديان في كتابه ، فأن الداميات جزيرة بين بورما (Burma) ومدراس (Madras) الآن . وأما المعابر فحققها بأنها البقاع التي تمتد من مدراس إلى جزيرة سيلان .

وما قاله أبو الفداء عن بحر الصين بأنه بحر وحدوده غير معروفة — يشتمل على جزائر كثيرة ، حيث توجد مدن لا تعد ولا تحصى ، وفي مسيره إلى الغرب يمر بجبال القامرون التي تقع بين الصين والهند . وعن جزيرة شيلان ، بأنها واقعة في آخر الصين ، وكل هذه الأخبار غير جديدة ، بل نقلها عن ابن الفقيه ، أو ابن خردادبه ، أو المسعودي وغيرهم من الكتاب السالفين ، نعم أعتقد أن ماروي كتابه

عن الجلبى ، عن جزيرة (سريبوزة) ، قول جديد لم يرد في كتب أخرى وقال إن هذه الجزيرة ، مملكة تحت حكم الصين (١) . وأضاف إلى ذلك أنها عامرة ذات رفاة رفاة وأن السفن إذا كانت ذاهبة إلى الصين ، تمر في مائها ، وفي بحرها جبال ممتدة طولا ، يحتاج إلى ستة أيام في قطعها (٢) فإذا وصل المسافرون إلى هذه الجبال يجدون وسائل النقل والركوب مستعدة لحمل كل من يقصد أى بلد من بلدان الصين .

وبيان ابن الوردي عن بحر الصين يختلف عن بيان غيره وقد أطلق على بحر الصين أسماء شتى ، وفي رأيه أن بحر الصين وبحر الصنف ، هذه الأسماء لبحر واحد والحقيقة أن البحر أيا كان لا يعرف له حد يميزه من بحر آخر ، لكن الناس يسمونه باسم يتصل بالمكان الأقرب . فعرف بعد ذلك بذلك الاسم ، إذ لم عجب أن كل من قبل ابن الوردي كان يفرق بين بحر الصين وبحر الهند وبحر الصنف اعتبارا بالمكان الخاص الذى يتصل بجزء من البحر الواسع . فيسمون جزء البحر الذى يتصل بالصين ، بحر الصين ، والذى يتصل بأرض الهند بحر الهند ، غير أن الوردي لا يفرق بين هذا وذلك . لأنه رأى بعينه أن ما بين البحر الصين لا يتفصل عن ماء بحر الصنف ، ولا ماء بحر الصنف عن ماء بحر الهند .

وأما ما زاد على هذه الأقوال من البيان عن أحوال الصين ومدنها وجزائرها والمخلوقات العجيبة فيها ، فهو منقول عن الجهماني وعن الجاحظ وعن ياقوت وعن ابن الفقيه وغيرهم . فلا حاجة بنا إلى تكراره هنا ، غير أن ما ورد في تاريخه المعروف بتاريخ ابن الوردي عن أمة الصين يستحق الذكر ، وسنرجع إليه في موضع آخر .

ابن بطوطة :

أشهر رحلاته في القرن الرابع عشر من الميلاد ، هو ابن بطوطة الذى قد بدأ رحلته العالمية ، في سنة ١٣٣٥ م من مدينة طنجة بمراكش فمر بشمال أفريقيا ،

(1) Ferand : P. 404 .

(٢) هذا هو وصف لإبواب الصين

مصر ، فلسطين ، شمال بلاد العرب إلى مكة . ثم سافر إلى استنبول ووصل إلى الهند عن طريق جنوبي روسيا وخراسان وبخارى وقندهار . فارتحل من دهلي ، عاصمة الهند إلى قاليقوط بملابار ، وأبحر من ذلك للميناء سفيرا لتغلق شاه ، صاحب دهلي ، إلى الخان الأعظم بخانباليق (الصين) . قرر في طريقه إلى أول مرافئ الصين بجزائر سيلان ، ومالديب ، وسماطرة ، جاوة . فنزل الزيتون أولا ، ثم سار من مدينة إلى مدينة حتى وصل إلى خانباليق (مدينة خان) وهي بكين الآن . وله ملاحظات قيمة عن أحوال الصين وعادات أهلها نهتدى بها إلى معرفة الصين أيام حكم المغول فيها .

ولقد صرف ابن بطوطة ٢٤ عاما في السياحة والجولة في الممالك الاسلامية بالشرق الأدنى والشرق الأقصى . لكن هذا السفر الطويل لم يتعبه بعد رجوعه إلى وطنه الأصلي ولم يفتح نفسه الكبيرة التي تحب الاستطلاع والكشف بما شاهده في الشرق . حتى استأنف رحلة أخرى إلى بلاد الاندلس ، ثم إلى أواسط أفريقيا ؛ التي لم يحلم أحد من رحاله أوربا بالسفر إليها . ثم عاد إلى فاس وتوفي بها سنة ١٣٧٧ م بعد مشاهدة ثلثي الربع المسكونة من كرة الأرض .

أما رحلة ابن بطوطة وهي كتاب دون فيه مشاهداته الأهم ، وملاحظاته على البلاد التي مر بها ، في سياحته ، فهي أوثق مصدر للكتاب والباحثين الذين يريدون أن يعرفوا شيئا عن أحوال العالم الاسلامي في القرن الرابع عشر للميلاد . وعلاوة على هذه القيمة العلمية ، فالجزء الرابع من طبعة أوربا من كتابه مليء بالمعلومات الوثيقة عن الصين وأحوال المسلمين فيها . ثم ما ذكره من مراكب الصين وأنواعها وصناعة الفخار ودرام الكاغذ في معاملة البيع والشراء والرقابة على الفنادق وحفظ الطرق ، من المشاهدات القيمة التي قلما يلتفت إليها سياحو القرون الوسطى . فكتابه من هذه الناحية يعتبر من أهم المصادر التي سنستند إليها في أبحاثنا عن موضوعات شتى .

الاصطخري ، الباكوي ، الجلي .

ومن علماء الاسلام الذين يوجد في مؤلفاتهم ذكر أحوال الصين .

الاصطخري من أهل اصطخر ببلاد الفرس وهو صاحب إقليم الأرض يتكلم فيه قليلا عن طريق البحر إلى الصين . لكنه أتى فيه ببعض معلومات هامة عن طريق البر إليها وعن حالات الترك والتتار . وبين أن مملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك والتبت ولم يذكر هذا القول ، أحد من قبل العلماء .

أما الباكوى فاسمه عبد الرشيد بن صلاح بن نوري المعروف باسم الباكوى المنسوب إلى باكوه . مدينة على ساحل بحر الخزر ، عاش إلى ٨٠٦ هـ - ١٤٠٤ م وذكر في كتابه « تلخيص الآثار وعجائب الممالك القهار ، » جزيرة جاوه وبحر الصين وبعض الأنواع من بضائع التجارة ، مثل اللود والكافور فيها ، وجزيرة الرامني ، وجزيرة الزنج وجزيرة الفصر ، وجزيرة النساء ، وجزيرة وقواق وسيلا الواقعة في آخر الصين . وبناء على ما جاء في كتاب الباكوى . أن سيلا ، بلاد صحية جدا حتى لا يقع سكانها في المرض .

أما حياة الجلبى فقلما يعرفها أحد من علماء الإسلام ، إلا أن المستشرقين ، لم يفعلوا هذا الشخص فذكروه في كتبهم . ومن هؤلاء ، الأستاذ فران الذي ذكر في كتابه « علاقات الأسفار ، » عن حياة الجلبى ما يأتي :

قال رينان : أن المركب الذي بعثه السلطان سليمان العثماني في سنة ١٥٥٣ م إلى برتغال سد طريقه ، عاصف هائل ، حتى حوّل مسيره إلى ساحل الهند وكان ربان السفينة هو سيدي علي الجلبى . وكان قبل ذلك معروفا بأنه شاعر وأديب . وقد قيل أنه زار جميع المدن الشهيرة في الشرق ، واجتمع برجال العلم والفضل ، وقرأ الكتب العربية والفارسية والتركية التي تتعلق بفن الملاحة ، فجاء استنبول وشمال الهند ، وبدخشان ، وماوراء النهر ، وخوارزم وإيران . أنه كان كاتباً بليغاً باللغة التركية . ألف كتاباً يتعلق بمهمته وسماه « مرآة الممالك ، » له ترجمة ألمانية وأخرى فرنسية . ولسيدي علي الجلبى كتاب آخر ، وهو أكثر أهمية من الأول ، لأنه في موضوع الملاحة في الأبحر الشرقية ، مسمى « بالمحيط ، » . لقد عثر على نسخة من هذا الكتاب في أحمد آباد بكجرات في سنة ١٩٦٢ - ١٥٥٤ م . وبالنظر إلى أهمية

ما جاء في هذا الكتاب ، كتب الاستاذ همر (Hommer) عنه مقالات عديدة ونشرها في مجلة الجمعية الآسيوية بينغال (Bengal) في الجزء الثالث (١٨٢٤ م) والجزء الخامس (١٨٢٦ م) والجزء السابع (١٨٣٧ م) والجزء الثامن (١٨٣٨ م) وبناء على ما ورد في علاقات الاسفار للأستاذ فران ، أن الجلبى قد بين الطريق من سنغافوره إلى الصين بما يلي — من سنغافوره إلى بناغة (Benugt) ومنها إلى صوراء ، عند خليج كول ، ثم إلى شهر نو ، ثم إلى كنبوسا ، ثم إلى شنبا ، ثم إلى خليج كيوجه ، أى توكين . ويمكن الذهاب من شنبا إلى آنام (Annam) ومن آنام إلى أبواب الصين ، ومنها إلى الجنوب الشرقى . حيث وجد هناك دار الصينى وراوند ، وأحسن الأصناف من الفخار . يقال له « بايه تحت جين » وهذا يوجد في شهر نو ، وفغفور ، وأعلى البضائع يقال له « بايه تحت فغفورى » (١)

الاصفهانى ، والهمدانى :

من العلماء الايرانيين الذين عرضوا فى مؤلفاتهم لذكر الصين ، الاصفهانى والهمدانى ، وكان مبرزاً صادق الاصفهانى المتوفى سنة ١٦٨٠ م ، هو ابن محمد صالح الزبيدى الآزادانى من أهل آزادان ، ضاحية من ضواحي أصفهان وقد ذكر فى كتابه « تحقيق الاعراب ، جزيرة (آجين) وقال آجين يساوى ما يسمونه (ماجين) وهى جزيرة مروفة بالصين ، وتكلم عن الخطأ أيضا . وقال : إن الخطأ يكتبها العرب بالطاء ، والايرانيون بالتاء ، أى الحتا . وهى بقاع واسعة بالشرق وعاصمتها خانباتق ، ثم قال : آخر البلدان للخطأ ، سقاوول بما وراء النهر وذكر شهر نو كما جاء فى كتاب الجلبى ، ثم تكلم عن ماجين وقال أنها بلاد ممتدة إلى حدود الصين ويسمونها ماجين ، على اسم ماجين بن يافث بن نوح (والله أعلم) وعاصمة الماجين يقال لها « تنكيتاش » وروى عن جامع رشيدى أن اسم ماجين مقلوب من (ماجين) وفى اللغة السنسكرىتية (مها) معناه « كبير » ، إذن فعنى

(1) Ferrand : P . 501

(ماجين) الصين الكبرى ، وإن شئتم فقولوا « صينية الصين » كما ورد في الادريسي وهي عين « حين كلان » في ابن بطوطة .

وأما الهمداني فهو أبو الخير مؤلف تاريخ المغول المعروف بتاريخ الغازاني باللغة العربية ولا أعرف - هل طبع هذا الكتاب لأول مرة ، أو لا ؟ . لكن على كل حال ، لم تقع عيني على نسخة مطبوعة ، والنسخة التي رأيتها في دار الكتب المصرية ، هي نسخة فوتوغرافية ، عن نسخة أصلية بأستانة ، يتخللها بياض في بعض أوراقها ، وهي نسخة ناقصة ، فلا تجد فيها أحوال غازان خان وعلاقته بالخوانين بالصين .

ومن خصوصيات هذا الكتاب ، أنه يوجد فيه ذكر أنساب التتار وأحوالهم من قديم العهد إلى زمن غازان خان وأحوال أويغور ، أول من أسلم من أمراء التتار ، وأما المغول ففهم إلا شعب من شعوب التتار في نظر جميع المؤرخين ، فلذلك تجد الحديث عن هؤلاء إجمالاً أو تفصيلاً في الكتب الفارسية ، مثلاً في طبقات الناصري لعمر سراج ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله ، وتاريخ الوصاف وأويماق مغول لأغان جان محمد خان ، ويتكلم آخر الحديث كثيراً عن التتار والمغول في الصين وفي أواسط آسيا ، وقد راجعته ، حينما كتبت عن انتشار الاسلام في تركستان الصينية في كتابي « الاسلام وتركستان الصينية » .

القلقشندي - من علماء الاسلام البارزين الذين تكلموا عن الصين ، القلقشندي وأن هذا العالم الجليل معروف في العالم الاسلامي ، وكتابه « صبح الأعشى » كقيل بتخليده إلى ما شاء الله . وأنه ذكر في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، شيئاً غير قليل عن مملكة الصين وترتيبها في عهد المغول وحالة المسلمين فيها ، وعقائد جنكيز خان وأتباعه وعاداتهم واحترامهم رجال الدين . وأما مأخذ معلوماته فن العلماء الذين سافروا إلى بلاد الصين ، مثل تاج الدين السمرقندي ، أو من المؤلفين الفارسيين المعتبرين ، مثل علاء الدين بن عطاء الملك الجويني .

قال في ترتيب مملكة الصين وهو يروي عن الشريف تاج الدين السمرقندي أن لهذا القان (الخان الأعظم) أميرين كبيرين ، هما من الوزراء ، يسمى كل من

ويكن في هذه الرتبة « جنكهان 丞相 » ودونهما أميران آخران يسمي كل منهما بنجار ، 平章 ودونهما أميران آخران يسمي كل منهما « يرجين » . ثم قال :
وله كتاب هو رأس كتابه يسمي « لنجون ، 領中 » وهو بمنزلة كاتم السر في بلادنا .
ثم ذكر عن الشريف أبي الحسن السكر بلاتق ، وكان من اجتمع بالقان في بلاد الصين ، أن له أربعة وزراء ، يصدرون الأمر في مملكته كلها ولا يرجع القان إلا في القليل النادر . قال في مسالك الأبصار : ذكر لي الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطياري البوسعيدي ، أنهم (المغول) على ما هم عليه من الجاهلية ، على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد اليها ، ثم تكلم عن لسان الشريف تاج الدين السمرقندي . ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان أنه مع كفره في رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد من الكفار مسلما قتل القاتل الكافر هو وأهل بيته ونهبت أموالهم . وإن قتل مسلم كافرا ، لا يقتل به ، بل يطالب بدينه . ودية الكافر عندهم ، حمار لا غير (١) .

الشيخ بيرم التونسي :

لم أعر على كتاب لعلماء الاسلام من أهل القرن الثامن عشر للميلاد ، يوجد فيه شيء عن أحوال الصين أو أحوال الاسلام فيها . ولعل السبب في ذلك أن العلماء في هذا القرن ، أقل اهتماما بشؤون المسلمين في البلاد القريبة والبعيدة بالنسبة إلى العلماء الذين في القرون السالفة . ثم أن القرن التاسع عشر ليخلو أيضا من العلماء الذين يهتمون بشؤون المسلمين في الصين ، وقد هدتني دائرة المعارف للبستاني إلى معرفة كتاب الشيخ محمد بيرم التونسي المولود في سنة ١٨٤٠ م بمدينة تونس ، المتوفى بمدينة حلوان سنة ١٨٨٩ م . ولقد أشار البستاني في مادة الصين ، إلى كتاب « مستودع الأمصار » للشيخ المذكور قائلا — أن فيه مقالا مبسوطا — عن العرب والاسلام في الصين وأصل هذا الكتاب ليس « مستودع الأمصار » ،

(١) . . . صبح الاعشى ج ٤ — ص ٤٨٦ .

كما هو المذكور في دائرة المعارف للبستاني ، بل صفوة الاعتبار بمستودع الإصدار
والإقطار ، وقد طبع مرتين ، بالقاهرة ، في أربعة مجلدات كبيرة ، وفي الجزء
الأول منها ، فصل تكلم فيه عن الإسلام في الصين .

وكلام الشيخ التونسي ، في هذا الموضوع ، ليس مثل ما قاله غيره من العلماء
من قبل أنك لا تجد في كتابه حديثا عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى ،
أو أحوال التجارة وأسماء البضائع التي كانت تصدر من الصين أو تستورد من
الخارج . وإنما تجد فيه نوعا آخر من البيان - عن دخول الإسلام في الصين ،
ومذاهب المسلمين فيها . وهو أول عربي أتى في كتابه بأخبار عن ثورة يعقوب بك
في تركستان الصينية ، وثورة محمد سليمان (تووين ششوي 托文秀) في يوننان .
وهو أيضا أول عالم إسلامي ، ذكر اسم (هوى هوى 回回) أي المسلم باللغة
الصينية (وخوای خوای تانغ 回回堂) ، أي معبد المسلمين و (لاو جوفو
محرفة عن (لاوشيفو 老師夫) أي المعلم و (ايطاسوا) لم أستطع تمييز هذه
الكلمة والرجموع بها إلى أصلها - و (لي باي سي 禮拜寺) أي المسجد و (تسين
جسن جو) أي الدين الطاهر الخالص .

من هذه الكلمات نعرف أن للشيخ بيرم التونسي علما واسعا بأحوال العالم
الإسلامي في زمانه . ويظهر أنه قد نقل أشياء كثيرة عن مؤلفات الأوربيين فلذا
نجده يتكلم عن (هوى هوى) و (خوای خوای تانغ) و (لاوشيفو)
و (ليباي سي) . ولم يتكلم عنها إلا الأوربيون الإرساليون الذين في الصين
أو سافروا إلى الصين ، ومن هنا نعرف أيضا أن كاتب الشرق الأمير شكيب أرسلان
ليس أول من كتب من علماء العرب عن الإسلام في الصين ، كما ادعاه هو في عدد من
أعداد جريدة (الفتح) الأسبوعية (القاهرة) لأن هذا الشيخ قد سبقه في التكلم
عنه ، على الأقل بخمسة عشر عاما ، وأن كلامه في هذا الموضوع ، أوجز من كلام الأمير

الامير شكيب أرسلان :

لا يخفى على القراء أن الأمير المذكور ، من العلماء الأجلاء الذين أنجبهم القرن

الحاضر للعروبة والاسلام . فانه مؤرخ عظيم ، وأديب كبير ، وشاعر بليغ ، وفوق كل هذا عامل ليس لبلاد العرب فقط ، بل للعالم الاسلامى . وهو رجل صادق الايمان ، قوى العاطفة ، فمطفه على البلاد النائية ، كمطفه على البلاد العربية . لكن بما يؤسف له ، أن هذا الخادم للاسلام ليس له حق الاقامة بوطنه ، وهى بلاد الشام ، ولم يستطع الحصول على حق الاقامة فى البلاد الاسلامية الاخرى . فاضطر إلى اتخاذ عاصمة سويسرا ملبجاً ، حيث يعيش غريباً ويمتثل أوقاته مع الغرباء .

ولهذا العالم الجليل تأليف كثيرة فى موضوعات شتى ، منها التعليقات على حاضر العالم الاسلامى للاستاذ ليتوروب ستودارد . وماعلق على الصين يشتمل على معلومات هامة مدهشة لم يستطع غيره أن يأنى بها . وقد نشر هذه التعليقات فى صورة مقالات مستقلة فى مجلة «المقتطف» ، قبل عشرات من السنين . ثم جمعها وزاد فيها معلومات جديدة مفيدة . فألحقها بكتاب «حاضر العالم الاسلامى» ، عندما ظهرت ترجمته العربية . نعم أنه أخذ هذه المعلومات عن المصادر الفرنسية ، لكنه لم ينقلها من حيث أنه ناقل ، بل من حيث أنه محقق وناقد . وفيما كتبه عن الاسلام فى الصين تعليقا على حاضر العالم الاسلامى ، غنية عما جاء فى «تقارير بعثة دولون» ، (D'ollone) وفى «المحمدية فى الصين» ، لميسودابرى تيرسان ، وفى «مسلمو يونان» ، لميسوكوردية ، من أبحاث وأقوال . فتعليقاته على هذا الكتاب ، كلها من المعلومات الاسلامية المفيدة التى غفل عنها علماء الاسلام والباحثون . وجبذا لو طالع كل مسلم هذه التعليقات واستفاد منها من جهة الحقائق والعلم .

ولقد طبع هذا الكتاب مرة ثانية فى أربعة مجلدات فى سنة ١٣٥٢ هـ — سنة ١٩٣٣ م ، بمطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة وزاد الأمير فى هذه الطبعة بعض المعلومات الجديدة التى لا وجود لها فى الطبعة الأولى .

أترى أبو العز باشا :

آخر عالم من علماء الاسلام ، أريد أن أكتب كلمة عنه ، هو الاستاذ أترى أبو العز باشا ، ولد فى أغسطس سنة ١٨٨٦ م فى بلدة ميت أبى غالب من مركز شربين

بمديرية الغربية (مصر) ، تعلم أولا في مدارس مصر الاميرية ثم سافر الى فرنسا وتخرج في سنة ١٩٠١ م من كلية مونسيالية في الحقوق . وهو الآن يشغل منصب رئيس محكمة الاستئناف بصر .

كتب رسالة صغيرة عن الصين ، ساهم في ترتيبها ، الاستاذ عبد العزيز حمد بك سماها (نبذة عن الصين) . وقد طبعت للمرة الاولى في سنة ٢١٨ هـ سنة ١٩٠٠ مطبعة اللواء بالقاهرة وهذه الرسالة الصغيرة ، لا تتجاوز ٧٧ صفحة من القطع الصغير من أفيد الرسائل التي كتبت عن الصين بلغة الضاد والذي يريد أن يعرف شيئا صحيحا عن الصين يجده في هذه الرسالة الصغيرة ، لرسائل الصين الغابرة . وقد وقعت في ثمانية فصول :

- | | | |
|----------------------|----------------------|---------------------|
| (١) المقدمة | (٢) جغرافية الصين | (٣) تاريخ الصين |
| (٤) الاسلام في الصين | (٥) نظام الحكومة | (٦) المدينة الصينية |
| (٧) الديانة واللغة | (٨) الاخلاق والعادات | |

ويظهر أن للأستاذين مطالعة واسعة عن أحوال الصين الماضية وبدا بارعة في تركيز مواد المناوين وتلخيصها . فأسلوب الكتابة بليغ ، سهل الفهم وهو أغنى كتاب مصغر عن الصين من جميع نواحيها كما رأيت ذلك من عناوين الفصول . فجوهرا قابلتتهما ظاهر لامع في ترتيب الفصول واختيار العناوين ، وجمع خصوصيات المباحث في هذه الرسالة . أنهما لم يتركا شيئا إلا تكلمتا عنه كدقة أو كلمتين ، مع الافادة التامة والفصل الذي يهمنى هو فصل الاسلام في الصين . ومن كلامه عن ابتداء دخول الاسلام في الصين ، أن رجلا من الصحابة ، يدعى (وهب بن رعدة) ، سافر الى بلاد الصين ، بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة . فوصلها بعد جهد جهيد وتعلم لغة الصينيين ، ودرس عا انهم وأخلاقهم ، ثم أخذ ينشر دينه الخفيف . فقوى شأنه والتف حوله خلق كثير وقد قابل الامبراطور (تانغ تائي جونغ) عام ٦٢٨ م . فلقى منه مزيد الرعاية . ثم مات بعد أن عاش طويلا مبعجلا محترما . فأقام له الصينيون تذكارا تحليدا لذكوره . . . الخ

ولقد نقل الاستاذ فريد وجدى صاحب دائرة المعارف العربية هذه الأقوال عن الاستاذ أتربي أبي العز الى دائرة المعارف - دائرة العشرين - بدون أى نقد ولا أى تعليق . فجاء عالم كبير من الصين الى القاهرة سنة ١٩٢٣ م (١) ، واطلع على ما نقل الاستاذ فريد وجدى فى كتابه . فاعتقد صحته فنشأ بعض النزاع حول موضوع دخول الاسلام فى الصين بين الكتائب الصينيين المسلمين وغير المسلمين . فمنهم من يقول أن الاسلام قد وصل الى الصين فى زمن رسول الله (ص) واستند فى قوله الى دائرة المعارف لفريد وجدى ، ومنهم من ينكر ذلك بحجة أن الكتتب العربية القديمة لم تذكر ذهاب رجل من الصحابة أيام النبي (ص) الى الصين وإلا لنسج -وله أقاصيص كثيرة، مثل ما نسج حول الذين قد ذهبوا الى بلاد الحبشة والفرس .

فلما هممت بالبحث فى هذه النقطة الدقيقة وتحقيق صدقها أو كذبها ، لم أجد وهيب بن رعشة بين الصحابة ، ولم أعر حتى الآن على أية إشارة من المصادر الأخرى الى ذهاب هذا الرجل الى الصين أيام صاحب الرسالة (ص) فعزمت على مراجعة الاستاذ أتربي أبى العز باشا وهو مصدر القول . فقابلته بمنزله بالمعادى بضواحي القاهرة ، الساعة الرابعة بعد الظهر ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م وسألته عن المآخذ لهذه النقطة التاريخية التى يدرر حولها النزاع ولا نجد لها حلا معقولا حتى الآن . فأجاب بنسيان المآخذ غير أنه وعدنى بالبحث عنه فى أوقات الفراغ .

واقدم طال الأمد على هذا الوعد فكتبت اليه مرة ثانية فى ١٩ / ٢ / ١٩٣٧ م راجيا أن يفيدنى بالمطلوب . فجاء الجواب بعد بضعة أيام قائلا أنه كتب هذه الرسالة بمناسبة ثورة بوكسرز (Boxers Rising) أى من نحو ٣٧ عاما أو يزيد ولقد اطلع على كتب كثيرة من مؤلفات العرب والأفرنج . عند ترتيبها ولمرور

(١) هو الاستاذ الياس وانجن تساي ، مترجم القاموس العصرى - العربى الانكليزى - الى اللغة الصينية .

هذا الزمان الطويل على تأليفه ، لا يستطيع الآن ، أن يذكر بالضبط في أى كتاب
عثر على هذا النبأ العظيم ، أى نبال ذهاب وهب بن رعشة الى الصين لكنه يتمسك
بصحة ما نقله في هذا العدد .

وليس من المعقول ، أن نؤمن بقول كاتب لا يزال حيا (أطال الله حياته)
ولا يقدر على رواية مأخوذة ، كما لا نؤمن بما يخالف القول من أقوال العلماء
الغابرين ، ولو وجدنا هذا القول في كتب القرون الأولى للمجرة لفصل في النزاع
وحسم الخلاف بين هذه الآراء المتناقضة وباليت الاستاذ المذكور أشار الى
المأخذ الاصلى ، فيستطيع الباحث أن يصل الى القائل الأول بهذا القول ويعرف
حقيقته غير أن نسيان الاستاذ الفاضل اضطرني الى الوقوع في الشكوك والتردد
في قبول قوله كقول فاضل في هذه المسألة التاريخية . فلا أزال أتساءل من وهب
بن رعشة ، ومن ذكره قبل الاستاذ الفاضل . هل من يجيب ؟

١٩٤١ / ٨ / ٢

معلومات العرب عن الصين

حاولنا فيما سبق الوقوف على سلسلة الاخبار عند كتاب الاسلام عن الصين فيأ بأكثر من عشرين اسما من الكتّاب الاجلاء والعلماء المشهورين ، من أهل القرن الثامن للميلاد الى الوقت الحاضر . فمن هؤلاء من جاء بأخبار أصلية تبنى على التجارب والمشاهدات ، مثل سليمان التاجر السيرافي وأبو دلف الينبجي ، ورشيد الدين فضل الله ابن بطرطة وسيدي الجلبى ، ومنهم من جاء بأخبار مبنية على مشاهدات من ناحية ، وعلى روايات من ناحية أخرى ، كأبي زيد الحسن السيرافي والمسعودي وابن خردادبه ، ومنهم من جاء بأخبار معتمدة على تحقيقات صحيحة مثل ابن الفقيه والادريسي واليعقوبي وياقوت والأمير شكيب أرسلان وأتربي أبي العز باشا . ومنهم من نقل الأخبار عن السلف ، نقلا محضا وهذه الجماعة الأخيرة ليست مهمة للمراجعة إلا في مواضع نادرة .

وأما الجماعة الأولى والثانية فكاتبهم من أهم المصادر التي نستند اليها في هذا الفصل والذي يليه من الابحاث . وأما الجماعة الثالثة فمؤلفاتهم من المصادر الضرورية التي نرجع اليها في النقط الخاصة التي لم يذكرها غيرهم من قبل .

ويظهر من مطالعة كتب هؤلاء المؤلفين ، أن مشاهداتهم وتحقيقاتهم لم تكن منحصرة في ناحية من المعلومات عن الصين ، بل شاملة نواحي شتى — من جميع الأهور التي قد خطرت ببالهم من جهة المشاهدة أو من جهة الرواية . ولم يحدوا بجلا في ترك ذكرها فأوردوها في كتبهم ، إفادة لأهل عصورهم والعصور التي بعدهم . وإذا نظرنا نظرة عامة الى مؤلفاتهم ، نرى أنهم قد تكلموا في جغرافية الصين ، ومناخها ومدنها وأهارها ، كما أنهم قد تكلموا في أحوال الصينيين وعاداتهم ثم نجد أنهم قد بحثوا عن حياة الصين الاجتماعية والدينية والاقتصادية والصناعية ثم نجد أنهم قد دونوا ملاحظاتهم على نظام الحكومة وحفظ الامن في البلاد

ومعاملة الحكام للاجانب . وفي هذه النقط نورد كلام هؤلاء العلماء الذين سبق ذكرهم . ولا نذكر شيئا عنهم إلا ما نراه يوافق الواقع ويقبله العقل . فلا يشكره عالم محقق في الأمور التي تتعلق بالصين في القرون الوسطى . والفرض من هذه النقول ، هو لفت أنظار العلماء الى هذه الكتب العربية والفارسية التي هي من مفاخر الاسلام . لكن علماء الاسلام لم يعتنوا بها في هذا العصر العلي ، كما يعتنى بها علماء الغرب . فلعل المتعلمين يجدون في عملي تشويقا لأذهانهم واستنهاضا لهممهم الى تحقيق العلاقات بين العرب والأمم الشرقية — موضوع قلبا يفكر فيه العلماء والباحثون — من المصادر العربية والفارسية التي هي كنوز لا تقدر بقيمة عند المستشرقين لكن المسلمين أنفسهم يغفلون عنها .

والنقط التي أريد أن أقدمها من هؤلاء العلماء الأجلاء الذين ذكرتهم في الفصل السابق لإثباتا لمعارفهم الواسعة وآرائهم السديدة وتحقيقاتهم الصحيحة عن الصين في القرون العابرة إنما هي الصين ، حدودها ، ومدنها وملوكها ، عادات الصينيين في الملابس والمناكح والأكل والشرب وصناعاتهم ومهارتهم فيها ، وديانة الصين وعبادة أهلها للاصنام ، ونظام الحكومة ودرجات وظائفها ، وتعليم الخط والكتابة ، وطريق نقل الكتب ، وطريق رفع الشكاية الى الملك ، وحالات المعاملة مع الاجانب والمحافضة على أموالهم وحياتهم ؛ وغيرها من الأقوال في فلوس الصين ودراهم الكاغذ . وبناء على هذا الاجمال . فإليك أولا ، ما قولوا عن بلاد الصين ومدنها .

أول من كتب في هذا الموضوع من علماء العرب ، هو ابن خردادبه ، (٨٤٨ م) قال : أن الصين ثلثائة مدينة عامرة كلها ، منها تسعون مشهورة . ووجد الصين من البحر الى التبت والترك وغربا الى الهند ، وفي مشارق الصين بلاد وقواق وهي كثيرة الذهب ويأنى أهلها بالثياب الموشاة بالذهب للبيع (٩) .
قال سليمان التاجر السيرافي (٨٥٩ م) — والصين كلها عمارة ، أهلها أجيل

من أهل الهند وأشبهه بالعرب في اللباس والدواب ، وهم في هيتهم في مواكبههم
شبهون بالعرب يلبسون الأقبية والمناطق (١) ، وقال في موضع آخر بلاد الصين
أنزه وأحسن ، وأصح وأقل أمراضاً وأطيب هواء ، لا يكاد يرى بها أعشى ، ولا
أعور ولا من به عاهة ، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة ،
وعطاؤهم كعطاء العرب (٢) .

قال ابن النديم عن راهب من أهل نجران الوارد من بلاد الصين في سنة ٤٣٧٧ هـ -
أن الصين ثلثمائة مدينة كلها عامرة ، وعلى كل خمسين مدينة ، ملك من قبل البغية (٣)
وكان ابن خرداذبه ذكر البغور أيضاً فإنه قد قال : لقب ملك الصين ببغور (٤) .

قال القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد ، الصين بلاد واسعة في
المشرق ، ممتدة من الأقاليم الأولى إلى الثالث ، عرضها أكثر من طولها ، قالوا نحو
ثلثمائة مدينة في مسافة شهرين وأنها كثيرة الماء ، كثيرة الأشجار ، كثيرة الخيرات ،
وافرة الثمرات ، ومن أحسن بلاد الله وأنزهها (٥) .

قال ابن بطوطة . إقليم الصين ، متسع ، كثير الخيرات والفواكه والزرع
والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض ويخزقه النهر المعروف
(باب حياة) ، معناه ماء الحياة ، ويسمى أيضاً نهر الصين كاسم النهر الذي
بالهند ومنبعه من جبال بقرب (خانبالق) يمر في وسط الصين إلى أن ينتهي
إلى صينية الصين وتكثفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنبيل مصر ،
إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النوافير الكثيرة (٦) .

(١) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٥٦

(٢) سلسلة التواريخ ص ٥٨

(٣) الفهرست ص ٤٩١

(٤) ابن خرداذبه ص ١٦

(٥) القزويني ص ٣٥

(٦) ابن بطوطة ص

قال الإدريسي في «نزعة المشتاق في اختراق الآفاق» في الصين ثمانمائة مدينة كلها عامرة وفيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة (اليعنوع) و (اليعنوع) يقال له ملك الملوك^(١).

قال الأصبخري في إقليم الأرض - أما مملكة الصين فشرقها وشمالها البحر المحيط، وأما جنوبها فمملكة الإسلام والهند^(٢). ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأرتان منهم^(٣). فإذا قطعت من القلزم إلى الصين على خط مستقيم كان مقداره نحو ٦٠٠ مرحلة^(٤).

من هذه الكلمات التي اقتبسناها هنا من كتاب العرب، من ابن خرداذبه في القرن الثامن للميلاد، إلى ابن بطوطة في القرن الثالث عشر، نفهم الصين وحدودها لتلك القرون فهما تماما، غير محتاج إلى إيضاح من بد أو تطبيق مفصل. لأنك تعرف الصين في قول ابن خرداذبه، إذ قال: «وحد الصين من البحر إلى التبت والترك، وغربا إلى الهند وفي مشارق الصين بلاد وقواق (أى اليابان) وفي قول الأصبخري، حيث يقول = «شرق مملكة الصين وشمالها البحر المحيط وأما جنوبها فمملكة الإسلام والهند. ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت. ويظهر من عبارة الأصبخري أنه بنى نظريته في موقف الصين على نظرية ابن حوقل.

وابن حوقل هو أول عربي رسم خريطة لصورة الأرض، وجعل مكة في وسطها وأفرقيا وآسيا متقابلين وجها لوجه ولم يذكر شيئا عن جزائر (فلباين) وملايا، كما هي معروفة الآن وجعل المحيط الباسفيكي في شرق الصين

(١) الإدريسي ج - ص ١٦٦

(٢) الأصبخري ص ١١

(٣) الأصبخري ص ١٠

(٤) الأصبخري ص ١٢

وشمالها وبلادها الأتراك في غربها، وبلاد الهند والاسلام في جنوبها. فنظرية ابن حوقل تختلف قليلا عن نظريات الجغرافيين في هذه القرون، لأنهم جعلوا المحيط في شرق الصين وروسيا في شمالها. لكنهم على كل حال لم يخرجوا على الاصول التي بنى عليها ابن حوقل تحقيقاته عن مواقف الأقاليم. فجاء بعد بلاد العرب ببلاد الفرس، ثم السند ثم الهند، ثم التبت، ثم الصين. وهذا الترتيب تجده أيضا في ابن حوقل.

وأما ملاحظات سليمان السيرافي عن أهل الصين و بأهم أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس، إلى آخر ذلك، وبلاد الصين أنزه وأحسن، لا يكاد يرى بها أعشى ولا أعور. في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وأقوال الادريسي في الصين، بأن فيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة اليبغوي واليبغوي هو ملك الملوك. وأقوال ابن بطوطة في الصين، بأن نهر الصين تكتفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنبيل مصر، إلا أن هذا، أكثر عمارة وعلية النواعير الكثيرة وفسكلها من الأقوال التي لا نشك في صحتها. فإن ملابس رجال الصين، حتى اليوم تشابه عيادات العرب في الارسال والطول، ومدن الصين لا تزال محصنة كما كانت في تلك القرون الخالية. وكانت الصين تنقسم إلى تسع ولايات في كل ولاية منها نائب الملك وفوقهم الامبراطور. فقول الادريسي فيها عدة ملوك، لكنهم تحت طاعة اليبغوي، يريد به النظام الذي كان بالصين في وقته. واليبغوي في الادريسي هو يعبور وكذا في ابن النديم وابن خرداذبه.

فالنهر الذي ذكره ابن بطوطة، هو نهر (يانغ تز) أو (يانغ تز كيانغ).

ومن الملاحظات الدقيقة التي نجدها في كتاب سليمان السيرافي قوله لا يكاد يرى بها أعشى ولا أعور. وقد كنت لأعير هذه الملاحظة أي اهتمام حتى قدمت إلى مصر فاذا بها عمى وعوران وذووا عاهات لا يحصون كثرة في القرى والمدن ولعلماء الاسلام كلام طريف عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى، فابن خرداذبه يقول في القرن الثامن من الميلاد أن من (لوقين) إلى (خانفو)

وهي المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام في البحر وعشرين يوماً في البر . وفيها الفواكه على اختلاف أنواعها ، والبنقول والخنطة والشعير وقصب السكر . ومن (خانفو) إلى (جانجو) ، مسيرة ثمانية أيام وفيها مثل ما في ذلك ولا يكمل مرفأ من مرفأ العمين نهر عظيم تدخله السفن ، ويكون فيه المد والجزر (١) .

ويروى ابن الازدي عن أبي داب اليزمعي الذي عاش في الشطر الأول من القرن العاشر للميلاد ، أن اسم مدينة الملك الأعظم في الصين ، يسمى (حمدان) ومدينة التجار والأوال (خانفو) . وطولها ٤ فرسخا ومن مدن الصين (ورصو) و (بانصو) و (أرمائل) ، منها إلى (بانصو) مسيرة شهرين و (بانصو) تتصل بناحية التبت والترك والتغرغر (يونان) . ومن التبت إلى خراسان على استدارة يكون ٣٠٠٠ فرسخ ، وفي بلاد الصين ، (سيلا) ببلاد (كوريا) ، وهي من أطيب المدن وأجلها وأكثرها ذهباً (٢) .

لقد ذكر الازدي كثيراً من مدن الصين التي قد تغيرت أسماءها ، فلا تعرف مواقعها الجغرافية ولا أسماءها الأصلية الآن ، لكن ما ذكر من أحوال المدن ينطبق تماماً على مدن الصين في القرون الوسطى .

ومن المدن التي ذكرها الازدي في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، مدينة (سوسة) وسعدا وطرغما ، وصينية الصين (وذكر ابن بطوطة والمسعودي صينية الصين أيضاً) . وأسجدا ، وسرخو ، وباجا ، ويشهبار ، وفاسا ، وحامكو ، وخانفو . وقال أن مدينة مرسية ، مدينة مشهورة معلومة مذكورة ، كثيرة العمارات جامعة الخيرات ، وأموال أهلها كثيرة ، وتجارهم مبالغة مرفورة وقرضهم معترف به في الآفاق ، وتتصل بكل الأمصار ويصنع بها الغضار الصيني الذي لا يعد له شيء من نفاخ الصين جودة ، وبها طور كثيرة مشهورة (ومعمل الحرير الصيني الرفيع القسمة ، المحكم الصنعة الذي لا يقترن به غيره .

(١) ابن خرداذبه ص ٦٦

(٢) الفهرست ص ٤٩١

وصينية الصين على شقي نهر حمدان الكبير ، ومنها إلى مدينة قابطو ، أربع عشرة مرحلة ، وإلى سقلا ثمانية أيام ، ومدينة سقلا عامرة بالسكان ، حسنة المساكن كثيرة التجارات ، وموفرة العمارات وإليها مقصد التجار من كل الأقطار المجاورة لها ، المتباعدة عنها بضروب البضائع وأنواع الامتعة ، ويعمل بها ثياب حرير وشفاير .
ومن سقلا إلى صينية الصين ١٧ مرحلة وإلى طوغما ٥ ثماني مراحل ، وطوغما مدينة كبيرة لاحصن لها ، لسكنها عامرة وبها حمل وبضائع ويتجهز منها بأصناف من التجارات ، ومنها إلى صينية الصين ثماني مراحل وهي في أقصى الصين ولا تعد لها مدينة في الكبير وترامى الأطراف ، وكثيرة البضائع واجتماع التجار إليها من سائر الأقطار ومن بعض المدن الهندية المجاورة للصين . ومن صينية الصين إلى مدينة سنجو ، ثماني مراحل وهي مدينة على بطحاء الأرض تمتد لا يثبت بها شيء إلا الزعفران غرسا ، أو من غير غرس ، ومنها يججز الزعفران إلى سائر أقطار الصين ، ويبيع بها منه ما يعم السكل كثيرة وطيبا وقد يعمل بهذه المدينة الحرير والغضار ، ومن مدينة سنجو ، إلى باجه ٤ مراحل وهي مدينة الينغوع^(١) وبها دار ملكه ، وموضع رجاله ، وخزائن أهواله ، ومصون حربيه ، وهذه المدينة على ضفة نهر حمدان ومنه يصعد إلى المدينة من خالقو وخابكو ، وعبرها من راق الصين المشهورة ومن مدينة باجه إلى مدينة شوخو أربع مراحل ، ومدينة شوخو على نهر صغير يقع في البحر الشرقي ، وبين مدينة شوخو والبحر أربع مراحل ، ومن شوخو إلى مدينة شيهار تسع مراحل ومدينة شيهار بها رئيس من قبل الينغوع له خيول ورجال وحشم وعبيد ، والملك عظيم وهو يقاتل الترك الداخلين إليه بمن يجاوره منهم^(١) .

ويقول في موضع آخر - وفي (لوقين) وهي أول مرافئ الصين طرف الديباج والحرير ومنها يخرج إلى جميع البلاد التي تنصل بها وتبعد عنها ، وبها أرز وحب ونارجيل وقصب . ومن مدينة (لوقين) إلى مدينة (خانقو) مسيرة ، أربعة أيام

في البحر وعشرين يوما في البر . ومن أعظم مرافئ الصين ، وبها ملك مهاب ، له ملكة سمحة وفيلة ، كثيرة وأجناد وأسلمحة ، وأهلها يأكلون الأرز والنارجيل والالبان وقصب السكر والقل . وهي على خور تطلع فيه المراكب مسافة شهرين إلى مدينة باجه .

ومن مدينة الصين الساحلية إلى جزيرة (شامل) أربعة أيام وهي في آخر البحر الصيني معمورة بالسكان ، وفيها حنطة وأرز وأوزة وقصب السكر وبها سمك كبير العظم لذيد الطعم ومن جزيرة (شامل) إلى جزيرة (عاشورة) ، أربعة أيام وهي جزيرة قليلة العمار ، وأرضها أرض موحشة ، كثيرة العقارب والأفاعي (١) وأما مدينة (حامكو) فمدينة جميلة بديعة ، رائجة الأسواق ، حسنة البساتين والرياض كثيرة الفواكه ، ويصنع بها الغضار الصيني وثياب الحرير ، وعلى الجملة فيها ما في مدينة (خانفو) وهي على خور كبير يحيط بها ويصعد في هذا الخور إلى عدة من مدن الصين (٢) .

ولعلماء العرب ملاحظات قيمة على ملك الصين وأوصافه وهي طريفة جدا . فنقل هنا بعضا منها . يقول المسعودي في « مروج الذهب ومعدن الجواهر » أن ملوك الصين ذوا آراء ونحل ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم ، غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك وزعموا أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب وأن من العدل الزيادة في الاحسان مع الزيادة في العمل (٣) .

يروى سليمان التاجر السيرافي ، في كل مدينة شيء ، يدعى « الدرا » (٤) وهو جرس على رأس الملك مربوط بخيط ممدود ، على ظهر الطريق للعامّة كافة . وبين

(١) الادريسي ج ١ - ص ٥٧

(٢) الادريسي ج ١ - ص ١٦٦

(٣) المسعودي ص

(٤) « الدرا » كلمة فارسية معناها « جرس » .

المملك ويبنه نجر فرسخ . فاذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة ، تحرك الجرس منه ، على رأس المملك ، فيؤذن له بالدخول حتى ينتهي إليه ، ويشرح له ظلامته وجميع البلاد فيها مثل ذلك (١) .

وقد روى سليمان السيرافي قصة تاجر خراساني بالصين ، وكيف أنصفه المملك وبتكل عن ظلمه وهذه القصة تهديك إلى معرفة أوصاف ملك الصين في ذلك الوقت فانظر ماذا ورد في سلسلة التواريخ :

كان في هذا التاجر بخل وشح ، فوقعت مشاجرة بيده وبين خصي المملك بخانفو من أجل أمة العاج وغيره ، امتنع عن بيعها حتى ظهر الأمر بينهما وحمل الخصي نفسه على انتزاع خيار الأمانة التي كانت مع هذا التاجر الخراساني فذهب التاجر إلى (حمدان) مستخفياً وشكاً إلى المملك ظلامته فسأله بوساطة الترجمان عن أمره فلما ثبت الصدق للتاجر بعد التحقيق الطويل ، قبض على الخصي وصادر أمواله وطرده من الوظيفة التي كان بها ، وقال له : كان حتمك القتل ، إذ عرضتني لرجل قد سلك من خراسان وهي على حد مملكتي وصار إلى بلاد العرب ومنها إلى ممالك الهند . ثم إلى بلدي طلباً للفضل ، فأردت أن يعود بجزاها هذه الممالك ومن فيها . فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها ويقول له المملك : أوليك تدبير الموتى ، إذ عجزت عن تدبير الأحياء (٢) .

وإذا قرأت نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تجد فيه كلاماً طويلاً عن أوصاف ملك الصين . أن الإدريسي قد أخذ أخباره عن سليمان السيرافي ، لكننا لا نعرف بأية طريقة ، لأن سليمان السيرافي قد عاش في منتصف القرن التاسع من الميلاد بالعراق والأدريسي في القرن الحادي عشر بصقلية . والظاهر أنه لم يزر بغداد ولا البصرة طوال حياته . فليس من المعقول إذن أنه حصل علمه عن هذه النقطة بالعراق ، لكن من الممكن أن بعض التجار قد ذهبوا بنسخة من سلسلة

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٢

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ١٠٦

التواريخ الذي كتبه سليمان في سنة ٨٥١ م ، وأضاف إليه أبو زيد الجزء الثاني في سنة ٨٨٠ م ، إلى صقلية حيث كان الادريسي يشتغل بأعماله العملية ، لكن من الممكن أيضا أنه حصله بطريق آخر ليس له علاقة بما في سلسلة التواريخ . بسؤال التجار الواردين من بلاد الصين . لأن تجار المغرب والأندلس كانوا يترددون بين الصين وبلادهم قبل زمن الادريسي على الأقل بقرن ونصف قرن ، كما أشار ابن التديم في الفهرست ، استنادا إلى أبي دلف الينبعي الذي عاش إلى ٩٤٠ م (١) وقد كثرت هذا التردد من تجار الأندلس والمغرب إلى الصين في العصر الذي عاش فيه الادريسي ، حتى تلقب كثير منهم «بالصينيين» بسبب سفرهم إلى الصين وإقامتهم بها (٢) فلذلك نرى اختلافا في البيان عن الأمر في سلسلة التواريخ ونزهة المشتاق اختلافا ليس في العناصر الجوهرية ، بل في كيفية تقرب المظلومين إلى الملك وكيفية انصاف الملك لهم . فكلام سليمان كما أوردناه ، أنفا ، وجزين بجمل . لكن الادريسي يذهب إلى التفاصيل التي ترى فيها صورة تمثل مجلس العدل والانصاف وتولى رئاسة هذا المجلس الملك نفسه . وذلك ما تقرؤه في السطور الآتية :

والينبوع يقال له ملك السلوك وهو ملك حسن السيرة وعادل في رعيته ، رفيع في همته ، قادر في سلطانه مصيب في رأيه ؛ حازم في اجتهاده ، شهم في ارادته لطيف في حكمه ، حلیم في تحكيمه : وهاب في عطائه ، ناظر في الأمور القريبة والبعيدة ، بصير بالواقب تصل أمور عبيده المستضعفين اليه من غير منع ولا توسط . وأن له في قصره مجلسا قد أتقن بنيانه ، وأحكم سميكة ، وأبدعت نحاسه له فيه كرسي من ذهب يجلس فيه ، ويجمع حوله وزراءه في كل أسبوع مرة وعلى رأس الملك جرس معلق ، تمتد منه سلسلة ذهب إلى خارج القصر ، مهندمة الوضع ومتصل أسفل السلسلة إلى أسفل القصر . فإذا جاء المظلوم ، بكتاب مظلمته ، أخذ طرف السلسلة فأجتمد بها . فيتحرك الجرس ، فيخرج الوزير يده من الطاق . وتلك علامة يفهم منها المظلوم الأذن بالصعود؛ فيصعد المظلوم إلى المجلس على درج خاص

(١) الفهرست ص ٤٩

(٢) ياقوت ج ٥ ص ٤٠٨

بصعود المظلومين عليه حتى يقف بين يدي الملك . فيسجد المظلوم ؛ ثم يقف ثم يمد الملك يده الى المظلوم ويأخذ الكتاب منه وينظر فيه . ثم يرفعه الى وزرائه ويحكم له بما يجب له الحكم به ، بما يقتضيه مذهبه وشرعه من غير تسويف ولا تطويل ولا وساطة وزير ولا حاجب ومع ذلك فإنه يجتهد في دينه مقيم لشريعته ، كثير الصدقة على الضعفاء ودينه عبادة البدود^(١) . وبين مذهبه ومذهب الهندي خلاف يسير . وأهل الهند والصين لا يذكرون الخالق بل يثبتونه بحكمتهم وصنعتهم الأزلية ولا يقولون بالرسول ولا بالكتب ، وفي كل حال لا يفارقون العدل والانصاف^(٢) .

أهل الصين وعاداتهم: ننتقل الآن الى الحديث عما قال علماء العرب في أهل الصين . وعاداتهم وننظر هل ما جاء في كتبهم يوافق الحقيقة أولا يوافق .

قال الفزاري في آثار البلاد وأخبار العباد: أهل الصين أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة ، قصار القدود ، عظام الروس ، لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل ، ودينهم عبادة الآوتان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات^(٣) .

وقال ابن بطوطة: أهل الصين أعظم أحكاما للصناعات وأشدهم إتقاناً فيها . وذلك مشهور من حالهم قد وصفهم الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيها^(٤) .

وقال المسعودي: أهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم^(٥) .

(١) والمراد منه عبادة الاصنام ويظهر أن الادريسي أخذ هذه الكلمة من الفارسية (بت) . فبدل التاء بالدال وجمعها على (البدود) . وإلا فهي محرقة من كلمة (Buddha) مؤسس الديانة البوذية بالهند .

(١) الادريسي ج ١ - ١٦٦

(٢) آثار البلاد ص ٣٥

(٤) ابن بطوطة ص

(٥) مروج الذهب ص ١٧٧

وقال ابن الوردي: أهل الصين أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلا، وأحذقهم في الصناعات قصار القدود، عظام الرؤوس، مذاهمم مختلفة: مجوس، وأهل أوثان وأهل نيران. وهم حذاق بالقش والتصوير، يعمل الصبي منهم ما يمجز أهل الأرض. (١)

ولا يرتاب أحد من المؤرخين في مهارة الصينيين وحذاقهم في بعض الصناعات الخاصة ببلادهم في القرون الوسطى وسنورد بعض أقوال العرب، في هذا الصدد، عندما نتكلم عن صناعات الصين.

وأما عادات الصين التي لاحظها علماء الإسلام والعرب من سليمان التاجر السيرافي إلى ابن بطوطة، فجديرة بالذكر هنا. ومن هذه الملاحظات ما يتعلق بالملابس والمآكل والمشرب ومنها ما يتعلق بالزواج ودفن الموتى إلى غير ذلك من العادات الحسنة أو السيئة. قال سليمان السيرافي: لباس أهل الصين الصغار والكبار، الحرير في الشتاء والصيف. فأما الملوك، فالجديد من الحرير. ومن دونهم فعلى قدرهم وإذا كان الشتاء لبس الرجل السروالين والثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم. وإنما قصدهم أن يذهبوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه. فأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك ولا يلبسون العمائم.

ثم تكلم عن أكل الصين قال: وطعامهم الأرز. وربما طبخوا معه (الكوشان). فصبوه على الأرز فأكلوه، فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الخنطة واللحوم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها رطهم من الفواكه، التفاح والخوخ والأترج والمان والسفرجل والكهثرى والموز وقصب السكر والبطيخ والتين والعنب والقناء والخيار والنبق والجوز واللوز والجلوز والفسق والاجاص والمشمش والغبيراء. وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة في دار أحدهم.

ثم تكلم عن شرب الصين وقال : وشراهم النبيذ المعمول من الارز وليس في بلادهم خمر ولا تحمل اليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها، ويعمل من الارز الخل والنبيذ والتاطف وما أشبه ذلك إلى أن قال : وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم . ويقال له (الساخ) و هو أكثر ورقا من الربطة وأطيب قليلا وفيه مرارة فيغلي الماء وينذر ليه فهو ينفعهم من كل شيء وجميع ما يدخل بيت المال ، الجزية ، المأخوذة من العرب ، والملح وهذا الحشيش (١) .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على ما قال سليمان السيرافي فيما يتعلق بلباس الصينيين وأكلهم وشربهم في القرن الثامن أو التاسع من الميلاد لأن كل من له أدنى معرفة عن تاريخ الصين يعرف أن الصين القديمة كانت هي المملكة الوحيدة التي يصنع في مدنها الحرير ويصدر منها إلى سائر العالم . وكانت لها علاقة تجارية بالدول الخارجية ، مثل الامبراطورية الرومانية ، وبلاد الفرس والشام ومصر وبلاد الاندلس والعراق وغيرها من الجزائر التي بين خليج فارس وأول مرافئ الصين . فلا عجب إذن أن رجال الصين كبارهم وصغارهم ، كانوا أكثر الناس لبسا للحرير في عصر سليمان السيرافي في أيام الصيف والشتاء على حسب قدرتهم وقدرهم . أما الأكل فمن المعلوم أن أمة الصين أمة الارز غذاء ، لأن الارز هو أهم حاصلات أرضها ، خصوصا بجنوبي الصين التي زارها هذا التاجر السيرافي ورآها بعينيه .

ومن اللحوم التي يأكلها الصينيون لحم الخنزير ، كما ورد في سلسلة التواريخ ويؤكد هذا الأمر ، ابن بطوطة بقوله : كفار الصين يأكلون لحوم الخنازير ويبيعونها في أسواقهم . ولا تنازع في هذا الكلام ، بل نقول أن كفار الصين يميلون إلى هذا اللحم أكثر من أي لحم آخر . ورغبتهم فيه أشد من أية أمة من الأمم على وجه الأرض .

والخمر المصنوع من العنب ، كما كان معروفا في بلاد العرب ، في القرون الوسطى ، لم يكن معروفا عند الصينيين ، إلا في الايام الاخيرة . لكن كان عندهم

(١) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٤٠٠ (١) وبعينها (١)

نوع من المسكرات يعمل من الارز . لكنه أخف تأثيرا من نجر العنب . وهذا العصير من الارز ، ويقال له ، البند ، كما ورد في سلسلة التواريخ لسليمان ، غير أنه إذا مكث في الدن مدة طويلة تحلل .

وسليمان السيرافي أول من عرف من العرب أن عند الصينيين شرابا ، يؤخذ من نوع من الحشائش يقال له (الساخ) . وما كلمة (الساخ) إلا محقة عن أصلها (١) . فدخلت في الفارسية والاردية والتركية والروسية وبعض اللغات الأخرى في سورة (چانه) وفي العربية الحاضرة في صورة (الشاي) . وطريق صنعها قديما وحديثا دوكا وصفه سليمان وبينه في كتابه . والحقيقة أن النماي من أهم مشروبات الصينيين ومن أهم الإيرادات لخزانة الحكومة في القديم والحاضر معا . وفي موضع آخر تجد بعض التفصيلات عن ترويج الشاي في الممالك الإسلامية وسليمان ملاحظات أخرى في عادات الصينيين قال في الزواج :

« أهل الصين إذا أرادوا التزويج تهانوا بينهم ثم تهادوا ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول وهديتهم من المال على قدر الامكان (١) . وأضاف أبو زيد ما يأتي — فأما المناكح ببلاد الصين فهم شعوب وقبائل كشعوب بني اسرائيل وبطونها يتعارفون ذلك بينهم ولا يزوج احد منهم قريبا ولا إذا نسب فلا تزوج القبيلة من قبيلتها مثال ذلك أن بني تميم لا يتزوج في تميم ، وربيعة لا تزوج في ربيعة ، إنما تزوج ربيعة في مضر ويدعون أن ذلك أنجب للولد (٢) .

وأما ما جاء في المسودي عن الزواج في الصين ، فغير صحيح ، ذلك أنه يقول أن أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأخذها إلى أن قال : ولا يتزوج كل شخص إلا من نفذه . مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر ، فلا يتزوج في ربيعة أو من ربيعة فلا يتزوج في مضر ، أو من كهلان ، فلا يتزوج في حمير ، أو من حمير

(١) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٥٣

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ ص ١١٥

فلا يتزوج في كملان ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية وأنه أصح للبقاء وأتم للعمر^(١) والصحيح هو ما قال أبو زيد في هذه المسئلة ولا يزال الصينيون محافظين على هذا النظام الاجتماعي. فلا يزوجون إلا في قبائل غيرهم. ليس كما قال المسعودي. واعتقد أنه أخطأ في مأخذه، وقلب ماجاء في أبي زيد ظهرا لبطن فانعكست القضية. ومنها ما قال في بيوت الصين: أن بيوتهم هناك من الخشب ومن قنما مشقق وبسبب هذا يكثر الحريق، ويقول: أهل الصين لا يخبثون، والرجال يغطون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس^(٢).

ومنها ما قال في العلم والتعليم: قال، والطب بالهند وكذلك الفلسفة. ولاهل الصين أيضا طب وأكثر طبهم السكي ولهم علم بالنجوم وفي كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون^(٣). ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقرأ في الحجر ذكر الأدوية والأدواء فلكل داء دواء، فإذا كان الرجل فقيرا أعطى ثمن الدواء من بيت المال.

هذه الملاحظات القيمة التي دونها تاجر من تجار العرب في القرن الثامن من الميلاد، والتي لا نجد فيها ما يخالف الواقع أو الحقيقة بالنسبة إلى حالة كنفار الصين في تلك القرون، أصبحت الآن أدلة قوية لجميع الباحثين الذين يريدون أن يعرفوا حياة الصين الاجتماعية في العصور الوسطى. فيرون أن الصين من هذه الناحية لم تتغير كثيرا، لأن بيوتهم ما عدا ما في (المدن العصرية الحديثة)، أكثرها من الخشب. فيأتي عليها الحريق من حين لآخر. وأما الاختتان فكفار الصين حتى الآن لا يشعرون بضرورته على وجه عام. غير أن بعضا منهم وقد تأثروا بعلم الصحة الغربية، فبدؤوا في إجراء هذه العادة الحسنة بين أطفال المدارس لأنهم وجدوها خير طريق لاتقاء بعض الأمراض التناسلية. وأما الحجاب فلا تعرفه نساء الصين، وما نراه الآن في أحياء المسلمين في

(١) مروج الذهب (٢) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٢٤

(٣) سلسلة التواريخ ج ١ ص ٥٧

ولايات شمال الصين وغربها ، ليس من أيام بعيدة . وتاريخه كما أعتقد ، لا يرجع الى أكثر من مائة سنة وهذا الحجاب مختلف كثيرا عما نراه في الهند ومصر والحجاز وسنعود الى البحث عنه ، ان قدر لي أن أكتب كتابا في تاريخ الاسلام في الصين في فصل عادات المسلمين وآدابهم .

وما قاله سليمان السيرافي عن العلم والتعليم في الصين ، لم يكن من المبالغه ، لان العهد الذي زار سليمان فيه الصين ، كان عهد (تانغ) . وكان عهدا ذهبيا في تاريخ الصين . فلو كما كانوا أكثر الناس اهتماما بنشر العلم وتعميم التعليم ، كما كانوا أشد الناس اهتماما بترقية الصناعة وتوسيع دائرة التجارة . فلذلك نرى أن الصين في ذلك الوقت - وكانت أقدم الأمم في الشرق - أصبحت أقواها وأكثرها حياة ونشاطا في سبيل التقدم الانساني . فاهتمت بالعلم . ولا سيما علوم الفلك والنجوم والطب كما فعل ذلك أمراء المغول من سلالات جنكيز خان فيما بعد ذلك .

وكتاب العرب من أهل تلك القرون لم يتركوا ذكر موتى الصينيين أيضا . واتقد أشرت في مكان سابق إلى ما قال أبو زيد في هذا الصدد . وذكر الموقى يوجد في الفهرست أيضا . قال ابن النديم فيما رواه عن أبي دلف الينبغى أن أهل الصين ، اذا مات أحد منهم بقى في منزله في نقر من الخشب سنة . ثم يدفن في ضريح بلا لحد ويحزن عليه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات واليوم الذى يحمل فيه الميت الى قبره ، يزين الطريق بأنواع الديباج والحريز بحسب حال الميت وعظم قدره (١) .

وهن عادات الصين قديما ، أن يوضع جسم الميت في صندوق طويل من الخشب ويختتم بالشمع ويحكم غطاؤه بالجبس ، حتى لا تخرج منه الرائحة الكريهة . فيبقى في البيت مدة طويلة تكون في بعض الأحيان أكثر من سنة ، وكان الحزن عليه من أهله وأولاده ، الى ثلاث سنوات أمرا عاديا . وكان هذا من العادات المحموده التي يمتدحها أدباء الصين ويروجون لها ، وهذا هو السيرافي يقول أن الأدب الصيني يفيض بهذه العادة من قديم الزمان حتى الثورة الكبرى في سنة ١٩١١ م . فليأ

انقلب نظام الحكومة من الامبراطورية الى الجمهورية ، ظهر التغيير في أذهان الناس نحو هذه المادة الجسمنة فأخذت تحتفي شيئاً فشيئاً عن الحياة العامة ، مستورة في أعماق أوراق التاريخ والروايات .

ننقل الآن إلى نقطة أخرى فيها كلام طويل لعلماء العرب القدماء ، تلك هي ديانة الصين التي كانت سائدة فيها في عصور هؤلاء الكتاب . ويحسن أن نقبس شيئاً من أقوالهم .

وقد كان أول من تكلم من العرب في ديانة الصين هو سليمان السيرافي قال :
« أهل الصين يعبدون الأصنام ، ويصلون لها ويتضرعون ، ثم قال أصل ديانة الصين من الهند (١) .

وكلامه هذا يشير إلى الديانة البوذية التي أصابها من الهند ودخلت الصين في القرن الثاني من الميلاد .

كان سليمان كما تعرف تاجراً فلم يقدر على الايمان بمعتقدات الصيغيين على وجه التفصيل . والحق أن ديانتهم لم تكن منحصرة في البوذية وهي ديانة دخيلة ليست لها علاقة بمعتقدات الصين الأصلية ، بل هم يعتقدون بالسماء والقوات السماوية ، كما أنهم يعتقدون بأرواح الآباء والاجداد . فيكانوا يعملون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة . ولقد بين المسودى هذه المعتقدات في كتابه « مروج الذهب ومعدن الجواهر » وفصلها تفصيلاً جديراً بنظر القارىء ليفهم ماذا فهم علماء العرب في القرن التاسع من الميلاد عن معتقدات الصين . وإليك ما قال المسودى عن اعتقاد الصيغيين بالقوات السماوية (٢) .

كان كثير من أهل الصين يعتقدون أن الله جسم وأن الملائكة أجسام ، لها

(١) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٥٧

(٢) أنظر إلى فصل (الصين وديانها الأولية) في كتاب الصين والأديان

للأستاذ باركر (E. H. Parker: China and Religions) وقارن بين ما وراء المسودى وبين محتويات هذا الفصل .

أقدار، وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى اتخاذ التماثيل والأصنام على صورة البارئ وبعضها على صورة الملائكة، مختلفه القدود والأشكال، ومنها على صورة الانسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور لشبهها عندهم بالبارئ وقربها منه. وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى نهبهم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة قد يتمع خلاف بينهما وبين الله وأن كل ما يحدث في هذا العالم إنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب على أمر الكواكب تختفي بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعترض في الجو من السرايز. أمرهم بعض من كان فيهم من الحكماء أن يجولوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها. فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها ويقرب لها نوعا من القرابين خلاف ما الآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام، تحركت لهم الأجسام الصلوية من السبعة بكل ما يريدون وينزل السكلك صنم بيتا وهيكل مفردا وسما تلك الهياكل بتلك الكواكب (٢).

وكان الصيغون يعبدون أرواح آبائهم أيضاً، وقد بدأ ذلك من زمن ملكهم وعرون، على رواية المسعودي. فلما توفي والده جعل جسده في تمثال من الذهب الأحمر، مرصع بالجواهر، وجعل مجلسه دونه وأقبل يسجد لأبيه. فهلك وجعل ابنه دعبور، في تمثال من الذهب الأحمر وجعل دون مرتبة جده على حرير من الذهب ورصعه بأنواع الجواهر. وكان يسجد له، يبدأ بالأول ثم بأبيه وأهل مملكته يسجدون له، وأحسن، السيامة للرعية، وسواهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل والانصاف، فعمت هذه العادة في الأسرة المالكة جيلا بعد جيل. فكان في أول الأمر يأمر الخوارج من أهل مملكته أن يعظموا تلك التماثيل وأخبرهم أن من رأيه جمع الناس على ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل واتحاد العقيدة فإنه متى

عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ودخول الفساد والزلل . فرتب لهم سيااسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها رباطا ، ورتب لهم قصاصا في الانفس والأعضاء . ومستحلات منائح يستباح بها النساء وتصحح بها الانساب وجعلها مراتب . فيها لوازم موجبة يأثم من تركها ، ومها نوافل ينتقلون بها وأوجب عليهم صلوات الخالقهم تقربا لمحبودهم . منها لإيماء لاركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنين في شهور محدودة ورسم لهم أعيادا وجعل على الزناة منهم حدا ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء ، جزية مفروضة (١) .

ويقول في موضع آخر - ودينهم مثل دين قريش قبل مجيء الاسلام يعبدون الصور والأصنام ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللييب منهم يقصد بصلاته الخالق ويقوم التماثيل من الأصنام مقام القبلة . والجاهل منهم يعبدها ظاننا منه أنها تقربه إلى الله زانقا ، وأن منزلتها في العبادة تنقص عن عبادة الباري جلالاته وعظمته وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه . وهذا الدين كان بدأ ظهوره في خواص الهند لمجاورتهم لإياهم وهو رأى الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين . ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب النانوية وأهل الدهر فتغيرت أحوالهم وبحوثا وتناظروا إلا أنهم يتقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع ، ومن حيث أن ما حكمهم متصل بملك الطغوغر صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانوية والبول بالنور والظلمة وقد كانوا في جاملية وسبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانوية . فزخرف لهم كلاما ، يريهم فيه تضاد مافي هذا العالم من حياة وموت ، وصحة وسقم وضياء وظلام ، وغنى وفقير ، واجتماع وافراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب ووجود وعدم ، وليل ونهار ، وغير ذلك من سائر المتضادات ، ذكر لهم أنواع الآلام التي تمرض لاجناس الحيران من الناطقين وغيرهم عما ليس يناطق من البهائم

وما يعرض للاطفال والبله والمجانين وأن الباري جل وعز غنى عن
الميلامهم .

ولقد ذكر المسعودى سبعة بيوت بنيت على أسماء الكواكب من المعابد القديمة
المشهوره في العالم وها هي ذى :

الأول هو البيت الحرام بمكة بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام . والثاني معظم
على رأس جبل بأصفهان يقال له مارس ، والثالث يقال له سندوساب ، ببلاد
الهند ، والرابع بدبهار ، بناه منوشهر بمدينة بلخ على اسم القمر ، والخامس بيت
(غمدان) الذى بصنعاء بناه ضحاك على اسم الزهرة وخربه عثمان بن عفان ، (رض)
والسادس (كارشانشاه) بناه كارش الملك بنام عجيما على اسم المدير الاعظم
من الاجسام السماوية وهو الشمس ، بمدينة فرغانة ، خربه المتصم بالله ، وأما
السابع فهو بأعلى الصين بناه ولد عابور بن يعويل بن يافث بن نوح وأفرده للعله
الأولى إذ كان منشأ هذا الملك ومدته وباعث الأمور إليه . وجعله سبعة أبيات فى
كل بيت منها سبع كوى يقابل كل كوة صورة من الخمسة والنيرين . من أنواع
الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت وزمرد على اختلاف ألوان
الجواهر ولهم فى هذا الهيكل سر يتناقلونه فى بلاد الصين بما يزخرف لهم
الشیطان (١) . من بيان .

وذكر ابن النديم فى الفهرست : من سنة الصين تعظيم الملوك وعبادتها ،
على هذا أكثر العامة ، ولها بيت عظيم فى مدينة بغران ، يكون نحو عشرة آلاف
ذراع فى مثله ، مبنى بأنواع الصخر والآجر والذهب والفضة ، وقبل الوصول
إلى هذه ، يشاهد القاصد إليها أنواعا من الاصنام والتماثيل والصور والتخيلات
التي تهر عقل من لا يعرف كيف هى وأى شىء موضوعها وقال لابن النديم راهب
من أهل نجران أنقذه الجائليق إلى الصين ومكث هناك ست سنين وراقبه ابن النديم

(١) على هوامش نفخ الطيب ج ٢ - ص ١٤٣

بدار الروم وراء البيعة والله يا أبا الفرج ، لو عظم أحدنا من النصارى واليهود
والمسلمين الله عز وجل تعظيم هؤلاء لصورة ملكهم ، فضلا عن شخصه نفسه ،
لأنزل الله له القطار . فانهم إذا شاهدوها وقع عليهم الأفكل والرعد والجزع حتى
ربما فقد الواحد عقله أياما . فقال ابن النديم - ذلك لاستحواذ الشيطان على
بلدهم وعلى جملتهم يستغويهم ليضلوا عن سبيل الله قال يوشك أن يكون ذلك (١).
وخلاصة كلام المسعودى وابن النديم فى ديانة الصين ، محصورة فى
النقط الآتية :

١ - كان أهل الصين يعتقدون بحالق له جسم ، وبالكواكب السماوية التى تؤثر
فى حياة بنى الانسان فى خيرهم وشرهم . فنصبوا لها الهياكل والتماثيل وقربوا لها
القرابين وندروا لها التندور .

٢ - كان أهل الصين يعتقدون بأرواح الآباء وعملوا لهم التماثيل بعد وفاتهم
وأقبلوا يعبدونها ظناً منهم أن هذه العبادة تفيدهم فى حياتهم الدنيا .

٣ - دخلت الديانة البوذية الصين من الهند كما دخلت الديانة المانوية من
إيران فانتشرت فيها .

٤ - كان خواص المملوكة يعظمون الملك بالسجود فقلدهم العوام فى هذه
العادة حتى أصبحت جزءا من معتقداتهم فيما بعد .

بقطع النظر عن الأسماء المفروضة التى وردت فى المسعودى وابن النديم ، مثل
« عرون ، و « عبور ، و « بخران » ، فوافق على بيانها فى نشأة هذه المعتقدات
وانتشارها فى الصين وأنها لنجد اليوم أن بعضها لا يزال باقيا على حالته الأولى ،
فمثلا الاعتقاد بتأثيرات الأجسام السماوية فى حياة الانسان وبأرواح الآباء ونصب
التماثيل لها وإنشاء الهياكل . والمراد من الآباء فى عرف الصين للسلف الصالح
وكفار الصين يبنون الهياكل لاسلافهم الكبار فقط ، بل لزعماء المسلمين أيضا .

و لقد بنوا هيكل للسيد الأجل عمر شمس الدين بولاية يوتنغ^(١) وهيكل الناخدا
بجزيرة هاى نان (Hainan) ^(٢) . وقرأنا من أيام قرية في جريدة إسلامية صينية
خبرا أن عضوا من أعضاء لجنة التعمير والتنظيم التابعة للحكومة المركزية ، قد اقترح
بناء هيكل لقائدهم لم معروف في تاريخ الصين باسم (جان يوجون Chang Yu-Chun)
تذكارا للخدمات الجميلة التي قام بها في أثناء ثورة الصينيين على المغول في الشطر الثاني
من القرن الرابع عشر للميلاد فرمى فيها سهما مصيبا ناجحا^(٣) .

والديانة البوذية لا تزال سائدة في الصين في صورة شبه رسمية ، وأما ديانة المانوية
فقد تسربت إلى الصين عند فتح العرب لبلاد الفرس و فرار يزيد جرد إلى جانغ آن
كما بيانا من قبل لكني ليس لهذه الديانة وجود في الصين الآن كما أن انتشارها
في الصين لم يكن نافذا بالغا في القرن السابع من الميلاد . وأما عبادة الملوك والسجود
لهم فظلت باقية إلى آخر عهد (مانشو) . ففضى الانقلاب السياسي في سنة ١٩١١ م
على هذه العادة الخبيثة من أصلها .

وعند العرب معلومات وافرة عن صناعات الصين المختلفة مثل الحرير والتصوير
والفخار وغيرها ونورد هنا بعض ما قالوا في هذا الصدد .

قال القزويني وهو من معاصري ابن بطوطة : لأهل الصين يد باسطة في الصناعات
الدقيقة ولا يستحسنون شيئا من الصناعات غير صناعتهم . وأى شيء رأوا أخذوا
عليه عيبا ويقولون : أهل الدنيا ما عدنا ناعى إلا أهل بابل ، فأنهم عور وبالغوا
في تدقيق صنعة القرش حتى أنهم يصورون الانسان الضاحك الباكي ويفصلون
بين ضحك السرور والحجل والشامة^(٤) .

من هذه الكلمات نفهم أن الصينيين كانوا يتفخرون بما لديهم من الصناعات

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ٢ - ص ٢٢٣ .

(2) Chao Ju-Kua : P. 188

(3) Tuh Chuh Magazine, Nanking. Vol. 111. No. 5. p. 54

(٤) آثار البلاد ص ٢٦ .

الدقيقة ولا يرون لهم نظراء في الدنيا، غير أنهم اعترفوا بصناعة أهل بابل في النقوش والتصوير واعتقدوا أن صناعاتهم أرقى وأبرع من جميع الأمم الأخرى غير أمة الصين . لأنهم يخاطبونهم ، كما جاء في القزويني بالعور وغير أهل بابل بالعمى ومعنى ذلك أنهم هم أولوا الأبصار فقط .

لم يكن القزويني أول من تكلم في هذا الأمر . لأن المسعودي قد تكلم قبله بقرون ، وله قول شائق في هذا المرضع . فقرأ ما يلي في كتابه « مروج الذهب ومعدن الجواهر » ، حيث يقول : « أهل الصين من أحذق خلق الله كما بنقش وصنائه وكل عمل لا يتقدم فيه أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما غيره يعجز عنه ، فيتصد به باب الملك بنصبه على أبيه من وقته إلى سنة . فإن لم يخرج أحد فيه عيباً أجاز صانعه وأدخله في جملة صنائه ، وأن أخرج أحد فيه عيباً أطرحه ولم يجزه . »

كان ملك الصين ، بهذا الطريق ، يجمع أبرع الصناعيين وأمهريه من ناحية ، ويشجع صناعة الفنون الجميلة بالإنعام الجزيل من ناحية أخرى ، فترقى هذا الفن وكثر صانعوه حتى نافس بعضهم بعضاً في براعة الفن لدى الملك وكاله . واجتهد كل واحد في إخراج عيب من مصنوعات الآخر . لقد روى المسعودي وأن رجلاً من صناع الصين صور سنبله سقط عليها عصفور في ثوب حرير . فلم يشك الناظر في أنها سنبله حقيقية سقط عليها عصفور . فبقي الثوب عند باب الملك مدة حتى اجتاز به أحد فحارب العمل ، فأدخل إلى الملك وأحضر صاحب العمل . فسأل الاحدب عن العيب فقال - : المتعارف عند الناس جميعاً ما لها ، وقد صور هذا المصور السنبله قائمة لا ميل فيها . وأثبت العصفور فيها منتصباً فأخطأ . فصدق الاحدب ولم يشك صاحبه بشيء ، وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراس وأعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد بيده (١) .

وأقوال ابن بطوطة الذي زار بلاد الصين في أوائل القرن الرابع عشر من

الميلاد ، وشاهد يد الصينيين في هذا الفن ، تؤكد ما ورد في المسعودي والقزويني فانه يقول - وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت اليها ، إلا ورأيت فيها صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغذ ، موضوعة في الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان مع أصحابي ونحن على زى العراقيين . فلما عدت من القصر عشياً ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الكواغذ وقد ألصقوه بالحائط . لجعل كل منا ينظر الى صاحبه ، لا تخطئه شيئاً من شبهه (١) .

وكانت صناعة الحرير في الصين مشهورة عند العرب قبل ظهور الاسلام ، وعرفوا قيمته بعد اتصالهم بها مباشرة . فأكثر كتاب العرب في كتبهم من الحديث عن هذه الصناعة . وأقدمهم من أهل القرن التاسع للميلاد . ويظهر من كلام علماء العرب ، أن أهر العمل في صناعة الحرير هو رفته وأحسن الحرير أرقه ، وقد كان الأمراء يفاخر بعضهم بعضاً في عمل الثياب من هذا الصنف من الحرير في أيام الصيف . وهو من أغلى صنف لا يحمل مثله إلى بلاد العرب أيام سليمان السيرافي . وما ورد في الجزء الثاني من « سلسلة التواريخ » ، يهديك إلى إبداع الصينيين في صناعتها وتفننهم في رقتها فقد روى أبو يزيد عن رجل من وجوه التجار قد صار إلى خصي من خصيان الملك ، انفضه إلى مدينة خانقو ، لتخير ما يحتاج إليه من الامتعة الواردة من بلاد العرب . فرأى هذا التاجر على صدر ذلك الخصي خالاً يشف من تحت ثياب حريرية كانت عليه . فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها . فلما ألح في النظر . قال له الرجل ، عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب . فضحك الخصي . ثم طرح كم قيمه إلى الرجل وقال له : أعدد ما على منها فوجدها خمسة أقيية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها .

والذي هذه صفته من الحرير ، خام مقصور الذي يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب (١) .

أما الفخار الصيني فقد وجدت ذكره في ابن الفقيه وذلك يدل على أن للعرب كان لهم علم بهذه الصناعة على الأقل في القرن التاسع من الميلاد ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجار العرب كانوا يستوردونها إلى بغداد في زمن العباسيين وعندنا شهادات تاريخية في المحفورات التي أخرجها المنقبون بمدينة سامراء ، ومن هذه المحفورات قطع من الفخار الصيني الذي يرجع تاريخه إلى عصر (تايغ) وسنعود إلى التكم في هذه القطة ، عند ما نتكلم في العلاقات الصناعية .

في زمن ابن بطوطة كان الفخار الصيني يحمل إلى بلاد المغرب ، وأما طريق صنعها فلا ين بطوطة . ملاحظة دقيقة كما تلى :

قال ابن بطوطة : — أن هذه الصناعة تكون بمدينة الزيتون وبصين السكلان ، أو صينية الصين كما جاء في الادريسي قال : الفخار الصيني يصنع بمدينة الزيتون وبصين السكلان . وهو من تراب جبال تنقد فيه النار كالقحم وهذا التراب كالطفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتي القيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع القحم عندنا . فيشعلون فيه النار ويوقدون النار عليه ثلاثة أيام ، وإذا صار رماداً يخنونه بالماء وبيسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني وكانوا قبل ذلك يخمرون التراب فالجيد ما خمر شهراً كاملاً ولا يزداد على ذلك . والدون ما خمر عشرة أيام وهو هناك بقيمة الفخار ببلادنا . وأرخص ثمناً ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب وهو أبداع أنواع الفخار .

ومن صناعات الصين التي ذكرها كتاب الإسلام ، طريقة نقل الكتب وحفظها . وذلك يوجد في تاريخ البناكيتي وهر أبو سليمان دلود ، ولد بمدينة

بناكيت بما وراء النهر، كان شاعرا ممتازا في قصر غازان خان وألف كتابا معروفا باسم تاريخ بناكيتي في سنة ٧١٧ هـ - سنة ١٣١٧ م .

وقد أشار إلى هذا الكتاب الاستاذ براون، في الجزء الثالث من أدبيات إيران وبين فيه طريقة نقل الكتب عند الصينيين في تلك القرون . ورواية تقول أن بناكيتي قد نقل قوله في هذا الصدد من رشيد الدين فضل الله، وعلى كل حال نعتقد أن ما جاء في تاريخ بناكيتي أكثر تفصيلا مما ورد في جامع التواريخ .

قال بناكيتي : « من عادات للصينيين أنهم استنسخوا ولا يزالون يستنسخون الكتب القديمة التي يريدون حفظها ، بطريقة خاصة ليس للتبديل فيها سبيل ، ولا للتغيير فيها طريق ذلك أنهم إذا أرادوا أن ينقلوا كتابا ذا أهمية كبيرة في نظرهم ، واستبقوه صحيحا سليما من التغير ، أو من الوقوع في الاغلاط يأتون بأمر النساخين ويأمرونه أن يستنسخ صفحة صفحة من ذلك الكتاب ، بخط واضح جميل على وجه من لوح خشبي . ثم اجتمع العلماء الكبار ونظروا فيها بكل دقة واهتمام . فصححوها وضبطوها حتى اطمأنوا الى خلوها من الخطأ . ثم وقعوا بأسمائهم على ظهر ذلك اللوح ، شاهدين على صحة الصفحة المنقولة . ثم أمروا الاخصائيين من النقاش أن ينقشوا ذلك اللوح حتى يبرزوا الحروف منه إبرازا تاما . فإذا انتهوا من نقل جميع الصفحات بتلك الطريقة وضعوا الأرقام ، على كل لوح من الألواح المنقوشة ، ثم حفظوها في الصناديق كما يحفظون نقود الفضة والذهب في الخزائن . ثم ختموا على أغطية الصناديق بالشمع الأحمر ، ثم سلخوا إلى رجل أمين ، منتخب من بينهم ، محافظ على هذه الصناديق في مكتبته ، ومعهده يكون بطرف الصناديق الذي عليه الختم . فإذا جاء أحد يطلب نسخة من الكتاب ، يجب عليه أولا أن يذهب إلى اللجنة ويدفع ما يلزم من الرسوم المقررة من الحكومة . ثم يؤتى الأمر بفك الختم وإخراج الألواح المنقوشة واحدا بعد الآخر . فطبعوا بها على أوراق القرطاس كما يفعلون في ضرب المكة بالقالب . فلما أتموا طبعتها ، سلموا جميع الأوراق المطبوعة إلى الطالب . فلذا

لا يمكن أن يقع شيء من التغييرات بزيادة حرف أو نقصائه من أية نسخة من السكتب (١).

وكان عند علماء الإسلام علم ببعض الأدوية الصينية منها «ماميران Mamiran» ولقد ذكر أبو منصور مؤلف كتاب الابتيات عن حقه في الأدويات، في القرن العاشر من الميلاد، خاصة دوائية في «ماميران» أصلها من الصين وتوجد في تركستان بهذا الاسم أيضا. وهو نوع من العقاقير سماه أطباء العرب «ماميرون» ويقول ابن البيطار الذي تقدم ذكره في فصل كتاب الإسلام والصين، على رواية الجافكي، أن «ماميرن» يستورد من الصين وخاصيته مثل الذي في كوركوم وهو يوجد في الأندلس وبلاد البربر واليونان، ويروي الشيخ داود أن أحسن ما جاء من الصين، أصفر اللون. ولقد ذكر ابن بطوطة استيراد «ماميرون» من الصين قائلا، أن هذه الجذرة خاصة كورموم. ويقول الحاج محمد في بيانه عن بلاد الخطا، أن هناك جذرة، تلبث بجمال قانصو، حيث تلبث راوند، ويسمونها «ماميرون» صيني، وهو غال جدا، واستعماله على الأغلب في علاج الأمراض خصوصا في علاج العيون الملتبئة. فطحنها مع ماء الورد ومسحوا بها عين المريض فتأتي بنتيجة عجيبة. لقد ذكر علماء الغرب ما قال علماء الإسلام في خاصية هذه الجذرة، فأن رو وولف (L. Heart Row welf) يذكر في سنة ١٥٨٣ م، أن الماميرون الصينية التي تعالج بها العيون، من نوع أصفر، مثل كوركوم. لاشك أن ماميران، نوع من العقاقير، مشهور في علاج العيون، يستورد إلى الهند عن طريق سنغافورة في كمية كبيرة. وكان الصينيون يستعملونها في علاج أمراض كثيرة وفي تطهير العيون الملتبئة (٢).

ومنها ورد الصين - قد تكلم ابن البيطار عن نوع من الورد أصله من الصين ويسمونه «كسرين»، وكل جيني باللغة الفارسية، هو ترجمة معنى لورد الصين في

(1) E. Browne : Literary History of Persia. Vol. 111. p. 102

(2) Sino-Iranica : p. 547.

العربية . وله كلام عن « شاه صيني » ، أيضا . ووصف أنه قرص صغير وثيق أسود اللون مصنوع من لبن نبات ، يفيد في تبريد وجع الرأس الحامى ولسعته ملتبته في الجلد فيسحق ويوضع على محل الداء . لقد شرح الأستاذ ستانجس (Steignes) في معجم الفارسية ، « أن شاه صيني » ، عصير من نبات ، جبي . من الصين يفيد في علاج وجع الرأس (١) .

ومنها (السوك) . والسوك في العربية ، نوع من العقاقير مركب من عدة عناصر نباتية . وبناء على ما قاله ابن سينا ، فإنه في الاصل علاج سرى معلوم عند الصينيين فقط باستعمال الاملاج وسماه أهل الصين (Aumlai) . إذن ، فالعلاج في ابن سينا ، كلمة محرفة من (أورملائي) ، صينية الاصل . .

ولعلماء العرب كلام عن نباتات أخرى في الصين ، قلما يلتفت إليها أهل الصين أنفسهم ، لشذوذها . فثلا « عتبا » ، وهو « مانجو » معروف عند المصريين الآن . أصله من الهند ويعتبر في تلك الديار ، ملك الفواكه ، وتجده الحديث عن هذه الفاكهة في رحلة ابن بطوطة ويعتقد الهنود أن المانجو لا توجد في البلاد الأخرى ، غير بلاد الهند والبلاد المجاورة لها مثل بورما وبحرين . ويظهر أن زراعة أشجار المانجو في مصر لم تكن إلا من عهد قريب . ولعلها قد بدأت في عصر محمد علي الكبير . لكن هذه الفاكهة كانت توجد في الصين في القرن الثالث عشر من الميلاد . وهجرتها من الهند إلى الصين ، قد وقعت بدون شك قبل هذا الزمان . لأن ابن البيطار ، وهو عالم عربي في النباتات ، ذكر في جامع المفردات ، أن عتبا ، توجد في بلاد الهند والصين . ولا يزال ينرس هناك بجنوب الصين — كاتون ، ويونان ولوفى مقدار قليل .

لقد تكلم ابن البيطار عن نبات آخر ، صيني الاصل ، وهو « بيش » . ويروى عن ابن شنجون ، أن بعض الأطباء ، يقولون ، أن « بيش » ، ينبت في الصير على حدود الهند ، وله ساق أطول من ذراع ، وأوراقه مثل أوراق الخس الأفرنجي ، أو أوراق

(1) Sino-Iranica : p. 552.

الشكوريا (Chacorea) الهندي والناس يأكلونه مثل الخضراوات في تلك الناحية من الأرض (١).

ومن المعلوم أن بلاد الصين كثيرة الجبال ، خصوصا على حدودها ، فيصعب المرور بسبب الجبال الشاهقة ، أو الأودية العميقة . لكن عقل الانسان لا يفر من هذه الصعوبات الطبيعية ، ولا يعجز عن التغلب عليها . فأوجد الصينيون جسرا معلقا ، على تلك الأودية ، تمتد بين الجبلين الشاهقين . وهذا النوع من الجسور ، كانوا يملونها بالجبال المتينة ويربطون عليها شيئا مثل زنبيل كبير ، طويل الشكل يصلح لأخذ الانسان والبهايم فيه . فوضعوا على كل طرف من الزنبيل جبلا ، يتصل إلى عمود الجسر بالجبال . وعينوا الناس بكل طرف من الجسر ليساعدوا العابرين عليه ، وكان ذلك إذا جاء المارون من الجنوب مثلا ، وأرادوا جهة الشمال ، يركبون ذلك الزنبيل عند حد الجسر ، فيجره الناس الذين بالشمال حتى يصلوا سالمين وكذلك يفعلون بالبهايم في مرور تلك الأودية .

وهذه الحالة لا تزال موجودة في بعض مقامات ولاية سى جلوان ، ويوننان على حدود التبت والبرما . لكنها لم يذكرها أحد من علماء الغرب ، ولا من علماء الصين ، إلا الدكتور (سون يات سين) إذ تكلم عن حكمة الصينيين في كتابه (الأصول الثلاثة) ، وقال ذلك في هذا القرن - القرن العشرين .

لكن العرب قد لاحظوا هذه الطريقة العجيبة في المرور ببلاد الصين قبل ألف سنة وذكروها في كتبهم ، ولعل أول من ذكر هذا الأمر من العرب ، هو أبو دلف اليونبي ، فنقل عنه ابن النديم وبما أورده ، في الفهرست ، ماذا عمل الصينيون في التغلب على صعوبات الطبيعة في تلك القرون وهو يقول : بين التبت والصين واد لا يدرك غوره ، ولا يعرف قعره ، مهول موحش ، من جانبه الغربي إلى جانبه الشرقي ، نحو خمسمائة ذراع وعليه جسر من عقب عملته حكام الصين وصناعها وعرضه ذراعان ولا يمكن تمييز الماشية عليه من الدواب وغيرها

(1) Ferand: p. 246.

الباب الرابع في العلاقة التجارية

إن العلاقة التجارية بين الصين والعرب ، قد بدأت قبل الإسلام بعدة قرون وكان ذلك كما أسلفنا ، بطريق البر والبحر معا ، إلا أن طريق البر كان أكثر تنظيما في ذلك الوقت. وقد كان التجار يحملون بضائعهم بالمرაკب إلى الصين أيضا، وذلك قد بيناه من قبل. فلا نرى حاجة إلى إعادة الكلام فيه. ونخصص هذا الباب لبحث العلاقة التجارية بين بلاد الصين والعرب في زمن الإسلام.

يظهر من الكتب التاريخية والرحلات القديمة ، للكتاب المعبرين في الثقة والصحة، مثل ابن خرداذبه، وسليمان السيرافي ، وابن بطوطة ، وغيرهم من العلماء، أن التجارة بين الصين والعرب ، قد أصبحت منظمة في القرن الثامن من الميلاد. ثم ازدهرت في التاسع إلى القرن الرابع عشر ، أي بعد انقراض حكومة المغول في الصين وكان ذلك في سنة ١٣٦٧ م. ودليلنا على ما قلناه أن كتاب العرب الذين قد كتبوا عن الصين ، عاش أكثرهم في غضون هذه القرون وأولهم ابن خرداذبه ثم سليمان التاجر السيرافي ومعاصريه كأبي زيد الحسن السيرافي والمسعودي . وبفضل وجود هذه التجارة واستمرارها بين موافى الصين وموافى بلاد العرب ، زاد علم العرب عن الصين من ناحية ، وزاد علم الصينيين عن بلاد العرب من الناحية الأخرى . انظر إلى ما يأتي ، فستجد أن هاتين الامتين كانتا مرتبطتين بصلات وثيقة من الناحية التجارية أيضا .

أما طريق التجارة بين هذين البلدين ، في زمن الإسلام فهو مثل ما كان فيما قبله . وكان ذلك بالبر والبحر معا . إلا أن طريق البحر في عصور الإسلام ،

صار أكثر استعمالاً ، بخلافه قبل الإسلام ، فلذا نرى أن أكثر الكتاب كانوا يهتمون بطريق البحر أكثر من طريق البر . فجاءوا بأوفر بيان عنه في كتبهم . وأما طريق البر فلا تجد عنه بيانا في كتب العرب ، إلا ما جاء في عجائب البلدان ، لأبي دافع الينبعي . وما كتبه الياقوت والقزويني منقول عنه . وسعود إلى أبي دلف عند ما تتكلم عن طريق البر إلى الصين .

وهنا نريد أن نلقى نظرة ، على طريق البحر ، والمراسي التي بين خليج فارس والصين . لأن معرفة أحوال التجارة ، متوقفة على معرفة هذه الأور . وعمما لا شك فيه ، أن أول موانئ العرب في التجارة البحرية في زمن الإسلام ، مع الصين ، هو مدينة البصرة ، التي أنشأها الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين ، وكانت تنافس سيراف في التجارة وال عمران في القرون الوسطى . لكن الدهر قد أخنى على مدينة سيراف ومحا آثارها من الوجود . غير أن البصرة لا تزال مزدهرة بين المدن العصرية فأصبحت الآن من أهم المراكز التجارية في العالم .

فالمرآكب التجارية التي كانت تنقل البضائع من البصرة ، إلى الصين ، تمر بطبيعة الحال ببلاد عمان ومسقط ، وجزيرة البحرين وأبلة وهرمز بخليج فارس . وكانت عدن أيضا من أهم المدن التجارية بجنوب العرب ، لأنها قد وقعت موقع مركز التجارة في البحر الأحمر بين مصر وسواحل خليج فارس . ولقد روى الأستاذ هيرت Hirth ، عن كوزمو الهندى ، أن تجارة الصين مع المدن ، كانت موجودة في القرن السادس من الميلاد ، ومن الأشياء التي ذكرها كوزمو ، حرير الصين الذي كان يأتي إلى سيلان أولا ، ثم يحمل إلى عدن . وابن خردادبه لم يترك عدن أيضا ، فانه قال أنها من المرافئ العظام ، لا زرع بها ولا ضرع ، وبها العنبر والعود والمسك ومتاع الهند والصين ^(١) . ويؤيد هذا القول الإدريسي ، إذ قال : ان مدينة عدن صغيرة ، لكنها مشهورة بأنها مرسى لسفن

(1) Cháo Ju-Kua: pp. 3 - 4.

التجارة التي تبهر منه - إلى الهند والصين، وتأتي من الصين أنواع من البضائع مثل الحديد والمسك والكاغذ والفخار والكافور والدار الصيني وغيرها من الأشياء الأخرى (١) .

فالمراسي التي كانت المراكب التجارية تقف بها في طريقها إلى الصين ؛ هي ملبار ، وسيلان ، ومآبد ، ومعبر ، وسماطرة ، وجاوة ، وتونكين . وأما المدن الصينية التي كانت مفتوحة لتجارة العرب وغيرهم من الإيرانيين والروم ، فهي كانتون ، وجوان جو ، ويانجو ، وهانغ جو ، وبلا شك فيه ، أن جزيرة سيلان ، قد وقعت موقعا مركزيا للتجارة بين الصين وخليج فارس في زمن الاسلام ، كما كان في زمن قبله . وعندنا أدلة من كلام كوزمو ، الذي عاش في القرن السادس الميلادي . لقد نقل كلامه الأستاذ ولسن ، مؤلف «خليج فارس» وهو يقول : من بين التجار الذين يشتغلون في مبادلة البضائع بين الصين وخليج فارس في القرن السادس للميلاد ، العرب والإيرانيون والاحباش ، وكان مركز اجتماعهم في تلك الأيام جزيرة سيلان (٢) .

أما في زمن الاسلام ، فأقدم مصدر للعلاقة التجارية ، هو ما كتب ابن خردادبه ، عن طريق البحر من البصرة إلى خانفو (كانتون الآن) . ثم سلسلة التواريخ لسليمان السيرافي ، فالمعلومات التي وجدت في الكتب الأخرى عن هذه التجارة ، مأخوذة من هذين المصدرين . غير أن ابن بطوطة قد ذكر جانبا من هذه التجارة في زمانه . لقد أشرت في فصل «كتاب الاسلام والصين» إلى ما نقله المتأخرون من المسالفة من البيان عن أحوال الصين واختلاف بعض أقوالهم في بعض الامور . وهنا لا نريد أن نكرر ما قلناه سابقا ، بل نرجع رأسا إلى ابن خردادبه وسليمان ، لنتظر ماذا قالوا في القرن التاسع الميلادي عن طريق البحر إلى الصين ، حينما كان أهل أوروبا لا يشعرون بأهمية التجارة البحرية وتأثيراتها في العلاقات الدولية .

(1) Wilson: The Persian Gulf. p. 57.

(٢) ابن خردادبه ص ٦١ .

كان طريق البحر إلى الصين كما جاء في ابن خرداذبه ، عن سرنديب ثم تيمومة (وجاء في ابن الفقيه قيومة) ، وذكر ابن خرداذبه أن في تيمومة ، العود الهندي والكافور ومنها إلى قمار مسيرة خمسة أيام ، وبقمار العود القمارى وأرز ومن قمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام وبها العود الصنفي وهو أفضل من القمارى لأنه يفرق في الماء لجودته وثقله وبها بقر وجواميس^(١) .

ومن الصنف إلى لوقين (تونكين) وهي أول مرافئ الصين مائة فرسخ في البر والبحر ، وفيها الحجر الصينى والحبر الصينى والغضار الجيد الصينى وبها أرز ومن لوقين إلى خانفو وهي المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام في البحر ومسيرة عشرين يوماً في البر ، وفيها الفواكه كلها والبقول والخنطة والشعير والأرز وقصب السكر ، ولكل مرفأ من مرافئ الصين نهر عظيم تدخله السفن يكون فيه المد والجزر^(٢)

وما كتب ابن خرداذبه ، عما يتعلق بالصين من الناحية التجارية هو عن مجرد علمه بخلاف سليمان السيرافى ، فانه سافر إلى الصين مرارا . والجزء الأول من سلسلة التواريخ من مشاهداته التي حصلها في رحلاته البحرية ومنه تعلم أن السفر البحرى من خليج فارس إلى الهند والصين إذا كان في الحالة العادية ، كان يضم عددا كبيرا من التجار الذين يترددون بين الهند والعراق ، أو بين الصين والعراق . ومن أقواله المتعلقة بالموانئ التي تقف بها السفن وتشحن البضائع أو تفرغ بها ، أن أكثر السفن الصينية تحمل من السيراف وأن المتاع قد يحمل من البصرة وعمان وغيرها اليها فيعبأ بها في السفن الصينية . وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه ، والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء ١٢٠ فرسخا فاذا عبي المتاع ، يقلعون إلى مسقط والمسافة اليها نحو ١٢٠ فرسخا وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد ، سيف بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفيه جبال عمان . وفيها الموضع الذى يسمى الدودور ، وهو

(١) ابن خرداذبه ص ٦٨ .

(٢) ابن خرداذبه ص ٤٩

مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية لكبرها وضخامتها .

ثم إلى صحاري عمان وإلى بلاد الهند وتقصده المراكب إلى كولم ، وإلى كولم على تجيء السفن الصينية . ثم إلى هر كند ، وكلاه بار ، ثم تيومه (جاء في ابن خردادبه تيمومه) . ثم كندر نج ، ثم صنف ، ثم صندر فولات ، ثم إلى أبواب الصين ، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب . فإذا سلم الله من صندر فولات ، خطف المراكب إلى الصين في شهر ، إلا أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ^(١) . فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخور ، صارت إلى ماء عذب وإلى المرضع الذي ترسى إليه من بلاد الصين وهو خانفو ^(٢) .

ومما كتب إيران تشو ، في أوائل القرن التاسع من الميئاد عن سفر (وجرابودهي) من السيلان إلى الصين في سنة ٧٧٧ م ، نفهم أن إيران كانت لها سفن تجارية تنتقل بين موافء الصين وخليج فارس ، لأن (وجرابودهي) حينما وصل من شمال الهند إلى السيلان ، وجد هناك سفينة إيرانية مشحونة بالبضائع والأمتة التي منها الأحجار الكريمة فسافر إلى (پالم بانغ (Palembang) مع التجار الإيرانيين ، بعد الإقامة بها شهرا . فن پالم بانغ وصل إلى كاتون في سنة ٧٢٠ م ^(٣) .

ويظهر من التاريخ أن بحر الهند كان تحت نفوذ ملاحه إيران قبل الاسلام . فلما ظهر الاسلام في جزيرة العرب وانتشر إلى الممالك المجاورة في بضعة عقود من السنين ، وقويت سيطرته في البر والبحر ، حلت ملاحه العرب محل ملاحه الإيرانيين في خليج فارس ، كما أنها قد حلت محل ملاحه الروم في البحر الأبيض . إنما القوة التي

(١) تجد هذا البيان في ابن الفقيه الذي نقل عن سليمان كما أشرت إلى ذلك

في صفحة

(٢) سلسلة التواريخ ص ٢٠ - ٢١

(3) Hadi Hasan: History of the Persian Navigation. p. ٥8.

كانت تنافس قوة العرب في البحر بالشرق في الفترة التي بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر من الميلاد، هي قوة الصين تحت أبناء السماء. نعلم حقا أن نفوذ العرب البحري في الشرق كان قويا جدا لا يكاد يساويهم فيه أمة من الأمم، لكن الصينيين ما كانوا متأخرين عن العرب في الملاحة البحرية ونفوذهم البحري لم يكن أقل من نفوذ العرب، خصوصا بسواحل الهند وخليج فارس. وعندنا شهادات من الكتّاب العربية، تؤكد ما قلناه في هذا الصدد. أولا نفهم من كلام سليمان السيرافي أن مراكب الصين إلى خليج فارس في زمنه، كانت أكثر من مراكب العرب إلى الصين، لأنه ذكر مراكب الصين بسيراف ولم يذكر مراكب العرب بكاتون أو بجاوة. ومع هذا، لا نشك في أن السيرافيين كانت لهم سفن من عندهم تنقل بين سواحل الهند والعراق من جهة وبين خليج فارس والبحر الأحمر من جهة أخرى وقد لاحظ أبو زيد السيرافي، سفر السفن السيرافية إلى البحر الأحمر وإن كانت لم تذهب بعيدة عن جدة (١).

فأقوى الأدلة التي تدل على نفوذ الصين البحري بخليج فارس في القرن التاسع من الميلاد، هو وجود فلوس الصين بسيراف. ولقد ذكر أبو زيد الحسن السيرافي في الجزء الثاني من سلسلة التواريخ، أن هذه الفلوس مصنوعة من نحاس وأخلاط من غيره ومعجونة به، والفلوس منها في قدر الدرهم البغلي وفي وسطه ثقب واسع يدخل الخيط فيه وفيه كل ألف فلوس منها، مثقال من ذهب وينظم الخيط منها ألف فلوس على رأى كل مائة عقدة. فاذا ابتاع المبتاع ضياعا أو متاعا أو بقللا، فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن. وهي موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم (٢) (رسم الفلوس الصيني الذي ذكره سليمان التاجر السيرافي في سلسلة التواريخ).

(1) Wilson : The persian : Gulf. p. 58.

() سلسلة التواريخ ص ٧١ .

وإذا نظرنا إلى ما كتبه المسعودي في «مروج الذهب» ومعدن الجواهر، نجد أن بعض أقواله يوافق ما قاله سليمان السيرافي. فان المسعودي الذي اجتمع مع أبي زيد الحسن بالبصرة في سنة ٨٨٠ م، قد حكى عن تاجر سمرة قندي خرج من بلاده، ومعه متاع كثير إلى العراق بطريق البر. فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان وإلى بلاد كلة تنتهي إليها مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين في ذلك الوقت. فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك. لأن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبحجرة.

اتفق المسعودي مع سليمان في أن مراكب الصين كانت تأتي إلى بلاد عمان وسيراف، واختلف معه في أن كلة - صارت ميناء للراكب الواردة من سواحل فارس والبصرة وسيراف في وقته. ولم يكن لكلة مكانة في التجارة البحرية في زمن سليمان. وقولها على كل حال لا يخرج عن الإشارة إلى نفوذ الصينين البحري في خليج فارس، سواء كانت مراكبها ترسى على سيراف أو على كلة.

ويظهر من قولها أن السفر من خليج فارس إلى كانتوز في ذلك الوقت، كان بمراكب الصين لكثرة ورودها إليه. فظل هذا النفوذ إلى زمن ابن بطوطة. لأنه لما وصل إلى كاليقوط (Calicut) بسواحل ملابار، وجد أن وقت وصوله غير موسم سفر المراكب الصينية، فاضطر إلى الانتظار هناك ثلاثة أشهر حتى تسافر مراكب الصين. ففي هذا يقول: «أقننا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر وبحر الصين لا يسافر فيه إلا مراكب الصين» (١) وقوله هذا يكشف لنا عن أن الصينيين كانوا قابضين على زمام الملاحة في البحر الهندي وإن كان يشاركونهم غيرهم في بعض الأحيان.

فالمراتب الصينية التي كانت تختلف إلى سواحل الهند وخليج فارس، من أنواع مختلفة، فالنوع الكبير منها يقال له «جناك» (Junk)، والمتوسط يقال له

(١) ابن بطوطة ج ٢ - ص ١٨٧ (بولاق)

(زر) والصغير منها ، كسكم . ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قاعا ، فما دونها إلى ثلاثة وقاعها من قضبان الخيزران ، منسوجة كالحصر ، لا تحط أبدا ، ويدبرونها بحسب دوران الريح وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ، ويخدم المركب منها ألف رجل منهم ستمائة من البحارة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة يكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفي والثلاثي والربعي . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلان وهي صينية الصين . وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب ، يصلون ما بينهما بأخشاب ضخمة جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسامير منها ثلاثة أذرع ، فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوها في البحر وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب ، تسكون مجاذيفهم . وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدهما العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون وقرفا على أقدامهم ويجعلون للمراكب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والسنداس ، وعليها المفتح يسدها صاحبها ويحمل معه الجوارى والنساء وربما كان الرجل في مصريته ، لا يعرف به غيره من يكون بالمركب حتى يتلاقيا ، إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحارة يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والينجيل في أحواض من خشب ووكيل المركب كأنه أمير كبير . وإذا نزل إلى البر ، مشت الرماة والحباشان بالخراب والسيوف والطبول والأبواق والنفير أمامه ، وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم فيه ، ركزوا رماحهم على جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلامه إلى البلاد ، وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين (١) .

نقهم بما ورد هنا ، نظام المراكب الصينية التي كانت تنتقل بين كانتون وخليج فارس وحياة البحارة مع عائلاتهم فيها . فلا نحتاج إذن إلى مزيد بحث في هذا الأمر .

فتبيحه في السطور الآتية إلى المراسى الشهيرة التي كانت ترسى بها المراكب في سيرها بين موافى العراق والصين .

ومن هذه المراسى، هرمز . ولقد خصص الأستاذ ولسن ، مؤلف «خليج فارس» ، فصلاً طويلاً لهرمز، وبحث فيه من الناحية التاريخية، ومن ناحية الموقف الجغرافي . وإذا أنت أحببت أن تعرف هذه المدينة القديمة ، تستطيع أن ترجع إليه فيما كتب في هذا الباب . لكن مولانا السيد سليمان الندوى ، أحد مشاهير الهند اليوم ، لا يكون أقل من الأستاذ ولسن في البحث عن هذه المسألة التاريخية . فانه خصص عدة صفحات في كتابه (هند وعرب كي تعلقات) بلسان الأردو ، لمرفأ هرمز وما جاء به من البحوث عنها ، كله مستند إلى أمهات الكتب العربية . ولافتبس بعض الأقوال من السيد الفاضل ، إذ كان كتابه في متناول يدي في الوقت الحاضر لكتبتى أكتفى بما وجدت في (مطلع السعدين) لعبد الرزاق السمرقندى الذى عاش في أوائل القرن الخامس عشر الميلاد ومن كلامه نعرف أهمية هذه المدينة من الناحية التجارية والعلاقات الدولية في القرون الوسطى .

قال عبد الرزاق: لما وصل إلى هرمز في بعثة دبلوماسية من قبل شاه رخ ، صاحب إيران وتوران إلى ملك الصين ، أن هرمز مرفأ عظيم بخليج فارس ليس له نظير على وجه الأرض، ولهذا المرفأ اسم آخر ويسمونه (جروم) ، حيث يجىء التجار من الأقاليم السبع ، من مصر والشام ومن العراقين وبلاد الفرس ، ومن خراسان وما وراء النهر ، من تركستان وبلاد قفجاق وقلدوك وجميع الممالك الشرقية ، مثل الصين وما صين (ماجين) وغانباتى ، وهذا أناس يقطنون على شواطئ البحر ويأتون بالمناجر من الصين وجاوة والبنغال والسيلان ومن بلاد زباد وديبا مهل (جزيرة مالديب) وملابار والحيشة وزنجبارو وبيجانغر وجمبرك وكجرات وكاباى وعدن وجدة وينبع ، والجوالون يأتون هنا من أقطار العالم ويفرغون بدون صعوبة ماجاوا به من البضائع استبدالاً بما هو نظيرها ثمناً أو متاعاً (١)

لقد كثرت الحديث في المكتب العربية عن سواحل ملابار وسرنديب ، وأحوالها التجارية معروفة عند طبقات العلماء . وما لا شك فيه أن هذه البلاد كانت من أهم المراكز التجارية بين الصين والعرب كما عرفنا ذلك من ابن خرداذبه ، وسليمان السيرافي والمسعودي وابن بطوطة وغيرهم من الكتاب المشهورين في التاريخ والامم . ان ملابار ، كانت مجتمعا للتجار الصينيين والايانيين كما أنها كانت مجتمعا للتجار البنين والأجاش ، وأما التفاصيل فتجدها في كتاب السيد سليمان الندوي في باب التجارة التجارية بين الهند والعرب . وهذا الكتاب يضم خمسة أبواب في أكثر من ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير . وخلق بمن يهتم بهذه المسائل ، من علماء الاسلام ، أن ينقل هذا الكتاب وهو بلسان الاردو ، إلى اللغة العربية ، فقد حوى من الذوائد ما لا يحصى .

ومن بين المراسى التي ترسى بها المراكب الصينية والعربية ، (مآبد) وهي على جنوب الهند ، مواجهة جزيرة سيلان . ولقد ذكرها المسعودي والادريسي في علاقتها بالصين من الناحية السياسية والتجارية . فمن قول المسعودي ما يأتي : « ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة وملوكهم تستعمل الخصيان في عمالات بلادهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين . والمآبد مجاورون لمملكة الصين ، والرسل تخلف بينهم بالهدايا وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة . وأهل المآبد ، ناس عظام البطش والقوة . وإذا دخل رسل ملك المآبد لمملكة الصين وكل ملك الصين بهم ولا يتركهم ينتشرون في بلادهم خيفة أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم ، لكبر المآبد في نفوسهم »^(١)

ومن قول الادريسي : « إن أهل المآبد أشبه بأهل الصين من غيرهم . أعنى كل من جاور الصين من الأمم وملوكها عبید خصيان حسان وخدم بيض وبلادهم

وجزيرتهم تتصل بالصين . وهم يرسلون ملك الصين ويهادونه ، وبهذه الجزيرة
مراكب الصينيين الجارحة من جزائر الصين واليها تعلق وبها تحط ومنها تخرج
إلى سائر النواحي ^(١) .

من هذه السمكيات ، يتجلى نفوذ الصين في هذه الجزيرة من نواح كثيرة .
ولأن صاحب المآبد كان يقلد الصين في بعض العادات مثل استخدام الخصيان في
العمالات ولم يكن هذا معروفا في الهند القديم .

وثانيا كان يرسل رسله الى الصين بالهدايا والتحف لتحسين العلاقة السياسية
والتجارية . وأخيرا أنها قاعدة التجارة البحرية التي اليها تعلق المراكب الصينية
وبها تحط ومنها تخرج الى سائر النواحي كما ترى ذلك في الادريسي .

هناك مرسى آخر بين الصين والسيلان يقال له (پالم بانغ) بشرق سمطرة
ويسميه العرب (جزيرة الرامني) في كتبهم من القرن التاسع الى القرن الخامس
عشر الميلادي . لكن ما جاء في كتاب (جويوكوا) من معلومات عنها ، لم يذكر
في كتب العرب . لأنهم لم ينظروا الى هذه الجزيرة إلا على سبيل الاجمال . نعم يتجلى
من كلامهم أهمية هذه الجزيرة في التجارة البحرية والمواصلات البحرية ، غير أن
أنواع الصادرات والواردات لم تذكر أبدا . وتستطيع أن تقرأ هذا في (جوفانكي)
أو التذكرة عن البلاد الأجنبية ، يقول فيه (جوبوكوا) علاوة على حاصلات
خاصة لهذا البلد ، منها الصدف والكافور والعود والقرنفل والصندل والقافلي
وجميع الأنواع من الأعواد الطيبة هناك ، تجدد لؤلؤا وماء الورد ، والسكر والمر
والصبر والخثيث واصطرك والعاج والمرجان وعيون الهرة والعنبر ومنسوجات
القطن الأجنبية . وكل هذه من واردات البلاد التي تحت سيطرة العرب .

أما الاجانب الذين اجتمعوا بهذه الجزيرة لاجل التجارة ، فيستبدلون هذه
الامتعة بالذهب والفضة والفخار والغضار وثياب السمكخاب والسندس والاستبرق
والسكر والحديد والأرز والراوند والكافور وغيرها من الاشياء .

بجأوة أيضا من المراسى التي ترسى بها مراكب التجارة الصينية ، وهي معروفة عند علماء العرب والاسلام منذ زمان قديم ، وكان لها اتصال بالصين في الشرق وبالغرب في الغرب من ناحيتي التجارة والسياسة ، وللقزويني كلام في هذا الصدد إذ قال : أن الجأوة وهي بلاد على ساحل بحر الصين بما يلي بلاد الهند ففي زماننا لا يصل التجار من أرض الصين إلا إلى هذه البلاد ، والوصول إلى ماسواها من بلاد الصين متعذر لبعد المسافة ^(١) واختلاف الأديان . فالتجار يجلبون من هذه البلاد العود الجاوى والكافور والسنبل والقرنفل والبسباسة والغضائر الصينية منها يجاب إلى سائر البلاد (٢)

لقد زار هذه الجزيرة ابن بطوطة وذكر بعض حاصلاتها مثل العود والقرنفل والكافور وشجرة اللبان وهي شجرة (لستك) المعروفة الآن . وكانت الصين تستورد هذه الاشياء منها قريبا .

ولمؤلف التذكرة عن البلاد الاجنبية ، ملاحظة خاصة عن هذه الجزيرة ، غفل عنها جميع الكتاب العرب ، وهي أن أهل جاوة كانوا يضربون النقود من سبيكات النحاس والفضة والتنكار وكان الستون من هذه النقود ، تساوى متقالا من ذهب و ٣٢ منها نصف متقال منه ، ولقد تكلم الاستاذ هيرت ، مترجم التذكرة عن البلاد الاجنبية ، في هذه المسألة ، استنادا إلى (تاريخ كراوفولد — History Of Crawford) (ص ٢٨١ من الجزء الاول) وقال : من بين الآثار القديمة العجيبة التي اكتشفت بكثرة بجأوة ، أنواع مختلفة من النقود المعمولة من النحاس والتنكار ، لكن نقود الذهب للعصور القديمة ، لم تكشف حتى الآن ولو مرة واحدة ، وأما نقود الفضة ، فتوجد مرة أو مرتين فقط . ومن رأى الاستاذ هيرت ، أن المسلمين الاولين الذين سيطروا على زمام هذه البلاد ، قد

(١) وقول القزويني هذا غير صحيح لان مراكب الصين كانت تصل إلى البصرة في القرن التاسع للميلاد .

(٢) آثار البلاد ص ١٨

عابوا أهاليها استعمال الذهب نقدا ، والدليل على هذا ، أن جميع الأنواع من النقود الذهبية ، التي قد اكتشفت في جاوة إلى الآن ، توجد عليها نقوش عربية وأسماء السلاطين المسلمين الذين عملت لأجلهم . ولقد اكتشفت في جاوة سكة نحاسية عليها عدة صور خيالية وعليها حروف عجمية ، متعذرة القراءة والفهم الآن ، واعتقد علماء الآثار أنها من أقدم العملات في جاوة وهي من عملات الملوك البوذية الذين كانت (ما جيهاهيت) عاصمتهم . فلما جاء المسلمون وورثوا أرضهم باذن الله ، عملوا نوعا من النقود من هذا المعدن أصغر مما كان في عهد البوذيين . وفي زمن ابن بطوطة كان عليها الملك الظاهر شافعي المذهب وكانت المتداولة في التجارة بقطع قصدير وبالذهب الصيني ، التبر غير المسبوك ^(١) .

وأما الأرض التي بعد جاوة ، فكلها للصين ، وسنذكر مرافقها ، إن شاء الله تعالى بعد أحوال التجارة بطريق البر عن آسيا الوسطى في زمن الاسلام .

وقد قلنا من قبل أن طريق البر بين الصين والعراق ، كان عن تركستان وماوراء النهر والمدن التي بهذه الطريق ، هي كاشغر وفرغانة وسمرقند وبخارى وخبوا . فمدينة صغدا كانت نقطة مركزية في هذه التجارة قبل الاسلام . فلما بلغ الاسلام تلك البقاع الفاصية وفيت الدول الصغيرة أمام قوة العرب ، سقطت مكانها التجارية لأن مدينتي بخارى وسمرقند ، قد نهضتا وانتشرت آثارهما إلى المدن المجاورة فكسحتا عظمتهما حتى أصبحت صغدا لا مكانة لها أمام هاتين المدينتين الناهضتين .

لا نشك في أن زمام التجارة في آسيا الوسطى في القرون الأولى للهجرة ، كان في أيدي العرب الذين قد فتحوا هذه المدن أو أكثرها ، فاستحكم حكمهم هناك . لكن الخلافة العباسية ، بعد عصر هارون الرشيد والمأمون أخذت تفقد قوتها في تلك الولايات الفاصية بآسيا الوسطى ، وكان ضعف نفوذها في أمور خراسان

(١) ابن بطوطة ج ٢ - ص ٢٣٧ (بولاق)

وما وراء النهر سبب نهضة قواد الأتراك من قبائل مختلفة . فأسس الطاهريون وبنو بويه والسامانيون دولهم في خراسان وبخارى وسمرقند والغزنويون في أفغانستان ولولم تطل هذه الأسرات في الحكم والنفوذ ، لكن ظهورها في آسيا الوسطى ، أفاد تلك البلاد من بعض النواحي .

ومن المعلوم أن الأدب كان يزدهر في خراسان تحت بنى بويه ، وفي غزن تحت محمود بن سبكتكين ، وفي بخارى تحت السلاطين السامانيين . وأما التجارة فقد نهضت إلى حد كبير خصوصا في المملكة السامانية ، حتى رأى كتاب العرب من الضرورة أن يدونوا هذه الحركة في كتبهم لكي يعرفها الأجيال اللاحقة . وما ذكر في الكتب العربية عن الحركة التجارية نفهم أن المملكة السامانية كانت مركزا عظيما لتجارة العالم الاسلامي ، إليها ترد البضائع من كل ولاية بعيدة أو قريبة ، ومنها تصدر إلى جميع الجهات من أقطار العالم الاسلامي .

وما هو ذا ما نقل الاستاذ برتولد (Berthold) عن المقدسي في هذا الصدد . قال : « أن البضائع التي كانت تصدر من مدينة ترميد ، صابون ، وحلثيت ومن بخارى المنسوجات البديعة والسجاجيد الجميلة والمفروشات الثمينة والمصاييح النحاسية وثياب طبرستان والسروج والمنسوجات أشمونية (مصر) والشحم وجلود الضأن والدهون والطور . ومن أرمانية المناديل ، ومن دابوسية وودهار ، المنسوجات الودهارية التي تصبغ بصبغة واحدة ويسمى بها خلفاء بغداد ، أطلس خراسان . ومن رحيم جان ثياب التمام من الصوف الأحمر والسجاجيد والجلود والأواني التنكسية والقنب والسكبيرت . ومن خوارزم ، السيلاب وجلود السمور والقاقوم وفروة الثعالب والفنك وجلود كلاب الماء والأرانب المتلونة وجلود المعز والشموع وقشور القمان والنبال والقلاسة المرتفعة الشكل ، المصنوعة من الثروة ، وغروبة السمك وأسنانها وزيت الخروع والنبر وجلود الخيول المدبوغة والعسل والنسور والسيوف والألمحة والعود الخائنجي . ومن السلافيا العبيد ومن بلغاريا الضأن والانعام . ويصدر من خوارزم أيضا العنب والزبيب واللوز والسمسم والسجاجيد والبطانية والاطلس والغطاءات والمنسوجات والأقواس الألبية التعويج إلا في أيدي الأبطال والزبدة والخمرات والأسماك والأحذية ومن سمرقند المنسوجات المطرزة بخيوط

الفضة الملونة وأواني النحاس الكبيرة والجرارات الجميلة والخيام والركاب والجام والاسار. ومن ديداق الاصواف ، ومن بنا كيمت مصنوعات تركستان، ومن الشاش السروج المصنوعة من جلود الخيل والأوراق والخيام والجلود الواردة من بلاد الأتراك ، والمصليات وقلانسة الجلد والفروة والاقواس البديعة والأبرة والقطن للانراك والمفص . ثم تصدر من سمرقند الأطلس إلى بلاد الترك والمنسوجات الحمراء المعروفة باسم «ممرجل» هناك ، وثياب السيينين (ببلاد الفرس) والحرير والمصنوعات الحريرية والبنديق وغيرها من أنواع الجوز، ومن فراغانة واسفياب عبيد الترك ومنسوجات بيضاء، والأسلحة والسيوف والنحاس والحديد، ومن تراز جلود المعز ومن شلمجي الفضة . وإلى هذه الأماكن تساق الخيول والحمير من تركستان ومن الخطل أيضا . وأما اللحوم التي يبخاري ، أو البطيخ الذي يقال له (الشق) هناك فليس له نظير . وكذلك الأقواس بخوارزم والفخار والشاش والكواغذ بسمرقند . (١)

ونظرا إلى كثرة الامتعة التي عدتها آنفا ، نعتقد أن الاصطخري كان صادقا فيما قال عن ثورة أهل ما وراء النهر وغناهم . ومن كلامه أن أهل ما وراء النهر أغنياء في كل شيء ، غير محتاجين إلى حاصلات بلاد أخرى حتى قال : أما نزاهة ما وراء النهر فاني لم أر ولا بلغني في الإسلام ، بلد أحسن خارجا من بخارى ، لأنك إذا علوت من قلعتها ، لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة يتصل خضرتها بلون السماء . فكان السماء بها مكتبة خضراء مكتوبة على بساط أخضر يلوح القصور فيما بينها كالرأس وأراضي صناعتهم مقوم بالإستواء كأنها المرأة (٢) من شواهد استغناء ما وراء النهر عن غيرها من البلاد ، أنها تملك أكثر من عشرة آلاف رباط في كثير منها إذا نزل النازل ، أقيم ، علف دابته ، وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك (٣) ويؤكد القزويني رفاهية العيش هناك أهل ما وراء النهر بقوله

(1) Turkistan Down to the Mongol Invasion . pp . 235 - 236 .

(٢) أقاليم الأرض ص ٢٦١

(٣) أقاليم الأرض ص ٢٥٨

أنها من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيرا وليس بها موضع خال عن العبارة من مدن أو قرى أو مزارع أو مراعي ، وواؤها من أصح الأهوية ومياهها أعذب المياه وأخفها . وبلادها بخارى وسمرقند وجند وخجند وأهلها أهل الخير والصلاح في الدين والعلم والسماحة فان الناس في أكثر ما وراء النهر ، كانوا في دار واحدة وما ينزل أحد بأحد إلا كأنه نزل بدار نفسه من غريب وبلدى ، وهمة كل امرئ منهم على الجود والسماح فيما ملكت يده من غير سابقة معرفة أو توقع مكابأة (١) ثم كانت هي أقوى الولايات في عهد نوح بن أسد من ناحية الجيوش والساكن وذلك قد علمناه مما كتب نوح بن أسد الى عبدالله بن طاهر ، إذ كان المعتمض يهدده قال : بما وراء النهر ثلاث مائة الف قرية ليس من قرية إلا خرج منها فارس وراجل (٢)

أما الصناعة فلا شك أن نهضتها ، بما وراء النهر ، كانت متأثرة بصناعات الصين التي قد حدث عنها ابن الفقيه وقارن بين صناعات خراسان وصناعاتها . وكان العرب الفاتحون قد وجدوا مصنوعات الصين هذه البلاد وفي أسواقها . ومن الجائز أن استهلكها قد نقص إلى حد ما ، إذ نهضت الصناعات المحلية في عصر العباسيين تحت رعاية السامانيين ولقد ترققت هذه الصناعات إلى درجة بالغة حتى تمكن أهل ما وراء النهر من تصدير أشياء كثيرة إلى الصين فيما بعد ، ولقد تكلم الادريسي في هذا الصدد قائلا : يحمل أهل ما وراء النهر إلى الصين كثيرا مما عندهم من الصناعات والجواشن والآتراس والمقاصع والثياب والمسك ونحو ذلك مما يحتاجون اليه ويتصرفون به (٣) . أثر الصناعة الصينية في صناعات المسلمين بما وراء النهر كان واضحا جدا ، فبدأ العرب يسهون فعلا ، بجميع الآواني التي تجلى فيها جمال الفن أو كمال الصناعة الصينية مع أنها من مصنوعات ما وراء النهر (٤)

(١) آثار البلاد ص ٣٧٤ (٢) أقاليم الارض ص ٢٥٩

(٣) نزوة المشتاق ج ٢ ٢٩٧

(4) Turkistan Down to the Mongol Invasion. p. 256 .

وأما الشيء الذي أحرز أعظم الشهرة من بين صناعات ما وراء النهر ، في العالم الاسلامي فهو منسوجات الحرير والقطن ، التي كانت تصنع بوادي زرفشان ، ومصنوعات الحديد التي بفرغانة ، خصوصا الأسلحة التي تباع في بغداد فاشتهرت في أسواقها . لا نشك في أن العامل الذي أثر في ترقية هذه الصناعة المعدنية ، بفرغانة ، هو وجود مناجم الفحم التي توجد بكثرة ببلدة إسفارة . فوجود الفحم هناك سهل الطريق لصناعات الحديد حتى استطاعت فرغانة تصدير كمية كبيرة من الأسلحة إلى الصين شرقا وإلى بغداد غربا .

تأثرت صناعة ما وراء النهر إلى أعظم حد بعبادة الصين من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى فبها تأثير مصر أيضا . وذلك ظهر في اسم منسوجات الديبقة (المنسوبة إلى ديبق) التي كانت تصنع بنواحي خوارزم ، ومن الثياب الأشموني كما ذكره المقدسي ، مع أنها لم تكن من مصنوعات أشموني بمصر .

بعد هذه الحاصلات التي تحتاج إلى الكسب على حسب مساعي الناس ، وتنبها بقوة الأيدي واجتهاد الأفراد ، هناك فيما وراء النهر أشياء طبيعية ، لا تحتاج إلى الجهد في كسبها ولا السكد في تحصيلها . فان قدرة الله ، وفطرة الأرض ومزاج الجو ، قد أعدتها لأهل تلك البقاع في وقتها وعلى طلبهم . ومن هذه الأشياء الطبيعية التي يتمتع بها أهل تركستان وما وراء النهر بلا تعب ولا مشقة ما ينتج من الأشجار وما ينتج من الأنعام ، أنظر إلى تلك الجبال الخضراء الممتدة بين فرغانة وبلاد الأتراك ، تجد فيها من أعناب وجوز وتفاح وسائر الأنواع من الفواكه الأخرى التي لا تعرف أسماءها ، وورود وبنفسج وباسمين وزعفران وغيرها من الرياحين — كل ذلك مباح لا مالك له^(١) ثم انظر إلى بلاد الأتراك بخلاف نهر جيحون تجد أن أهلها من أصحاب الأبل والأغنام والخيول والأبقار وعندهم وفرة من السن واللحوم وكثرة من الزبد والألبان وزيادة عن الحاجة من الفرو والأصواف ، كل هذه نعمة الحياة وأقواها تغذية ، فيأخذون ما يسد حاجاتهم

(١) أقاليم الأرض ص ٢٦٢

ثم يبيعون ما زاد عندهم من حاصلات وماشية الى التجار الذين حضروا بلادهم من الصين والهند والعراق والروس .

ففي عهد السامانيين كان الطريق بين حدود الصين وخراسان آمنا وكان السفر بينهما على مرحلة ، والمرحلة كانت تسمى في تلك الايام برباط وذلك نعرفه من أبي دلف الينجى الذى سافر الى سندابل ، في بثة دبلوماسية الى ملك الصين ، ثم رجع الى بخارى بأميرة صينية ابزويج ابن نصر أحمد الساماني الذى كان عظيم الشأن ، كبير السلطان ، فيستصغر في جنبه أهل الطول ، وتخب عنده موازين ذوى القدرة والحول فدون ما رآه في هذا الطريق في غرائب البلدان ، ونقل عنه القزويني وياقوت ، وقالوا عن اسانه : فأرل قبيلة وصلنا اليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الاسلام ، قبيلة في بلد يعرف بالخرگاه فقطعناها في شهر ثم خرجنا الى قبيلة تعرف بالطخطاخ ، وسرنا فيها ٣٠ يوما في أمن ودعة يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ويؤدون الأناوة الى الخركاه لقرهم الى الاسلام . ثم انتهينا الى قبيلة يقال لها الخرخيز (قرقيز) ولهم بيت عبادة وقلم يكتبون به . ولهم رأى ونظر ولهم كلام موزون يتكلمون به في أوقات صلاتهم ، وأعلامهم خضرة ، ويصلون الى الجنب ويعطون زحل والزهرة . ثم انتهيا الى موضع يقال له القاليب ، فيه بواى عرب عن تخاف عن تبع ما غزا بلاد الصين ويتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلنا . ويعبدون الأصنام ولهم أحكام ، وحظر الزنا والنسق وملكهم يهادى ملك الصين ثم انتهينا الى مقام الباب وهو بلد الرمل تكون فيه حجة الملك وهو ملك الصين . ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم .

فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك ، يغير لنا عند رأس كل فرسخ ركوب . ثم انتهينا الى وادى المقام ، ثم أشرفنا على مدينة سندابل وهى قصبة الصين وبها دار المملكة ولها سترن شارعا ينفذ كل شارع الى دار الملك وبها بيت عبادة عظيم ، أعظم من بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبد عظيم .

وعلى طول الطريق وجد أبو دلف الينبعي كثرة البر والشعير والارز والدخن
والبقول الصحراوية والفواكه وأصناف اللحوم من البقر والضأن والمز وتغذى
بها بدون دفع ثمنها . وذلك دليل على رخاء العيش وكرم الرجال وسلامة
الحياة هناك .

وبعد السامانيين جاء قوم يقال لهم (قراخطاي) على مسرح تركستان وأصلهم
غير معروف عند طبقات المؤرخين . ولقد خصص الاستاذ برتولد فصلا طويلا
الارنيهم ، لكنه لم يأت برأى قاطع فيما يتعلق بأصلهم . ففي عهد (قراخطاي) ،
كانت التجارة بين الصين والممالك الاسلامية برا تجرى في مجرما الطيبي إلى أن
ظهر الخلاف بينهم وبين خوارزم شاه . وكان ذلك في أوائل القرن الثاني عشر من
الميلاد . غلقت بينهم الحروب المتدائرة حتى انتهت بإبرام معاهدة صداقة بين
خوارزم شاه ورؤساء قراخطانيين في سنة ١٢٠٩ م . وعلى أثر هذه المعاهدة ،
سافرت قافلة تجارية من إيران إلى تركستان الشرقية وهي تركستان الصينية بعينها
وكان مع هذه القافلة الشيخ السعي الشيرازي ، صاحب كلستان وبوستان فزار
كاشغر وتحدث إلى أبنائهم عن الاسلام ومحامن هذا الدين الحنيف .

ففي أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، كانت التجارة البرية قد كسبت أهمية
أعظم من التجارة البحرية لأن التجارة عن طريق البحر كانت مختلة
مضطربة بسبب الحوادث التي ظهرت في خليج فارس . وقد وقع خلاف بين
صاحب هرمز وصاحب كيش فسعى كل جانب في منع تجارة بلده من الخروج من
ملكته إلى مملكة غيره ، فاصحاب السفن التجارية التي وصلت من الهند والصين ،
وأرسيبت على المرسي لهذا أو لذلك ، كانوا بطبيبة الخال غير أحرار في الخروج من
المرفأ ، فامنعوا حيناً من الدهر من التجارة برا عن طريق هرمز وكيش ، فبسبب
هذا الاضطراب في التجارة البحرية ، نهضت تجارة البر فكثرت الرواد بين غرب
الصين والبلاد الاسلامية عن طريق تركستان .

ويظهر من التاريخ أن هذه التجارة قد اصطفت في القرن الثالث عشر من

الميلاد بالصبغة الحكرمية حين نافس خوارزم شاه ، في القوة والسلطة ، جنكيز خان الذي ظهر في منغوليا وفتح نصف بلاد الصين . فبعث محمد خوارزم شاه وفدا برياسة بهاء الدين الرازي إلى الصين ليحقق ما وقع هناك من التطورات والتغيرات ثم سافرت في أثره قافلة تجارية من مملكة خوارزم شاء ، وتوغلت إلى منغوليا عن طريق شمال (تيان شاه) . وأما التفاصيل عن هذه القافلة ، فذكرها في كتاب الجويني . وكانت بقيادة ثلاثة التجار الكبار وهم أحمد الخجندی وابن أمير الحسن وأحمد البلخي . وكان هؤلاء حملوا معهم المنسوجات المزركشة بخيوط الذهب والقماش الزنجاني . فحضر واقصر جنكيز خان بقرقرم في مرافقة بهاء الدين الرازي وطلبوا ثمنا أكثر مما يلزم لكن على كل حال ، أمر جنكيز خان بتعويض «بالش» ذهب عن كل قطعتين من المنسوجات المزركشة و «بالش» فضة عن كل قطعتين من القماش الزنجاني وقد لاحظ الجويني ، أن المغول في هذا الوقت نظروا إلى المسلمين بعين الاحترام والتعظيم ، فصبوا لهم خياما بيضاء وأنزلوهم منازل التكرمة والاحترام . فخرمانهم من هذا الاكرام فيما بعد ذلك قد نشأ من الخطايا التي جناها المسلمون على أنفسهم .

كان جنكيز خان في بادئ الامر مجاملا للمسلمين . فقد بعث رسولا منه وقافلة تجارية إلى غرب آسيا ، ردا لزيارة وفد خوارزم شاه وبناء على ماورد في النساي كان محمود الخوارزمي وعلي خواجة البخاري ويوسف كدكا الأقراري ، علي رأس هذا الوفد حملوا الهدايا الثمينة إلى شاه باسم جنكيز خان ، واتموا منه أن يحافظ على الصداقة القديمة التي كانت بينهما . لكن الحادثة التي وقعت سنة ١٢١٨ م بمقام أترار ، قطعت حبل هذه الصداقة وحواتها إلى عداوة مستحكمة بين خوارزم شاه والعباسيين كان من أبرز نتائجها سقوط بغداد فيما بعد .

ليكن التجارة بطريقة البر بين الصين والبلاد الإسلامية في عهد المغول الذين تمكنوا من توحيد ممالك آسيا تحت سيطرتهم بعد تخريب بغداد وغيرها ، لم تكن مقطوعة ، لأننا نقرأ بعض التفاصيل في تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله الذي

ذكر في كتابه غير مرة ، قدوم التجار المسلمين لخانباق ، بالمرصعات والمزركشات والجواهر للبيع إلى أغنيائها وأمرائها . وكان في تردد التجار المسلمين إلى عاصمة الصين ، زيادة ملووسة في إيرادات خزانه الدولة . فلما اشتد قبلاى خان على المسلمين في عهده ، بسبب نيممة (ماركوبولو) الرحالة البندقي ، الذى أحرز بعض النقمة في تلك الأيام عند هذا العاهل المغولى في خانباق وحرهم من أكل الذبيح والزواج على طريقة شرعية إسلامية وأكرهم على الدمل بقوانين و يساق ، وهى مجموعة من أحكام جنسكيزية ، امتنع التجار المسلمون عن زيارة عاصمة الصين حينما من الدهر فنشأ من ذلك نص عظيم في لايرادات ولم يبلغ هذا الحكم القامى إلا بعد شوره بقله الايرادات وكساد التجارة إلى حد بالغ (١) .

وأما الطرق المؤدية إلى عاصمة الصين ، فهى تبدى . كما نقل ذلك ، السيراليوت عن رشيد الدين فضل الله ، من كابول إلى بنجاب ، ثم إلى دهلى ، ثم إلى بنغال . ومنها تدخل الصين عن طريق التبت (٢)

وأما التجارة بعد عهد المغول ، فذكرها صاحب خطاى نامه ، باللغة الفارسية كتب في أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد . لقد نزل الأستاذ شيفر وهو عالم فرانسى ، بوض الابواب لهذا الكتاب القيم الى اللغة الفرنسية نأتم بها بحه عن علاقات المسلمين بالصين (Les Relations des Musulmans avec Chinois) وروى عن تاجر مسلم قنلا - أن ذلك ثلاث طرق لدخول الصين طرق عن منغوليا ، وآخر عن ختن وثالث عن كشمير . نلا شك أن طريق منغوليا هو الذى كان تجار تركستان وماورا . النهر يمرون به . وأما الذى عن كشمير أو عن ختن ، فكان للتجار الذين وردوا من بلاد الهند . وأنا منأكد أن هذا الكتاب يحوى بعض البيان عن جميع التاجر والبضائع التى كانت تباع في الصين في القرن الخامس عشر من الميلاد ومن العجيب أن الأسود والفهود كانت أيضا من سلع التجارة

(1) H. Howarth : History of the Mongols. P. 245.

(2) Elliot: Vol. 1. P 72. .

في تلك الأيام وكان أسد واحد يساوي ثلاثين ألف قطعة من القماش في أسواق الصين^(١).

أما تجارة العرب في الصين فعندنا أدلة كثيرة وافرة فيما يتعلق بها من المصدرين العربي والصيني.

فن المصدر العربي نعرف أن من أهم مدن التجارة للعرب في الصين ، لوقين و خانفو و حمدان و سوسة و صينية الصين و سيلان . و لقد ذكر ابن خردادبه عن لوقين وهي (نونكين) الآن ، أنها أول مرافئ الصين ، فيها الحجر الصيني و الحرير الصيني و الغضار الصيني الجيد و بها أرز (٢) . ثم تكلم عن خانفو وهي (كانتون) الآن قائلا : « أنها المرفأ الأكبر فيها الفواكه على اختلاف أنواعها و البقول و الخنطة و الشعير و قصب السكر ، و لسليمان السيرافي ، كلام عنها أيضا . فانه قال - أنها مرفأ السفن و مجتمع تجارات العرب (٣) . و قال أبو دلف الينبعي - مدينة التجار و الاموال خانفو ، طولها أربعون فرسخا (٤) . و جاء الأدرسي فأكد ما قال السابقون بقوله - أنها من أعظم مرافئ الصين و بها ملك مهاب ، له ملكة حميدة الخصال و قبيلة كثيرة و أجناد و أسلحة و أهلها يأكلون الأرز و النارجيل و الألبان و قصب السكر و القل (٥) . و يظهر أن ابن بطوطة لما ذهب إلى الصين لم يرد هذه المدينة الكبيرة . لانه لم يذكرها في رحلته ، لا صراحة ولا إشارة .

و لقد ذكر كثير من كتاب العرب مدينة حمدان ، منهم المسعودي و الأدرسي و ذكر ابن بطوطة هذه المدينة تحت اسم « الزيتون » وهي أول مدن الصين التي

(١) تمدن عرب ، ترجمة بلكرامى ص ٥٠٥

(٢) ابن خردادبه ص ٦٦

(٣) سلسلة التواريخ ص ١٣

(٤) ابن النديم ص ٤٩١

(٥) نزهة المشتاق ج ١ - ص ١٤٩

نزل بها . فالضبط في ابن بطوطة ، أقرب إلى الصحة . لأن الاسم الاصلى هو (Tche-Tung) وهى مدينة جوان شو الآن . واقد رأى ابن بطوطة هذه المدينة وقال عنها هى :- مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخاب والاطلس وتنسب إليها ، ومرساها أعظم من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها . رأيت بها نحو و مائة جنك كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة . واجتمع بها كثير من تجار المسلمين والعلماء المشهورين ، وسند كرم فى محل آخر .

وأما مدينة سوسة ، فى نزهة المشتاق للادريسي ، فلم أستطع تحقيق إسماها الاصلى فى المراجع الصينية . ويظهر أن المراد بها هو مدينة (سو جو Su-Chow) وذكر أنها مدينة مشهورة معلومة مذكورة ، كثيرة التجارات ، متصلة العمارات ، جامعة الخيرات ، وأهلها كثيرة وتجارها مباركة موفورة ، وقراضها معترف به فى الآفاق ومتصل بكل الامصار ويصنع بها الغضار الصينى الذى لا يبدله شىء من نخار الصين جودة وبها طور كثيرة مشهورة ومعمل الحرير الصينى الرفيع التقسيم ، المحكم الصنعة الذى لا يقرب به غيره .

وأما صينية الصين التى وردت فى كتب العرب ، فهى اسم غير صينى وضع لمدينة فى الصين ، ويظهر أنها محرقة عن كلمة فارسية وهى « مهاجين » ، كما جاء فى تحقيق الاعراب لصادق الاصفهانى المتوفى سنة ١٦٨٠ م . ودما ، فى السنسكرىتية وفى الفارسية القديمة ، معناه « كبير » . فهم - اجين معناه ، والصين الكبرى . . وقول ابن بطوطة يؤكد هذه النظرية . فانه قال : أنه سافر إلى مدينة صين كلان ، من الزيتون ، فى ٢٧ يوما . وصين كلان ، هى صين الصين . (أو صينية الصين فى الادريسي) . فكلمة « كلان » ، معناها كبرى فى العربية بالضبط . وبناء على ما جاء فى « المغرب » لابن سعيد المغربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، أن صين الصين ، هى عاصمة بلاد « نهنى » ، أى ولاية فوكين الحاضرة (١) .

لقد زار ابن بطوطة هذه المدينة وذكر أنها من أكبر المدن وأحسنها ومن
أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن .
ومن المدن التي يوجد ذكرها في الكتب العربية القديمة ، مدينة سيلا ، ويقوم
من وصفها أن المراد بها مدينة بكروريا الحاضرة بآخر الصين وكانت مراكز
التجارة من الرب ومن إيران تتردد إليها وكانت لها مكانة عظيمة في التجارة البحرية
وذلك نفهمه من قول ابن خرداذبه فيما يلي :

والذي يجيء في هذا البحر الشرقي من الصين ، الحرير والفرند ، والكمخاب
والمسك والعود والسروج والسمور والغضار والصلبيج والدار الصيني والخولنجان
ومن وقواق الذهب والآبنوس ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماء
كافور ، والجوزبرة والقرنفل والتماقلة والسكابية والتارجيل والنياب المتخذة
من الحشيش والنياب القطبية الخملة والفيلة . ومن سرنديب الياقوت على اختلاف
ألوانه وأشباهه والماس والدر والبلور والسبذاج الذي يعالج به الجوهر .
ومن كولملى الفلفل . ومن كلة الرصاص القلحي ومن ناحية الجنوب البقم والمداذي
ومن السند القط والقنا والخيزران والذي يجيء من اليمن الوثنى وسائر ثيابهم والعنبر
والورس والبغال والحير (١) .

هذا وأما المصدر الصيني الذي يتعلق بتجارة العرب في الصين ، فيرجع تاريخه
إلى القرن الثامن من الميلاد ، أي قبل زمن سليمان السيرافي ، بقرن على التقريب .
ونعرف مما جاء في الكتب الصينية لهذا القرن ، أن المراكب التي كانت تستقل
في نقل المتاجر وتختلف إلى خانقو ، من البلاد الأجنبية ، عظيمة تعلق عن الماء
بكثير حتى يحتاج إلى السلام في الصعود إلى سطح المراكب (٢) فالربانون
الأجنيون ، الذين كانوا يهودون تلك المراكب إلى مرافئ الصين يلزمهم أن
يحضروا إلى إدارة المراقبة للتجارة البحرية ، لتسجيل أسمائهم . وكانت هذه الإدارة

(١) ابن خرداذبه ص ٧١

(2) Chao Ju-Kua; P. 9

التي كان وجودها بكاتون ، وجوانشو ، وهانغ جو ، يدل على اهتمام الحكومة الصينية بهذه التجارة ، قبل الترخيص لآي مركب بالسفر أو تفرغ شحنته ، تطلب من الربان ، أن يقدم كدف المناجر بالمركب إلى ناظر الادارة المذكورة . فتجبي عليها الضرائب ورسومات النقل في مياه الصين ، وكانت البضائع الثمينة أو النادرة ، ممنوعة التصدير ، وكان العمل على تهريب البضائع ، موجبا العقاب بالسجن على قدر الجريمة .

ويجب على الربان أن يسلم جميع ما في المركب من المتاجر والبضائع إلى الماءورين بادارة المراقبة عند الوصول إلى مرافأ خانفو ، ويودعها في مخازن الحكومة حتى وصول آخر المراكب لموسم التجارة ، فحينئذ تؤخذ ثلاثون في المائة من البضائع ، ضريبة أو رسوما للجمرك ، ويرد الباقي منها إلى أصحابها . وسليمان الناجر السيرانى ملاحظات في هذه النقطة أيضا . قال :

وإذا دخل البحريون من البحر ، قبض الصينيون متاعهم وصبروه في البيوت وضمنوه الدرك إلى ستة أشهر ، إلى أن يدخل آخر البحريين . ثم يؤخذ من كل عشرة ، ثلثها ، ويسلم الباقي إلى التجار ^(١) .

وقبيل القرن التاسع من الميلاذ ، انتقل قسم كبير من التجارة البحرية إلى مدينة (جوان شو) في ولاية فوكين ، بقرب آموى الحاضرة . وكانت لهذه المدينة من قبل ، علاقة تجارية مع اليابان وكوريا وجاوة وغيرها من جزائر ملايا . فالعرب الذين وصلوا هناك في أواخر القرن التاسع من الميلاذ ، وجدوا بها البضائع لبقاع الصين النائية ، التي لم يكن من السهل الحصول عليها بخانفو . وبعد زمن قليل نهضت (جوان شو) إلى الدرجة الأولى من بين المرافئ البحرية ، فكثرت الرواد من العرب والابرايين إليها بوجود هؤلاء التجار بهذه المدينة ، اشتهرت فيما بعد ، في العالم الإسلامى إلى نفوذ البرتغاليين في الشرق بالاسم الذي وصفها به ابن بطوطة في رحلته وهو الزيتون ، المحرف من اسمها الاصلى (Tche- Tung) .

ولعل الحوادث التي ظهرت في الصين في أواخر القرن التاسع من الميلاد، حين
ثار الثوار على الإمبراطور (هي جونغ Hi-Chung) (٨٧٤ - ٨٨٩ م، ونهبوا
سوجو وجانغ شو، عطلت هذه الحركة التجارية حيناً من الدهر. فاجتنب التجار
الأجانب الذين كانوا يقيمون بخانفو وجوان شو، مقامات الفتنة ولجأوا بأموالهم
وأنفسهم إلى سواحل جزائر ملايا، حيث تأتي المراكب من سيراف وبلاد عمان
ومن مدن الصين أيضاً.

وأما المراكب التي كانت تنقل بالبضائع بين الصين وخليج فارس فيها ما هي
صينية ومنها ما هي عربية. لأن سليمان والمسعودي وابن بطوطة، قد ذكروا
مراكب الصين بخليج فارس، بالبصرة وسواحل الهند. ومراكب العرب إنما
ذكرت في بعض الكتب الصينية، خصوصاً في جوفانكي، أو التذكرة عن
البلاد الأجنبية، لجويوكوا، الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر من الميلاد.
وأنه قد دون ما رأى وما سمع، في تذكرته عن الأجانب، إذ كان مشغلاً في
منصب المراقب العام للتجارة الأجنبية بولاية فوكين. فكلامه في هذا الصدد
حجة لا ترد. ولم يكن حديثه مقصوراً على المراكب، بل تعداه إلى نفوذ تجارة
العرب في الصين أيضاً.

وقد تجددت تجارة العرب في الصين بعد تلك الفترة من الفتنة والفساد التي
ذكرها ابن الأثير وأبو زيد، فجاءوا ببضائع شتى إلى كانتون وجوان شو. وإننا
نقرأ في تاريخ الصين لهذا العهد، أنهم كانوا يتعاملون مع العرب في القرن العاشر
من الميلاد، كما يتعاملون مع أهل جزائر ملايا وسيام والجاوة وسماطرة وجزيرة
نيكوبار والهند. فأتوا ببضائع البلاد التي مروا بها في طريقهم إلى الصين، كما أنهم
قد حملوا المنتجات من بلادهم. فالواردات الرئيسية من بلاد العرب كما ورد في
سلسلة التواريخ، كانت: العاج والكندر والنجاس والصنف والكافور وقرون
السكر كدن.

فتاريخ سونغ (Suang) قد ذكر أسماء الواردات والصادرات التي حصلت

بوساطة العرب أو الايرانيين في أواخر القرن العاشر من الميلاد، وهى الذهب والفضة والفلس الصينى والمسكوكات والرصاص والمنسوجات على اختلاف ألوانها وأشكالها والفخار والغضار والأعواد والعلطور وقماش القطن والصدف وقرون الكركدن والعقيق والبلور والعاج والمرجان والعنبر وقلائد اللؤلؤ والآبنوس .

وكان لحكومة الصين اهتمام عظيم بهذه التجارة وزادت أهميتها في القرن العاشر حتى وضعت الحكومة يدها على زمام التجارة وجعلتها نوعا من احتكاراتها ولتنشيط الاعمال التجارية بعث أمبراطور الصين وفودا إلى الخارج وكانوا يحملون معهم الخطابات المحتومة بخاتم الامبراطور ومقدارا عظيما من الذهب والفضة لنفقات الدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب (Nanhai) وترغيبهم في زيارة الصين وبعدهم برخصة خاصة لبضائعهم . فكانت النتيجة التى ظهرت من مساعى الحكومة في تنشيط التجارة الخارجية واضحة جدا حتى امتلأت مخازن الحكومة في غضون أيام قلائل بالعاج وقرون الكركدن واللؤلؤ واللازورد والأعواد وجميع الأنواع من المتاجر التى وردت من الهند وخليج فارس والجزائر التى فى بحر صنف . ولإيجاد الاسواق لهذه البضائع الواردة فى مملكة الصين، كان اناس يرغبون تحت تأثير الدعايات المظلمة فى شرائها بالذهب والفضة أو بالقماش الصينى والحرير والأرز وغيرها من منتجات الصين . وكانت التجارة الخارجية موردا من موارد الدولة ، لذلك اهتمت بها وانظمتها تنظيما دقيقا .

ولقد قلنا فيما سبق أن المراقبة على التجارة البحرية كانت قائمة بكاتون منذ القرن الثامن من الميلاد، وقد ذكرها سليمان السيرافى فى كتابه . ثم اتعت هذه الادارة فيما بعد وأطلق عليها اسم إدارة الجمرى فى سنة ٩٨١ م بسبب التقدم التجارى وتطور العلاقات التجارية بالخارج . ولتحصيل أوفر حظ من مافع التجارة ، أسست دار الجمرى فى تلك السنة وبعد بضع سنين أعلنت احتكارها التجارة الخارجية . وبناء على هذا الاعلان ، أصبحت التجارة مع الاجانب عن غير طريقها موجبة العقاب بالنفى إلى جزائر مجهولة .

يقول هجويوكوا، اتسع هذا النظام إلى مرفأ آخر بعد عدة سنوات ، فأنشئت الجمارك العامة بعاصمة (كييانغ سو) وصدرت الاوامر إلى جميع المرافئ ، أن العطور والبضائع العظيمة القيمة القليلة الورد ، يجب أن تودع مخازن الحكومة بعد ورودها إلى الصين ، أما بكانتون ، وأما نجوان شو ، أو بتونكين ، أو بليانغ شو ففي سنة ٩٩٩ م أسست إدارة فرعية جمركية في كل من مدينة هانغ شو ، (وهي الخنساء في ابن بطرطة) ومنغ شو . وقد قيل أن هذا قد جاء بناء على طلب المأمورين الاجانب ، ترويحاً للاعمالهم وتخفيفاً لمسئولياتهم ^(١) ، وفي عهده تآتى جو ، وعهد ه تآتى جونغ ، (٩٦٠ - ٩٩٧ م) من أسرة سونغ (Sung Dynasty) أنشئت وظيفة جديدة يقال لها زى به شى ، أى مراقب التجارة البحرية وكان من واجباته ، تفتيش مشحونات السفن وجمع الضرائب وهي عشرة في المائة بالنسبة إلى قيمة البضائع ^(٢) .

من المعلوم أن مدن (كانتون) في (كانغ تونغ) و (منغ شو) و (هانغ شو) في (جيكيانغ) و (جوان شو) في (فوكين) ، كلها على شواطئ البحر . فطبيعى أن تآتى إليها السفن من جميع البلاد التي كانت لها علاقة تجارية بالصين . وفي بادىء الامر كانت إدارة الجمر ك قائمة بمدينة (كانتون) فقط . فلما اتسع نطاق التجارة وكثر ورود السفن من الخارج ، عجزت هذه الادارة عن مراقبة التجارة الخارجية التي تقدمت سريعاً فزاد النشاط وكثرت الحركة . فدعا الحال إلى إنشاء ادارات أخرى بجميع المرافئ وعين فيها المأمورون المسئولون عن ادارة المراقبة بكانتون وخير لهم تنظيم شؤونها . فعند ورود السفن ، كان المراقبون ووكلاء التجارة ، يصعدون إليها ويختبرون ما فيها من الشحونات والبضائع . فقدروا قيمتها على كلمة التجار أنفسهم . ثم يأخذون رسوم التفرغ على أساس عشرة في المائة بالنسبة إلى القيمة الأصلية . وأما ضرائب الأثؤو والكافور وجميع الأنواع من

(1) Chao Ju-Kua. P. 20

(٢) يظهر من هذا القول أن رسوم الجمر ك قد خفضت منها ٢٠ في المائة بالنسبة إلى زمن سليمان

البضائع النفيسة، فتؤخذ من جنسها على قاعدة سابقة. فالتجار يستطيعون بعد ذلك أن يبيعوا متاجرهم في أسواق الصين بحرية كاملة.

ويظهر من كلام (جويوكوا)، أن هذه المراقبة، كانت شديدة جدا، حتى إذا كان أحد من التجار يجتريء على نقل شيء من سفنهم قبل دفع الرسوم المطلوبة فقد عرض بضاعته للمصادرة، ونفسه للعقاب. (١)

فالمراقبة الشديدة التي تجرى في هذه الأيام، لم تكن مقصورة على السفن الواردة، بل تعدتها إلى السفن الصادرة أيضا. وكانت هذه المراقبة تنفذ على المراكب الصينية فقط، لأن مراكب العرب ومراكب غيرهم، إن لم توقع عودها إلى الصين ثانية، فلا يؤخذ أصحابها، ولا سبيل إلى مؤاخذا أصحابها، إن أرادوا لو الأمر ذلك. وإن عادوا فرضا، فالمراقبة للسفن الواردة، تنفذ فيهم كما تقدم أما المراكب الصينية، التي تسافر إلى البلاد الأجنبية، فيقيد كل ما فيها من الرجال والبضائع في دفتر خاص في مكتبة المراقبة. ويؤخذ أصحابها عند العودة، إن وجدوا شيئا مفقودا منهم وليس عند أصحاب السفن بيان واضح مقبول عن الشيء المفقود. ولقد بقيت هذه المراقبة إلى زمن ابن بطوطة (ولعلمها بقيت إلى وقت قدوم البرتغاليين إلى بحر الهند)، فقيدها في رحلته، بالعبارات الآتية.

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكمهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضا، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس. فإذا نقدوا أحدا عن قيده طالبوا صاحب الجنك به، فاما أن يأتي بهرمان على موته، أو فراره، أو غير ذلك مما حدث له، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك، أمروا صاحب المراكب أن يئلي عليهم نفسيرا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فان عثروا على سلعة قد كتبت عنهم، عاد الجنك بجميع ما فيه مالا من الحكومة (٢)

(1) Chao Ju-Kua. P. 20

(٢) ابن بطوطة ص

وأما الملاحة في القرن الثاني عشر من الميلاد، فقد تقدمت تقدما عظيما باستعمال ابرة المغناطيس، كما يسميها العرب . وكانت هذه الابرة معلومة عند الصينيين من عهد قديم باسم (الابرة المشيرة الى الجنوب) . فتعلم العرب منهم في أسفارهم البحرية إلى الصين وسنكلم عن هذا في آخرباب من هذا الكتاب، حين بحث في نتائج العلاقات، وهنا نكتفي بهذه الاشارة فقط. وقد أفادت هذه الابرة المغناطيسية السفر البحري افادة كبيرة، وسهلت السير في البحار، وأمنت التجار من الضلال، وكانت النتيجة الطبيعية أن تقدمت التجارة البحرية بين الصين والعرب وذلك ما نراه في زيادة ارسوم والضرائب والاياردات الحكومية . فلقد أخبرنا د جويوكوا، أن الضرائب على الواردات في سنة ١١٧٥ م، وفي السنين اللاحقة قد بلغت ٥٠٠٠٠٠ مثقالا من الذهب. وأما ما أخذ من أجناس البضائع، ضريبة عليها، فغير محسوب في هذا المبلغ.

وبنا على ما ذكر في د جوفانكي، من أن العرب كانوا يستوردون الكندر من مرید وصحار وحضرموت، والمرّة من جنوب العرب وعدن، وبلاد السوماليين، والقاطر من جنوب العرب وسماطرة، والبخور من اليمن والاشياء الآتية من الممالك التي تحت حكم العرب السترك السائل، وبخور الايران، والاعواد، والقرنفل، وجوزة العفص، والخلتيت، والصبو والمرجان، والمزجاج، والبلور، واللؤلؤ، والعاج.

كان للتجار المسلمين حرية مطابقة في الانتقال بين بلدة وأخرى في داخل بلاد الصين، كما لهم حرية في الإقامة، بأي مرفأ من المرافئ . ولحفظهم من الوقوع في الخطر وتأمين أموالهم وأنفسهم، وكانت الحكومة الصينية، قد وضعت قانونا خاصا يقضى بتسجيل المسافرين في داخل حدود الصين وما معهم من الامتعة والاموال، وقانونا آخر يقصد به مراقبة الفنادق بجميع المدن . فكانت حكومة الصين ساهرة على حفظ أموال الأجانب وحياتهم، وتعنى عناية خاصة براحتهم وتأمينهم إذا انتقلوا من مدينة إلى مدينة أخرى ومدّة أقامتهم بها. وكل ذلك تستطيع أن تعرفه من الكتب العربية . فسليمان السيرافي الذي ذكرته غير مرة، قد تكلم

في سلسلة التواريخ ، عن تسجيل المسافرين وما معهم من الامتعة وكان النظام في ذلك أن من أراد سفرا في بلاد الصين من بعضها إلى بعض ، يجب عليه ، أن يأخذ كتابين من الملك والخصى (١) . أما كتاب الملك ، فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره ، وعمر من معه ومن أي قبيلة هو وجميع من يبلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد أن ينتمو إلى شيء يعرفون به ، وأما كتاب الخصى ، فبالمال وما معه من المتاع ، وذلك لأن في طريقهم موظفين ينظرون في الكتابين . فاذا ورد عليهم الوارد ، كتبوا : ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا . لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعا فتي ذهب منه شيء ، أو مات ، علم كيف ذهب ورد عليه أو على ورثته من بعده (٢) وهذا يشبه جواز السفر في الوقت الحاضر بجميع لوازم وحقوق صاحبه في البلاد التي يسافر إليها .

وكانت التجارة في الصين تجوز بعقد الدين ، وأصحابه قلما أنكروا حق ذوى الحق عند النزاع . لأن الحكومة كانت تتكفل بالمتكبرين بعقوبة جسمانية ومالية معا وطريق عقد الدين عندهم في ذلك الوقت ، كما ورد في سلسلة التواريخ ، أن أحدا إذا كان له على رجل دين كتب عليه كتابا ، وكتب الذى عليه الدين أيضا كتابا . وعلمه بعلامة بين أصبعيه الوسطى والسبابة ، ثم يجمع الكتابان ويطويان جميعا ثم يكتب على فصلهما ثم يفرق فيعطى الذى عليه الدين كتابه باقراره ، فتي جحد أحدهما غريمه ، قيل له ، أحضر كتابك ، فان زعم الذى عليه الدين ، أنه لا شيء له ودفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق ، قيل للجاحد الذى عليه الحق ، أحضر كتابا بأن هذا الحق ليس عليك فتي ما بين عليك صاحب الحق الذى جحدته ، فعليك عشرون خشبة على الظهر وعشرون ألف فكوج فلوسا . والفكوج ألف فلس ، يكون ذلك قريبا من ألفي دينار . والعشرون من الخشبة فيها مائة .

(١) ويراد بالملك هنا حاكم البلد وبالخصى وكيل التجارة .

(٢) سلسلة التواريخ ص ٥٤

فليس يكاد أحد ببلاد الصين يعطى هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، ولم نر
أحدا أجاب إلى ذلك، وهم يتناصفون بينهم، وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون
بشاهد ولا يمين (١).

وأما مراقبة الفنادق فكانت للأغراض السامية التي قلنا تلتفت إليها أمم العصر
الحاضر، وهي منع التجار من الوقوع في الفساد. وكان تدبير الحكومة في ذلك كما ورد
في ابن بطوطة، أن التاجر المسلم إذا قدم على بلد من بلاد الصين، خير في النزول
عند تاجر من المسلمين المستوطنين، أو في الفندق. فإن أحب النزول عند
التاجر، حصر ماله وضمته التاجر المتوطن وافق عليه منه بالمعروف فإذا أراد
السفر، بحث عن ماله، فإن وجد شيء منه قد ضاع غرمه التاجر المستوطن الذي
ضمته وأن أراد النزول بالفندق، سلم ماله لصاحب الفندق وضمته وهو يشتري
له ما يحب ويحاسبه. وأما اتفاق ماله في الفندق فشيء لا سبيل إليه ويقولون
لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا (٢).

هذا ما كان عند ورود التاجر من الخارج. وأما سفرهم في داخل الصين، فشهد
ابن بطوطة بما يلي، أن بلاد الصين، آمن البلاد، وأحسنها حالا للمسافرين. فإن
الإنسان يسافر متفردا مسيرة أسبوع أشهر، وتكون معه الاموال الطائلة، فلا
يخاف عليها. لأن نظام المراقبة على الفنادق كفيل بحفظ المسافرين من مدينة
إلى مدينة. وكان الترتيب في ذلك، كما جاء في ابن بطوطة، أن لهم في كل منزل، ببلادهم
فندقا، عليه حاكم يسكن به في حماية من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب
أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من
بيد به من المسافرين وختم عليها وأقبل باب الفندق عليهم. فإذا كان الصبح
جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه وكتب بها تفسيرا، وبعث معهم من يوصلهم
إلى المنزل التالي له. ويأتي ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وأن لم

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٥

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٥١ (بولاق).

الباب الخامس

في العلاقة الدينية

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية اليهم ، مبنى على الأوهام والخرافات ، كما كان شأن كل أمة من الأمم في جاهليتها الأولى . وكانوا يتخذون الأجسام السماوية والظواهر الطبيعية معبودة لهم ، غير معتقدين بخالق جبار ، تحت تصرفه كل شيء من الموجودات والكائنات . فتعددت آلهتهم وتفرق طريق عبادتهم ^(١) .

فالحكماء الذين ظهروا في أرض الصين بعد زمن الخرافات ، مثل (لوتس) و (كانفوشيوس) و (مائى تس) و (مونشيوس) ، لا احد منهم قد أتى بكتاب سماوى ، أو نظام دينى يسلك فيه الصينيون كافة ، إلا أن كلامهم يدل على عقيدة ، بذات ما وراء الطبيعة . فالطريقة عند (لوتس) شيء ليس بصوت ، ولا بصورة ، تبقى دائما ولا تفتنى إلى الأبد ، ووجوده قبل كل شيء غيره ، وهو أصل لجميع الموجودات ، وروح جارية فيها .

فهذا التعريف لطريقته يوافق ما نعتقد بصفات الله ، وأما « السماء » في عقائد (كانفوشيوس) فهو صاحب السطة العليا الذى إذا غاظه الإنسان بارتكاب الكبائر ، فلا سبيل له إلى الرجاء حتما . فلذلك يقول : « أين الدعاء من أغاظه السماء » .

ليس هناك فرق كبير بين « سماء » كانفوشيوس و « سماء » مونشيوس ، لأن الثانى كان تلميذ الأول ، فحذا حذوه في التفكير والبحث المنطقي وأما (مائى تس)

فدينه دين المحبة ، والاخاء . يجب الامن والسلم ، ويكره الحرب والقتال . ومبادئه حبه ، تشبه مبادئ الحب المسيحي ، وأصول إخائه مثل أصول أخاء الاسلام . لكنه لم يضع نظاما لظهار هذا الحب أو هذا الاخاء ، فالكيف عن القبال والامتاع عن نهب مال الناس ، وعدم السرقة وتحريم الحسد ، هو كل ما يمتقده من دواعي النجاب ومقوبات التأخى . ولا نرى غير هذا في دينه .

هذه الديانات تختلف كلها عن الاسلام في مسألة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من ناحية الاعتقاد ، وفي مسألة المظاهر الدينية من ناحية العبادة . لان أهلها لا يعتمدون بالحشر والنشر ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات . ولعل هذا هو السر الذى بقى به أهل الصين فى عقائدهم القديمة ، مع أن أغلبهم قد اعتنقوا الديانة البوذية التى أصلها من الهند ولم تحدث فيهم أى تغيير من جهة الاعتقاد ، مع أنها قد أثرت فى أدبهم وفلسفتهم تأثيرا واضحا : فالرجل الدينى من أهل الصين ، هو مجموع لهذه العقائد والمبادئ التى ترجع إلى ديانات مختلفة ، منها ما هو مبادئ كافوشيروس ، ومنها ما هو من عقائد لوتس ، ومنها ما هو من الاصول البوذية ومنها ما هو من المسيحية . فشخص واحد يمكن أن يعيش على هذه العقائد المختلفة فى مختلف أوقاته فى الحياة بدون إحداث أى تصادم روحانى فى حياته العقلية . فالصينى المتدين اليوم ، هو بوذى مسيحي ، كافوانشى ، وتورى فى وقت واحد . أى أنه حر فى عباداته الدينية ، يختار هذا أو ذلك ، متى شاء ، غير مقيد بدين .

ومن الديانات الاجنبية التى تسربت إلى الدين قبل الاسلام . المانوية والمجوسية والنسطورية . فدخول المانوية إلى الصين كان فى القرن السابع من الميلاد عن طريق تركستان ، لان أكثر أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل الاسلام . فانتشر فى شمال الصين حتى أسس الهياكل لهم فى الشطر الأول من القرن الثامن فى بعض المدن الشهيرة ولهم معابد كثيرة فى ولايات هانا ، وشانسى ، وكثيرة أتباع هذا الدين يمكن أن تقدرها من الواقعة التى وقعت فى عهد (ووجونغ Wu - Chung) ٨٤١م - ٨٤٦م) إذ كان هذا الامبراطور متشبثا بطريقة لوتس ، ومتصبا لها . فأمر

باضطهاد الديانات الأخرى . فهدم معابد المانوية والمجوسية والسنطورية . فقتل في عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسوة من راهبات المانوية ، ثم فنيت هذه الديانة من الصين (١) .

أما المجوسية - كما أشار سليمان السيرافي والسودى وغيرهم من كتاب العرب - فقد دخلت الصين قبل الاسلام ، على الأقل بقرن . لكنهما لم تنتشر في دائرة واسعة النطاق . فلما فتح العرب بلاد ايران ، وقضوا على دولة كسرى ، فربز جرد الى الشرق ولجأ الى عاصمة الصين . فأنشأ فيها معبدا للمجوسيين . ثم جاء بعض علماء المجوسية وبثوا دعوتهم في شمال الصين . لكن هذه الديانة لم تكن مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا في هذه الطائفة ، قليلون جدا ، لا يكادون يستحقون الذكر . وقد محيت آثارهم في سنة ٨٤٦ م كما أسلفنا .

أما الديانة السنطورية ، فوصلها الى الصين كان في سنة ٦٣٥ م وكان ذلك بناء على ما ثبت في كتابة تاريخية وجدت بمدينة (جانغ آن) (٢) . فأول من جاء الى الصين الدعاية الى السنطورية كان رجلا يدعى (أولوبن : Oloben) . ويظهر من تاريخ الصين ، أنه استوطن بجانغ - آن ، وبنى معبدا للسنطوريين فيه واحد وعشرون راهبا ، وكان أولوبن ، رئيسا لهم ، ثم انتشرت هذه الديانة الى بعض المدن الصينية الأخرى وأنشأوا فيها معابد ، ففقدوا أعمالهم على ألواح الحجر ونصبوها في المعابد ، تخليدا لذكراهم إلى ما شاء الله ، وأما النصوص التي توجد في هذه الشواهد الحجرية فدورنة الآن في تاريخ الصين العام (٣)

ويوجد ذكر ذهاب السنطوريين إلى الصين في بعض الكتب العربية أيضا . فقد روى ابن النديم . في الفهرست ، أن الجائليق قد بعث ستة من علماء السنطورية إلى الصين للدعاية . فمات خمسة منهم ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الإقامة بالصين نحو ست سنين ، في سنة ٣٧٧ م .

(1) Yung Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization.P.267

(2) Hirth China and the Roman Orient . P. 286 .

(3) Yung Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization.p.267

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة في أرض الصين ، و كادت تؤثر في حياة الصينيين لولا أن الحظ لم يكتب لها في الشرق فأخرج المبشرون بها، وهدمت معابدها في أواخر القرن التاسع من الميلاد . و حكاية الراعب من أهل نجران تشير الى ذلك . (١)

ولقد أطلت الكلام في ذكر هذه الديانات الاجنبية قبل الإسلام ، مع أن الاسلام هو محور بحثي في هذا الباب . لأن الأغلط التاريخية التي تتعلق بوصول الاسلام ، لا يمكن أن تصحح إلا بسرد نبذة عن الأديان التي سبقته . ولقد قيل أن الاسلام وصل إلى الصين في عهد (كائي وانغ (K'ai Wang) من أسرة (صوي (Sui) . ومعنى هذا أنه دخل الصين بين ٥٨٩ و ٦٠٥ م وهذا مستحيل ؛ لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكلف بالرسالة إلى العالم كافة إلا سنة ٦١٠ م .

والذي أراه أن انقائل بهذا القول ، قد التبس عليه الأمر ، فحسب الجوسية التي دخلت الصين في أواخر القرن السادس الميلادي ، دين الاسلام الذي دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته مغالطا في الأدلة والحجج ، إذ قال أنها ديانة جاءت من الغرب ، (٢) . ففهم من الغرب ، العرب ، ووقع في الخطأ دون أن يتنبه إلى أن الاسلام لم يكن له وجود في جزيرة العرب ، حتى السنة العاشرة بعد ستمائة من تاريخ الميلاد . والذي يتمسك بأن وصول لاسلام إلى الصين قد وقع بين ٨٩ و ٦٠٥ م ، يتمسك برأي يخالف الواقع والتاريخ فالحقيقة أن الديانة التي قد وصلت إلى الصين في عهد (كائي وانغ) ، هي الديانة الجوسية ، لا الالامية . وعندنا أدلة عقلية في الكتب الصينية ، عدا تلك الأدلة العقلية ، التي أشرنا إليها آنفا

(١) ابن التديم ص ٤٩١

(٢) والمراد من الغرب ، في اصطلاح كتب الصين القديمة ، ما وقع في

غرب الصين إلى البحر الأبيض واستنبول .

تشهد بوصول المجوسية في هذا العهد، فاننا نعرف تماما أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى (جانغ - آن) في أول عهد (كأي وانغ) وأنشأوا المعابد هناك وعمروها وكانوا يتغنون في صلواتهم بأناشيد دينية. ومن هذه الأناشيد نوع يقال له « موفوتس » (穆護子) يوجد ذكره في ديوان لغات الصين (١).

وقدر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغاني الدينية للمجوسيين الذين وردوا الصين في (عهد كأني وانغ). وهذا دليل قاطع على خطأ من ادعى دخول الإسلام الصين في هذا العهد.

وأما اتصال الإسلام بالصين، فكان ذلك عن طريقين: طريق البر، وطريق البحر. ولقد بيت في باب العلاقة السياسية، أن قتيبة بن مسلم الباهلي الفاتح لسكاشغر، هو أول من بعث وفدا من العرب عن طريق البر إلى إمبراطور الصين في أواخر سنة ٧١٥ م (٥٩٦ هـ) فعرضوا عليه أحد أمور ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وذلك من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى زيادة بيان؛ وأما تحديد الوقت الذي وصل فيه الإسلام بحراً إلى الصين، وعلى يد من كان ذلك؟ فقد اختلفت فيه كلمة المؤرخين من عرب وصينيين كما سيأتي ذلك قريبا.

ولا نشك في أن الصينيين قد سموا كثيرا عن العرب قبل الإسلام، بواسطة التجار الذين كانوا يتقفلون بين (جانغ - آن) والعراق وبن كانتون وخليج فارس، كما كان العرب قد عرفوا كثيرا عن بلاد الصين، إذ كان الإسلام لا يزال في مهده يكافح جملة قريش وعنادهم (٢)، وبفضل هذا التمارف العلمي، كما الصينيون على علم بالتغيرات التي ظهرت في بلاد العرب في أوائل القرن السابع الميلادي، حين عات كلمة الحق على جبل الفاران، وأشرق نور الهداية في غار؟ حراء. فلذلك

(١) ديوان لغات الصين ج ٢: باب ص ٢١٣.

(2) Les Relations des Musulmans avec Cincis. p.2.

وأينا الكتب الصينية أخذت تعرض لذكر الانقلابات التي ظهرت في بلاد العرب في عدة مواضع . ومن رأى الأستاذ بريش ناندر (١) ، أن الأقوال في مؤلفات الصين القديمة عن البلاد الأجنبية ، أصحها هو ما قيل عن العرب وأحوالهم ، وقال إن الزراء يكرنون مغتربين بقراءة تاريخ (تانغ) وتاريخ (سونغ) وتاريخ (يوان) في أبوابها عن العرب ، لأن الصينيين في تلك العصور كانوا مطلعين جيد الاطلاع على أحوال الخلافة التي كانوا يسكنونها مملكة (تاشي) في كتبهم وأما أصل كلمة (تاشي) في كتب الصين ، فلاستاذ نيومان (Neumann) البيان الآتي : ومن اليقين أن العرب كانوا معروفين في المؤلفات المنسوبة إلى زرادشت وفي دساتير ، (Desatir) باسم تازي ، (Tazi) .

ومن المعلوم أن العرب منذ ظهور صاحب الرسالة في أواخر القرن السادس الميلادي بدأوا في النهضة والتقدم . وبسبب هذه النهضة كانوا يذكرون في تاريخ الصين لعهد تانغ العظيمة (٦١٨ - ٩٠٧ م) التي كانت تحكم مملكة الصين الواسعة بالشرق ، كما كان الخلفاء يسيطرون على غرب آسيا . وإنما الحديث عن العرب يوجد في د جيوتانغ شو ، أي كتاب تانغ القديم ، وفي د شنتانغ شو ، أي كتاب تانغ الجديد ، كما يوجد في د تهونغ ديان ، (Thong Dian) فيه باب خاص للعرب . وإليك بعض ما ورد في هذه الكتب دلالة على أن الصينيين كان لهم علم بظهور الاسلام في بلاد العرب وانتشاره إلى البلاد المجاورة لها ، مثل الشام وإيران ومصر وغيرها .

يقول د كتاب تانغ القديم : إن بلاد (تاشي) أي العرب ، بغرب إيران منهم بنو قريش ، والسيادة في أيديهم . فتنفرع من قريش بطنان ، بنو هاشم ، وبنو أمية . ومن بنو هاشم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان شجاعا ، ذا علم واسع ، فانتخب ملكا عليهم . وقد قاتل من خالفه حتى غلب عليهم وسلط على يثرب

(١) كان طبيبيا بالسفارة الروسية في بكين وله كتاب باللغة الانكليزية سماه د معلومات الصينيين عن العرب ، طبع لأول مرة في سنة ١٨٧١ م بلندن .

وفي كتاب تانغ الجديد ، ما يأتي : « إن بلاد العرب شاملة الأرض التي كان قسم منها تحت حكم الإيرانيين ولرجالها أنوف شاحخة . ولحى سود ، يحملون السوف برائط الفضة . لا يشربون الخمر ولا يعرفون موسيقى . ولساؤهم بيضاء يتقنعن ، حينما يخرجون من البيوت . وفي بلاد العرب معبد عظيم ، فيه يخطب ملكهم مرة كل أسبوع قائلاً : إن الذين يقاتلون في سبيل الله . وقتلوا من أيدي الأعداء ، يرفعون إلى الجنة ، ومن غلب على أعدائه يكون سعيداً . فلذا أهل العرب كلهم محاربون مقاتلون شجعان ويصلون خمس مرات كل يوم . وأما أرض بلادهم فكثيرة الحجارة ، غير ملائمة للزراعة ، فالسكان يشتغلون بالصيد والتقنص والرعي وبعيدون على التحرم والألبان ، وعدم جواد يقطع ٤٠٠ ميل في يوم واحد ، وعندهم الأبل أيضاً (١) .

ويذكر تاريخ الصين أيضاً أن هناك حاكماً جباراً من بني أمية يسمى معاوية ، الذي وسع سلطته إلى بلاد الحيرة . وكان الرابع عشر من ملوك هذه الأسرة ، هو مروان الذي قتل أخاه ، وغضب منه زمام الخلافة وفي هذا الوقت ، كان أبو مسلم الخراساني يتفق مع عبد الله بن عباس على إسقاط بني أمية ، فدعوا الناس إليهما ، وأعلنا أن من يتحزب بجرهما ، يجب عليه أن يلبس اللباس الأسود . وأما الذين قبلهم ، فعرفوا بالمرتب ذوى الملابس البيضاء ، فجمع أبو مسلم جماعة عظيمة من الناس وقتلوا مروان آخر الخلفاء من بني أمية . وبعد ذلك انتخب أبو العباس - وهو من بني هاشم - ملكاً ثم خلفه أبو جعفر المنصور بعد وفاته (٢) .

هذه أدلة قوية تشهد بأن الصينيين لم يغفلوا عن أحوال العرب والاسلام الذي قد أخذ سبيله إلى آسيا الوسطى ، وإلى الهند في عصر بني أمية .

(1) Chang Shin - Iug Ancient China, s Relation with the Arabs. p. 45 Breitschneider : p. 7.

(2) Breitschneider : p. 9 . ; The Old Tang Shu : p. 198 . ; The new Tang Lhu : p. 221 . ; Ancient China's Relation with the Arabs . pp. 10 & 46 .

أما وصوله إلى الصين بحرا فاختلقت فيه آراء العلماء ، وخصوصا فيما يتعلق بسنة الوصول وبالشخص الذي جاء برسالة الإسلام ، بطريق البحر إلى الصين . يقول ه جيو نانغ شو ، وكتاب نانغ القديم ، أن وفدا من العرب قد وصلوا إلى عاصمة الصين في السنة الثانية لعهد (يوخوى) ، أى في سنة ٦٥١ م . فتلوا بين يدي الإمبراطور يقولون : إن ملكهم يلتقب بأمر المؤمنين ، وحكومتهم قد أسست من ٢٤ سنة وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الآن (١) وهذا المصدر يذكر وصول وفد آخر من العرب بعد أربع سنوات في سنة ٥٥ م . ويوجد حديث عن هذا الوفد في كتاب نانغ الجديد أيضا فيؤكد هذا القول ، ما ورد في « تهونغ ديان » ببيان عن العرب قائلا : إن وفدا من العرب قد ورد عاصمة الصين أيام (يوخوى) فوصف بلادهم بما يلي : إن بلادنا بغرب إيران وغلبنها عليها وعلى بلاد الشام . وعندنا نحو ٥٠٠ و ٤٣٠ مقاتل ، لاشيء يستطيع أن يسد طريقها أيما نتوجه . ولما حكومتهم قد مضى عليها ٣ عاما بعد الأسيس . وعلى العرش الآن الملك الثالث (٢) .

وقد ورد في « منغ شو (Meng shu) وكتاب عن ولاية فوكين ، أن في شرق (جوان شو) الجنوبي جبلا دفن فيه شيخان من أهل المدينة ، وهم أباء المسلمين يحكى المسلمون من أهل مدينة (جوانشو) ، على لسان الرواية السائرة أن المدينة كان بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد في أول عهد (كاتى وانغ) فحكم عليها عشرين عاما وهو صاحب الكتاب ، يحب الحسنات ويكره السيئات . فيدعو الناس إلى الحق بأمر الله ، ينشر الإسلام على حسب الوحي ، وكان له أصحاب بعث منهم أربعة إلى الصين أيام (ووته - ٦١٨ - ٦٢٦ م) . أحدهم استوطن بمدينة (كانتون) فبث الدعاة هناك . والثاني بمدينة (يانغ شو - Yang shaw) فوقف حياته لنشر الإسلام بها ، وأما الثالث والرابع فسافرا إلى (جوان شو)

(1) The Old Tang Shu : p. 198 .

(2) Ancient China's Relation with the Arabs . P. 53 .

فلما توفيا إلى رحمة الله، دفنا بذاك الجبل . . . ومن المشهور بين الأهل أن صاحب المقبرتين، كما من العرب، قد ما إلى الصين في عصر تانغ، وبمدينة جوان شو جامع تاريخ بنائه غير معروف بالضبط (١).

وذكر الأستاذ هيرت، مترجم جوفلنكس، عن و. ف. مائرز (W. F. Mayers) وهو مستند إلى تاريخ منغ (Ming)، أن الإسلام قد وصل إلى الصين بحرأين ٦١٨ و ٦٢٦ م. لأن أربعة من الصحابة، قد جاءوا بدين الإسلام في غضون تلك السنوات، وواحد منهم كان يدعى دعوته في كاتون، والثاني في يانغ شو والثالث والرابع في جوان شو (٢).

ويقول مؤلف دوى دوى يوان لاي (Hui-Hui Yuan Lai) أى أصل المسلمين في الصين: إن الإسلام قد وصل إلى الصين في سنة ٦٢٨ م. وكان السبب في ذلك، أن الامبراطور (تسنگ كوان: Tcheng Kuan) قد رأى في منامه، أن شيخا معهما يدفع عنه وحشا مفترسا غريب الشكل، وقد هاجمه ولم يجد مفرأ منه. فلما أصبح وسأل الوزراء عن التعبير. قال قائل منهم: إن الشيخ المعتم هو العرب (بالعرب)، عندهم قوة وبسطة، والوحش المفترس الغريب الشكل الذى هاجم الامبراطور، هو عنصر اعتدائى، أو شخص نائر في البلاد، فلا يمكن قبه إلا بقوة المسلمين. فبعث الامبراطور سفيرا إلى بلاد العرب، ملتصبا من ملكهم، أن يرسل عدة فرق من الجيوش إلى الصين. فبذل ثلاثة آلاف من جنود المسلمين بثلاثة آلاف من جنود الصين فكان هؤلاء الآف الثلاثة من العرب هم آباء المسلمين في الصين. وكان الوفد الذى جاء إلى الصين ردا لزيارة الوفد الصينى، مكونا من ثلاثة أشخاص وهم الفيس والأويس والوقاص، فمات الأولان في الطريق، متأثرين من حرارة الجو ودراسة الهراء. وأما الوقاص فقد قدم إلى الصين معافى سليما. فأكرمه الامبراطور إكراما فائقا فقال لدى

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 84.

(2) China Review Vol. VIP. 276. ; Chao Ju - Kua : - . 15

الامبراطور : إن الكتاب المقدس الذي نزل من السماء عليهم هو (الفرقان) -
ووافق معه مؤلف «النسل» من العرب (Si-Lai Chun-Puh) ، في النقطة
المذكورة ، وزاد عليها أن الوقاص الذي وصل إلى عاصمة الصين ، كان عن طريق
بحارى وحامى (Hami) . فعاد إلى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات ،
في المرة الأولى للكتيب الدينية ، وفي الثانية لنسخة من القرآن الكريم والاستشارة
النبي صلى الله عليه وسلم ، في مسألة الدعوة والارشاد في الصين . فقال له رسول الله
خذ معك ما نزل من الآيات ، وأما الآيات التي سألتكما من الوحي فاني أبعثها
إليك إذا نزلت . وفي المرة الثالثة لقيادة رسول الله ، حين سمع أنه مرض ولزم
الفراس . ثم رجع إلى الصين بنسخة كاملة من القرآن ، وهي في ثلاثين جزءا و ١١٤
سورة ٦٦٦٦ آية . فمات بكانتون وله مقبرة هناك باقية إلى الآن . . .

ومؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب» ، قد نقل متنا مرسوما ، عن أسقف
روسي اسمه «آرشيما ندريت بالاديوس» (Archimandrite Palladius) ، الذي
اكتشف هذا المرسوم ببيكين في سنة ١٨٧٨ م . وهو باللغة الصينية . فكان من
قول الاسقف إن المرسوم الأصلي كان باللغة العربية . ثم نقل إلى لغة الصين . فن
هذه النسخة الصينية ، نقله الأستاذ مورجان الانكليزي ، إلى اللغة الانكليزية ،
فنشره في مجلة «دى فونيكس» ، في عدد مارس سنة ١٨٨٢ م . وأما مؤلف «علاقة
الصين القديمة بالعرب» ، فلم يعثر منه على نسخة صينية الأصل . وما يرد هنا منقول
عن مجلة «دى فونيكس» ، وها هو ذا : «وقد ورد في السنة السادسة لعهد (تسنغ
كوان : ٦٣٢ م) ، ابن حزة ، خال النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى الصين مع
نسخة من القرآن وكان ي صاحبه ثلاثة آلاف من الجنود . وكان رجلا متدينا ،
جميل السيرة ، جميل الاخلاق . فسر برؤيته تانغ تائي جونغ ، وأكرم أصحابه جميعا
وأبقاهم في العاصمة (جانغ - آن) وبني لهم جامعا فيها . فكثرت أتباعهم واتسع نطاق
دعوتهم حتى أنشئ مسجدان آخران ، بكيانغ نينغ (نانكين) وكانتون . ثم بحث
ابن حزة مع أصحابه في أركان الدين وأحكام الاسلام ونظامه وقوانينه . فرتب

الرجال الدينيين على ثلاث درجات : الامام ، والخطيب ، والمؤذن . ووظائفهم
نشر مبادئ دين الاسلام ودعوة الناس إلى الفلاح والخير، وحثهم على التمسك
بالفضائل ، وإنذار من لا يحترمون الدين بالعقاب .
فقرروا أربعة عشر قرارا في ترويج الآداب الاسلامية العامة :

- ١ - آداب الزواج .
- ٢ - منع زواج بنت المسلم بغير المسلم ، واعتبروا حدوث ذلك إثما كبيرا ،
والوسطاء وأولو الأمر يعتبرون مشتركين في الجريمة والاثم .
- ٣ - آداب الميت عند الاحتضار .
- ٤ - طريق دفن الموتى .
- ٥ - آداب تشييع الجنازة .
- ٦ - تلاوة القرآن على الموتى والتصدق على الأيتام والمقراء .
- ٧ - وجوب التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل ، لأن يوم الحشر ليس
ببعيد وإن طال حياة الانسان ، فيجزى الله على العمل الصالح ويعاقب على العمل السيء ،
وذلك يكون شديدا لا مقر لاحد منه .
- ٨ - منع الخمر والتدخين ، لأن الدخان يضر الرئة ، والخمر يقتل النفس .
- ٩ - منع البغاء والميسر . لأن البغاء فاحشة يسلب رداء الحياء ، والميسر سوء
يؤدي إلى إفلاس الأخلاق ، فيسقط صاحبه إلى الدرك الأسفل من الرذيلة .
- ١٠ - منع الربا ، لأن الشريف يكره أن يشرب من دم أخيه .
- ١١ - جمع الزكاة والصدقات على حسب درجة الغنى والثروة . والفقير لا يجبي
منه شيء ، بل يبحث على الكسب والاستقلال في المعيشة .
- ١٢ - إنشاء المدارس ، نشر المبادئ الاسلام .
- ١٣ - تحديد آداب الاعياد محافظة على النظام .
- ١٤ - إلزام الرجال الدينيين تأدية واجباتهم ، وأما المعابد والمساجد ، إذا هدم
منها شيء ، فيصلح من تبرعات خيرية .

وحاصل الكلام ، أن كتاب الصين القدماء لم ينفقوا على سنة وصول الاسلام
بجرا إلى الصين كما أنهم لم يستطيعوا الاتفاق على من هو الأول الذي قد جاء
بالاسلام عن طريق البحر إليها . وبناء على ما ورد في كتاب تانغ القديم والجديد
وفي « نهونغ ديان » ، أن الاسلام قد وصل إلى الصين في سنة ٥١ م . ويذكر
« منغ شو » ، أنه وصل بين ٦١٨ و ٢٦ م . وكذلك يقول تاريخ منغ . لكن
المرسوم الذي اكتشفه الاسقف آرشيما ندريت بالاديوس ، يدعى أن وصول
الاسلام قد وقع سنة ٦٢٢ م . ويزعم مؤلف « أصل المسلمين في الصين » ، أن
الاسلام وصل في ٦٢٨ م وكذلك مؤلف « النسل من الغرب » ، حتى ذهب بعض الكتاب
إلى أنه وصل في عهد (كائي وانغ) من أسرة صوي ، أي بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٥ م
وهذا الأخير باطل من غير شك . لأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لم يكلف بالرسالة إلا بعد هذا التاريخ بخمس سنوات ، وأما ما جاء في « منغ شو » ،
وفي « تاريخ منغ » ، فليس مقبولا عند الباحثين المحققين . لأن السنوات التي بين ٦١٨
وبين ٦٢٦ م ، هي المدة التي اشتغل رسول الله (مرة) في دعوة كهفار قراش إلى
الدين الحنيف . وكانت هذه الدعوة لم توجه إلى خارج بلاد العرب ، إلا في أواخر
السنة السادسة للهجرة وهي توافق ٦٢٧ م .

ومن المعلوم أن هذه الدعوة محدودة في إرسال البعثات إلى إيران
والامبراطورية البيزنطية والحيشة . وأما سنة الوفود فقد وقعت في السنة التاسعة
لهجرة (٦٣٠ م) وقد ذكر هذه الوقائع ابن هشام في كتابه بالتفصيل . وعدم
ذكره وفد الصين يفهم منه أن الصين لم تدع إلى قبول الاسلام في حياة رسول الله
صلى الله عليه وسلم . ثم هناك غلط واضح في « منغ شو » ، لا يحتمل أدنى شك .
وهو أن محمدا (ص) ولد في أول عهد (كائي وانغ) وهو يوافق سنة
٥٨٩ م ^(١) . مع أن بعض الكتاب الأخرى تدعى أن الإسلام قد دخل الصين في
هذا العهد ^(٢) .

(١) ولد النبي صلى الله عليه وسلم في سنة ٥٧٠ م

(2) Kin Chih-Tang: Studies on the History of Islam in China. P. 43.

ولا أعرف مبلغ الصحة فيما ذكر في المرسوم الديني الذي اكتشفه الأسقف
آرشيما ندرت بالاديه، س إذ قال إن ابن حمزة، خال النبي (ص)، ذهب إلى الصين
مع ثلاثة آلاف جندي عربي في سنة ٦٢٢ م. لأنها هي السنة التي مات فيها صاحب
الرسالة، ومنتخب أبو بكر (رض) خليفة للرسول على المسلمين. وكان نفوذ العرب
السياسي، حتى عهد أبي بكر (رض)، لم يتسع، إلا إلى العراق والشام وتاريخ
العرب لم يذكر قائدا اسمه ابن حمزة في عهد رسول الله (ص) أو في عهد أبي بكر رضي
الله عنه ولا نجد خلا للنبي (ص) اسمه ابن حمزة، ولا نجد هذا الاسم بين الصحابة
أيضا. ثم ادعاء أن نسخة كاملة من القرآن الذي لم يجمع في صورة الكتاب إلا في
عهد عثمان (رض)، ذهب بها إلى الصين قبل جمعه، ما لم يرق عليه دليل. ثم القوانين
التي ذكرت في المرسوم، بعضها من اختراعات الفقهاء بعد زمن رسول الله بكثير
مثل آداب الميت عند احتضاره، وما يتعلق بالجزاة، وآداب الأعياد وأنشاء
المدارس ونعتقد أن هذا المرسوم ليس في زمن الخلفاء الراشدين. وليست له قيمة
تاريخية يعتد بها.

وأما ما ذكر في أصل المسلمين، فلا نجد فيه شيئا يدعونا إلى الاعتقاد
بصحته لعدة أسباب:

أولا إن رؤية الامبراطور (تسنغ كوان)، لا تدل إلا على
الاهام والخرافات، التي كانت مسيطرة على أذهان الصينيين. فيعتقدون بصحتها،
والحقيقة أن قصة هذه الرؤيا، تشابه تماما، الرؤيا التي رآها (هان منغ تي Han
Ming-Ti) قبل خمسة قرون. إذ رأى في منامه، تمثالا ذهبيا لامعا بالانوار
فبعث رسولا إلى الهند فأتى بتمثال (بوذا) وجعل يعبدها فيقتبعه أناس آخرون.
هذا هو أصل دخول الديانة البوذية. فغير كاتب أصل المسلمين، هذا التمثال
الذهبي، إلى شيخ معمم ونسج حوله قصة تخالف الدلائل العقلية والنقلية معا.

وثانيا: إن هذا الكتاب كما ثبت فيما تقدم، ألف في سنة ١١٦٢ م. وهو
حديث العهد بالنسبة إلى كتاب تانغ القديم أو الجديد، الذي قد سبقه كتابه
بستمان سنة على الأقل. فانتشر هذا الكتاب لأول مرة في عساكر المسلمين، وكان

ذلك ، كما ذكر في نفس الكتاب ، أن الامبراطور (كانشى (Kang-Si) وهو
عاهل ثان لاسرة مانشو (Manchu Dynasty) ، حينما عاد في سنة ١٦٩٧ م ، من
غزوته قبيلة (قرطان) في منغوليا ، مر بقانصو ، وبات ليلة عند أكها
المعروف بدماء ، وهو مسلم . فدار الحديث بينهما في الأديان فسأله الامبراطور
(كانشى) عن وصول الاسلام الى الصين وسبب وصوله . فأجاب بالسلب والجهل
فقال الامبراطور : عندى ، كتاب تجد فيه ما يجب أن تعرفه ، قال الحاكم : أنا
أمرى لا أعرف القراءة ، لكنى أتقبله بالشكر الجزيل ، وأرى لمن يحسن القراءة واستفسره
عن محتوياته (١) .

فأمر من تحته من الأمراء أن يستنسخ كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب (٢)
فشاع في عساكره وانتشر . وأما اسم المؤلف - فكما ثبت في مقدمة الكتاب -
هو هلى جيبلى ، غير معروف في طبقات العلماء ، فنقل عنه (بايونجو (pei yang- Chu)
مؤلف د النسل من الغرب د في سنة ١٧٦٦ م . فالمسلمون من بعدهما ينسجون
على منوالهما عند ما يبحثون عن مسئلة دخول الاسلام فى الصين بدون تدقيق
ولا تحقيق ، بل يعمنون فى تصديق هذا القول الذى يخالف التاريخ والواقع ، من
كل وجه ، إلا قليلا ممن رحم الله .

ونالنا : إن صاحب د أصل المسلمين ، ذكر أن إمبراطور الصين ، بعد
ما رأى فى المنام ، وما سمع من التعبير لرؤياه ، بعث سفارة إلى بلاد العرب ملتصبا
من رسول الله (ص) أن يرسل عدة دعاة إلى الصين ، مبشرين ومندوبين . وأن
هذا الافتراء صارخ على التاريخ . لأنه إذا وقع مثل هذا فذهب وفد من الصين
إلى بلاد العرب ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذكر فى السيرة النبوية
أو على الأقل فى تاريخ العرب . ثم ذكره رجلا من الصحابة اسمه سعد بن وقاص ، إذا كان
المراد به هو سعد ابن أبى وقاص ، فاتح القادسية ، فذلك لا يوافق الواقع ، لانا

(١) أصل المسلمين ص ٤٤

(2) Ancient China's Relations With the Arabs P. 75.

لعرف من المصادر العربية ، أن سعد بن أبي وقاص ، لم يذهب إلى الصين أبدا .
فإن حياته معروفة في تاريخ الاسلام ، خلاصتها أن حضر غزوة بدر والحديبية ،
وكان أحد أعضاء مجلس الشورى ، والقائد الأعلى في واقعة القادسية . فبقى محايدا
حينما ظهر النزاع بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما . فمات بالعقيق على عشرة أميال
من المدينة المنورة في ٨٠ من عمره المديد في سنة ٥٤ هـ كما ذكر في الواقدي فصلى عليه
مروان بن الحكم ودفن بالمقيع . واتفق على هذا صاحب الاستيعاب ، وصاحب أسد
الغابة ، والواقدي .

وهنا سؤال عند المسلمين الصينيين لا يجد جوابا إلى اليوم . وهو من صاحب
القبر الذي بكاتون ، إن لم يسافر سعد بن أبي وقاص إلى الصين ومات هناك ؟ فإن
المسلمين في الصين جميعاً يعتقدون أن الجامع الذي اشتهر في كانتون ، باسم دواي
شن تزي ، أي جامع الذكرى للنبي (ص) من مؤسسات سعد بن أبي وقاص .
ولقد بناه كما يقولون ، عندما وصل إلى كانتون ، فاستوطن هناك داعيا ومبلغا .
فمات بكاتون ودفن بخارجها . وعلى قبره شاهد من الحجر منقوش عليه ما يأتي :

هو زعيم ملقب بوقاص من أهل (تيان فان) (١) ، خال النبي رسول الله
(ص) من ناحية الأم . أمر باتيان نسخة من القرآن إلى الصين . وكان وصوله إلى
(جانغ - آن) في السنة السادسة لعهد (تانغ كوان) من واهل أسرة (تانغ)
(٦٣٢ م) . فوجده (تانغ تائي جونغ) رجلا عالما ، صالحا واعظا عفيفا في العلم .
فأسكنه في (جانغ آن) ، ولأجله أسس أول بيت لله بها ، وعمرها بأربع دينة
والمسلمين . فقام بالدعوة والارشاد ونشر تعاليم القرآن فاعتنق كثير من الناس ،
دين الاسلام على يده حتى انتشر الاسلام ، وكثر أتباعه . فأمر (تانغ تائي جونغ
بعد سنين قلائل ، بإنشاء جامع في كل مكان من مدينة نانكين وكاتون ليلج كلمة
المسلمين فيها . فركب البحر بعد ذلك من كانتون ، يريد بلاد العرب . فإذا

(١) والمراد من هذه الكلمة هو بلاد العرب .

(بجين شى^(١)) ، خطر بباله ، أنه مأمور بالاقامة في الصين للدعوة ونشر الاسلام وأنه غير مطالب بالعودة، ولى وجهه نحو الصين مرة ثانية. غير أنه توفي إلى رحمة الله في المركب . وكانت جثته المباركة سالمة عند وصول المركب إلى كاتون . فدفنت بخارجها ، (٢) .

نسأل الآن ، هل صحيح ما جاء في هذا الشاهد؟ وهل هناك أدلة تشهد بصحتها؟ نقول : لا نعرف مبلغ صحة ما نقس في هذا الشاهد الحجري بناء على عدة أسباب :

أولاً : إننا لا نجد النصوص الاصلية التي نقشت في الحجر على قبر أول داع لدين الاسلام بمدينة كاتون . وما نقل صاحب «علاقة الصين القديمة بالعرب» من العبارات لهذا الشاهد التاريخي ، هو عن مؤلف «علوم الاسلام القويمة» ، الذي كتب كتابه في سنة ١٨٥٢ م ، وهو مشكوك في صحته ، لأن المؤلف لم يذكر سنة نصب الشاهد . ومن الظاهر أن مؤلف «علوم الاسلام القويمة» ، لم يستند إلى مرجع ولا أصل . والدليل على ذلك ، أنه قد ذكر شاهد ضريح النبي (ص) في كتابه أيضا . فيقول فيه : أن (صوى وين تى (Sui Wen Ti) ، قد بعث سفيرا إلى رسول الله (ص) ، يدعوهُ إلى الشرق فامتنع واعتذر . فاكتفى بإرسال سعد ابن وقاص مع أكثر من مائة عربي إلى الصين ثم عادوا بعد سنة (٣) .

لا نسلم أن هناك شاهدا لضريح النبي (ص) قد كتب باللغة الصينية ، وليس لنا علم بشاهد عربي لضريحه المبارك ، وفيه العبارات المذكورة التي استند إليها هذا المؤلف . ثم كلمة «چين» ، تدعونا إلى الاعتقاد بأن مؤلف «علوم الاسلام القويمة» ، قد تأثر بمؤثرات اللغة الفارسية التي كان لها بعض الأثر في الصين منذ عهد المغول .

(١) (جين شى) هي ميناء ببحر الهند على ١٨ محطة إلى مكة على ما ورد في بعض الكتب الصينية .

(2) Ancient China' Relations With the Arabs . p. 78.

(3) Ancient China's Relations With the Arabs. p. 76 .

نستتج اذن ، أن هذه الأقوال ، إذا لم تكن من اختراعاته ، بناء على حسن اللظن به وحين العقيدة فيه ، بدون نظر إلى الواقع وحقيقة الامر فلا شك أنه نقلها من الكتاب الذين قد عاشوا في زمن قبله في عهد المغول - العهد الذي كانت الكلمات الفارسية مثل بيغمبر ، (النبي) و دچين ، (الصين) و دفران ، (القرآن) تستعمل فيه في مجتمعات المسلمين بكل حرية حتى أصبحت جزءا من لهجاتهم العامة .

ثانياً - أن هذا الشاهد يدعى بأن سعد بن أبي وقاص ، قد ذهب الى (بيانغ آن) أولا فأنشأ الجامع هناك بأمر الامبراطور . ثم أنشأ مسجدين آخرين ، أحدهما بناه نكين ، والثاني بكاتون . لكن الكتابة التاريخية (Inscriptions) التي توجد في جامع (جانغ - آن) ، وهي تحمل تاريخ ٧٤٢ م ، لم يذكر كما سترى ، اسم سعد بن أبي وقاص . والامر الذي يتفق عليه المؤرخون جميعا ، أن هذه الكتابة هي أقدم شهادة كتابية ، لدخول الاسلام في الصين ومن المذكور فيها ، أن هذا الجامع قد ابتدئ في بنائه في الشهر الثالث من السنة الاولى لعهد (تيانغ باو) (Ticu-pao) ٧٤١ م ، فتم في اليوم العشرين من الشهر الثامن في السنة التالية فكان الامام هناك ، بدر الدين ، وتشهد هذه الكتابة بأن الجامع ليس من مؤسسات ابن أبي وقاص ولا من الآثار الاسلامية قبل سنة ٧٤٠ م . وإذا سلمنا أن هذه الجوامع الثلاثة من مؤسسات رجل واحد ، فلا مندوحة لنا أن نسلم أيضا أن الجامع بكاتون ، كان بناؤه بعد بناء جامع (جانغ آن) . فؤسسه الذي مات بكاتون ودفن بها غير سعد بن أبي وقاص المعروف في تاريخ الاسلام ، وصاحب الضريح رجل آخر (لا يزال مجهولا عند المؤرخين) ، ليس له أية علاقة بعصر النبي (ص) ولا بعصر الخلفاء الراشدين .

ثالثا - أن الكتابة التي في جامع (جانغ - آن) لم تذكر اسم سعد بن أبي وقاص وكذلك جميع الكتابات القديمة . فمثلا ، الكتابة التي توجد في جامع (جوان شو) ، وقد كتبت ونقشت على لوحة من الحجر في سنة ١١٣١ م ، مع

أنها ذكرت بعد ظهور الاسلام في بلاد العرب وانتشاره الى الشرق . والكتابة التي في جامع (هانغ شو) ، بناه علاء الدين بين سنة ١٣١٤ و ١٣٢٠ م ، أيضا ساكبة عن سعد بن أبي وقاص . ثم الجامع الذي بكانتون قد أجريت فيه عدة مرات من التصلیحات والترميمات . مرة في سنة ١٣٥١ م ، اذ كان الحاج حسن تولى أمانة الجامع (وقد نصب شاهدا لهذه التصلیحات . غير أنه لم يذكر اسم سعد بن أبي وقاص .

والحاصل أن جملة الكتب التاريخية التي قبيل وجود أصل المسلمين ، و علوم الاسلام القومية ، و النسل من الغرب ، بقرون ، سواء كانت منقوشة في لوحات الأحجار ، أو مكتوبة في صدور الكتب ، لم تعرض لسعد بن أبي وقاص ولم تشر أدنى إشارة الى سفره الى الصين ولم يذكر لأول مرة الا في أصل المسلمين . (١٦٦٢ م) بدون إشارة الى مرجع أو مصدر . ثم في هذا الكتاب تجد أشياء كثيرة تذكرها العقول ، منها اجابة سعد بن أبي وقاص بالشعر الصيني للامبراطور حين سأله عن الاسلام وحقائقه .

وبناء على ما أوردناه من الأدلة والبراهين ؛ نقول موقنين أن صاحب الضريح في كانتون غير سعد بن أبي وقاص ؛ بطل القادسية . ومن الممكن أن أحدا من سماوا بذلك الاسم قد سافر الى الصين في أواخر القرن الثامن الميلادي . فثات هناك ودفن بها . ويظهر أنه كان زعيما من زعماء العرب المستوطنين في الصين وكانت له مكانة عظيمة لدى الامبراطور وفي أعين المسلمين هناك ، فلذلك كانوا ولا يزالون يعظمون قبره ، لكن نأسف أن التاريخ لم يخبرنا باسمه الحقيقي ، ولا نعرف هل يظل هذا الاسم مجهولا هكذا الى الأبد ؛ أو يصبح معلوما يوما من الايام في المستقبل .

ومع هذه الاختلافات في تاريخ وصول الاسلام ومع هذه الاختلافات في أول شخص جاء بالاسلام إلى الصين ، نقول مطمئنين ، أن وصول الاسلام ، بحرا أسبق من وصوله برا . لأن التجارة البحرية التي قد بدأت قبل النبي (ص) تساعد على إيصال الاسلام إلى وادي الصين التي كان العرب يترددون عليها ولو بصفة غير رسمية . وأما وفد العرب الذي وصل إلى عاصمة الصين ، رسميا فكان في

سنة ٦٥١ م ، كما أثبتنا ذلك سابقا عن المصادر الصينية . نعم لا نجد حديثا عن هذا الوفد في الكتب العربية القديمة ، لكن الخبر الذي وجدناه في «تاريخ شو» القديم والجديد ، بأن وفدا من العرب ، قد وصل إلى الصين في السنة الثانية لعهد «يونخوى» ، وهي توافق سنة ٦٥١ م ، لا يخالف الحقائق التاريخية . لأن السنة الحادية والخامسين بعد المائة السادسة للميلاد ، توافق سنة ٣٠ للهجرة في عهد عثمان (رض) (١) وقوة العرب العسكرية قد وصلت إلى أواسط آسيا ، من ناحية ، وإلى السند من ناحية أخرى ، (٢) . ثم الأحوال التي ذكرها هذا الوفد لدى امبراطور الصين ، عن بلاد العرب ، صحيحة على الأقل إلى ثمانين في المائة من الصحة . فكلية «أمير المؤمنين» ذكرت لأول مرة في الكتب الصينية في صورة محرفة إلى (Kami momnie) فقال أعضاء الوفد أن ملكهم يقال له «أمير المؤمنين» وحكومتهم قد أسست منذ ٣٤ سنة . وأما الآن فعلى العرش الملك الثالث (٣) . وأما قوله (منذ ٣٤ سنة) فلعل ذلك ، أما من الاغلاط الطبيعية في «تاريخ شو» ، وأما لحن من المترجم الذي قام وسيطا للتفاهم بين الوفد وامبراطور الصين . لأن الكلمة الصينية التي تقابل «ثلاثين» في العربية هي «سان شيه» . فاذا لحن المترجم في القطعة الثانية من الصوت أى في «شيه» ، فليس بعيدا أن تصبح «سان شيه» أى «أربعة وثلاثين» . فأثبت في تاريخ «تاريخ بكلمة «سانشيه» سى» بدلا من كلمة «سان شيه» . وهذا محتمل قريب في جميع الشهادات التاريخية غير انى لا أصر على صواب رأى هذا ، ان ظهر دليل جديد على هذا الخطأ التاريخى فبناء على ما ورد في «تاريخ شو» القديم والجديد ، فيما يتعلق بوصول الاسلام الى الصين بحرا وقد حقق هذه القطعة مستشرق كبير هو الاستاذ (براش فاندنر) انى على جانب من الثقة التى يؤكد بها التاريخ والواقع فى اصدار حكم على هذه

(١) انتخب عثمان (رض) خليفة ، غرة المحرم سنة ٥٢٤ - ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م

(2) Ameer Ali : Short History of Saracens . p . 47 . ;
Gibb : P . 15 .

(3) Breitschneider: P . 8 . ; Ancient Ghina 's Relations with
the Arabs . pp . 9 & 46 .

المسألة التاريخية الى اختلف فيها كثير من الباحثين ، بسبب اختلاف الأقوال التي وجدت في المصادر الصينية ، بأن أقول : أن الاسلام قد وصل إلى الصين بحرا بصفة رسمية في سنة ٥٠٠ م . وأصر على ابقاء هذه النظرية ، مادنا لم نثر على شهادات تاريخية أقوى مما ذكرناه فيما تقدم . وأقول أيضا أن هذا الوفد لم يكن له علاقة بالجامع الذي بجانغ - آن أو بكاتون . لاننا نعتقد أنهم امن مباني السنوات المتأخره عن زمن الخلفاء الراشدين .

ومعنى هذا أن وصول الاسلام إلى الصين بحرا ، أسبق من وصوله برا ، عن طريق تركستان بست وستين سنة هجرية ، أو أربع وستين سنة ميلادية . لان فتح قتيبة بن م . لم لمدينة كاشغر ، كان في سنة ٩٦ هـ - ٧١ م .

وكانت السنة الحادية والخمسون بعد المائة السادسة لليلاد ، أو السنة الثلاثون للهجرة ، هي فاتحة الوفود بين العرب والصين وبين البلاد التي كانت تحت حكم العرب حتى آخر عهد منغ . (Miug) . وكل ذلك سنينه في باب العلاقة الدبلوماسية أن شاء الله تعالى .

وأما انتشار الاسلام في موازء الصين في الفرون الأولى للهجرة ، فكان ذلك يرجع إلى فضل التجار العرب الذين منهم من أقاموا هناك إلى وقت معلوم ، ثم رجعوا إلى أوطانهم ، منهم من استوطنوا في الصين حتى آخر يوم في حياتهم . نعم أن التاريخ لم يحدثنا عن حياتهم الدينية في الفترة التي بين سنة ٦٥١ م وسنة ٨٥١ م ، لكن وجود القبور للعرب وجامع الذكرى للنبي (ص) بكاتون ، يشهد على أن عدد المسلمين بتلك المدينة لم يكن قليلا . وهذا الجامع القديم ، ولو أننا لا نجد سبيلا إلى معرفة من بناه ، وفي أي سنة بنى ودل هو أقدم من مسجد (جانغ - آن) ، أو الذي بجانغ آن ، أقدم منه ، لكن الرأي المدقول ، أن تاريخ بناءه لا يبعد كثيرا عن تاريخ بناء المسجد الذي بجانغ - آن ، سواء أكان ذلك قبله أو بعده ، وفي الشطر الأول من القرن التاسع الميلادي لما سافر سليمان السيرافي إلى كاتون (خانفو) للأعمال التجارية ، وجد بها كثيرا من المسلمين ، يولى عليهم القاضي منهم ، مأمورا

من صاحب الصين فإذا كان العيد، صلى بالمسلمين وخطب، ودعا لسلطان المسلمين^(١)

ونفهم من هذا القول، أن حياة المسلمين هناك من الناحية الدينية، أصبحت منظمة في الشطر الأول من القرن التاسع للميلاد، وكانت حالها كما هي في الممالك الإسلامية الأخرى.

ويظهر من عمارة الجامع، أن المسلم الذي بنى هذا المسجد، بناه على شكل هيكل الصينيين لأننا لا نجد أى فرق بين عمارة المسجد وعمارات الهيكل الصينية الأخرى في الشكل الظاهري. وأما المنارة التي نراها قائمة بجانب المسجد، فلا شك أنها شيء خاص بالعمارة العربية، لكن بنائها لم يكن في وقت واحد مع بناء المسجد. ويقول الدكتور كار Dr. Kare في دليل كاتون: : أنها بنيت في سنة ٩٠٠ م على التقريب. وكانت هي الجزء الباقي الذي لم تصبه النار، إذ كانت تذهب بعمارة المسجد كلها إلى بطنها في سنة ١٣١٣ م^(٢).

بنيت للمرة الثانية بين ١٣٤٩ و ١٣٩١ م بعد حادثة النار، بحكم الأمير محمود حاكم كاتون حينذاك. وكان الامام هو الحاج حسن فبكان من الذين اشتركوا في هذا العمل الخيري والدين سيد ميش التركي الاصل وكان من أمراء كاتون فنصبوا لوحة حجرية نقشت فيها أعمالهم الخالدة مع ذكر تاريخ تجديد البناء. وهذه اللوحة لا تزال باقية في الجامع حتى الآن في حالة جيدة. فنقل عباراتها، مؤلف علاقة الصين القديمة بالعرب، في كتابه وكذلك مؤلف الدراسات عن تاريخ الإسلام في الصين^(٣).

جددت الترميمات في هذا الجامع في سنة ١٤٦٩ م، في عصر (منغ)، على

(١) سلسلة التواريخ ص ١٤

(2) Broomhall: P. 110.

(3) Ancient China's Relation with the Arabs, P. 87.

Studies on the History of Islam in China. P. 53.

(١١)

نقعات مسلم كبير موظف بكانتون ، معروف باسم (هونغ يونغ) في تاريخ الصين . وكان وفد من العرب قد وصل الى كانتون في هذه السنة برئاسة عبد الله فقدم الهدايا الى امبراطور الصين وبعد الانتهاء من مهماته الرسمية ، عاد مع رفاقه الى كانتون فاختاروا سكنهم بداخل هذا المسجد . وبعد أيام قليلة أصبح عبد الله هذا زعيما لأخوانه المسلمين في تلك المدينة .

وأما مقبرة العرب التي في كانتون ، فهي واقعة بخارج باب الشمال على نصف ميل ، فيها أكثر من أربعين قبرا . ومبانيها على الطرز العربي كما هي الحال في البلاد الأخرى من الممالك الإسلامية . وقد ضربت عليها القباب التي تشير بلسان حالها الى أن أصحاب تلك القبور ، كانوا من ذوى الميكنة العالية في عصورهم . وبين هذه القبور ، قبر ينسب الى سعد بن أبي وقاص ، وهو في الحقيقة لغيره كما أثبتنا ذلك آنفا .

وهنا قد حاجى محمود ابن الحاجى محمد افندى الرومى الذى زار هذه القبور في اليوم العشرين من ذى القعدة ، من السنة الرابعة بعد الف ومائة وستين للهجرة (١٧٥١ م)

وكان انتشار الاسلام في عهد (تانغ) لم ينحصر في مدينة كانتون . بل توغل الى مدن أخرى ، منها جزيرة (هاى نان Hainan) المراجعة لولاية (كوانغ تونغ) . وقد استولى الصينيون على هذه الجزيرة قبل الميلاد بقرنين على الأقل . لكنهم لم يهتموا بها من الناحية التجارية والسياسية حتى أوائل القرن السابع الميلادى فقسمت في سنة ٦٢٧ م ، الى ثلاثة مديريات فعين على كل مديرية رئيسا يدير شؤونها وفي سنة ٧٨٩ م زيد فيها رباط عسكرى .

وأما العادات والمهجات في هذه الجزيرة ، فهي تختلف كثيرا عن أهل الصين حتى عن سكان كوانغ تونغ مع أنهم أقرب الناس مجاورة لهم . فالسكان في هذه الجزيرة من أصحاب الصدق والوفاء يجتهدون في العدل والكسب ، ويتحملون ضروب الألوان من التعب والمشقة . ويشتغل أكثرهم في صيد السمك . نعم

لا يوجد فيهم غنى كبير أو مشر عظيم ، غير أنهم رجال اقتصاد في المعيشة ومن ذوى الاعتدال في النفقات فلذا لا ترى فيهم فقيرا ولا متدولا حتى في السنة السوداء (١)

هذه الصفات الحميدة التي رويت عن أهل (هاى نان) في الكتب والابحاث، قد تكون من أثر الاسلام الذى وصل هناك بوساطة اتجار العرب في عهد (تانغ). لان الكتب القديمة تشهد بوجود تجار العرب في هذه الجزيرة. ففي بعض الاحيان تعرضوا فيها للصوص البحر ونهبت أموالهم.

وفي الكتب الصينية القديمة توجد بعض الاسماء لهؤلاء اللصوص ، منهم «جن ووجين» من سكان (جن شو Tsisnchow) وهى غاى مين الآن. كان هذا اللص يملك ثروة عظيمة وعد من أغنى الناس في الجزيرة وكانت عنده مخازن قد ملئت من قرون كركدن والعاج وغيرها من البضائع الثمينة. وكان أصل ثروته من تجار العرب ، وذلك أنهم لما كانوا غرقى في البحر ، وضع يده على أموالهم ولقد روى في بعض الكتب الصينية ، أن سكان تلك الجزيرة كانوا يعرفون السحر . فتجار العرب أو المسلمين الذين كانوا يتاجرون في بحر الصين ، لما ضلوا سبيلهم في البحر بسبب العاصفة أو الطوفان ، يرسون مراكبهم في ساحل (جن شو) فصعد هذا اللص الى جبل قريب ومنع مراكبهم من الخروج بوسيلة السحر الذى عرفه ، فنهب أموالهم فأصبح عندئذ غنيا (٢)

ويقول مؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب» في موضع آخر وهو ينقل عن تذكرة غزوات (تانغ تانى هاو) الى الشرق ، أن (هانىوفانغ) وكان لصا مشهورا في عصر (تيان باو) ، كان ينهب عادة ثلاث سفن إيرانية كل سنة فأخذ ما فيها من البضائع والأموال والجوارى وذهب بها الى القرى بشمال المدينة على مسافة ثلاثة أيام ، أو الى جنوبها على مسافة خمسة أيام (٣)

(1) Ency. Brit. Art. Hainan

(2) Ancient China's Relation with the Arabs. P. 99.

(3) Ancient China's Relation with the Arabs . P. 99

فهم من هذه الأقوال ، أن العرب والایرانیین- وهم مسلون بدون شك- ، قد
وصلوا إلى (های نان) فی عهد (تانغ) بفض النظر عما أصابهم من الغرق والنهب
وما إلى ذلك من المصائب والآفات

و يوجد فی کتاب « جو فانکی » ما یأتی أن الصينیین قد أنشأوا معبدا لربان
مسلم فی جهة الشرق من مدينة (غای شو) لیصلوا فیہ . والیہ یأتی أصحاب المراكب
لیقدموا الذنور لروحہ ، إذا مروا هناك . ویقال لهذا المعبد ، بیجوتوکان میو ،
قال الاستاذ هيرت وهو یستند الى مدونات كانتون الرسمية بأن فیها ذکرا عن معبد
یقال له جواين میو Chao Yin Miao والمعبد فیہ هو بیجو آئی الربان وهذا
المعبد معروف بین الایالی بمعبد المعبود الاجنبی . ولحم الخنزیر محظور فیہ التذکر (١)
ویقول مؤلف علاقة الصين القديمة بالعرب أن هذا المبد علی ٣٥ میلا
من المدينة بجهة الشمال الشرقی علی خور یسمى بحیره نیلوفر . فالمعبود الذی یقدسونه
هو ربان ، و فی سنة ١٣٧٠ م فی عهد الامبراطور (هونغ - وو Hung · Wu)
رفع درجة هذا المعبود إلى درجة آلهة المیاء ، وحظر لحم الخنزیر فیہ قربانا . فکأن
أصحاب السفن یأتون إلى هذا المعبد ، يقدمون القرابين والذنور وهو مشهور الآن
بمعبد الربان الاجنبی .

قلت فیما سبق أن الصينیین یعتقدون بأرواح الصالحین ، وأثرها فی دفع الآفات
وتحقیق السعادات ، فیبتشئون المعابد والیها کل لها ویقربون لها القرابين ویذرون
لها الذنور . فلیس عجیبا أنهم قد بنوا هذا المعبد لربان کبیر من العرب ، مات
هناک لیعبدوا روحه تقربا وتفؤلا كما یفعلون مع السید الاجل فی ولاية یوننان .
والدلیل علی أن الربان کان مسلما ، هو حظر لحم الخنزیر فی الذنور والقرابين .
والحقیقة أن لحم الخنزیر فی الصين من قديم الزمان إلى الآن ، یعد حدا فاصلا بین
المسلم وغير المسلم . فالمسلم الصينی یتجنب هذا الشئ الخبیث کل الاجتناب ، بل ینکره النظر
الیه ویظهر أن کراهة لحم الخنزیر أمر غیر خاص بالمسلمین الصينیین بل ینتظم جمیع

(1) Chao Ju Kua : P. 188 .

المسلمين في جميع الاوطان لان دينهم يحرمه، وقد نعى ابن بطوطة على الصينيين عرضهم لحوم الخنازير في الاسواق واليوم نجد في (غاي شو) قبيلة أجنبية الاصل وقد روى أن آباءهم وردوا هناك في عهد سونغ (٩٦٠ - ١٢٨٦ م) وعهد يوان (١٢٧٧ - ١٢٦٧ م) من خليج فارس في المراكب، فاستوطنوا في سواحلها والذين يسكنون بسوسانيا، كلهم من ذريات أولئك الأجانب، ويلقبون في أسمائهم بأبي فلان ويحظرون لحوم الخنزير على منازر أرواح آباءهم، كما هو الحال في بيوت غير المسلمين ولهم معبد عام يصلون فيه ويتعبدون، فبيئاتهم الجسمانية وأصواتهم اللسانية كلها تشابه العرب غير أنهم قد تعودوا بعض عادات الأهالي فترام يتغلبون في صيد الأسماك ويخرجون عشاها، ومنهم من يملك عقارات عظيمة نتيجة اجتهاده وكسبه، وهم في الزواج لا يجتنبون أهل القبيلة وإنما يحظرون الزواج من المحارم. ولا يتزوجون من غيرهم، ولا يتزوج غيرهم منهم، يقطنون بالامكنة الساحلية، يهب عليهم الريح دائما، وأما بيوتهم - سواء كانت خصوصية أو عمومية -، فليست من مبان عالية فالعوام منهم يسكنون الاكواخ، وأما الادارات فمن هذه الاكواخ أيضا. فمن يسكن بقرب الماء؛ يصيح في الامواج ويمسى في العواصف، وأما الذين يبعدون عن الماء فمساكنهم من أكواخ حقيرة، والامراء منهم لا يتزوجون في الزخارف والزينات، بل يقنعون بمنازل قوية البناء متينة الاركان وفي (غاي شو) ست لهجات منها لهجة أجنبية يتكلم بها أهل سوسانيا (١)

نجد في (غاي شو)، الآن، نحو ألفى عائلة من المسلمين، أكثرهم أجناب باعتبار أصلهم، وبها أربع مساجد جوامع يجتمعون فيها أيام الجمع والاعياد. ولا شك أن دم العرب لا يزال يجري فيهم مع اختلاطهم بالسكان الأصليين. وأعتقد أنهم من أهل سواحل عمان أو من حضر موت. لأن اليمانيين كانوا يحبون ركوب البحر ولهم عائلات في سائي غون حتى الآن (٢)

(1) Ancient Chinese Relation with the Arabs . P. 100

(٢) سائي غون Saigon ميناء كبير شهير ببلاد آنام التي يقال لها الهند

إن الإسلام قد وصل إلى (جوانشو) وإلى (يانغ شو) وإلى (هانغ شو) أيضا. وكان ذلك على أغلب الظن قد وقع في عهد (تانغ). لأن هذه المدن، كانت من الموانئ الشهيرة التي قد فتحت أبوابها لتجارة العرب والایرانیین منذ القرن الثامن الميلادي غير أننا نجزع عن الاتيان ببعض التفصيل للحالة الدينية في هذه المدن في ذلك الوقت وذلك لعدم الأدلة المكتوبة في تاريخ الصين القديم. وأما ما ذكر في «تذكرة فوكين»، وتاريخ «منغ» عن وصول الإسلام إلى (جوانشو) و (يانغ شو) في السنة العاشرة للهجرة، فليس من البيان الصحيح، كما أشرت إلى ذلك من قبل. لأن وصول الإسلام إلى الصين، قبل تعميمه في بلاد العرب نفسها وقبل انتشاره إلى سواحل الهند، إن لم يكن مستحيلا، فعلى الأقل من غير المقبول عقلا. ومع هذا، أعتقد أن وصول الإسلام إلى تلك الموانئ في أيام متأخرة من عهد (تانغ) يكون من أمور واقعة يؤكدها تاريخ (سونغ - ٩٦٦ - ١٢٧٦ م). أنك تجد الحديث عن وجود المسلمين بجوان شو، في عهد (سونغ)، في «تذكرة جوانشو»، وكان من بين أشهر المسلمين، أبو الشوقين، وهو من العرب الذين وصلوا إلى الصين واستوطنوا بكاتون للتجارة. فانتقل أبوه إلى (جوانشو) في آخر القرن الثاني عشر للميلاد، وبناء على ما ورد في «تذكرة جوانشو»، أن أبا الشوقين مع أخيه الأصغر كانا يشتركان في تأمين سواحل فوكين، حين كثرت لصوص البحر فيها وهددوا سلامة أموال التجار وحياتهم. فترقى بسبب هذه الخدمة الجليلة، إلى منصب مراقب سواحل فوكين. ثم إلى منصب أمين الامور البحرية على ولاية (كانغ تونغ) و (فوكين) وهو منصب مراقب عام على السفن والمراكب (١).

في «جوفانكي»، أو «التذكرة عن البلاد الأجنبية»، نجد بيانا عن مسلم آخر استوطن بجوان شو، فيما يلي - «كان تاجرا معروفًا باسم السيرافي، أصله من بلاد العرب واستوطن بضاحية جنوب (جوان شو) وكان ذا ثروة عظيمة

(1) Ancient China's Relation with Arabs. p. 234

مطلق الدين ، فاعل الخيرات ، ساهرا على المسكارم التي امتاز بها قومه . فاشترى أرضا ووقفها لمدافن مواطنيه الذين قد لقوا حتفهم بهذه الديار الغربية فدفعوا فيها ^(١) ،

فلنفرض أننا لم نجد هذه البيانات في السكتب الصينية ، شهادة على وصول الاسلام إلى تلك المدينة في ذلك الزمان . إذن فمن يستطيع أن ينسكرو وجود الجامع الطاهر الذي أنشئ في سنة ١١٢١ م بجوان شو . ألا يكفي هذا الجامع دلالة على كثرة المسلمين بتلك المدينة العظيمة ، في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ؟ لقد قام هذا المسجد في ضاحية الجنوب التي كانت مستوطنا لتجار العرب وإيران وتوجد فيه لوحة حجرية مكتوبة بيد عالم اسمه ، ووكان ، . ويقول مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، - « أن ووكان ، كان عالما من علماء يوان ، عاش في عهد (كي جينغ Ki-Cheng ١٣٤١ - ١٣٦٧ م . فانه قد ترك كتابا في تفهيم البلدان في عشرين جزءا . وأما ووكان فذكر في هذه اللوحة التذكارية بعد بيان وجيز عن حالة الاسلام في بلاد العرب قائلا : « أن نجيبا مظهر الدين جاء في مركب تجارة من سيراف إلى (جوانشو) في سنة ١١٢١ م) فأنشأ مسجدا بضاحية جنوبها واشترى الاراضي ووقفها للمسجد وعمره بالصلاة والعبادات حتى زمن متولى أحمد الذي غفل عن واجباته وترك المسجد خرابا حتى سنة ١٣٥٠ م . قدم في هذه السنة ، خضر ، رئيس محكمة (فوكين) ، فدعا إليه شيخ الاسلام برهان الدين والخطيب شرف الدين وجماعة من المشهورين . فسألهم عما يشكون منه . فدكروا له تخريب المسجد وعدم اهتمام الناس بأمر الدين . فوكل تارو خواجه الذي قدم من طوغان أن ينظر في هذا الأمر فاجتمعوا وتبادلوا الرأي فاختراروا لإصلاح ما خرب من المسجد . ففرح الناس جميعا سراء أكانوا من طبقة العوام أم من طبقة الخواص . فكان بتلك الضاحية مثر عظيم معروف باسم علي من عائلة (كين) فأخذ علي عاتقه جميع النفقات اللازمة لأعمال الترميم . فتم الأمر والله الحمد .

(1) Chao Ju-Kua : p. 199.

ويقول (وكان) في آخر الوحة التذكارية - « أن برهان الدين قد بلغ ١٢ عاما من العمر وكان عالما عميقا في العلم ، حسن المعاملة ، قوى الجسم ، كرجل في مستقبل العمر . وكان رئيسا دينيا بالجامع وأما المتولى فهو أحمد (١) .

لقد زار هذا الجامع ، ابن بطوطة ، فاجتمع فيه بأكابر العلماء المستوفين بمدينة (جوانشو) مثل تاج الدين الأردوبلي وكال الدين عبد الله الأصفهاني وبرهان الدين الكازروني . ومن قوله أن كال عبد الله هو شيخ الإسلام ، وشرف الدين التبريزي من كبار تجارها وبرهان الدين من مشايخها الفضلاء) وأما ترمم المسجد فقد وقع بعد رجوع ابن بطوطة بعدة سنين فقط .

ومن المدن التي دخلها الإسلام في عهد (تانغ) مدينة (جانغ - آن ، عاصمة الصين حينئذك ، فتاريخ العرب شاهد على ذلك مع غصن النظر عما جاء في الكتب الصينية ، فالبعثة التي بعثها قتيبة بن مسلم الباعلي إلى عاصمة الصين برياسة هبيرة بن مشورج ، في سنة ٧١٥ م - ٩٦ هـ ، من الحقائق التاريخية التي اتفق عليها جميع المؤرخين . وقد ذكرتها بالتفصيل في باب العلاقة السياسية ولا حاجة بي إلى إعادة ذكرها هنا . وأما الكتب الصينية فقد ذكرت وصول وفد العرب رسميا إلى (جانغ - آن) في سنة ٦٥١ م . فقالوا للإمبراطور أن حكومتهم قد أسست منذ ٣٤ سنة وعلى العرش الملك الثالث الآن . وذكر (تانغ شو الجديد) ، أن وفدا آخر من العرب وصل إلى عاصمة الصين في سنة ٧١٣ م .

وأق بالجياد والخيول والسروج الجميلة ، هدايا إلى الإمبراطور (بونغ جونغ) فلما ملوا بين يديه رفضوا أن يسجدوا له بحجة التعظيم ، كما كان الوفود من البلاد الأخرى يفعلون ، متعلمين بأنهم لا يعبدون في بلادهم إلا الله القهار . وكان وزير المراسم يميز من الغيظ وهم بقلهم ، لكن وزيرا من وزراء الدولة تقدم ، وشفع

(١) تستعمل كلمة (متولى) في الهند وإيران في معنى (مدير المسجد)

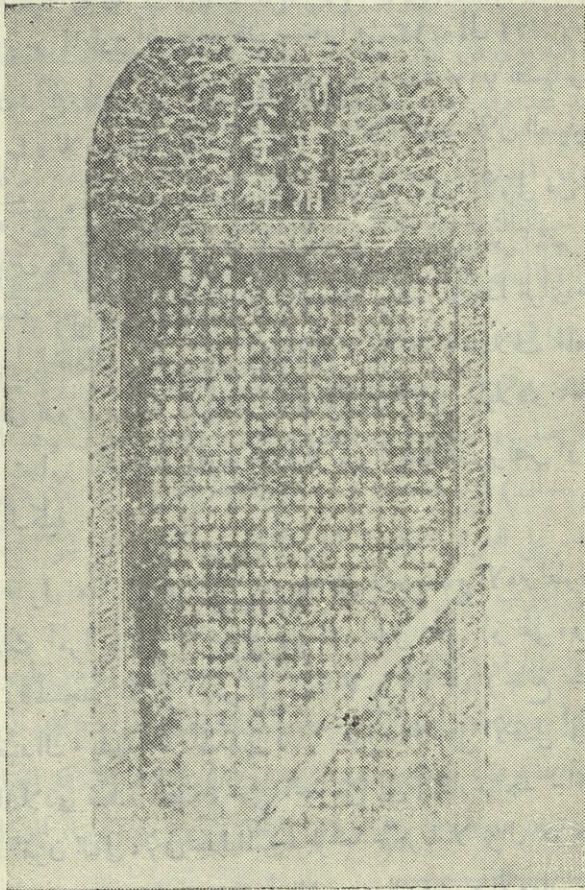
وهو المراد هنا .

لهم بحجة أن آداب الدولة تختلف باختلاف الامم فلا ينبغي أن يعتبر رفضهم
 للرسول الامبراطور، ذنباً من الذنوب التي يعاقب عليها بالقتل في بلاد الصين (١).
 ويرى المحققون في تاريخ الصين، أن الوفد الذي وصل إلى عاصمة الصين سنة
 ٧١٣ م كما ذكر في «تاريخ شو الجديد»، هو الوفد الذي بعثه قتيبة بن مسلم في سنة
 ٧١٥ م. لأن «تاريخ شو الجديد» ذكر وصول هذا الوفد في «أوائل عهد كاتي
 وانغ». ومن المعلوم أن عهده كان مستمرا من ٧١٣ إلى ٧٤١ م. فعنى «أوائل
 عهد كاتي وانغ» ليس من الضروري أن يراد به سنة ٧١٣ نفسها ومن الممكن
 أن يراد بها «ثلاث السنوات الاولى» من هذا العهد. لأن الصينيين إذا قالوا في
 «أوائل الشهر»، فالمراد منه عادة، هو «الايام العشر الاولى من الشهر». وعلى
 هذا القياس يكون تعبيرهم في «أواسط الشهر» أو «أواخر الشهر». وهكذا
 يكون اصطلاحهم في الامور التي تتعلق بالزمان. ويظهر أن هذا الرأي مقبول عند علماء
 التاريخ على اختلاف جنسياتهم وطبقاتهم، ثم أن اختلاف المصدرين الصيني
 والعربي في تدوين واقعة تاريخية تتعلق بالقرن الثامن الميلادي، هذا الاختلاف
 الذي لا يتجاوز سنتين، لا يكون اختلافا كبيرا يجب أن يرفض أو ينسب الى عدم
 الصحة بالكلية.

وبوصول هذا الوفد، بلغ صوت الاسلام مسمع الامبراطور وأهل العاصمة
 وكان ذلك أمرا بدهيا لا يحتاج إلى أي دليل عقلي أو نقلي، ولولم تكن هذه
 الوفود، فالمسجد الذي أسس في سنة ٧٤٢ م، في (جانغ - آن) عاصمة
 الصين حينذاك، يشهد بأن المسلمين قد وصلوا هناك على الأقل في أواخر القرن
 السابع الميلادي فكثير عددهم حتى احتاجوا إلى إنشاء مسجد جامع لصلواتهم في
 منتصف القرن التالي، وفي هذا المسجد لوحة حجرية لا تزال موجودة بالحروف
 المنقوشة فيها. وإن كانت لا تقرأ إلا بعد التدقيق والامعان. ألا أنها دليل
 على ما تقول.

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 46.

وأكثر المؤرخين ينسكرون صحة النصوص الموجودة في هذه الكتابة التاريخية فينسبوننها إلى اختراعات الأيام المتأخرة عن تأسيس المسجد بقرون . وذلك بناء على عدة أدلة عليية . وهذه صورة فوتوغرافية لهذه الكتابة التاريخية الموجودة في جامع (جانغ - آن) باللغة الصينية طبعا . والآن نحاول أن نحقق هذه الكتابة ونحللها بعد نقل معانيها إلى اللغة العربية .



أقدم كتابة (Inscription) إسلامية باللغة الصينية منقوشة في الحجر .
يقال أنها كتابة تذكارية لتأسيس جامع (سي - آن) سنة ١٧٤٢ م

- ١ - صدر الكتابة : و تذكر لتأسيس المسجد ،
- ٢ - السطر الأول من اليمين ، و كتابة التذكار لتأسيس المسجد ،
- ٣ - السطر الثاني من اليمين : إختار نصوص الكتابة (وانغ كونغ) Wang Kung
الدكتور في القانون ، ورئيس إدارة المالية والاحصاءات .
- ٤ - وأما نصوص الكتابة فكما يلي :

و الذي لا شك فيه إلى الأبد ، هو الحق ، والذي يحس به في كل وقت هو القلب . فكان الانبياء متفقين على الحق باتفاق شعور قلوبهم ، فيجمعون على عدم التصديق للمشرك وإن اختلفت عصورهم ، أما الانبياء ، فقد بعثوا في كل مكان ، فيعرفون بتأكيدهم لكلمة الحق ودعوتهم إلى فهمه بالعقل ، ومن المعلوم أن ظهور محمد النبي العربي (ص) قد وقع في بلاد العرب ، بعد (كانفوشيوس) بزمن بعيد وفي مكان قاص ، في بيئة غريبة ، ولغة غير مفهومة عندنا . لكن ما هو السبب الذي جعلهما متحدين في المبادئ ، وما هو الداعي الذي قد دعا إلى توافق تعاليمهما إنما ذلك هو اتحاد شعور القلبين ، في رفع لواء الحق كما متفقين . لقد صدق القائل في سالف الزمان - إذ قال أن قلب الانبياء لا يختلف بكثرة الأشخاص ، والحق لا يتفاوت بتفاوت الأزمان .

لا ريب أن زمنه قد مضى ، وشخصه قد فنى : لكننا نعرف من الكتاب والاحاديث أنه ولد عالما على خوارق للعادة ، عارفا بدقائق ما تحت الأرض وما فوق السموات ، وحقائق التخليق وأحوال الكائنات ، مطلعاً على أسرار الحياة والممات ، ضليعاً بمعلومات عن فوائد طهارة الابدان ومبادئ تربية الاخلاق ، فيعلم الناس قتل النفس الامارة بالصوم ، وإظهار الاخلاص بايفاء العهود ،

وقهر الشهوات بأفعال الخيرات، وتطهير القلوب بشعور مصير المخلوق، والتعاون
بالزواج والتعاطف بالاشترك في الأحزان والمآتم

حاصل الكلام أن شرن الحياة، كبيرة كانت مثل مسائل الاخلاق،
أو صغيرة مثل حركات المسآكل والمشارب، كلها موضوعة في نظام مقيدة بحكم
ديني، نظرا إلى الخوف من غضب الله ورجاء رحمته.

نعم هناك بعض التفاصيل يتفرع من هذا التعليم، لكنها تسوق إلى غاية واحدة
إجلالا لله خالق الكائنات والموجودات، كفى بهذا الدين الذي لا يدعو إلا إلى
كلمة الوحدة، ويرشد العقول إلى فهمه، فإن أصوله توافق قول الامبراطور (يو—Yao)
« هلاوا للسماء الاعلى » وقول الامبراطور (شانغ Shang) أصلحوا أمور دنياكم
بالعبادة، وقول (وين وانغ - Wen Wang) « إنما العبادة للخالق، وقول
(كانفوشيوس) « أين الدعاء من إغاظة السماء »، فواضح أن هذه الأقوال من
منبع واحد، فإن الانبياء يتحدون في الشعور والايان

ولا يخفى على القارىء أن إيمان الانبياء لا يتفاوت، وشورهم لا يتباين، فتجد في
تعليم أحدهم تعاليم الآخر، غير أن تعاليم محمد (ص) التي شاعت في بلاد العرب،
لم تكن مسموعة عند الصينيين، فوصلت إلى الصين في عهد (كائ وانغ)، ثم
انتشرت في جميع أرجائها حتى عهد (تيان باو - Tian Pao)، فلما رأى دين النبي
العربي (ص) يتفق مع ديانات وحكام الصين في إرشاد الناس إلى صراط مستقيم،
أمر رئيس المهندسين واسمه (لوتيانجو) في عمل الترتيب لنأسيس مسجد يجمع شمل عامة
المسلمين، كما أمر بدر الدين أن يدير أمور الدين فيه وهو عالم ضليع بالعلوم،
فقبل وظيفة الإمامة في المسجد للجماهير في الصلاة والعبادة

لقد بدأ العمل في يوم مبارك من الشهر الثالث في السنة الأولى لهمد (تيان
باو) وشم بناؤه في اليوم العشرين من الشهر الثامن، ثم اقترح الامام بدر الدين
نصب لوحة حجرية تخليدا لذكرى هذه الاعمال الخالدة لكيلا تكون نسيا نسيما

بمرور الزمان ، ولكي يستطيع الباحثون أن يهتدوا الى معرفة أحوالها السسابقة
وحقيقةها الغابرة

منصوبة في فصل الخريف سنة ٧٤٢ م

ويقول الذين ينكرون أصل هذه الكتابة ، أن هناك عدة دلائل في الكتابة
نفسها ، تدل على عدم صحتها

أولاً: أن نصيرص الكتابة تدعى دخول الاسم - لام في الصين في عهد
(كائى وانغ) أى بين سنة ٦٠١ و ٥٨٩ م ومنى هـ - أن الإسلام قد
دخل الصين قبل النبوة^(١) وهذا مستحيل . لأنه يخالف الواقع والحقيقة ، وهذا
رأى مارشال بروم هال .

وثانياً: أن كلمة تيانفان المذكورة في هذه الكتابة وتاريخ الصين يشهد بأن هذه
السكلمة لم يستعملها في معنى بلاد العرب إلا كتاب عصر (منغ Ming ١٢٦٨ -
١٦٤٢ م) لأن العرب كانوا معروفين في تاريخ (تانغ) باسم (تاشى) وهى كلمة
محرفة عن تازى الفارسية . وتعرف بلاد العرب في عهد (يوان) باسم (بلاد تيان
فان) أى بلاد السكبة ، وعلى هذا يعتقد الدكتور ديريه Deuérie أن تاريخ هذه
الكتابة لا يكون أقدم من ١٣٥١^(٢) .

ثالثاً: أن عبارة الكتابة من ناحية الأسلوب لا تشابه الأسلوب الذى كان
شائعاً في عصر (تانغ) وكبير من كبار المؤرخين قد حقق عبارات هذه الكتابة
فلم يجد فرقاً بين أسلوبها وبين أسلوب الأدياء في عصر (سونغ) ثم ترجمة صوتية
على أقرب الصوت لكلمة محمد ، تدل على أنها من صناعة أهل عصر (منغ)
(١٣٦٨ - ١٦٤٢ م) ومن رأى هذا العالم أن العبارة الموجودة في الكتابة
غير العبارة الأصلية ويعتقد ذلك الى درجة اليقين غير أنه يقول من: - الممكن أن
لوحة التذكار قد نصبت في سنة ٧٤٢ م ، ولها عبارة أصلية كتبها الدكتور (وانغ
كونغ) غير المكتوبة الآن لأن ترجمة الدكتور المذكور توجد في تاريخ الصين

(١) سنة النبوة ١١٠ م

(٢) الإسلام في الصين لمارشال بروم هال ص ٨٨

هذا العهد وكان من الابداء البارزين وإنما وقع التغيير في الكتابة وكان ذلك بمحو العبارة الأصلية من اللوحة في عصر (منغ) إذ كانت الترميمات والتصليحات قد أجريت في المسجد من حين لآخر، فوضعت في محلها عبارة أخرى لاهل هذا العصر ثم نسبت الى الدكتور (وانغ كونغ) كما كانت وكذلك أبقوا تاريخ التأسيس كما كان فلذا نرى أن الكتابة الموجودة تغير أسلوب عصر (تانغ) مع أنها منسوبة الى هذا العصر واسم الدكتور (وانغ كونغ) لا يزال منقوشا في لوحة التذكار وكذلك تاريخ التأسيس

هذا رأى الأستاذ (جين يوان) أستاذ التاريخ في جامعة بكين

ولا شك أن الترميمات قد وقعت في هذا المسجد التاريخي عدة مرات وقد سجلت هذه الترميمات وقائع شنس الرسمية في السنين الآتية

أجرى ترميم هذا المسجد لأول مرة في سنة ١١٢٧ م في عهد (سونغ) على نفقات الأمير عبد الله، وللدة الثانية والثالثة في عهد (يوان). فكانت لإحداها على نفقة السيد الأجل في سنة ١٣١٥ م، وأما المرة الرابعة فكانت في عهد (منغ) إذ كانت الصين تحت حكم السلطان (هونغ - وو : Hung-wu) على نفقة الحاج جهان الخصى الشهير عند هذا الإمبراطور.

ولوقوع هذه الترميمات في عصور مختلفة، يميل كل باحث في نصوص هذه الكتابة التاريخية إلى الاعتماد بأن التغيير قد وقع في عبارة الكتابة الأصلية ولعلها في المرة الثالثة أو المرة الرابعة. قال ديسوتيرسان دابري، صاحب «المحمدية في الصين، باللغة الفرنسية» - «أن هذا المسجد كان يحمل أسماء شتى في عصور مختلفة. وبناء على رأيه وهو يتكلم عن المراجع الصينية بدون ذكر اسم الكتاب أو اسم المؤلف، أن هذا المسجد يسمى باسم «تسنغ جوتزي أي معبد الدين الطاهر. ثم غير إلى اسم «تانغ منغ تزي - 堂明寺، أي

معبد النور المشرق. سكن السيد الأجل الذي رمم هذا المسجد في سنة ١٢١٥ م، بإذن الإمبراطور، بـ بدل هذا الاسم إلى «تسنغ جوتزي

أى معبد الدين الطاهر الحقيقي . ولأن الكتابة تحمل الاسم الأخير في صدر
سطورها ، ذهب المارشال بروم هال إلى ترجيح أن لوحة التذكار نفسها قد نصبت
في سنة ١٣١٥ م .

وأني لأرى أن رأى الأستاذ جين بوان ، أستاذ التاريخ في جامعة بكين
أقرب إلى الصواب . لأن وقوع الصينيين في الاغلاط التاريخية لا يستبعد للجهالة
أو لحسن الظن . وأما الافتعال قصدا ، فذلك من صناعات المستشرقين ، كما فعلوا
بتاريخ الاسلام وتاريخ الامم الشرقية ، وكل ما وقع من الاغلاط التاريخية في
أصل المسلمين ، والنسل من المغرب ، وفي الكتابات التي تحمل تاريخ منغ ، قد
نشأ لأحد السبيين .

وأما الكتابة التي في مسجد (جانغ - آن) ، وقد بنى في القرن الثامن
الميلادي ، فيظهر من الدلائل العلمية ، أن التغيير قد وقع في نصوصها . وعلاوة
على الدلائل التي أدلى بها ، مؤرخ الصين جين بوان ، عن هذه الكتابة ، أجد
فيها أدلة أخرى في تأييد نظريته .

أولا - أن جميع الكتب القديمة من عهد تانغ الى عهد يوان ، لم تذكر وصول
الاسلام إلى الصين في عهد كائي وانغ (٥٨١ - ٦٠١ م) بخلاف كتب عهد منغ . فانها
تذكر ذلك . فلذا نجد أن كثيرا من المؤلفات لهذا العهد ، قد ذكرت وصول
الاسلام في عهد (كائي وانغ) ، ولعل لهذا سببا غير معلوم عندنا حتى الآن .

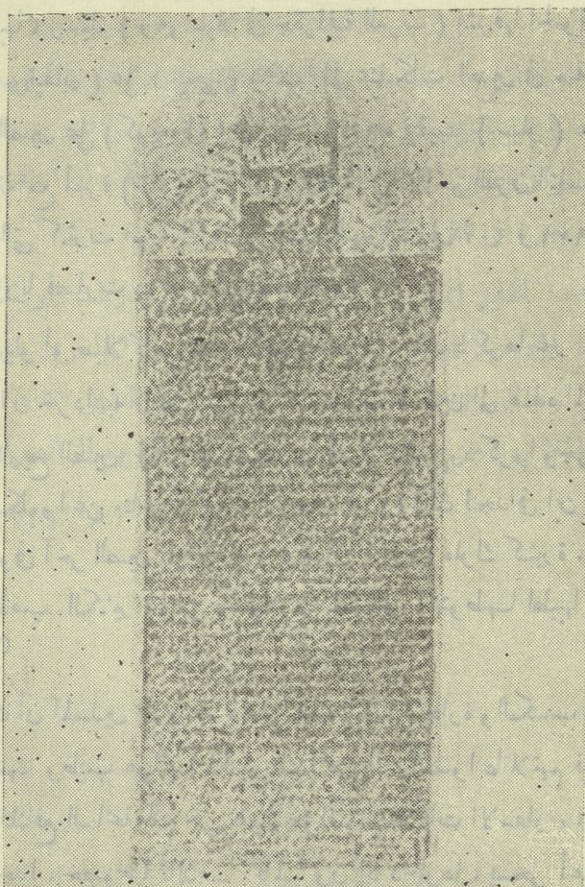
ثانيا أن عبارة الكتابة من ناحية المعاني تشبه كثيرا التصانيف التي ألفها
المسلمون في عصر منغ ، مثل تيانفان ديانلي ، وديانفان شلي ، وده جي شن
شيلوه وغيرها من الكتب التي أخرجها الكتاب المسلمون ، فلا نرى هذه للمعاني
المشتركة بين تعاليم كانفوشيوس وتعاليم الاسلام في الكتابات التي بكاتتور
أو بهانغ شو ، أو نجوان شو .

ثالثا - وهو أقوى الأدلة عندي في أثبات وقوع التغيير في نصوص الكتابة
التي بمسجد (جانغ - آن) ، أن هذه الكتابة قد ذكرت اسم الامام وهو بدر

الدين، (擺都而的) ومن الشاذ أن تجد اسما لعالم عربي الاصل يضاف إلى الدين، وهذه العادة لم تكن شائعة في القرون الأولى للهجرة بين العرب وقلما يستعملون اسما كهذا أو أمثاله من كل ما يضاف إلى الدين، — لأبنائهم حتى اليوم، ولا شك أن هذه العادة من خصائص أهل خراسان وبلاد الفرس وما وراء النهر بعد دخولهم في حظيرة الاسلام، وأنهم كانوا مولعين بتسمية أبنائهم باسم شطره الآخر يحمل كلمة «الدين»، مثل «سراج الدين»، «وتاج الدين»، و«آفتاب الدين»، و«برهان الدين»، وهلم جرا.

نعم، من الممكن أن بدر الدين هذا، المذكور في الكتابة الصينية من أصل عجمي، جاء إلى عاصمة الصين في القرن الثامن الميلادي. فيمكن من الممكن أن نعتمد هذا لو لم نعثر على شهادة تثير الشك في هذا الاعتقاد وهذه الشهادة هي كتابة عربية وجدت في مسجد (جانغ - آن) نفسه، ومن عجيب الاتفاق أن هذه الكتابة العربية، قد نقشت على ظهر تلك الكتابة الصينية التي بحثنا عنها آنفا إذا ألقينا نظرة إلى وجهة هذه الكتابة، نرى أنها مكتوبة بالخط العربي الجميل، وهذه الكتابة تحمل تاريخ ٩٥٤ هـ - ١٥٤٥ م. وأما عباراتها فواضحة جدا، تستطيع أن تقرأها بسهولة من أولها إلى آخرها، ويظهر من محتواها أنها شاهد لشيخ من الصالحين، ولعله كان إماما بالمسجد يسمى «بدر الدين بن شمس الدين السونيكاتسكي مات بجانغ - آن ودفن هناك، فكتب أهل المدينة له شاهدا يدعي أنه من سلالة أهل البيت وليس بينه وبين صاحب الرسالة (ص) سوى ثلاثين أباً فلما وجدنا اسم «بدر الدين» مثبتا في هذه الكتابة العربية فظننت إلى «بدر الدين» الذي ذكر في الوجه الثاني من الشاهد، وإذا كان الأستاذ «جين يوان» مصيبا فيما زعم من وقوع التغيير في عبارات الكتابة التي يرجع تاريخها إلى ٧٤٢ م، في عهد (منغ) (١٣٦٨ م - ١٦٢٢ م)، وإذا سلمنا أن هذين الاسمين لرجل واحد جاء ذكره في الكتابتين — العربية والصينية، فما لا شك فيه أن التغيير قد وقع في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، إذ كان بدر الدين إماما في جامع (جانغ - آن).

ومع اعتقادي بهذا التغيير في عبارات الكتابة ، أعتقد أيضا أن الكتابة نفسها ،
وكانت لها عبارة أصلية من آثار الألام التي يرجع تاريخها الى سنة ٧٤٢ م وهي
شهادة صامئة ناطقة بوجود المسلمين بعاصمة الصين في ذلك الوقت .



كتابة عربية على ظهر الكتابة الصينية ، السابقة الذكر بجامع (سى - آن)
وهي شاهد للشيخ الامام بدر الدين بن شمس الدين السوكاكي المتوفى

سنة ٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م

ويحسن أن أختم هذا الساب بكلمة عن وصول المسلمين في عهد (نانغ) الى سيلا ، هينا. قديم في كوريا. يقول مؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب» ، أن كوريا ، كانت منقسمة الى ثلاثة ممالك : (كوجولى) بشمالها تتصل بالصين ، وبيجى بغربها ، رسيولو (وهو سيلا في جغرافية العرب) بشرقها الجنوبي . فقبض الجنرال (سوتيفان) على (بيجى) وضمها الى ممتلكات الصين في سنة ٦٦٠ م . ثم قبضت الصين على (كوجولى) في سنة ٦٨٠ م ، فبقيت (سيلو) مستقلة الى حين متعازنة مع أسرة (نانغ) ثم زال استقلالها في أواخر القرن التاسع الميلادى وفي الفترة التي كثرت فيها الاضطرابات والثورات بين ٩٠٢ و ٩٢١ بالصين ، استقلت كوريا فصارت دولة ذات سيادة مختارة (١) .

وأما سيلو أو سيلا كما ورد في الكتب العربية ، فقد ذكرها غير واحد من العلماء منهم ابن خرداذبه والقزوينى . وأما وصول المسلمين الى هذه المدينة ، فقد سكت عنه تاريخ الصين ، لكن علماء العرب قد لاحظوه وذكروا وجود المسلمين بها حينما تكلموا عن مناخها وتجارة العرب ، فيها . ولأنك لنجد في ابن خرداذبه ، ما يأتى : «وفي آخر الصين بازاء قالصو ، جبال كثيرة وملوك كثيرة ، وهى بلاد سيلا فيها الذهب الكثير ، ومن دخلها من المسلمين استوطنها لطيبها ، ولا يعلم ما بعدها (٢) .

ولاشك أن المسلمين الذين قد دخلوا هذه البلاد لتجارة والكسب ، لما رأوا خصب أرضها وطيب هوائها ، استوطنوا هناك وأسسوا عائلاتهم فيها وكانوا يجلبون كل المنافع المتاحة لهم حتى يقول مؤلف «علاقات الاسفار» ، أن بلاد سيلا غنية جدا ، خصوصا بالذهب . فالمساون إذ دخلوها ، يسحر أعينهم جمال البلاد حتى استوطنوا بها ولم يرضوا بالخروج منها (٣)

(١) والحديث عن هذه الاضطرابات في ابن الأثير والمسعودى وسليمان السيرافى

(2) Ferand : 33

(٣) ابن خرداذبه ص ٧٠

فان بيان ابن خردادذبة الذي عاش في القرن التاسع الميلادي عن وجود المسلمين بتلك البلاد دليل على وصولهم هناك قبل ذلك الوقت . إذا قلنا أنهم وصلوا هناك في أوائل القرن الثامن ، ولا نظن أننا نبالغ في البيان والتقدير . اذا أكدنا ما ذهبنا اليه

ويظهر من التاريخ ، أنهم ولو وصلوا هناك في تلك الايام ، لكنهم لم يتخذوها وطا دائما ، كما فعل العرب في جزيرة (هاى نان) و (جواشو) و (كانتون) وغيرها من موانئ الصين . فلذلك لا نجد في أى مصدر إشارة الى استقرارهم هناك في الايام المتأخرة الى القرن العاشر للميلاد

وأما العدد القليل الذى بكوريا الآن ، فليس من ذريات أولئك المسلمين الذين دخلوا بلاد سيليا في القرن التاسع الميلادي ، بل من المهاجرين من منشوريا ومن الصين ، وحالتهم الدينية ضعيفة جدا ، حتى لا تجد العارق الظاهر بينهم وبين كفار كوريا إلا فى التخرج من أكل لحم الخنزير . والله يهديهم الى الصراط المستقيم .

١٩٤١ / ٨ / ١٨

والتاريخ ان التاريخ العرفي في الصين
في القرن التاسع الميلادي في منشوريا
من الصين ، وحالتهم الدينية ضعيفة جدا ، حتى لا تجد العارق الظاهر بينهم وبين
كفار كوريا إلا فى التخرج من أكل لحم الخنزير . والله يهديهم الى الصراط المستقيم .
١٩٤١ / ٨ / ١٨
في القرن التاسع الميلادي في منشوريا
من الصين ، وحالتهم الدينية ضعيفة جدا ، حتى لا تجد العارق الظاهر بينهم وبين
كفار كوريا إلا فى التخرج من أكل لحم الخنزير . والله يهديهم الى الصراط المستقيم .
١٩٤١ / ٨ / ١٨

الباب السادس

في العلاقة الدبلوماسية

(١) من عهد (تانغ) إلى عهد (منغ)

أن المراد بالعلاقة الدبلوماسية في هذا الباب ، هو السفارات التي تبودلت بين العرب والصين في عصور مختلفة لأغراض شتى ، منها ما يتعلق بالدين ، ومنها ما يتعلق بالتجارة ، ومنها ما يتعلق بإيجاد حسن الجوار . يختلف هذا الباب عن باب العلاقة السياسية في أنه مقصور على البحوث التي تتعلق بالحروب والحركات العسكرية . وأما هنا فنذكر حركات السفراء والوفود ، سواء أكانوا من الرب إلى الصين أو من الصين اليهم كما سنرى كل هذا في الصفحات الآتية :

لا يخفى على القراء ، أن هذا النوع من العلاقة ، قد بدأ في زمن الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين لأن تاريخ الصين يشهد بوصول وفد من العرب إلى عاصمة الصين في السنة الثانية من عهد يونجزي ، وهي توافق سنة ٦٥١ م . وكان غرض هذا الوفد ، كما رأى القارئ في الباب السابق ، إخبار إمبراطور الصين ببهثة محمد (ص) رسولا من بين العرب ، داعيا إلى التوحيد ، وفهم معاني الحياة بالعقل . فاقبني أثرهم وفود آخرون فيما بعد . ولا شك أن تاريخ العرب والاسلام قد سكت عن حركة أكثر هذه الوفود ، غير أن تاريخ الصين لم يتركها ؛ بل ذكرها في كتب مختلفة لعصور مختلفة . يوجد ذكرها في تاريخ الصين لعهد تانغ .

لقد سجل مع كتب الصين القديمة وصول أربعة وثلاثين سفارة من بلاد تاشي ، (العرب) في قرن ونصف قرن من ٦٥١ إلى ٨٠٠ م . وكان مع وفود العرب ، وفود من البلاد الأخرى ، مثل فرغانة وسمرقند ومن بلاد الأوغرة — ومن

آرمينيا وسرنديب وبلاد الفرس ، ومعنى هذا أن سفرهم كان عن طريق البر، كما كان عن طريق البحر .

ولقد بحثنا في المصادر العربية ، عن هذه السفارات وأغراضها وأسماء رؤسائها فلم نعثر إلا على قليل من المعلومات ، ولا ندرى إن كان ذلك ناتجا عن جهلنا للكتب التي ادخرت فيها المعلومات الضرورية عن هذه السفارات ، أو عن عدم تدوينها أصلا . ونعتقد أن قلة نجاحنا في هذه الناحية من البحث ترجع الى السبب الثاني لا إلى الأول . ولو أن لدينا تصديقات من المصادر العربية لهذه السفارات التي ذكرت في الكتب الصينية ، لكان سهلا علينا أن نمتدى إلى معرفة حقيقتها وحقائقها ما ذهب تاريخ الصين اليه من الادعاء بأنهم قد جاءوا لتقديم الهدايا وحاصلات بلادهم وفي بعض الأحيان لتقديم الخراج . إنك تقرأ كل هذا فيما يلي .

وهناك مسألة أخرى نشأت عن سكوت المصادر العربية ولم نجد سبيلا إلى معرفة حقيقتها حتى الآن . ألا وهي ، كم سفارة جاءت من الخلفاء ، وكم أميرا من العرب الذين كانوا مستولين على زمام الحكم وبأيديهم مقاليد السلطة بما وراء النهر وخراسان؟ والظاهر أن السفارات الرسمية التي تبودلت بين أباطرة الصين والخلفاء الامويين لم تكن كثيرة لأن الكتب العربية لم تذكر إلا عدة بعثات ، منها ما بعثت في حكم قتيبة بن مسلم ، ومنها ما بعثت من أبي الجعفر المنصور ، وأما العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء العباسيين ، فلا أشك في وجودها ، لأن الاخبار عن وصول الوفود من العرب ذوي الملابس السوداء قد وردت في مواضع عديدة في كتب الصين القديمة وإن نقصت منها بعض التفاصيل .

ومن تاريخ (تانغ) ، نعرف أن سبع عشرة سفارة قد وردت من العرب إلى عاصمة الصين في زمن الامويين ، وخمس عشرة ، في زمن العباسيين . فالسفارات العباسية ابتدأت من سنة ٧٥٢ م ، وما قبلها من الوفود قد وقعوا في زمن بني أمية إن السفارات التي بعثت الى عاصمة الصين في عصر بني أمية ، كما وجدناها في

جفويوانكوى 册府元 كانت في السنين الآتية .

٥٥ و ٦٨١ و ٧٠٣ و ٧١١ و ٧١٦ و ٧١٩ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٨ و ٧٢٩ و
٧٣٣ و ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٥ و ٧٤٧ م .

ويقول هذا المصدر ، أن السفارة التي وردت في سنة ٦٥٥ م ، كان معها وفد
من آرمينيا ، والتي في سنة ٦٨١ م ، معها وفد من فرغانة ، والتي في ٧١١ م ، ليست
من بلاد العرب بل من مدينة الري ، وفي هذه السنة نفسها وصلت سفارة من
سرنديب وفي سنة ٧١٩ م ، جاء وفد من العرب ، كما جاء من فرغانة ومن سمرقند
وجنوب الهند . وفي سنة ٧٢٥ وصلت سفارتان الأولى في الشهر الأول والثانية
في الشهر الثالث ، وكان سليمان رئيسا لهاتين السفارتين ، ورافقه ١٣ عضوا من العرب
فكان الغرض في المرة الأولى هو التهنئة بعيد أول السنة الصينية ، وفي المرة
الثانية تقديم حاصلات بلاد العرب ومنها الخيول ومنسوجات صوفية .

ولا نستطيع أن نعرف من المصادر الصينية كم سفارة وردت من
الخلفاء الأمويين إلى عاصمة الصين ؟ لأن كلمة (تاشي) في تاريخ (تانغ) ولوأن
المراد منها العرب ، ، لكن ليس من الضروري أن يراد بها العرب الذين بدمشق
أو بالعراق . ومن المحتمل أن يطلق على العرب الذين استوطنوا آسيا الوسطى أو
غرب الهند . ويظهر أن السفارات التي جاءت في حكم أمراء العرب بما وراء النهر
وخراسان ، كانت أكثر مما بعث خلفاء بني أمية في دمشق . فالسفارة التي نعتقد
إلى درجة اليقين أنها بعثت من دمشق ، كانت في سنة ٧١٦ م . لأن تاريخ الصين
ذكر هذه السفارة بوضوح جدا حتى رفع كل الشكوك في عدم صحتها . يقول
« جفويوانسكوي » - في الشهر السابع من السنة الرابعة لعهد (كائي يوانغ) وهي
توافق سنة ٢١٦ م ، وردت سفارة من بلاد العرب مبعوثة من أمير المؤمنين سليمان ،
لتقديم الهدايا إلى امبراطور الصين ، وكانت مشتملة على عباءات منسوجة من
خيوط الذهب ، والعقيق ورشاشات العطور وأشياء نفيسة خاصة ببلاد العرب .
فوصفوا بلادهم وقد مروا إليه بياننا كافي عنها . فأكرم الامبراطور على السفير برتبة

الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه بفائق الاحترام ومزيد الاحترام (١).
ولا نعرف سفارة أخرى، غير هذه السفارة جاءت من دمشق رأساً، لأن
السفارات التي قبل سنة ٧١٧ م ولو نسبها تاريخ الصين إلى بلاد تاشي، (العرب)
لكونها غير معلومة من أين وصلت وأغلب الظن أنها وردت من الهمال أو القواد
الذين وصلوا إلى ما وراء النهر، يحملون لواء الفتوحات والانتصارات. وأما
ما وصل من وفود العرب بعد سنة ٧١٧ م، فكلها من عمال العرب الذين بأسيا
الوسطى. لذلك إذا نظرت إلى البيان الذي يوجد في تاريخ الصين عن سفارة سنة
٧١٩ م، فظن ذهناك بالبديهة بأن العرب الذين وردوا في هذا البيان، غير الذين
بدمشق. لقد ادعى تاريخ الصين أن وفودا من العرب قدموا في هذه السنة، لتقديم
الخراج. كما كان يفعل وفود فرغانة وسمرقند وجنوب الهند (٢) ومن المعلوم أن
العرب في زمن الامويين لم يدفعوا الخراج لأية دولة من الدول. ثم الخراج
لا يدفع إلا من دولة مغلوبة على أمرها، إلى دولة مهيمنة عليها. فالعرب لم يكونوا
مغلوبين أمام القوات الصينية في أواسط آسيا. فلا معنى إذن، لكلمة الخراج،
هنا. بيد أنه من الممكن أن بعض الهمال فيما وراء النهر قد أخذوا أشياء إلى
أمبراطور الصين، وبعثوا بعثات خاصة لهذه الأغراض، أو لأغراض آخر كجس
بعض سياسة الصين وأحوالها الداخلية. فادعى تاريخ الصين أن هذه الهدايا هي
الخراج من العرب. والله أعلم بالصواب.

وأما السفارة التي وردت في سنة ٧٢٥ م، فن قائد من قواد العرب بما وراء
النهر بدون شك. واثبتنا هذا، بعض الأدلة. وبناء على ما جاء في تاريخ الصين
نفهم أن وفد العرب، قد ورد مرتين في هذه السنة. فكانت المرة الأولى في
الشهر الأول والأخرى بعد شهر. ويذكر أيضا أن رئيس الوفد في كل مرة، هو
سليمان يرافقه ١٣ رجلا من العرب، ومن اليقين أن مدة وجيزة نحو شهرين،

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 61

(2) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 61

لا تكفي لفارس أو راجل أن يقطع تلك المسافة البعيدة بين عاصمة الصين وهي (جانغ - آن) وبين دار الخلافة وهي دمشق. فهاتان السفارتان إذن لم تكونا إلا من بلدة قريبة من حدود الصين. وذلك لا شك فيه.

أما رئيس الوفد سليمان، فمن كان وما علاقته بالعرب فيما وراء النهر؟ ويظهر من تاريخ العرب في آسيا الوسطى، أنه سليمان بن أبي السارى الذى اشترك في محاصرة خجند، بلدة قريبة من كاشغر، تحت قيادة سعيد بن عمر الحراشى وكان ذلك في سنة ٧٢٢ م^(١) ولعل أسد بن عبد الله بعثه الى الصين في سنة ٧٢٥ م^(٢) لكسب الصداقة من امبراطور الصين وترغيبه عن مساعدة رئيس الاتراك الذين كانوا يعوقون طريق العرب في فتوحاتهم الى الشرق، ويقلقون مضاجع حكوماتهم التى لم تستقر، بسبب النزاع القائم بين البينيين والمصريين في تلك البقاع من أرض الله.

يخبرنا تاريخ الصين بورود وفود العرب في سنتي ٧٢٨ و ٧٢٩ م. ر لا أظن أن الوفد الذى قدم في سنة ٧٢٨ م؛ كان من بلاد العرب. لان اسم رئيسه؛ وهو «ديدو»، كما ثبت في المصادر الصينية، لا يدل على عروبة صاحبه. قال جفويوانسكوى، «أنه قائد من قواد العرب، جاء إلى عاصمة الصين مع ثمانية آخرين من أصحابه. فأنعم الامبراطور عليه برتبة الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه مع أصحابه بالحفاوة والاکرام. ومن المحتمل أن هذا القائد تركى الأصل كان تحت حكم قائد من قواد العرب ببخارى أو سمرقند. وكان من بين عمال تلك البلاد وقتئذ، نصر بن سيار وأسد بن عبد الله وسعيد بن عمر الحراشى، ولم أستطع أن أصل إلى معرفة من كان يشتمل منه ديدو من هؤلاء القواد الثلاثة، لان سكوت المصادر الصينية والعربية حال بيننا وبين ذلك فاكثفينا بما أوردناه هنا فالسفارة التى وقعت في سنة ٧٣٢ م، كانت من جنيد، قائد من قواد العرب تحت إمارة نصر بن سيار في عهد الخليفة هشام الاموى وكان من بين الذين قد

(1) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 63.

(2) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 67:

اشتركوا في فتح بخارى وسمرقند للمرة الأخيرة، وبناء على تحقيقات الأستاذ وجب ، أن جنيد قد اتصل بأميراطور الصين في آخر عهده بسمرقند في سنة ١١٥ هـ ٧٣٣ م. ويظهر من اسم رئيس هذه البيعة، وهو مسلم ترخان، كما ورد في فتوحات العرب لآسيا الوسطى، الأستاذ جب، أن أصله من الزك (١) وأغلب الظن أن زملاءه الذين رافقوه إلى الصين أيضا من الترك.

فالسفارات التي وردت إلى عاصمة الصين في سنوات ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٧ م، كلها من عمال العرب بأواسط آسيا. فالتى ترأسها حسين، كما جاء في تاريخ الصين في سنة ٧٤١ م، كانت من الشاش (٢) ولعل حسبنا هذا كان أحد الشخصيات البارزة التي تحت سيادة نصر بن سيار في آسيا الوسطى لأنه كان موصوفا بزعامه العرب في تاريخ الصين، فأنعم عليه الإمبراطور، برتبة القائد اليمين، وخلع عليه خلعاً سنوية مع منقطة منسوجة بخيوط الذهب، ويقول الأستاذ جب - أن نصر بن سيار بعد أن استقر في سمرقند، بعث عدة سفارات إلى الصين، واحدة منها في سنة ٧٤٤ م، وكان ذلك لتنظيم العلاقة التجارية تنظيمًا متقنا، وكان مع هذه السفارة، وفود من الصغد وتخارستان والشاش وزابلستان، وأما السفارتان اللتان في سنتي ٧٤٥ و ٧٤٧ م، فكانتا أيضا منه، لأنه أول من شعر بأن أركان الحكومة بما وراء النهر تحتاج إلى دعم الطبقات المتوسطة، خصوصا طبقات التجار والزارعين (٣) ولقد فعل بقدر استطاعته كل ما يلزم لانهاض التجارة في الولايات التي كان واليا عليها.

وبقيام الخلافة العباسية في سنة ٧٥٠ م ابتدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء بغداد وأباطرة الصين وأهم السفارات التي وقعت في هذه الأيام ما كان مبعوثا من قبل أبي العباس مؤسس الدولة العباسية، وأبي جعفر المنصور، مؤسس دار السلام، وهارون الرشيد بطل العهد الذهبي، وكان العباسيون في تاريخ الصين،

(1) Gibb : P. 79.

(2) Gibb : P. 80.

(3) Gibb : P. 92

معروفين باسم دختي تاشي ، أي العرب ذوي الملابس السود تميزوا عن الأيوبيين الذين عرفوا باسم دبتى تاشي ، أي العرب ذوي الملابس البيض ، وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ٧٥٠ و ٨٠٠ م لكنه لم يذكر أغراضها ولم يلم بتفضيلها سوى أنه قال أنها جاءت إلى الصين لزيارة ودية أو لتقديم الهدايا . وبناء على ما ورد في دجفويونكوى ، أن هذه السفارات وقعت متتابعة في سنة ٧٥٢ و ٧٥٣ (و ٧٥٤ و ٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٨ و ٧٦٠ و ٧٦٢ و ٧٦٩ و ٧٧٢ و ٧٩١ و ٧٩٨ م) . ويروي هذا المصدر أن ثلاث سفارات قد وصلت في سنة ٧٥٣ م في الشهر الثالث لتقديم الحاصلات وفي الشهر الرابع لزيارة ودية وفي الشهر الثاني عشر ، لتقديم ٣٠ جوادا هدية إلى إمبراطور الصين . وأما السفارة التي جاءت في سنة ٧٥٦ م فكانت مشتملة على ٢٥ عضوا ورئيسها من زعماء العرب الكبار .

ومن المصادفة الغربية أن سفارة العباسيين التي وردت إلى عاصمة الصين في سنة ٧٥٨ م وكانت مشتملة على ستة أعضاء ، اجتمعت مع سفارة من بلاد الأوغرة وكانت مكونة من ثمانين عضوا فكانت كل جماعة تريد أن تدخل قاعة التشريفات قبل غيرها فتنازعا عند الباب ، فاذا بأمين التشريفات ، يصلح ما بين الجماعتين بادخال كل جماعة من باب مستقل

هذا هو كل ما نستطيع أن نحصل عليه من المعلومات عن أحوال هذه السفارات وأغراضها من المصادر الصينية وأما المصادر العربية فلم تتكلم فيها أبدا ، وما ذكره الشيخ بيرم التونسي في كتابه دصفوة الاعتبار في مستودع الأقطار والامصار ، عن إرسال أبي جعفر المنصور أربعة آلاف من صناديد المسلمين إلى الصين (١) ، لا يدل إلا على حضور سفراء الصين لبغداد وكانت هذه البعثة العسكرية من نتائج زيارة وفد الصين لبغداد ثم لا نستطيع أن نقطع ، بماذا فعل الخليفة المهدي في رد وفود الصين الذين وفدوا عليه (٢) من قبل الإمبراطور (تة جونج Teh - Chung

(١) صفوة الاعتبار ج ١ - ص ٢٢

(٢) مروج الذهب ص ١٢٣

بين ٧٨٠ و ٧٨٥ م ومن المظنون أنه قد اكتفى بأرجاع هذه الوفود بالهدايا الى امبراطور الصين ، بدلا من ارسال بعثه خاصة لرد هذه الزيارة ونستقر على هذا الرأي ، بناء على عدم ذكر ورود الوفود من بغداد في تاريخ الصين بين ٧٧٤ و ٧٩١ م وقد انتهى عهد خلافة المهدي قبله بسنوات قليلة (١)

أنا هنا نواجه مشكلة تاريخية كانت أمامنا عند البحث عن العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء الامويين لا نعرف كم سفارة قد وردت من بغداد وكم عاملا من عمال العرب بآسيا الوسطى ، ونميل الى الاعتقاد بأن هذه السفارات التي ذكرناه ، آنفا كلهم من الخلفاء العباسيين لولا أن هناك بعض أدلة على ورود سفارة الى عاصمة الصين من عمال العباسيين بماوراء النهر . فثلا أبو مسلم الذي قبض على زمام خراسان ، بعد وفاة نصر بن سيار وكان أكبر الذعاة للدولة العباسية في تلك الولايات قد ارسل عدة بعثات الى الصين فذكر الاستاذ جب عن هذه البعثات قال :

من الظاهر أن ابا مسلم قد شعر بأهمية الاتصال بقصر امبراطور الصين ، لأن تواتر السفارات من العرب ذوى الملابس السود يذكر في تاريخ الصين ابتداء من السنة التي بعد واقعة تالاس وهى سنة ٧٥١ م وقد حضرت ثلاثة وفود في سنة واحدة ومن الممكن أن هذه السفارات كانت لها مقاصد سرية وذلك أن العرب أرادوا أن يطلعوا على تطورات الحروب الداخلية في الصين ، وان كان معظم المصلحة في ترغيب طبقات التجار الى التفاهم والتعاون مع الحكام العباسيين بابرام معاهدة جديدة للتجارة مع الصين ووضع نظام جديد يقتضيه الوقت ويلائم الحال (٢)

وبناء على هذا البيان ، لا نكون من المخطئين ، إذا قلنا أن السفارة التي وردت الى الصين في سنة ٧٥٢ م ، كانت من أبي مسلم الخراساني ، ولم تكن من أبي العباس . غير أن التحقيقات التاريخية تكشف وتؤكد لنا أن العلاقة السياسية بين الخلفاء العباسيين والصين ، كانت أقوى وأوثق بما كان عليه الخلفاء الامويون . وعندنا

(١) استمرت خلافة المهدي من سنة ٧٧٥ الى سنة ٧٨٥ م

(2) Gibb : P . 97

شهادات كثيرة تدل على وجود علاقة متينة بين بغداد وعاصمة الصين، حتى ليقول بعض الباحثين أن الصناع الصينيين كانوا موجودين بمدينة الكوفة في سنة ٧٦٢م أي بعد تأسيس الخلافة العباسية باثنتي عشرة سنة فقط. وعلى هذا الرأي الأستاذ (بليو - Pellet) وانفق معه الأستاذ جاستون فيت (G. Wiet). ويظهر أن بعض المحققين من علماء الإسلام في هذا العصر قد قبل هذا الرأي بلا تحفظ (١) وأما الصينيون فأنهم يعتقدون هذا القول، إذ كان اخلاف الوفود بين (جانغ - آن) وبين بغداد لم ينقطع حتى القرن الثاني عشر للميلاد، كما سترى ذلك حين نبحث عن علاقة أسرة (سونغ) بالعرب. لأن واقعة مثل هذه كانت من الممكنات التي تؤكد لها الحوادث التاريخية، فمثلا اكتشاف المغفوري الصيني بسامرا، الذي يرجع تاريخه إلى عهد (تايغ)، دليل قاطع على استيراد المصنوعات الصينية إلى بغداد في القرن التاسع الميلادي (٢)؛ وقد يكون هذا بوساطة التجار وقد يكون بوساطة السفراء. وأغلب الظن أن المصنوعات الصينية التي أتى بها السفراء إلى بغداد، من قبل ملوك الصين، هدية إلى الخلفاء العباسيين، كانت مشتملة على أشياء شتى منها الغضار والخزف ومنها الحرير والكمخاب ومنها الشاي والمسك فإن الصير كانت لها شهرة عظيمة في هذه الصناعات والحاصلات وما اختير منها هدايا للخلفاء كان من أعلاها صناعة وأنهاها جمالا، وأرفعها ثمنا. ومن الطبيعي أن كل مارق وراق من هذه الهدايا كان الخلفاء يحفظونه في الخزانة ويعتنون به أكثر من غيره من الأشياء وإذا القينا نظرة إلى الفهرست لأثاث قصور الخلفاء فانا نجد فيها أشياء كثيرة من صناعات الصين (٣). فهذه الصناعات تخبرك بملافة بغداد بامبراطور الصين في الأيام الحالية؛ وهذه الحالة لم تكن في عهد الأمويين دخلت الصين منذ منتصف القرن التاسع الميلادي في عهد ملوهم بالحوادث والاضطرابات

(١) التصوير في الاسلام عند الفرس، ص ٣٣

(٢) يقول الجليبي: أغلى البضائع من الفخار يقال له «مغفوري»

(٣) تمدن عرب: ترجمة بلكرامى ص ٥٠٤

التي قضت على أسرة (تانغ) في سنة ٩٠٦ م ؛ وبعدئذ مرت على مسرح سياسة الصين خمسة أسر حاكمة قصيرة الحكم ، واحدة بعد أخرى في غضون ست وخمسين سنة ؛ فلم تستقر واحدة منها على كرسي الحكم مدة تستحق الذكر ؛ لأنها ظهرت وغابت دون أن تترك أى أثر في حياة الصين الداخلية ؛ فهذه الحوادث والانقلابات التي ذكرها أبو زيد السيرافي وابن الأثير ، قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة ؛ فلذا لا تجد في كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب إلى الصين أو في الصين بين سنة ٨٥٠ و ٩٥٠ م . لكن مع ظهور أسرة (سونغ) في ميدان الصين السياسي ، فتح تاريخها صفحة جديدة ، فالرابطة التجارية والدبلوماسية التي كانت منقطعة بين الصين والعرب في القرن السابق ، قد أوثقت من جديد . فأخذ تاريخ الصين يدون للمرة الثانية حركات العلاقة لهذا العهد الميمون حتى ذكر ٢٥ سفارة قدمت من العرب بين ٩٦٠ و ١١٤ م

ونفهم من التفاصيل التي وجدناها في تاريخ (سونغ) ، أن أغلب هذه السفارات ، كان في تحسين العلاقة التجارية بين الصين والعرب . لكن التي جاءت من قبل التجار أنفسهم ، أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء . ويظهر أن أكثر هذه السفارات قد اختارت طريق البحر ، وقايلا منها جاوز أواسط آسيا إلى الصين لأن السفن قد ذكرت في مواضع عديدة أثناء السلام عن هذه السفارات . وأنقل هنا ما ورد في تاريخ (سونغ) ، مع رجائي إلى كتاب الإسلام أن يعلقوا عليه من المصادر العربية ، أن رأوا ضرورة إلى ذلك

يقول مؤلف علاقة الصين القديمة بالعرب ، ، أن في الجزء التسمين بعد المائة الرابعة من تاريخ سونغ ، فصلا خاصا يمتلق بالعرب . فقد ابتدأ الكلام بملاحظة على ظهور الإسلام في بلاد العرب قائلا : أن الذين من بني مروان يقال لهم (العرب ذوى الملابس البيضاء) والذين انتموا إلى خلافة بغداد بعد أبي العباس ، سماهم تاريخ الصين (العرب ذوى الملابس السود) .

وقد بدأت العلاقة بين أسرة سونغ ، التي حكمت الصين أكثر من ثلثمائة

سنة (٩٦٠ - ١٢٧٦ م) وخلفاء بغداد ، منذ سنة ٩٦٦ م ، إذ كان أبو القاسم مطيع الله على كرسي الخلافة في ذلك الوقت كان سائح صيني معروف باسم واين جنغ ، شد رحيله الى الغرب . فبعث الامبراطور سونغ نائى جونج ، بواسطته رسالة ودية الى الخليفة مطيع الله ، يرجوه أن يمد اليه يد الصداقة فرد هذه الرسالة بارسال بعثة خاصة من بغداد في سنة ٩٦٨ م تحمل الهدايا الى الامبراطور المذكور .

وكان هذا الامبراطور - مثل كل مؤسس دولة في القرون الوسطى - شجاعا ، مدبرا متفوقا ، بعيد النظر ، يقدر العلم والعلماء ، وان لم يكن هو نفسه عالما أو فاضلا ، فيعرف الصالح من الطالح ويميز رجال الخير من أشخاص الشر . يقول كاركورن ، مؤلف تاريخ ممالك جين : أنك تستطيع أن تعرف أوصاف هذا العاهل العظيم وشخصيته ، من حزن العالم عليه ، حين ارتحل من هذه الحياة الدنيا ، ومن زفرات الصدور ، حين يذكر بعد سنين من وفاته . وهو الذى بعث اليه الخليفة أبو القاسم مطيع الله سفارة في سنة ٧٣ م (٣٦٢ هـ) مع هدايا ورسالة ودية وكان رئيس البعثة رجلا يسمى كما جاء في تاريخ الصين ، « برهان » ،

كانت هذه السفارة هي الرابعة من العرب ذوى الملابس السود حسب الترتيب الذى وجدناه ، في تاريخ سونغ وفيه نجد أن السفارة الثانية كانت في سنة ٩٧١ م .

فأنعم الامبراطور على رئيسها نعمان « بلقب » واى خوا جيان جونج 懷化將軍 أى وأمين الحضارة ، . قد كتب هذا على ورق مذهب فى خمسة ألوان ثم منحه أباه وفى هذه السنة ورد سفراء من فرغانة وقيل أنهم قد قدموا الهدايا الى حاكم (كيانغ - نان) فأبى قبولها . فانتهى الأمر الى القصر . فاذا برسوم يمنح تقديم الهدايا الى الحكام الأيالية .

وأما السفارة الخامسة فكانت فى سنة ٩٧٦ م ، يرأسها عبد الحميد ، والتي بعدها فى السنة التالية كانت برياسة أبى سينا ، ومعه نائب يسمى محمود والقاضى أبو لؤلؤ .

(١) تاريخ ممالك جين ج ٢ - ص ١٨٢ ، وعلاقة الصين القديمة بالعرب

وخدمام جاحظة أعينهم ؛ سود أبدانهم ، يسمونهم « عبيد الحيشة » ثم وردت سفارة أخرى في سنة ٩٧٩ ، وكذلك بعد أربع سنوات أي في سنة ٩٨٤ م . فالسفارة قد قدمت بما وماوراء النهر أيضا ؛ يرأسها خواجه يحمل الهدايا الى الامبراطور ، من أنواع البرنيان والكنندر والسكر وماء الورد والعطور ومصنوعات زجاجية

وأهم السفارات هو ماورد في سنة ٩٩٤ و ٩٩٥ ؛ والتفاصيل التي وجدناها عنهما في الكتب الصينية تكشف لنا صورة حقيقية عن الثروة التي اكتسبها التجار العرب في أسواق الصين في القرن العاشر والقرن الذي بعده فكانت هذه السفارة ليست من خلية بغداد ، بل من تاجر عربي عظيم بكاترين وله مراكب تجارية تجرى في البحار، وقد استوطن فيها زمانا طويلا . رأما اسمه فقد عرف في اللغة الصينية حتى كدنا لا نعرف أصله - اذ قد كتب فيها هكذا الى « بوهم » 蒲希密

وأعتقد أنه محرف عن « ابراهيم » وأغلب الظن أن ابراهيم هذا، هو ابراهيم بن اسحاق ، تاجر كبير معروف في أواخر القرن العاشر الميلادي . ولقد ذكر عنه ياقوت في معجم البلدان ما يأتي « وأما ابراهيم بن اسحاق الصيني فهو كوفي ، كان يتاجر الى الصين . فنسب اليها (١)

ولطول اقامته بالصين قد تعلم اللغة الصينية وأجاد الكتابة بها ، كأحد فضلائها الكبار . ومن رسالة رفعها الى امبراطور الصين ، تسمى في عرف الأدباء الصينيين رسالة التقدمة الى الامبراطور (Address to the Throne) ، نفهم أنه قد أحاط بدقائق اللغة والاسلوب الذي كان منتشرا في البلاد حينذاك وكانت قدرته في الفهم والكتابة ، لا تقل عن أي فاضل من فضلاء الأدب الصيني في ذلك العصر : وانك لا تستطيع أن تقدر فضله الحقيقي في هذا الباب ، إلا اذا عرفت أسلوب الأدب الصيني القديم والذوق الأدبي الذي هو مقياس لتقدير كل قطعة أدبية ذات مغاز ومعان ، كما أننا لا نستطيع ان نقدر كتب الجاحظ وأسلوبه الأدبي العالي ، الا بعد

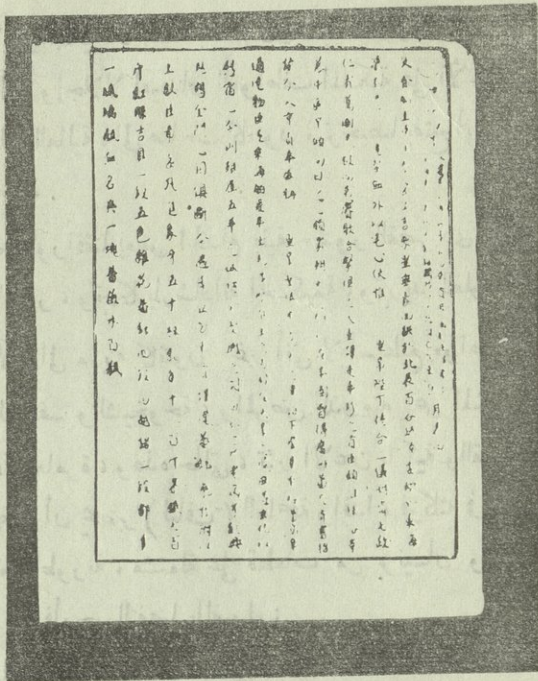
مدة طويلة قضيناها في المطالعة وكسب ذوق صحيح في الأدب العربي والافتكون
من النختمين في تحكيم كاتب فيما يتعلق بمنزلة وأسلوبه في الأدب بسبب الجهل لما
حواله وما يتعلق به صره

وأما منزلة ابراهيم بن اسحاق في ميدان الأدب الصيني في القرن العاشر الميلادي
فسكا رأينا في رساله المقدمة وقد تكون مماثلة التي نالها محمود بن الحسن بن محمد
السكاشغري المتوفى في سنة ٤٦٦ هـ ١٠٧٤ م في الأدب العربي ، وكان هذا العالم
الصيني التركستاني قد تمكن من تقليد الجاحظ في الكتابة العربية وذلك ظاهر
جدا من مقدمته التي كتبها في ديوان لغات الترك وهو كتاب عربي يبحث في لهجات
الترك المنتشرة من حدود الصين الى اناضول

ولم يذهب ابراهيم بن اسحاق نفسه إلى عاصمة في سنة ٩٩٤ م لان المرض قد
منعه عن التحرك وبد واصله إلى مدينة كانتون. فبث صديقا من أصدقائه، معروفا
في تاريخ الصين ، باسم (اياف) تابا ٤٤٤ إلى قصر الامبراطور . فوكه في رابع
رسالة المقدمة ، والهاديا إلى امبراطور الصين وقد نقلنا هنا صورة من هذه
الرسالة . ولعل بعض القراء يفهمونها في اللغة الأصلية فيطربون بالنكات الأدبية
التي نعجز عن نقلها إلى اللغة المنقولة اليها . وهنا ترجمة وضعناها بعد فقد كثير من
بدايتها الاصلية ومحاسنها الادبية .

في صورة فوتوغرافية ص ١٩٣

نص رسالة المقدمة ، التي رفعت إلى امبراطور الصين
من ربان العرب ، ابراهيم بن اسحاق السكوفي ، ٩٩٤ م



ترجمة رسالة التقدمة الى امبراطور الصين

من ربان العرب ابراهيم

... أن السكواكب لا تحيط الا بالقمر ، والأنهار لا تسيل إلا إلى البحر . كحكمة الرحمة التي تجلب قلب غريب الى الطاعة ، أو كسياسة اللين التي تجذب أذن بعيد الى السمع والطاعة وذلك لأن أوصاف صاحب الجلالة على قوانين السموات والأرض منطبقه وسياسته كالسكواكب السبع في مسالكها دائرة وعواطفه على أهل البلاد كالأنهار جارية وإحساناته الى الأمم بالجهات الأربع كأقطار الرحمة بالغة . فيمدحه أقوام غير متمدنين وأنوا اليه بتوادد التحف وافدين .

كنا في بلاد نائية ، فيها عادات مختلفة ، فطرق آذاننا صوت ركن الدولة الزاهرة فبحركت القلوب الواجفة الى رؤية الشمس ، والآمال الى وجه السماء . كنا بأوطاننا

جاء أمر من رئيس الجالية الأجنبية بكاتون يطلب حضورنا إلى العاصمة، تمجيدا لمحاسن صاحب الجلالة، وإجلالا لفيضان العواطف الملكية على الأجانب، بمرور يوم سام من ذات جلالاته العالية، إلى صاحب كاتون، ترخيصا بفتح أبواب الموانئ للمتاجر من البلاد القاصية.

فركبنا البحر ورافقنا بعض الخدام بنية حضور القصر ذي التنين، تيمنا برؤية موطن الامبراطور، وبركا بارشاداته الحكيمة، وتريدا للقلوب الطامئة.

وصلت الآن إلى مدينة كاتون غير أنني لا أستطيع مواصلة السفر إلى الباب العالي بسبب الضعف والشيخوخة، والمرض الذي منعه عن المشي والحركة فالأمانى في قصد العاصمة العامرة، وهذه حالتى، تثير الأعين باكية والقلوب ناكلة.

ومن الاتفاق أن يحضر (لياف) العاصمة وافدا، فوكلته في تقديم هدية فقيرة إلى السدة الامبراطورية، مشتملة على قطعات من برنيان وأدوية وغيرها من حاصلات بلادنا، فأرجو التفضل بالقبول:

وتفاصيلها

- | | | |
|---------------------|-------|--|
| (١) العاج | | خمسون عددا |
| (٢) الكندر | | ألف وثمانمائة مائة رطل (صيني) ^(١) |
| (٣) البرنيان الأحمر | | قطعة واحدة |
| (٤) البرنيان الملون | | أربع قطعات |
| (٥) قماش الجوت | | قطعتان |
| (٦) التوتيا | | قارورة واحدة |
| (٧) أعجوبة غربية | | قطعة واحدة |
| (٨) ماء الورد | | مائة قارورة |

فأنت ترى في هذه المقدمة بعض التعبيرات الأدبية الصينية الخاصة واستعاراتها فتيلا، إحاطة الكواكب بالقمر لا يراد بها السكك في الجمال كما هو شأن الأدب

(١) الرطل الصينى أكبر من الرطل العربى بربع رطل عربى

العربي بل يراد بها التعظيم للذات المركزية ، ورجوع الاجسام الصغيرة الى الوحدة الكبيرة في خصوصياتها وطلباتها كسيل الأنهار الى البحر . ثم موافقة أوصاف الامبراطور قوانين السموات والارض ، وسياسته التي لا تخرج عن الطريقة المقررة ، كدوران السيارات السبع في مسالكها الخاصة ، وميل القلوب الى رؤية الشمس والآمال الى وجه السماء ، كلها تعبيرات خاصة بالأدب الصيني القديم ، خصوصا في رسائل التقدم من وضع الى رفيع ، أو وزير الى ملك ، وقد حاولت أن أنقل المحاسن الأدبية الى اللغة المترجمة بها حسب الطاقة ، فلم أفلح إلا في نصفها وأما النصف الآخر فيحتاج الى قلم بلوغ يسيطر على دقائق اللغتين العربية والصينية ويستطيع إبراز خصائصهما .

فتفضل الامبراطور وأنعم على ابراهيم بن اسحاق برسالة سنوية يشكر له فيها هداياه شاهدا على القبول ، كما أنهم عليه بخدمة الشرف وصناعات فضية في مقابلة هداياه لقد دون تاريخ الصين وصول ربان عربي كبير في سنة ٩٩٥ م ، معروف باسم أبي عبد الله الذي بعثه ابراهيم السابق الذكر ، يحمل رسالة تقدمه وهدايا للامبراطور . وتفصيل الهدايا ، كما جاء في تاريخ الصين ، هي ما يلي :

- | | | |
|------------------------|-----------|------------------|
| (١) الكافور | • • • • • | مائة مثقال |
| (٢) سرر كلاب البحر | • • • • • | مائة عدد |
| (٣) ملح التنين | • • • • • | في علبه فضية |
| (٤) الزئبق | • • • • • | ٢٦ قارورة |
| (٥) السكر | • • • • • | ثلاثة جرار كبيرة |
| (٦) التمر | • • • • • | ستت صناديق |
| (٧) التوابل | • • • • • | ست قوارير |
| (٨) ماء الورد | • • • • • | عشرون قارورة |
| (٩) البرنيان | • • • • • | قطعتان |
| (١٠) المنسوجات الصوفية | • • • • • | ثلاث قطع |

(١١) منسوجات الجوت ثلاث قطعات

(١٢) سلطان السكندر عدد واحد

فلما ورد أبو عبد الله إلى العاصمة ، جاء أمين القصر ، ودله على قاعة التشريقات . فلما مثل بين يدي الأمبراطور ، قال بواسطة الترجمان : « أن أباه إبراهيم قد أبحر إلى كانتون ، لطلب أسباب الرزق وكسب المنافع فلم يرجع منذ خمس سنوات » . فجاء بأمر الوالدة للبحث عنه . فوجده في مدينة كانتون . ولقد تكلم عن إنعامات أمبراطورية من رسالة وخلعة وعمامة ، مزركشة مزخرقة بزهرتين فيهما صورتان للثقب ، إحدهما منقوشة بخيوط الفضة والأخرى بخيوط الذهب ، وعشرين قطعة حريرية فأمرني أن أحضر إلى العاصمة لرفع كلبة الشكر إلى السدة السامية على هذا العطف الكريم ، وتقديم بعض أشياء حقيرة من حاصلات بلادنا .

فسأله (سونغ تائي جونغ) عن بلاده فأجابه قائلاً : « إنها قرية من بغداد، وتحت أمر حاكمها ، وواقعة بين الجبال والبحار. »^(١)

ثم سأله : « ماذا تحصلون من جبالكم وبحاركم ؟ »
فقال : « الفيلة والسكر كدونات والأدوية . »

« قال له بأية حيلة تصيدون الفيلة والسكر كدونات ؟ »

« قال أما الفيلة فتخدع بالفيلة وتربط بالجبال . وأما صيد السكر كدن ، فيصعد الصياد إلى الأشجار العالية ، آخذاً الأقراس والسهم ، منتظراً ظهورها ومجيئها . فيقتلها بالسهم . وأما صغارها فلا يحتاج إلى الرمي بالسهم بل كفي باليد صيدا . »

فأمر الأمبراطور بأن يخلع عليه خلعة وينعم عليه بأشياء أخرى ثمينة ، وأنزله عنده ضيفا عدة شهور . ثم ودعه بحفاوة وإكرام ، ورد الهدايا بأحسن منها من ذهب وحرير وشكر له ما بعث به أبوه إليه .

ويقول تاريخ الصين لعمد (سونغ) ، أن السفارات التي وصلت من بعد ،

(١) يظهر من هذا الوصف أن البلد المراد هو الكوفة . فصدق أظننا بأن «بوهيم» الذي ذكر في تاريخ الصين ، هو إبراهيم بن إسحاق الكوفي كما ورد في معجم البلدان

كانت في سنوات ٩٩٧ و ٩٩٩ و ١٠٠٠ و ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٧ و
١٠٠٨ و ١٠١٩ و ١٠٢٣ و ١٠٥٥ و ١٠٦٨ و ١٠٧٤ و ١١١١ و ١١٢٩ و
١١٣١ م

ومن إلقاء نظرة يسيرة الى تواريخ هذه السفارات ، تعرف أن أكثرها قد
ورد بين ٩٩٩ و ١٠٢٣ م ثم أخذت تنقص بعدئذ ، لاسباب غير معروفة . ثم
نقصت من القليل الى الأقل حتى انقطعت بعد سنة ١١٣١ م ، وكانت أسرة
(سونغ) لا تزال باقية - باقية الى قرن ونصف قرن آخر . لانها لم تقرض إلا
في سنة ١٢٧٦ م

وفي بعض الاحيان كانت السفارة من غير العرب ترد معهم في وقت واحد
فثلا السفارة التي جاءت في سنة ٩٩٧ م ، كانت معها سفارة من ديلم بانغ ، بجنوب
سماطرة . فقد اشتركتنا في الاحتفال بعيد القناديل ، وحضر أعضاؤها وليمة
هذا العيد .

أما أسماء رؤساء السفارات فقد دون تاريخ الصين بعضها دون بعض . وذكروا
أن جيبيا هو اسم لرئيس السفارة المبعوث في سنة ١٠٠٠ م ، من ربان عربي . فتمكرم
الامبراطور بمنحه خيلا مسرجة مع رسالة تفيض بالعطف والكرم . والتي جاءت
في ١٠٠٣ م ، كان رئيسها أبا رشيد الساماني وأهدى الى الامبراطور مقدارا
عظيما من اللآلئ والجواهر . ومن اسم الرئيس نعرف أن هذه السفارة لم تكن
من العرب ، بل من الدولة السامانية التي كانت بينها وبين الصين علاقة من قبل ذلك
الآوان كما سترى .

فكان الرئيس للسفارة التي وردت في سنة ١٠١٩ م ، أبا محمود التبريزي
ونائب الرئيس أبا قاسم . وقد دخلوا الصين بطريق البر . وكان أول البلدان الذي
وصلوا اليه هو دشانشو ، ثم ولاية قانصو ثم دجنشو . ومن هذا القول نعرف
أنهم جاءوا من إيران ، ومن المعلوم أن إيران قد وردت منها عدة سفارات في
هذه الأيام ، لأن الحديث عنها يوجد في تاريخ الصين ، فثلا في سنة ١٠٢٣ م

جاءت منها سفارة عن طريق البر فوصلت أولا إلى كاتون ، ثم إلى العاصمة . وقد قيل أن السفارة الإيرانية قد وردت للمرة الرابعة في ١٠٥٥ م وكان رئيسها أبا سعيد . وكان رجلا فاضلا ، نال منزلة عالية عند الإمبراطور حتى وظفه في الحكومة وجعله مديرا لإدارة التوظيف والخدمات في مدينة وونينغ ، وهي (نانشانغ Nanchang) الآن .

وجاء في تاريخ الصين حديث عن سفير اسمه سعادت نور ، كان مأمورا في سنة ١٠٦٨ م في إدارة المراقبة على الأجانب فترقى إلى منصب القاضي بكاتون . ويظهر أنه كان ذا ثروة وافرة ، فاقترح تحسين مدينة كاتون ، على نفقته الخاصة ، فلم يقبل صاحب المدينة ذلك ، وفي سنة ١٠٧٤ م بعث شخص من رؤساء تبريز ، وقد حفظ تاريخ الصين اسمه في رسم « أبي تبريزي » ، ابنا له يسمى محمودا إلى عاصمة الصين لتقديم الهدايا إلى الإمبراطور وكان يلبس الملابس العربية ، كما ورد في « علاقة الصين القديمة بالعرب » ، وفي نفس السنة ، وردت سفارة من الموصل ومن ملابار ، ويذكر تاريخ الصين أيضا وصول سفارات إسلامية في سنة ١١١١ و ١١٢٩ و ١١٣١ م . لكنه لم يذكر من أية بلاد كانت ، ولا أسماء الرؤساء وأغلب الظن أنهم جاءوا من العرب الذين كانوا بالبلاد المجاورة للصين .

هذا من جهة العلاقة الدبلوماسية بطريق البحر ، وأما من جهة طريق البر ، فقد نقل مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » ، عن تاريخ (كين) قائلا — أن سفير الدولة السامانية قد ورد إلى عاصمتها بشمال الصين في سنة ٩٢٤ م . ثم ورد في سنة ١٠٢٠ م ، أتى بالفيل هدية إلى ملوك (كين) ويطلب يد ابنته لأحد الأمراء السامانيين ، ففي سنة ١٠٢١ م ، جاء السفير مرة أخرى إلى عاصمة (كين) للقرض المذكور ، فجز أميرة من بنات (هوسيلي) وهو أحد الأمراء الكبار ، إلى الدولة السامانية وزوجها بابن سلطانها .

فمملكة (كين) المعروفة في تاريخ الصين قبل أيام المغول ، هي التي اشتهرت في الكتب العربية باسم « ماصين » ، وفي الكتب الفارسية باسم « ماچين » .

وكانت لها علاقة متينة بالدولة السامانية منذ يوم تأسيسها بأواسط آسيا، وكانت في بادى الامر منحصرة في ناحية التجارة التي أشرنا اليها من قبل ثم اتسعت الى الناحية السياسية والدبلوماسية، فقد جاء ذكر هذه الناحية في السكتب العربية فضلا عن السكتب الصينية، ولعل أبا دلف مسعر بن مهلهل الينبعي، هو أول العرب الذين كتبوا عنها ثم نقل عنه ياقوت والقزويني، وأما أبو دلف هذا، فكان رئيسا لبعثة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني الى أمبراطور (كين) بسندابل، ومن كلامه أن ملك الصين واسمه قالين بن الشخير هو الذي بعث رسولا الى نصر بن أحمد أولا، راغبا في مصاهرته وطامعا في مودته، وكان يريد أن يخطب ابنة نصر لابنه، فأبى ذلك نصر واستنكره لحظر الشريعة زواج المسلمة من غير المسلم، غير أن قالين استرضاه بنزيج بنته بابنه، فأجاب الى ذلك فأتته أبو دلف هذه الفرصة وقصد بلاد الصين على رأس بعثة دبلوماسية لنصر بن أحمد الى أمبراطور (كين)، فسلك بلاد الأتراك التي ذكرتها عند ما تكلمنا عن تجارة البر الى الصين، حتى وصل مع رفاقه الى مدينة سندابل، وبها دار الملك قالين. فعرض الرسول عليه ما جاء لاجله وهو طلب يد بنت قالين لنوح بن نصر، فأجابه الى ذلك، وأحسن مثنوى أبي دلف ومن معه من الرجال، وأقاموا عنده ضيوفا مدة، حتى أنجزت أمور المرأة وتم تجهيزها، فسلمها اليه يرافقها نحو مائتي خادم وثلثمائة جارية، فحملت الى نوح بن نصر بخراسان تزوجها^(١) فتولدت عن هذا الزواج علاقة متينة بين دولة السامانيين وبين مملكة كين بشمال الصين.

ونظرا الى أن عهد حكومة نصر بن أحمد استمر من سنة ٩١٣ الى ٩٤٤ م، وأن عهد حكومة نوح بن نصر، كان من سنة ٩٤٢ الى ٩٥٤ م، نعتقد أن هذا الزواج قد وقع بعد سنة ٩٢٠ م. لان تاريخ الصين قد ذكر وصول سفارة من الدولة السامانية في سنة ٩٢٤ م، ومن الجائز أن هذه هي بعثة الخطبة على رغم سكوت تاريخ الصين في هذا الامر. وأما خطاب سلطان سامان الى أمبراطور الصين يطلب

(١) ياقوت ج ٥ - ٤١٤

فيه بدأ ميرة صينية لابنه في سنة ١٠٣٠ م ، فمن الظاهر أنه جاء من آخر سلاطينها وهو أبو ابراهيم بن إسماعيل بن نوح الثاني الذي تولى أمور الدولة بعد وفاة عبد الملك في سنة ١٠٠٥ م . عندئذ تغلب على أمرهم الأوغرة الذين كانت لهم يد بيضاء في نشر الاسلام في تركستان الصينية وذلك قد بيناه في كتابي « الاسلام و تركستان الصينية » .

ويظهر المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ، تحول مجرى العلاقة بين الصين والعرب إلى ما بين الصين والامم التي خضعت لسيادة المغول . فانقطع تاريخ الصين عن ذكر وصول سفراء الغرب لكنه ظل يدون حركات السفراء من الممالك الإسلامية إلى الصين فالسفارات التي جاءت إلى بلاد الصين في عهد (يوان) (١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) ، حينما سيطر آل جنكيز عليها وعلى أغلب الممالك الإسلامية في الشرق الأوسط والادنى ، وكان أكثرها من خراسان ويران وقد وردت من الهند في بعض الأحيان فالتفاصيل عن هذه السفارات قد توجد في المصادر العربية والفارسية ، فضلا عما ذكر في المصادر الصينية .

ولقد سبق الكلام عن البعثة التي أرسلها محمد خوارزم شاه ، إلى بسكين ، برياسة بهاء الدين الرازي عند ما كنا نتكلم عن العلاقة التجارية ، وكان ذلك للاطلاع على الأحوال التي كانت سائدة في الصين بعد استيلاء المغول عليها . فأرسل جنكيز خان أيضا بعثة برياسة محمود الخوارزمي وعلى خراجة البحاري ويوسف الاترازي كما ورد في النساي ، ردا لسفارة محمد خوارزم شاه . وحملوا هدايا ثمينة نفيسة إليه ، باسم جنكيز خان . وكان ذلك قبل حادثة الاترار التي وقعت في سنة ١٢١٨ م فلما انقسمت الامبراطورية الجنكيزية إلى أربع دول ، بعد وفاته بين أبنائه الأربعة . وصارت بلاد الصين من نصيب قبلاي خان وكانت العلاقات الدبلوماسية بين الصين وأمراء المغول في أواسط آسيا والعراق قد توثقت بأواصر المصاهرة فتبادلت السفارات بين قبلاي خان ، صاحب (خانباق) وبين هلاكو بالعراق ، تهمة كل واحد للآخر ، بمناسبة فوز الاول في فتح الصين ، والثاني في

الاستيلاء على العراق ؛ غير أن هذه التهنئات لاتهمنا كثيرا ، إذ لم يكن أحد منها مسلما . والسفارة التي تمنا جدا ، هي ما جاءت من آباقة خان بن دلاكو ، لخل قبلاي خان على اضطهاد المسلمين واستنكار حركاتهم في الصين ، وكان السبب في ذلك أن بعض المسيحيين الذي نالوا نفوذا عظيما عند دلاكو وقد تزوج من امرأة مسيحية^(١) ، قد وسوسوا الى آباقة خان وقالوا : أن في القرآن ، وهو كتاب المسلمين المقدس . آية تأمر بقتل المشركين ونصها هو واقتلوا المشركين حيث وجدتمهم^(٢) ، فكانت هذه الدسائس حُرمت كثيرا من المسلمين ، من الخدمة في قصر المغول بيران . فبعث سفارة خاصة بناه على إشارة المسيحيين المقربين إليه ، إلى خانباق ، ليخبره بما وقع في القرآن من آية خطيرة على حياة المغول . ونصحه بأخذ الحذر من المسلمين دائما . لأنهم يرون أن قتل المشركين فرض يأمرهم به القرآن . فكان لهذه السفارة أثر عظيم في نفس قبلاي خان . وكان يتساهل في الأمور الدينية على اختلاف مبادئها وعقائدها . فتغير دفعة بعد وصول هذه السفارة ، واتخذ موقفا حازما في اضطهاد المسلمين في الصين - أمرهم باتباع اليساق (الاحكام الجنكيزية) في أمر الزواج . وأنزل الأئمة من المنابر وأكره المسلمين على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول ولم يفكر قبلاي خان في هذا الحكم القاسي ، إلا بعد سبع سنوات . وكان ذلك بسبب قلة ورود التجار المسلمين من الخارج فنقصت إيرادات الدولة إلى حد لا يحتمل فقدم على ما فعل بالمسلمين ورفع عنهم هذا الحكم الظالم القاسي بالغائه وأتى لانتناول هذه النقطة ببعض التفاصيل ، إن قدر لي أن أكتب تاريخ الاسلام في الصين ، في الأيام المستقبلية .

ويظهر من تاريخ المغول أن آل جنكيز ، ولو انفرد كل واحد بدولة مستقلة ، يعترفون بسلطة الخان الأعظم عليهم . فينظرون الى أوامره ونواهيه بعين التعظيم والاحلال . ويقبلون تبريكه ، اذا خلف أحد منهم أباه في الامارة والحكم . ومادام جنكيز خان حيا ، كان هو الخان الأعظم (القان) فأنعم على أولاده

(1) Arnold : The Preaching of Islam. P. 22

(٢) أو اق مغول ص ١٦٤

بمباشرة من الألواب فلقب هذا ؛ ملك العراق وذلك ملك الصين . فلما مات عنهم ، خلفه منغوخان في عظمة الخانية ، واتخذ مدينة قراقرم عاصمة له وأنعم باللقاب على أمراء المغول الذين بأسيا الوسطى والمشرق الأدنى . لجأ هذا الحق من نصيب قبلاى خان الذى تملك أرض الصين سييدا علمها منذ سنة ١٢٧٧ م . وكان له معاصر فى إيران ، اسمه آراغون خان الذى ارتقى العرش بعد تاقودارخان فبعث قبلاى خان سفيرا خاصا اليه ، يسمى « أورد وقتا » كما ورد فى « مطلع السعدين » وكان ذلك فى سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م ايقلده المنصب الملكى على العراقيين العربى والعجمى رسميا . وبعد عدة أسابيع وصل وزير من المجلس الامبراطورى الاعظم معروف باسم « جنكسانك » فولاد الى إيران فأقام فى سراى منصورية بالاران Arran وكانت هذه المدينة عاصمة المملكة المغولية بالعراق وبها يقيم وكلاء الصين السياسيون الذين يمثلون الخان الاعظم فى قصور أمراء المغول فى إيران ، أثناء حكم آراغون خان وغازان خان وأولجايتو خان . وكان يرافق هذا الوزير مترجم يسمى عليا ، وكان من المبعوثين أيضا (١)

وفى آخر عهد آراغون خان ، أنعم الخان الاعظم المقيم بدائد و (٢) على غازان خان فى سنة ١٢٩٠ م بلقب « جن يوان وانغ » 清遠王 ، أى أمير التأمين للبلاد النائية فبعث لاجل هذا الغرض سفارة خاصة

فالسفارة الرسمية التى وقعت لأول مرة بين امبراطور المغول فى الصين وبين غازان خان ، حين تولى مقاليد الحكم على إيران بعد وفاة أبيه آراغون خان ، كانت فى سنة ٦٩٧ - ١٢٩٨ م . ولقد دون الوصاف هذا الواقع فى كتابه « تزجية

(١) جاء فى « مطلع السعدين » هكذا - جو آراغون بسراى منصورية أران رسيد ، أمير فولاد جنكسانك وعلى كلمجى وديكر ايلجيان ازبندكى قآن برسيدند . . . وييست وهشتم ذى الحجة سنة ٦٨٤ هـ أورد وقتا أزنبدكى قآن برسيد ويرليغ آوردكه آراغون بجای يدر خان باشد .

(٢) العاصمة العظيمة والمراد هو « خانبالق »

الأمصار ، عند ما تكلم عن علاقة إيران بالخان الأعظم بخان بالق . ومن كلامه يظهر أن هذه السفارة كانت مكونة من عضوين : هما نخر الدين أحمد وبوقا ايلجى فذلك يقول : أن غازان خان العادل بعث في سنة ٦٩٧ هـ - ١٢٩٨ م ، نخر الدين أحمد وبوقا ايلجى ، سفيرين الى تيمور خان مع هدايا من جواهر وثياب وموشاة وحرير وفهود - جديرة بالقبول لدى ذاته الخانقانية . فأنعم عليهما بعشرة آلاف تومان ذهب كرامس مال للتجارة ، وكان نخر الدين قد جهز جميع الأشياء اللازمة للسفر بحرا بالمراكب والجنود . فشحنها بمتاجره الخصوصية من جواهر والآل . وأتمعة أخرى لأقربائه وأصدقائه ، ولشيخ الاسلام جمال الدين في بلاد الخانقان . وكانت ترافقه في هذا السفر البحري فرقة عسكرية من الرماة المشتملة على الاتراك والإيرانيين . وكان الطريق مخوفا في البحر ، فشمع أن حياته وحياء رفاقه في المراكب وما مهمم من الأموال ، معرضة لتلف بين عشية وضحاها ، مهددة كل ساعة على وجه الماء ، فلما قدموا أخيرا حدود الصين ، اتصلوا بالمأمورين والموظفين . فأوصلهم محطة بعد محطة على حسب عادة بلاد الخان . وجمروهم بالخيام والحاجات الأخرى اللازمة للطريق . ولم يكفوا شيئا من الرسوم أو الضرائب حتى وصلوا الى « أردو » ، وهى الرباط الامبراطورى بدائد وبقرب خانباتق .

« يقول الوصاف ، أن تيمور خان كان ملازما الفراش مريضا في ذلك الوقت . لكن الوزراء الأربعة الكبار قد حضروا مجلس الاستقبال وجلسوا على المقاعد الذهبية بجانب السجادة الامبراطورية في عزة وهيبة . وأما بوقا ايلجى الذى ظن أن سلاما محضا كان يكفى في المقابلة الأولى بدون الجثو أمامهم ، كما هى العادة في قصر المغول بالصين فقاموا باحتجاج شديد على تقصيره في الآداب الرسمية عند المقابلة التشريفية .

لكن بوقا - وكان حاضر الذهن ، فصيح اللسان - أجاب في الحال : « أن الامبراطور ، يحذرنى من الجثو أمام أى ركن من أركان الدولة ، أو أمام أى نبيل

من بيوت النبلاء، حتى أرى وجه الخانقان المبارك، آية الرفاهية والهناء. فأجازوا بعدئذ، دخولهما على تيمور خان ومقابلتهما له شخصيا. فعرضا عليه الهدايا النادرة التي كلفهما غازان خان تقديمها إليه فاستلمها بالشكر والثناء. وأما المتاجر التي كانا يحملانها في المراكب، فقد وضعت أمام الامبراطور، فأعجب بها غاية الاعجاب. فأصدر مرسوما في وقته بتجهيز المنازل والطعام والسياب والخدام للسفيرين ومن معهما من العساكر والاصدقاء، بمناسبة الفصول الأربعة. وأمر أيضا بوضع خمسة وأربعين من الخيل تحت تصرفهم.

ولقد مكثا في الصين أربع سنوات ثم ودعوهما في سنة ٧٠٢ هـ - ١٣٠٢ م توديعا عظيما. نظويا على المحبة والاحترام. ومنح الامبراطور نجر الدين بنتا من بنات الأمراء. وعلى يده أرسل رسالة الود وهدية الصداقة الى غازان خان، مصحوبة بالمنسوجات الحريرية التي كانت وقعت في نصيب هلاكو خان وبقيت في الصين منذ زمن ما لغوخان ولم ترسل الى صاحبها حتى يومنا هذا. وفي رواية أخرى أن تيمور خان قد كلف سفيرا خاصا بالسفر الى إيران في مركب خاص، لا لبلاغ صداقته واحترامه الى غازان خان.

فأبحر نجر الدين بعد نبيل الاكرام الذي سر به غاية السرور، من عند امبراطور الصين، مصحوبا بسفير خاص من تيمور خان وثلاثة وعشرين مركبا، فيها أمتة نادرة هدية لصاحب إيران وأمراتها. فمات سفير تيمور في الطريق عن يومين الى معبر، وكذلك نجر الدين، فدفن بمعبر بجانب مقبرة عمه. وكانت وفاته كما أخبرنا الوصاف، قد وقعت في سنة ٧٠٣ هـ - ١٣٠١ م^(١)

وأما تيمور خان الذي خلف قبلاي خان على أرض الصين، فقد بعث سفارتين في حياته الى إيران فكانت إحداهما في رد زيارة السفارة الإيرانية المذكورة. وأما الثانية فكانت في سنة ٧٠٥ هـ - ١٣٠٣ م للأنعام على خدابنده بلقب دكوان نينغ وانغ 廣寧王 أي أمير الأمن للأرض الواسعة. وقد قيل

أن سفارة قد وردت من إيران في سنة ٧١٤ هـ - ٣١٢ م ، لكن أغراضها غير معلومة عندنا لسكوت التاريخ عنها .

ولقد ذكر رشيد الدين فضل الله في تاريخه أميراً من أمراء جغتائين ، اسمه ايسن بوقا . فرجع لواء العصيان على الخان الأعظم ، وخرج على خراسان بين سنة ٧٠٣ هـ - ٧١٥ هـ . فرجع أعضاء السفارات التي كانت مبعوثه من خانبالوق إلى طورس ، في بده وقاسوا منه ما قاسوا من قسوة وظلم يعجز القلم واللسان عن وصفها وما هوذا الذي وحدناه عن هذه الواقعة في تاريخ رشيد الدين

« ايلجيان قاآن كدر ملك أو بودند ، تمامت را بکرفت . أول توقيمه اور جنکسانک را که قاآن بردست او خاتونی جهت أالجائیتو سلطان می فرستاد بهزار پانصد سر او لاغ ایشارا بولایت فرغانه بشهر اندکان (اندجان) کردانید و ایلجیان دیکر که از ختای رسیده بودند و چرخ رستمار و دیگر ظرائف بیش الجائیتو سلطان می آورند بستند . و ایلجیان را بکا شغر فرستاد و مقید و محبوس کرد

در اثنای این حالت ایلجیان قاآن مقدم ایشان فولاد جنکسانک باهفتاد نوکر از حضرت الجائیتو سلطان بازگشتند بودند ، بر عزیمت قاآن بابایلکهای و تنسوقهای ایران زهین بالوس ايسن بوقا رسیدند . از غایت غضب و خشم ایشان را تمامت هلاکت کرد و هر چه داشتند تمامت تاراج نمود ، و الترجمة هی کما بلی : « کان فی مملکتہ (ايسن بوقا) سفراء الخان الاعظم . فقبض عليهم اجمعين .

وفي أول الامر كان توقيمه اور الوزير الذي قد بعث الخان الاعظم على يده ، أميرة الى سلطان الجائيتو ، أرسله ايسن بوقا ، والأميرة إلى أندجان بولاية فرغانه تحت مراقبة ألف وخمسمائة فارس ، وأما السفراء الآخرون الذين وردوا من بلاد الخطا ، وقد حملوا معهم النسور وطيور الصيد والبضائع النفيسة إلى السلطان الجائيتو ، فمنعهم ايسن بوقا عن السفر ، وأرسلهم إلى كاشغر فالتقاهم في الخميس .. أثناء هذه الأيام ، رجع سفراء الخان الأعظم ، وفي مقدمتهم فولاد الوزير ، مع سبعين خادماً من جهة السلطان الجائيتو ، قاصدين القآن ، حاملين

التحف والهدايا النادرة من حاصلات أرض إيران . فاغتناظ منهم أيسن بوقا واشتد حتى أهلكتهم جميعا وسلب جملة ما كان معهم من الأموال .. (١)

وبعد نحو ١٢ سنة من هذه الحادثة ، في عهد أبي سعيد بهادر خان ، أرسل أيسون تيمورخان أمبراطور الصين ، سفارة إلى أمير شهر يعرف باسم « چوپان » ، في سنة ٥٧٢٦ هـ - ١٣٢٤ م وكان هذا قد سافر من بغداد إلى هرات ، لأنه اغتناظ من السلطان أبي سعيد ، بسبب السلام الذي يتعلق بابنته بغداد خاتون . فتركة وتوجه إلى هرات . فتبع سفير الصين أثره هناك حتى وجده وقدم إليه رسالة ودية من أمبراطور الصين ، وأنتم عليه بلقب « أمير الآراء » في مملكة إيران وتوران . فاستقبل السفير بكل إجلال ، وودعه بفاتق الإكرام .

وبعد بضع سنوات ، لما هجره الجيوش الذين كان يقودهم إلى قتال أبي سعيد ، سافر إلى ما وراء النهر مع قصد الاستغاثة من أمبراطور الصين في استرداد إيران إلى ممتلكاته من يد أبي سعيد

في زمن ابن بطوطة كان أمير خوارزم ، أميرا كبيرا يسمى قطلودور (أي الحديد المبارك) ويظهر من الإشارة التي نجدها في رحلة ابن بطوطة ، أنه كانت له علاقة بأمبراطور الصين وكانت الفواكه اليابسة تحمل من بلاده إلى مملكة القآن وكان مع ابن بطوطة من سار إلى خوارزم ، شريف من أهل كربلاء ، اسمه علي ابن منصور . فعزم على السفر معه إلى الهند : ثم أن جماعة من أهل كربلاء وصلوا بقصد السفر إلى الصين ، فسافر معهم ؛ نعم أن ابن بطوطة لم يذكر غرض سفر هذه الجماعة ، لكن الظن الغالب يذهب بنا إلى الاعتقاد بأن لهم مهمة ضرورية حملتهم على سفرهم إلى الصين لغرضها ، فلذا سافروا

ثم سفر ابن بطوطة إلى الصين في سنة ٧٤٣ هـ - ١٣٤١ م ، لم يكن بصفته سائحا جوالا بل كان بصفته سفيرا من قبل تغلق شاه ، صاحب الهند إلى أمبراطور

(1) Blochet : Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadliah Rachideddine p. 234.

الصين وهو (هيون - تي Hyun - Ti) (١٣٣٢ - ١٣٦٧ م) ، آخر ملوك المغول من آل قبلاي خان ، وكان السبب في ذلك أن ملك الصين قد بعث إلى تغلق شاه ، مائة مملوك وجارية وخمسة ثوب من الكتخاب وخمسة أمنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجواهر وخمسة من التركش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من تغلق شاه ، أن يأذن له في بناء بيت الاصنام الذي كان بسمهل واليه يحج أهل الصين ، وتغلب عليه جيوش الاسلام بالهند ، فخرّبوه ، فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان تغلق شاه ، كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الاسلام لسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية . فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه والسلام عل من اتبع الهدى .

فكافأه على هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة وملجمة ومائة مملوك وجارية من كنفار الهند ، مغنيات ورواقص ومائة ثوب برلية ، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن ، فقيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالخز وهي التي يكون أحد طرفيها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحيية ، ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف ، وخمسةائة ثوب من المرغن مائة منها سود ومائة منها بيض ، ومائة منها حمر ، ومائة منها خضر ، ومائة منها زرق ، ومائة شقة من الكتان الرومي ، مائة قطعة من الملف وسراجة ، وست من القباب ، وأربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كتلها ، وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه ، لإحداها مرصعة بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع القمد بالجواهر وقفاز مرصع بالجواهر وخمسة عشر من الفتيان .

فبعين السلطان للسفر مع ابن بطوطة بهذه الهدية ، الأمير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء أهل العلم والفتى كافورا (الشربدار) واليه سلم الهدية وبعث معهم الأمير محمد المروري في ألف فارس ، ليوصلهم إلى قاليقوت ومنها يركبون إلى

الصين، وكان في مرافقتهم وسل، ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي، وخدمهم نحو مائة رجل، فانفصلوا في محطة كبيرة وأخذت كل جماعة طريقا.

كان سفر ابن بطوطة من دهلي في السابع عشر لشهر صفر سنة ٧٤٣ هـ - ٣٤١ م، لكنه لم يذكر تاريخ وصوله إلى الزيتون، وأغلب الظن أنه قدم هناك بعد ثلاث سنين، لأنه قد أقام بجزيرة مالديب نحو سنتين عند سلاطها، فالدة التي قضاها في البلدان المختلفة بين قاليتموط والزيتون، لا تقل عن سنة. وعلى هذا نحن نعتقد بأنه قد وصل إلى الصين في سنة ٧٤٧ هـ - ١٣٤٥ م، وكانت مدة إقامته في الصين لم تتجاوز سنة كاملة، لأنه قد مر بالشام راجعا في سنة ٧٤٩ هـ ٣٤٧ م.

وكان ابن بطرطة آخر سفير من دول إسلامية إلى ملوك المغول بالصين ورجوعه انغلاق باب العلاقة الدبلوماسية بدولة يوان، التي زال حكمها من أرض الصين بعد ربع قرن من ذلك التاريخ. فجاء عليها صاحب جديد، غير من كان عليها وكانت لهذه الأسرة الجديدة علاقة متينة مع الممالك الإسلامية. وسنراها في الفصل التالي.

(ب) العلاقة الدبلوماسية في عهد (منغ) ٣١٨ - ١٦٤٣ م

أن الأسرة الحاكمة التي أسست في ديار الصين بعد آل قبلاي خان، هي أسرة (منغ) (Ming) حكمت الصين نحو ثلثمائة سنة ومضى منها أربعة عشر ملكا، فكان المؤسس لهذه الأسرة العظيمة هو (منغ تائي جر (Ming Tai - Tsu) الذي استمر عهده الزاخر من سنة ١٣٦٨ إلى سنة ١٣٦٨ م.

من بين ملوك هذه الأسرة، أفراد مشهورون منهم جن جونغ (١٤٠٢ -

١٤٢٤ م) دسي جونغ (١٥٢٢ - ١٥٦٦ م) وونين جونغ (١٥٧٢ - ١٦١٩ م) وأما صوان جونغ (١٤٢٦ - ١٤٣٥ م) فلو أنه لم يحكم الصين إلا عشر سنوات

لكونه أوجد في عهده الوجيز ، علاقة مع الدول الإسلامية التي بأواسط آسيا
وغربها ، أوثق مما كانت عليه في عهد أسلافه وخلفائه .

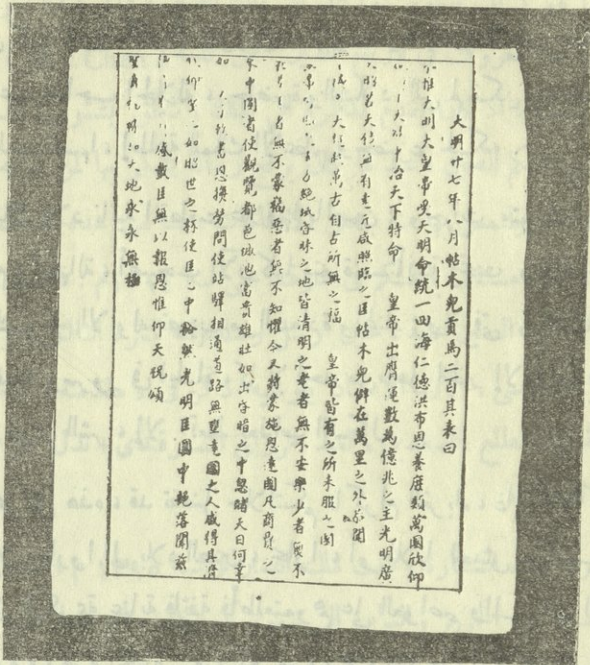
وهذا هو العصر الذي ازدهر فيه الإسلام في الصين فظهر أثر هذا الازدهار
في كل ناحية من النواحي . في ناحية العلم والتفكير ، وفي ناحية الأمور السياسية
والخارجية ، وفي ناحية الصناعة والفن ، والناحية التي تهتمنا هنا هي ناحية العلاقة
الدبلوماسية مع الدول الإسلامية ، فلذا نخصص هذا الفصل للبحث عنها ونترك
النواحي الأخرى إلى مواطنها من هذا البحث .

ونظرة خاطفة إلى الأمور الخارجية لهذا العهد ، تكشف لنا أن علاقات أسرة منغ
بالدول الإسلامية قد اتسعت إلى أكبر حد لم يبلغه أي عصر من العصور السابقة
لأن دائرة علاقات (تانغ) و (سونغ) كانت منحصرة في الخلفاء بدمشق وبغداد
وفي أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان كما كانت علاقات (يوان) منحصرة في
ملوك المغول بإيران وواسط آسيا ؛ وأما علاقات منغ التي نبينها الآن فكانت
تصل بمصر وعدة أمارات بشرق أفريقيا ، فضلا عن الرابطة التي قامت بينها وبين
الممالك الإسلامية السابقة الذكر ، وإن الشواهد التاريخية من المصادر الفارسية تنطق
بوجود علاقة ودية ورابطة دبلوماسية بين أسرة منغ و تيمور كوركان وبنيه فقد
تبادلت عدة سفارات بين ملوك منغ وآل تيمور بسمرقند وهرات

ومن المعلوم أن أمراء المغول فيما وراء النهر وإيران كانوا مستقلين ، إذ كان
قبلاي خان وأولاده لا يزالون على عرش الصين لأنهم كانوا من أسرة واحدة ،
وليس من الصعب أن يعترف كل واحد منهم باستقلال أخيه في دائرته الخاصة .
لكن ملوك منغ ، الذين أخرجوا آل قبلاي خان من أرض الصين وردوا الحكم
إلى أيدي الصينيين بأمر السماء ، لم يرضوا باستقلال أمراء المغول في تركستان وآسيا
الوسطى فأخضعوهم إلى طاعتهم وكان تيمور كوركان صاحب سمرقند في أول الأمر
أيضا يخضع لحكم منغ تائي جو

وبناء على ماورد في تاريخ منغ أن سمرقند وبخارى وهرات وكشمير ، كانت تطيع الصين في أول عهد (هونغ - وو) فكان أصحابها يرسلون الاتارة والخراج والهدايا الى منغ تائي جو ويقول هذا المصدر أن صاحب سمرقند كان في ذاك الوقت هو تيمور كوركان وسماه الصينيون ، فوما تيمور ، ولقد أرسل في حياته ثلاث سفارات الى الصين . وكانت الأولى في سنة ١٣٨٧ م ، برئاسة مسلم كبير معروف باسم (ملا حافظ) قد أتى معه بـ ١٥ جوادا وناقتين ، هدية الى منغ تائي جو فأكرمه بالغ الاكرام وأنعم عليه بشمانية عشر متقالا من الذهب الابيض ومن تلك السنة ظل تيمور كوركان يهادى ملك منغ بالخيول والابل سنويا . وأما السفارة الثانية فكما ذكرها تاريخ منغ ، كانت في سنة ١٣٩٢ م . فالهدايا التي جاءت بها هذه البعثة كانت مشتملة على ست قطعات من البرنيان وتسع قطعات من ثياب الصوف وشالين أحمرين ، وآخرين أخضرين ، وكمية كبيرة من التبر والسيوف والسكاكين وآلات حديدية أخرى .

والسفارة الثالثة التي وصلت في سنة ١٣٩٤ م وعلى رأسها ، كما ذكر في كتاب الاستاذ بلوشيه ، مقدمة تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله ، محمد درويش برلاس ، أتت بماتى جواد ، هدية الى امبراطور الصين ومعها رفعت رسالة مقدمة من تيمور كوركان الى سدته العالية وتعرف من هذه المقدمة ، أن تيمور كان يعترف بسيادة امبراطور الصين عليه فلذلك يقول :



نص رسالة المقدمة ، التي رفعت الى امبراطور الصين
(دائمينغ) من تيمور كوركان ، صاحب سمرقند ١٣٦٤ م

تبرك بالملك المعظم (دائي مينك) ، الذي وحد بأمر الله ، الجهات الأربع ،
ووسع على الانام الخير والنعمة ، وأنعم على العوام اللطف والرحمة الذي يدين له
الملوك بالسمع والطاعة ، والذي ينظر اليه السلاطين بالاجلال والاحترام فالحق
الاعلى الذي أراد تأمين الدنيا ونصب لواء السلم مرفرفا على أهلها ، قدر للملك
المعظم ، أن يكون قطبا للجماهير يدور حوله كل قريب وبعيد ، ونبراسا لاهل
البلاد الشامعة ، ينير كالشمس ، جميع أرجائها الواسعة .

فأنا تيمور الذي يقطن بعيدا بعشرة آلاف ميل قريبا وراء الجبال ، قد سمعت
عن عظمة لطف صاحب الجلالة ، وسعة كرمه كأنه سيل يجري على الوضيع والرفيع
أو كأنه فيضان يعم القريب والبعيد لاحد له ولا قيد وليس له في الزمان نظير .

فالسعادات التي كان الملوك القدماء محرومين منها ومعدومة لدى سلاطين هذا الزمان كلها موجودة عند صاحب الجلالة ، حاضرة والبلاد التي لم تكن خاضعة لحكم الصين ، قد سلمت نفسها ، إطاعة للملك الأعظم وخضوعا لحكمه .

وكانت هناك بلاد نائية انقطعت علاقتها بالصين ؛ وجهات متوحشة ، غاص أهلها في الظلام والجهالة ، أصبحت الآن كلها منيرة مستأنسة تحت رعاية جلالته فلا أحد من الشيوخ الا وله نصيب من السعادة والهناء ؛ ولا فتى من الفتيان ؛ إلا وله حظ من غبطة وسرور في الحياة ، كما لا أحد من أهل الخير إلا نال أوفر جزاء ولا عامل من ذوى الشر ، إلا أعظم بعذاب النكال

وعلاوة على كل هذه ، قد تفضل جلالتهكم باكرام الغرباء ، غاية الاكرام . فالأجانب الذين صاروا الى بلاد الصين ، تجارا ، أو طلابا للعيش وكسب المال لقوا من ذاتكم الكريمة عناية فائقة فأطعمتموهم على العواصم والمدن التي فيها ابتسامه الحضارة وزهرة الحياة . ما أكبر سرورهم ، عندما رأوا عظمتها ، وما أعظم غبطتهم ، حين مشوا بين اتسامات أزاهيرها . لقد اعتقدوا أنهم قد خرجوا من الظلمات فرأوا نور الشمس على جبين السماء . ثم الكتاب الذى وجهه جلالتهكم الى التجار ، لم يكن إلا نورا من العطف السامى ، يتجلى عليهم ففتحت الطرق واتصلت المواصلات فأهل البلاد القاصية معتبطون لهذا العطف الكريم متعشون الى مزيد فيض من القلب الجلالى الذى يكشف كل ما فى الخفاء ، كمثل كأس جميد لا يخفى عليه العالم وما فيه

بنور كرمك اهتدينا الى هناء وسعادة ، وبلطف عطفك ، عدنا الى رفاة ونعمة وأما القبائل التي فى مملكيتى فعند ما سمعوا هذا الخبر السار ، رقصوا طربا وفرحا وأما أنا عبدك الضعيف ، فليس عندى شيء أقابل به هذا الانعام السامى غير الدعاء لذات الجلالة الملكية بالتمتع بأطول العمر وأوفر حظ من السعادة وأقصى حد من السرور والنعمة

هذا هو كتاب تيمور كوركان الى ملك الصين ، داني منك ، وهو (منغ ثاني جو) كما هو معروف في تاريخ الصين ؛ فن كلمة (Chen : 臣) التي يستعملها الوزير لنفسه ، اذ كان يقدم مذكرة الى الملك ، تتعلق بشؤون الدولة ، أو أمير قد خضع للحكم الصين ، عند ما كان يرفع رسالة يشكر بها لمن فوقه من السلاطين والملوك ، أو يلتمس بها منه بعض الانعامات ، — من هذه الكلمة — نفهم أن تيمور لم يكن مستقلا بالحكم في سمرقند حتى سنة ١٣٩٤ م . فاضطر الى الاعتراف بسيادة ملك الصين عليه ، حين أرسل رسله إليه للمرة الثالثة ويؤكد هذه النظرية المصدر الفارسي . لأن الأستاذ بلوشيه ذكر في « مقدمته » : أن هناك رسالة محفوظة في « مطلع السعدين » ، لعبد الرزاق السمرقندي ، تدل على عدم استقلال تيمور في بلاده

وردا لهذه السفارة ، بعث ملك الصين في سنة ١٣٩٥ م ، سفيرا اسمه « فوآن » مع هدايا من الحرير والتياب الى تيمور كوركان . فعرضها عليه حين قابله على ضفة نهر جييجون .

كان خضوع تيمور لم يصدر عن نفس طيبة ، فلذا نراه يخرج على ملك الصين عندما قوى وفتح إيران وجزءا من جنوب روسيا . فقبض على تركستان وعزم على غزو الصين عن طريق بيش بالق . فعلم امبراطور الصين ذلك وأمر حاكم قانصو ، بالاستعداد للدفاع . لكن تيمور مات في سنة ١٤٠٥ م ، قبل تحقيق غرضه . وعندئذ انقسمت دولته الى قسمين بين ابنه وحفيده . فكان ابنه الرابع شاه رخ يحكم هرات ، وحفيده السلطان خليل يحكم سمرقند . وكان خليل هذا أبقى علاقاته الدبلوماسية مع الصين ، كما كانت في أيام جده . وأنه قد بعث خداداد في مرافقة « فوآن » ، الذي سافر الى سمرقند أيام حياة تيمور كوركان ، واستبقاه هناك حتى يوم وفاته ، الى عاصمة الصين مع هدايا من حاصلات مملكته . فقال سفير خليل عند ملك الصين حفا كبيرا من الاحترام والاكرام .

ثم أرسل ملك الصين سفيرا خاصا الى سمرقند لتقديم التعازى اليه في وفاة جده
تيمور وهاداه بما يناسب مكانة السلطان

ويذكر تاريخ الصين رواية أخرى وهي « أن شاه نور الدين ، أحد قواد
تيمور كوركان ، كان يقدم أيضا الخيول والابل هدية الى ملك الصين ، فأرسل
« فوآن ، مرة ثانية الى سمرقند ، ردا ل سفارة خليل ونور الدين فعاد في سنة
١٤٠٩ ، وكان معه سفير خليل ، يحمل الهدايا والتحف الى منغ تائي جو ، وبعد
ذلك كان السفراء يأتون من سمرقند مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات

وأن شاه رخ الذى تمكن من التربع على كرسي الحكم في هرات ، كان يرسل
بين الحين والحين ، سفيرا إلى ملك الصين ، فكانت علاقته مع الصين قوية وثيقة
ويظهر أنه قد أرسل سفارات إلى ملك الصين ، أكثر مما بعث أبوه اليه . ويذكر
المصدران : الصفيى والفارسى ، أن البعثة الأولى من شاه رخ الى الصين كانت في
سنة ١٤٠٨ م ، والثانية في سنة ١٤٠٩ م ، فالتمس برسالة رفعت الى ملك الصين
يد المودة والصداقة التى كانت موجودة بينه وبين أبيه تيمور كوركان ، فرد
الإمبراطور « داتى منك ، هاتين السفارتين ، ببعثة خاصة من بكين فى شهر المحرم
سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م مع رسالة أمبراطورية الى شاه رخ بهرات ، ولهدية
الرسالة ترجمة فارسية ، نجدها محفوظة فى « مطلع السعدين ، وماهى ذى ترجمتها
الى العربية .

« أن الله قد خلق جميع الخلائق ، ثم خلق ما بين السماء والأرض ، ليكون كل
واحد منها مستريحا فى « النعيم ورافلا فى الرفاهية مع تأكيد من أمر الله .

« لقد بنى الله لى ممالك على وجه الأرض ، أحكم عليها مطيعا لحكم الله ، أنى
لمت رجلا « يفرق بين القريب والبعيد أو النسيب والغريب ، بل أنظر الى جميع
الناس بعين المساواة والمحبة .

« لقد سمعت أنك حسن السيرة على الهمة ، كامل العقل ، مخلص النية ، أعلى
من أقرانك ، وأرفع من أتراكك ، حتى جعلت طاعة الله والعطف على الرعايا ،

والعناية بالعساكر والاحسان الى الزملاء وصلتهم ، سببا للسعادة ، ووسيلة الى الهناء . فلذا أرسلت سفارة خاصة لتلبسك و خلعة من الكمخاب ،

و لقد عظمت سفيري ، عند ما أرسلته للمرة الاولى ، فأكرمه لديك ، بعد وصوله اليك وأظهرت الولاء نحوى ففرح الكبار والصغار فى قصرى ، ثم بعثت ، ردا لسفارتى ، ببثه فى وقتها ، أنت بالهدايا ، والتحف من جياذ وأمتعة نفيسة من ديارك ، فأرى فى كل هذه علامة مودتك وآية صداقتك .

و نعم ، لقد وقع فى مسمى المدائح العاطرة ، والثناء البالغ عن عواهل مغول منهم والدك فوماتيمور ، الذى قد قبل إطاعى بأمر الله .

فهمت من الهدايا المقدمة الى ذاتى المحروسة ، ومن ورود السفارات منك البنا بين حين وآخر ، أن أهل بلادك كلهم فى راحة ورفاهية و جميع الأشخاص رافلون فى النعيم والهناء ، وأنت لتخطو خطوة أيبك الجليل ، همة وعملا ، وأما أنا فمن جانبى أرسل اليك « سوجو » ، و « دانك جينك » ، و « سون قونجى » ، لا لبلاغ تهنئى اليك ، والبأسك خلعتى من الكمخاب ، وما هى إلا رمز من رموز الصداقة ومظهر من مظاهر المودة ، فأبعث بعد هؤلاء أناسا آخرين لتقوية الروابط بالبعثات ، ومد الصللات وفتح طرق التجارة وتوثيق العلاقات الى ما يرام

وأما السلطان خليل فهو ابن أخيك ، فعليك أن تربيته تربية حسنة لا تفة وتودى واجبك نحوه ، بصفة أنك أخ لأخيك ، كما عليك أن تطيعنى بالاخلاص وصدق النية — واليك هذا (١)

من هذا السند التاريخى الذى حفظه حفظه لنا عبد الرزاق السمرقندى فى كتابه «مطلع السعدين» يتضح لنا ، أن ملك الصين « داقى منك » كان يعتبر تيمور كوركان وابنه شاه رخ ، من تابعيه ، فلذا قال لشاه رخ أن أباه قد أطاعه ، فيجب عليه أيضا أن يطيعه كما فعل أبوه .

لكن من الاساتيد الاخرى التي وجدناها في مطلع السعدين ، نفهم أن شاه رخ لم يرض بأن يكون تابعا لحكم الصين الى الأبد ، فأعلن استقلاله واهل هذا بعد سنة ۱۴۱۰ م ، لأن الرسالة التي بعثها امبراطور الصين الى شاه رخ في سنة ۱۴۱۹ كانت في غاية اللين والتواضع ولا نجد فيها تلك الكلمات التوبيخية التي كان يزرجه بها في الرسائل السابقة ، كوالد يزرع ولده ، أو حاكم أعلى يعاقب من تحته من المأمورين ، بل على عكس ذلك نرى فيها كلمات التفضيم والتعظيم

وبعد إعلان الاستقلال ، أرسل شاه رخ رسالتين إلى ملك الصين ، إحداهما باللغة العربية والأخرى بالفارسية. فشرح فيهما عقائد الإسلام ومزاياه ، ثم اسلام آباؤه وأسباب ذلك . وكان قصده بهاتين الرسالتين دعوة ملك الصين إلى اعتناق الاسلام ، واليك نصور الرسالتين بلغتهما الاصلية مع ترجمة عربية الى الرسالة الفارسية تفهيم لمن لا علم له بها ، وهي كما يلي :

الترجمة العربية

إلى حضرة الملك داي مينك ،
من السلطان شاه رخ ، سلامنا ،
لا كلام .

لقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام بحكمته البالغة وقدرته الكاملة وجعل بعض أولاده أنبياء ورسلا وبعثهم إلى الأمم ، ليدعوهم الى الحق . ثم أنزل الكتب على بعض الأنبياء منهم ابراهيم وموسى وداود ومحمد عليهم السلام فعلهم الشريعة وأمر خلق تلك الايام أن يعملوا شرائعهم ويتمسكوا

النص الفارسي

بجناب داي مينك بادشاه از
شاه رخ سلطان سلام ما ، لا كلام
چون خداوند بحکمت بالغة
وقدرت كاملة آدم را عليه السلام
بيافرید وبعض فرزندان اورا
بيغامبر ورسول کردانيد وایشانرا
بخلق فرستاد تا آدميانرا بق دعوت
کشند ، و باز بعض ازین بيغمبران
را چون ابراهيم وموسى وداود ومحمد
عليهم السلام کتابداد وشریعت تعليم کرد
وخلق آن روز کار را فرمود ، تا بشريعت

بعروة أديانهم . وكان هؤلاء الرسل
كلهم يجمعون على دعوة الناس الى
التوحيد وعبادة الله ونهيهم عن عبادة
الشمس والقمر والنجوم والسلاطين
والاوثان وكان لكل رسول من
هؤلاء الرسل شريعة خاصة كلها متفقة
على توحيد الله . فلهذا نال رسولنا
المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم نعمة
رسالته ودرجة نبوته نسخت جميع
الشرائع الاخرى وصار خاتم الانبياء
ورسول آخر الزمان . فعلى كل ساكن
في الدنيا ، اميرا كان او وزيرا ، غنيا
كان او فقيرا ، صغيرا كان او كبيرا ،
ان يعمل بشريعته ويترك الملل الماضية
وشرائعها . هذا هو الاعتقاد بالحق
والصدق . وأما المسلم فلا يعتبر الا بهذا
لقد خرج جنكيز خان قبل سنوات
فبعث بعض اولاده الى مالک وولايات
فسكان جوجى خان مبعوثا الى حدود
سراى وقرم ووادى قفجاق . وكان فى
تلك الجهات بعض الملوك مثل أوزبك
وجانى خان وأرس خان . قد اعتنقوا
دين الاسلام وصاروا يعملون على
شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وكان

ایشان عمل کنند وبردین ایشان باشند،
و مجموع این رسولان مردم را بدین
توحید و خد پرستی دعوت کردند .
و لزاقتاب و ماه و ستاره و سلطان و بت
پرستیدن بازداشتند . و هر کدام را
از این رسولان شریعتی مخصوص بود
اما همه بر توحید خدای متفق بودند
و چون نبوت رسالت و بیغمیری
بر رسول ما محمد مصطفی صلی الله علیه
و سلم رسید ، شریعتهای دیگر منسوخ
گشت و او رسول و بیغمیر آخر زمان
شد و همه عالمیان امیر و سلطان و وزیر
و غنی و فقیر و صغیر و کبیر را بشریعت
او عمل میباید کرد و ترک ملت
و شریعتهای گذشته میباید داد ، اعتقاد
بحق و درست اینست و مسلمانان عبارات
آزینست .

بیشتر ازین بچند سال جنکیز خان
خروج کرد و بعض فرزندان خود
دران ولایتها و مملکتها فرستاد چو جی
خان را بحدود سراى و قرم و دشت
قفجاق فرستاد . در آنجان نیز بعض
بادشاهان ، چون اوزبک و جانى خان
و ارس خان بر سر اسلام و مسلمانان
بودند و بشریعت محمد علیه السلام

میکردند. هلاکو خان بیلاد خراسان
و عراق و نواحی آن مقرر گردانید .
بس از آن بعضی از فرزندان او که حاکم
ممالک بودند ، چون آفتاب شریعت
محمد بردل ایشان (مشرق) بود
بر سر اسلام و مسلمانی بودند و بس عادت
اسلام مشرف گشته بآخرت رفتند .
چون بادشاه راست کوی غازان
خان و الجائتو سلطان و بادشاه سعید
أبو سعید بهادر خان تانوبت حکومت
و فرمانروائی و سلطنت و کامرانی به بدر
مخدوم امیر تیمور کورکان ، طاب
ثراه رسید ، ایشان نیز در جمیع ممالک
بشریعت محمد علیه السلام عمل فرمودند
و در ایام سلطنت و جهاننداری ایشان
أهل ایمان و اسلام هارونق هر چه تمامتر
بود آکنون بلطف و فضل خدا و ند
تعالی این ممالک خراسان و ماوراء النهر
و عراق و غیرها در قبضه تصرف ما
آمده ، در تمامت ممالک حکم بموجب
شریعت مطهرة نبویه میکنند و امر
معروف و نهی عن المنکر کرده و برغو
و قواعد جنکین خان مرتفع است
چون یقین و تحقیق شد که خلاص
و نجات در قیامت و سلطنت و دولت
در دنیا سبب ایمان و اسلام و عنایت

هلاکو خان مأمورا علی بلاد خراسان
و العراق . فولى بعض أبنائه حاکمین
علی تلك الممالک . فلما أشرقت شمس
الشریعة المحمدیة علی قلوبهم أصبحوا
مسلمین فعاشوا سعداء مشرفین
بالاسلام حتی ارتحلوا الی عالم الآخرة
فلما انتقل زمام الحکم الی يد السلطان
العادل غازان خان والسلطان
الجائیتو والسلطان أبی سعید بهادر
خان حتی وصل دور الحکومة
والسلطنة والحکم الی مخدومی والدی
الامیر تیمور کورکان ، طیب الله ثراه
کان يعمل أيضا فی جمیع الممالک علی
شریعة محمد علیه السلام وکان أهل
الایمان والاسلام فی ایام حکوماتهم
وصلوا الی أكمل درجة ، من العظمة
والرونق وأما الآن فبفضل الله وكرمه
قد وقعت فی قبضتنا ، بلاد خراسان
وما وراء النهر و العراق و غیرها من
الممالک . فالاحکام فیها كلها تجرى علی
ما تقتضیه الشریعة النبویه المطهرة .
وهی أمر بالمعروف ونهی عن المنکر
وأما نواهی جنکین و قوانینه فقد
رفعت . ومن المحقق والیقین أن الخلاص
والنجات فی الآخرة والسلطة فی الدنيا

ودولتها لا تكون الا بالايان
والاسلام وفضل الرحمن فواجب علينا
أن نعاشر الرعايا بالعدل والانصاف
والمساواة وأرجو من كرم الله وفضله
ان يوفقهم في العمل بشريعة محمد رسول
الله ، كما أرجو ان يقوى ظهر المسلمين
في هذه البلاد لكي تتصل سلطنة الدنيا
بسلطنة الآخرة و (للآخرة خير لك
من الاولى)

لقد وصل السفراء في هذه الايام
من عندهم وأتوا بالتحف والهدايا .
فتكلموا عن أمن البلاد وسلامة الحياة
كما تكلموا عن عمارتها فالمودة التي كانت
عليها مدارات الآباء موجبة قرابة الابناء
من جديد . فلذا نبعث من جانبنا محمدا
بخشي سفيرا اليكم ليلغكم خبر السلامة
ومن المقرر ان تكون الطرق مفتوحة
بيننا من بعد ليمكن التجار ان يروحوا
سالمين ويرجعوا آمنين . فان هذا هو
سبب تمير البلاد وسمة حسنة بين
الانام في الدنيا والآخرة . ونسأل الله
ان يوفقنا بالاتحاد في المراجعة والحفاظة
على الشروط وانصاف الرفيق في
الطريق .

تم

خداوند تعالی است بارعايت بعدل
وداد وانصاف زند کافی کردن واجب
است . امید بموهبت وكرم خدا وند
تعالی آن است ایشان نيز دران ممالک
بشريعت محمد رسول الله عمل کنند
ومسلمانی راقوت دهند ، روزه دنيا
بيادشاهی آخرت و للآخرة خير لك
من الاولى ، متصل کرد

درين وقت ازان طرف ايلجيان
رسيدند و تحفها آوردند سلامتی
ایشان و معموری أن ممالک که مقتند
ودوستی میان بدران بوده بر موجب
محبت الاباء ، قرابت الابناء نازه
گشت ما نيز ازين طرف محمد بخشي
ایلجی فرستاديم تا خبر سلامتی رساند
مقرر آنست که بعد ازين راههای
کشاده باشد تا بازرگان سلامت آیند
وروند که معنی سبب آبادانی مملکت
و نيکونامی دنيا و آخرتست . توفيق
رعايت اتحاد و مراقبت شرائط و داد
رفيق أهل طريق باد .

تم

الرسالة العربية

وأما الرسالة العربية التي قد حفظها لنا ، مطلع السعدين ، فهي ، كما وجدناها في مقدمة تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله ، للمستشرق الأستاذ بلوشة ، ما يلي بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله محمد رسول الله . قال رسول الله محمد عليه السلام ، لا يزال من أمي أمة قائمه بأمر الله لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : كنت كئيبا مخفيا ، فأجبت أن أعرف مخلقت الخلق لأعرف ، فعلم أن حكمته جلت قدرته وعلت كلمته من خلق نوع الانسان ايثار^(١) العرفان ، أعلاء اعلام الهدى والايمان وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ليعلم الشرائع والأحكام ومنن الحلال والحرام وأعطاه القرآن المجيد معجزة ليفحم به المنكرين ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام وأبقى بعنانيته الكاملة وهدايته الشاملة ، آثاره الى يوم القيامة ونصب بقدرته في كل حين وزمان وفرصة وأوان في أقطار العالمين من الشرق والغرب والصين ذا قدرة وامكان وصاحب جنود مجتدة وسلطان ليروج أسواق العدل والاحسان ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الامن والامان ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والطغيان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء ، وازاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في (الملة) الزهراء . فوقفنا الله تعالى بسوابق لطفه ولو احق فضله ، ان نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة وادامة قواعد الطريقة الزاهرة وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا في الوقائع والقضايا بالشرعية النبوية والأحكام المصطفوية ونبنى في كل ناحية المساجد والمدارس ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد لئلا يندرس أعلام العلوم ومعالمها وينطمس آثار الشريعة ومراسمها ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطانها واستدامة آثار الحكومة وايانها باعانة الحق والصواب واماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض لتوقع الخير والثواب . فالمرجو والمأمول من الجانب العسالي وأركان دولته أن يوافقونا في الأمور المذكورة

و یشاركونا فی تشیید قواعد الشریعة المعمورة، و برسلو الرسل و الفاصدين و یفتحوا المسالك للسائرين و التاجرين لیتأكد أسباب المحبة و الوداد، و یتعاضد وسائل المودة و الاتحاد، و یستریح طوائف البرایا فی أطراف البلاد و یتنظم أسباب المعاش بین صنوف العباد و العباد. و السلام علی من اتبع الهدی و الله رؤوف بالعباد^(۱)

ذکر عبد الرزاق السمرقندی بعد هذا، سفارتین آخرین من ملوک مغ إلى شاه رخ فی سنة ۱۴۱۷ و ۱۴۱۹ م ثم عدة سفارات من أمراء المغول فی ایران و هرات و سمرقند إلى الصين فی السنوات المختلفة. و لذلك یقول

بادشاه دای مینک باز ایلیجیان فرستاده در ماه ربیع الاول سنة عشرين و ثمانمائه (۱۴۱۷) رسیدند. ایشان تیماجین و توراجین و جاتیاجین و تنقیاجین، با سیصد سوار و تحفة و بیلاق بسیار و شنغار و اطلس و کمنخاب و ترغو و آلات جینی و غیره رسانیدند و برای شاه زادگان و آغایان علی حدة بیلاکات بادشاهانه آورده بودند و مکتوبی مشتمل بر معانی که طرز رسائل گذشته باشد و ذریمة استعطف آینده آید مضمون آنکه از جانبین رفع حجاب مغایرات و بیسکانکی باید نمود و فتح باب موافقت و یکانگی کل قومود تارعا یا و تجار بهر اد خود آیند و روند و راههای آین باشد. در کورت اول ایلیجیان آمده بودند چون مراجعت نمودند امیر سید احمد ترخان اسب بوزی جهت بادشاه روان داشته بود و در نظر بادشاه یغایت مستحسن نمود و برای او چیزی بسیار فرستاده بود و صورت آن اسم را نقاشان آنجا کشید و بادو اختجی که عنان اسب را از دو طرف گرفته بودند ارسال نمودند و ایلیجیان و مهمان داری کرده و مهمات ساخته جناحة گذشته روان داشتند و آنحضرت اردشیر تواجی را همراه ایلیجیان بجانب خطای فرستاد . . .

و معنی هذه العبارات بالعربية

ثم بعث ملك الصين دای مینک خان سفراه فوصلوا فی ربیع الاول سنة ۸۲۰ هـ

(1) Blochet: P. 251-253.

(١٤١٧ م) وهم تيباجين وتوباجين وجانباجين وتقباجين : . جاءوا مع ثلثمائة فارس وهدايا كثيرة ، منها طيور الصيد وأطلس وكنخاب والفضار الصيني وغيرها من نوادر التحف ، وأما الهدايا التي أتواها للامراء والنبلاء فكانت على حدة من كل هذه الاشياء . وأما الكتاب فكان يشمل معاني كما في الرسائل السابقة ، متضمنا وسائل الاستعطاف في المستقبل . فكان فحوى الكلام يضمن وجوب رفع الحجاب من بين الجانبين من مغايرة ومباعدة ، وفتح باب الموافقة والمواصلة ، ليكون الرعايا والتجار أن ينتقلوا ذهابا وابابا على حسب مرادهم وليتكون الطرق آمنة من الخطر لقد جاء السفراء من قبله . فلما رجعوا ، بعث الامير السيد أحمد ترخان على أيديهم جوادا يستبق الرجح ، الى صاحب الجلالة ، فاعجبه غاية الاعجاب واليه أرسل أشياء كثيرة وصورة الجواد التي رسمها رسام مع السائين المسكين بعنان الجواد بالجانبين ، وأما السفراء فقد أكرمهم غاية الاكرام وقضى لهم المهمات حتى ودعهم بكل حقارة واحترام . فأرسل أردشير تواجي في مرافقة السفراء الى الصين . . .

ثم في سنة ٨٢١ هـ (١٤١٩ م) وصل وفد من ملك الصين الى سمرقند يحمل

الرسائل الى صاحبها وعن هذا الواقع كتب عبد الرزاق في كتابه ما يأتي

لقد بعث داي مينك خان ملك الصين أولا سفراء في هذه السنة الى حضرة خاقان سعيد فـرده بارسال أردشير تواجي في مرافقة أولئك السفراء الى ملك الصين ثم عاد اردشير وذكر أحوال البلاد وقدم سفرائها عن قريب - ففي آخر رمضان وصل فيماجين وخان ماجين الى مرات ورفعا الى خاقان سعيد هدايا نفيسه ورسالة مودة . وكانت رسالة ملك الصين تكتب على طريقتهم الخاصة وذلك ان اسم الملك يكتب في صدر الرسالة وتحت أسطر الكتابة . فلمواضع التي يذكر فيها اسم الجلالة أثناء الكتابة ، اذا بلغت ، ترك عند حدها ، وتسنأف باسم الجلالة من أول السطر الثاني . وكذلك يفعلون مع اسم الملك في الكتابة .

وهذه الرسالة التي أرسلت الى خاقان في سنة ٨٢٢ هـ ، كانت مكتوبة على هذا النبط . وكانت رسالاتهم تكتب من ثلاث نسخ وفي كل نسخة ثلاث لغات ، أحدها

تكون لغة الاغلبية وتضاف اليها لغتان أخريان . قد تكونان من الفارسية والمغولية
وهي لغة الاوغرة ، وقد تكررنا من التركية والصينية الا ان اللغة الصينية تكتب
لزوما في كل نسخة من ثلاث الرسائل التي تعد للارسال تذكر فيها على التفصيل
جميع الاشياء التي في ضمن الهدايا من الحيوانات وغيرها . . .

وهنا نموذج بالفارسية ، من الرسالة ، ليكل نسخة من النسخ الثلاث وكان في
كل نسخة تاريخ مكتوب بثلاث لغات . وهذا التاريخ يكون يوم كذا من شهر
كذا من سنة كذا في عهد الملك فلان . (من قول عبد الرزاق أن هذه الرسالة
التي تراها فيما يلي ، هي إحدى الرسائل التي بعثها ملك الصين داي مينك الى شاه رخ)
وفيهما يقول

« داي مينك بادشاه معظم ارسال مي فرمايد به شاه رخ سلطان تأمل ميكنم .
« خداوند تعالى دانا وعاقل وكامل بيافريد أورا تا ملكت اسلام ضبط كند .
بسبب آن مردمان مملكت دولتند كشته اند

« سلطان روشن رأی ودانا وكامل وخردمند واز همه اسلاميان عاليتر وبأمر
« خداوند تعالى تعظيم واطاعت بجا آورده ودركار أوعوت داشت نموده كه
موافق تأييد آسمان است

ما بيش ترين ايلجيان أمير سوای ليذا بأجمعهم فرستاديم بنزدك
« سلطان رسیده اند بأداب رسوم اكرام واعزاز بسيار فرموده اند . ليذا
وأجمعهم بمراجعة رسیده عرض نمودند بر ما همه روش ومعلوم كشت و ايلجيان
بيليقا وغيره بليدا وأجمعهم باهم برای ما هدايا شير واسميان تازی وبوزان
وچيزهای ديگر فرستادند . همه برين درگاه رسانيدند . ما همه را نظر كرديم ،
صدق بحيت ظاهر كردانیده اند . ما بغايت شاكر كشتيم . ودرديار مغرب كه جای
اسلامت ازقديم دانايان وصالخان هبج كس از

سلطان عالی تر نبوده باشد و مردمان آن مملکت را نيك ميتواند آمان
تسكين دادن كه بروفق رضاه و احق است چل جلاله چكوته

د خداوند تعالی راضی و خشنود نباشد مردانه ، مردان باهمدیگر بدوستی بودند . دل بدل جو آئینه باشد . اگر چه بعد مسافد باشد ، کویا در نظر سستی همت و مروت از همه چیز عزیز تر است . لیکن در تبع آن نیز چیزی عزیز شود . اکنون علی الخصوص لیدا و جانکهتو با جمعهم با ایلیجیان بیک بوقا و غیره راباهم فرستاده شد که نزدیک

د سلطان هدایا سونکهتوران هم دست که برسانند این همه سونقوران راما بدست خود برانید ، ایم و نیز هدایا که خاب مع غیرهم فرستاد شد . سونکهتورن اگر چه در ملکت چین ما نمی . شود لیکن علی الدوام از طرف دریا برای ما تحفه می آرند . سبب آن کمی نیست در آن جای شما تا مقابل همت عالی

اسطان قریبی باشد . اگر چه اشیاء کینه است ، لیکن حوصله محبت ما باشد . بقبول

د سلطان وصول آید من بعد میباید که صدق محبت زیاده شرد و ایلیجیان و تاجران بیوسه آمد

شد کنند و منقطع نباشند ، تا مردمان همه بدولت أمن و آمان و رفاهیت باشند البتة د خداوند تعالی لطف و رحمت زیاده کردند اینست که اعلام کرده شد ...
و الترجمة العربية لهذه الرسالة هی کابی

تفضل الملك المعظم دای متک ، بارسال رساله الی السلطان ، أعنی شاه رخ
یقول فیها

د ان الله قد خاق من عباده - لایما عاقلا . کاملا فی الفهم ، لینظم أمور الممالک الاسلامیه و لیسکون سبیا د فی اسعاد البلاد و غناء أهلها

د ان السلطان الکامل العقل ، المنتور الضمیر الذی یفوق جمیع ملوک الاسلام ، یطیع أمر الله د و یعظمه ، و یعتز بالأعمال لله ، هو الذی یؤیده السماء بفضله و لطفه

لقد أرسلت من قبل ليذا وغيرهم سفراء الى السلطان ، وتلقوا من عندكم الحفاوة والاكرام ، وغاية التعظيم . وبعد عودتهم ، ارتحلنا عرضوا علينا من الاخبار السارة . فجاء السفراء بيك بوقا وغيره في مرافقة ليذا وجماعته اليانا بالهدايا من أسود وجياد عربية وفهود وأشياء أخرى . فأوصلوها الى هذا القصر . فرأينا فيها تجلي الهدق والمحبة . وأشكركم غاية الشكر . لا يوجد في ديار الغرب (غرب آسيا) وهي موطن الاسلام ، أحد من بين العقلاء القدماء والصالحين الكرماء ، أعلى منزلة من السلطان . وأما القوم في ملكتكم فكلهم من الرجال الصالحين وذوى السيرة الحسنة فالأمن شامل ، والطمانينة مرفقة بظلمها على السكان وفاقا لمرضاة الحق ومشئئة الله عز وجل . لم لا ، إذ كان الناس يصادق بعضهم بعضا ، وقاب كل واحد منهم ، مرآة للآخرين . ولو أن المسافة بعيدة ، لكن الهمة والمرومة من أعظم الاشياء ومن أعزها وكل شيء يتبع الهمة والمرومة هو عزيز عظيم أيضا . أبعث الآن على الخصوص ليذا وجانكافو وجماعتهم في مرافقة السفراء بيك بوقا وغيره الى السلطان ، بالهدايا من النسور التي كنت أطيرهن بيدي وكذلك الهدايا من الكمخاب في بعثة أخرى . وأما للنسور فلو أنها لا توجد في بلاد الصين ، لكن يؤتى بها تحفا اليانا من أطراف الانهار ولذلك أسباب كثيرة وهذه الاشياء قد تكون حقيرة في بلادكم بالنسبة الى همة السلطان العالية ، لكنها آية من آيات المحبة التي تتوثق بقبول السلطان . ومن بعد يجب أن تزيد الصداقة والمحبة بيننا بواسطة السفارات والتجار وعدم انقطاعهم هنا ، ليكون الناس على التمتع بالأمن والرفاهية في البلاد . . .

والاعلان عن هذا هو من تأييد رحمة الله ومزيد لطفه . . .

فرد شاه رخ سفارة الصين ببعثة في ذى القعدة سنة ٨٢٢ هـ (ديسمبر ١٤١٩ م) وكان مع هذه البعثة سفراء من ميرزا باسون غور ، وسيور غاميش . ومن قول عبد الرزاق السمرقندي أن سفراء شاه رخ قد وصلوا الى بكين في ذى الحجة ٨٢٣ هـ ديسمبر ١٤٢٠ م وأقاموا فيها الى ١٥ من جمادى الاولى ٨٢٤ هـ ١٨ مايو

من تاريخه . . .

١٤٢١ م . فرجعوا الى هرات ١٠ من رمضان سنة ٨٢٥ هـ / ٢٩ / ٨
سنة ١٤٢٢ م

وتاريخ الصين يؤكد ما قلناه في هذه النقطة عن مطلع السعدين ، وبذكر عدة سفارات من أولاد تيمورخان الى ابن السماء . كالتي من شاه رخ وغيره من أصحاب الاقطاعات والامراء الذين قد سيطروا على بعض البلاد فيما وراء النهر وخراسان و ابران . كمشقند وكش وشاهر وخية وبدخشان وأصفهان وشيراز وغيرها .

لقد روى صاحب ر علاقة الصين القديمة بتركستان ، استنادا الى تاريخ مغ ، قائلا : أن السفارة قد وردت من سمرقند حين كان يحكم عليها ميرزا أولغ بيك بعد السلطان خليل في سنة ١٤١٥ م ، كما وردت من شيراز . فجات منها للمرة الثانية في سنة ١٤١٧ - ١٤١٨ م ، ومن شيراز وأصفهان في سنة ١٤١٩ م ومن بخاري في سنة ١٤٢٢ م . ثم من شيراز في سنة ١٤٢٣ م . فرجع الامبراطور سي جونغ ، سفراء ميرزا أولغ بيك بفاتح الاكرام . فأمره جن جونغ ، وده لوان ، أن يرافقهم وأرسل على أيديهم نيشانا من الفضة الى أولغ بيك .

ففي عهد صوان جونغ ، (١٤١٦ - ١٤٣٥ م) جاءت من أولغ بيك عدة سفارات مع الهدايا الى ملك الصين في سنة ١٤٢٦ و ١٤٢٧ و ١٤٢٨ و ١٤٢٩ و ١٤٣٠ و ١٤٣١ و ١٤٣٣ م . ولكل مرة من هذه السفارات رد بالبعثة من الامبراطور صوان جونغ ،

وقيل أن البعثة التي بعثها أولغ بيك في سنة ١٤٣٩ م . جاءت بجراد ذي غرة في الجبين والجحافل فاستغربه الامبراطور وأمر بتصويره ، وأكرم لذلك ، السفير الذي أتى به اليه وبالغ في الاكرام . وفي سنة ١٤٤٠ م ، أرسل امبراطور الصين رسالة الى السلطان أولغ كورخان يقول فيها : إنك سلطان يحكم في الغرب القاصي ويقدم الاتارة والخراج بدون توقف ولا انقطاع . وأنه لمستحسن عندي . فلذا أنعم عليك وعلى زوجتك وأولادك على أيدي السفراء العائدين اليك ، بخلاعات من ثياب الحرير ، تقديرا لمنزلك عندي . فأرسل مع

هذه الخلعات ببعض المصنوعات الذهبية والفضية والزرجدية وعصا نقش عليها رأس التنين، وأعلى نوع من السروج والحرير الملون^(١)

وبناء على رأى الأستاذ بلوشه ، قد وردت بعد هذه ، عدة سفارات من سمرقند فى سنوات ١٤٤٥ و ١٤٤٦ و ١٤٤٩ م . ولقد تلقى الامبراطور داىج جونج ، وفدا آخر ولعله هو الاخير الذى أرسله أولج بيك إلى الصين^(٢) ويشهد تاريخ الصين فى عهد منج ، أن السلطان أبوسعيد الذى كان يحكم سمرقند ، بعد أولج بيك ، بعث سفارات عديدة إلى الصين فى عهد داىج جونج ، (١٤٥٠ - ١٤٦٤ م) وفى عهد داىيانج جونج ، (١٤٦٥ - ١٤٨٦ م) وكان أول الوفود منه فى سنة ١٤٥٦ م . ولقد تكلم تاريخ الصين عن هذه السفارة بما يأتى : « ورد السفراء من سمرقند فى سنة ١٤٥٦ م ، لتقديم الخيول والابل والاحجار الكريمة . فقال أمين التشرىفات أن النظام القديم فى القصر يفرض أوفر الإنعامات للسفراء وأما الآن فوضعا الدرجات فى الانعام . من الناس من يستحق الدرجة الأولى من الانعام مثل السفراء وكلائهم . لهم انعام كما كان لهم فى الأيام الماضية . والذين يستحقون الدرجة الثالثة من الانعام ، فلهم ثلاث قطع من سندس وأربعة ثياب من الكمخاب ، وثوب من الحرير المذهب . وأما أتباع السفارة والخدام فلهم دزن ذلك على حسب درجاتهم . وأما الانعام فى مقابل الحيوان ، فعن كل فرس أرغماكى (Argamaki) أربعة ثياب من الكمخاب وثمانية قطع من سندس وعن كل ثلاثة ابل ، عشرة قطع من زربفت ، وعن كل خيل تاتارى على اختلاف درجاتها ، ثوب من الحرير وثمان قطع من زربفت . وأما الزمرد فنه ما يصلح للاستعمال ومنه ما لا يصلح لذلك . فوجدت عندهم ٢٤ قطعة من الزمرد صالحة للاستعمال وبمجموع وزنها ٦٨ رطلا^(٣) والباقى لا يصلح للاستعمال وهى ٥٩٠٠ رطل . وقلت لهم : أرجعوا بها إلى بلادكم . غير أنهم

(1) Ancient China's Realtion With Turkistan. p. 530

(2) Blechet : p. 267

(١) الرطل الصينى يساوى رطلا عربيا واربعا منه

أصروا على تقديمها إلى الملك . فلذا أتمس الاذن من الـدة العالمة باصدار حكم فيما يتعلق بالانعام بثوب من زربفت عن كل خمسة أرطال من الزمرد ، نرجع السفراء وأرسل امبراطور الصين على أيديهم ، هدايا نادرة إلى إني سعيد^(١)

من هذا البيان نفهم أن السفراء الذين جاءوا من سمرقند بامم تقديم الخراج أو الهدايا إلى الامبراطور ، هم التجار في الحقيقة ، ولا يريدون إلا كسب المال بتاجرهم . لكن الامبراطور كان على كل حال يفتبط بتلك الهدايا التي قدمت من قبل السلاطين بآسيا الوسطى فرآها نوعا من الخراج وإن كانت المعاوضة تتطلب في نظير هذه الهدايا ، ما يساوى أكثر من القيمة الأصلية . فلذلك نرى أنه لم يمل من رد السفارة وانعام بخلعة على المهادين ، ففي سنة ١٤٥٧ م ، بعث الامبراطور سفيره « مايون » وكان مسلما ، كما يظهر من اسمه ، إلى « ديار الغرب » وكلفه بالانعام بخلعة على السلطان موسى كما كانت العادة في رد السفار في تلك الأيام ، وأما السلطان أحمد أبو سعيد فأرسل أيضا عدة سفارات إلى بكين منها ثلاثة في عهد « جنغ خوا » (١٤٦٥ - ١٤٨٦ م) ، في سنوات ١٤٧٨ و ١٤٨٠ و ١٤٨٣ لقد روى في تاريخ الصين أن في مرافقة سفارة السلطان أحمد التي جاءت إلى الصين في سنة ١٤٨٣ م وفدا من أصفهان وكان معهم أسدان ، هدية إلى الامبراطور ، فلما وصل إلى مدينة (سوچو Su- Chow) بقانصو ، طلبوا من الامبراطور أن يعث وزيرا من الوزراء الكبار للاستقبال . فاستنكر ذلك أمير من الامراء اسمه (لوبون Lu- Yun) واعترض على أن الاسد حيوان غير مفيد ، لأنه لا يجوز للقربان في المعابد والهياكل ، ولا يجوز للركوب كالحيتول والابل والخيير ، فخير للامبراطور ألا يقبل هدية مثل هذه . وأكد ذلك أمين التشريفات قائلا — أن الاستقبال للأسود خارج عن العرف العام والعادة المتبعة ، لكن الامبراطور لم يسمع كلامهما . فقبل من وفد أصفهان الاسدين . فكان يأكل كل

(١) علاقة الصين القديمة بتركستان : ص ٥٣٠

واحد منهما غنما وعلبة من العسل وعلبة من السمز وقارورة من الخل يوميا
وأما مربى الأسود فهو بهلوان له رزق خاص من خزائن الدولة .

والسفارات الأخرى من السلطان أحمد كانت في سنوات ١٤٨٨ و ١٤٨٩ و
١٤٩٠ و ١٤٩١ م . وقد ذكر الأستاذ بلوشه كل هذه في مقدمته . وإذا
نظرت إلى ما جاء في «علاقة الصين القديمة بتركستان» ، لترى بعض التفاصيل عن
بضع سفارات أخرى من البلاد الإسلامية المختلفة بآسيا الوسطى إلى الصين . منها
ما جاء من مالاقه (Malacca) في سنة ١٤٨٩ م ومنها ما جاء من طرفان في سنة
١٥٣٣ م ومنها ما جاء من سمرقند في سنة ١٥٣٦ م

وأما السلطان علي ميرزا الذي قتل في سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م ، بيد محمد
خان الشيباني ، فقد بعث وفدا أيضا إلى بكين ووصل إليها ، كما ورد في مقدمة
الأستاذ بلوشه ، في سنة ١٤٩٩ م .

إنما العلاقة بين بكين وعواصم ما وراء النهر ، كانت تجرى على نصابها في زمن
الشييبانيين وهم فرع من بيت جنكيزخان : عن شيبان خان بن جوجي خان . قد
اسقطوا آل تيمور من السيادة ، حتى اضطروا ظمير الدين بابر إلى ترك وطنه
وركوب الخطر إلى الهند ، ليهرب عن حظه هناك وكان من هؤلاء محمد خان الشيباني
الذي أرسل خمس سفارات إلى بكين في سنوات ١٥٠٣ و ١٥٠٤ و ١٥٠٨
و ١٥٠٩ و ١٥١٠ م . وبعث بعد ذلك ولده قوش كونجي أربعة سفارات تحمل
الهدايا إلى ابن السباء في الصين في سنوات ١٥١٥ و ١٥١٩ و ١٥٢٣ و ١٥٢٩ م
وكانت الأوليان في آخر عهد دوجونغ ، (١٥٠٦ - ١٥٢١ م) والأخريان
في أول عهد دسي جونج ، (١٥٢٢ - ١٥٦٦ م) .

تاريخ الصين لا يزال يذكر وصول السفراء مما وراء النهر . فثلا الوفد
الذي بعثه السلطان سكندر فوصلوا إلى بكين في سنة ١٥٨٣ م ، ووفد آخر من

سمرقند بعد زوال الشيبانيين إلى إمبراطور الصين في سنة ١٦١٨ م ، ليرفعوا إليه
يمين الولاية عن الأمير جنيد أمام كوك .

اتصل ملوك (منغ) من الناحية الدبلوماسية ، بسلاطين المسلمين في الممالك
الساحلية بالشرق من قارة آسيا ، منهم سلطان جاوة ، وسلطان بورنيو ، وسلطان
سماطرة ، وكان المسلمون في الهند يشتركون في إرسال الوفود إلى بكين ، وبذكري
تاريخ الصين عن ورود السفارة من بنغال (الهند) برياسة سيف الدين في سنة
١٤١٤ م (١١) . وكان على عرش الصين في ذلك الوقت ، الإمبراطور (جينغ جوي)
وهو الذي سافر في عهده الحاج جهان إلى جزائر جاوة وسواحل الهند وبلاد
العرب وموانئ شرق أفريقيا مرات عديدة للأغراض السياسية والتجارية .
ونقل هنا بعض ما جاء في المصدر الصيني عن هذه الوقائع المهمة .

لا يخفى على القراء ، أن العلاقة الدبلوماسية التي كانت موجودة بين ملوك
الصين والحلفاء وعمال العرب في الولايات المختلفة بآسيا الوسطى ، قد انقطعت
عند سقوط بغداد وزوال الدولة العباسية ، فالمغول الذين ظهروا في القرون
اللاحقة بعد دخول أكثر أممهم في دين الإسلام حلوا محل العرب في السياسة
الإسلامية خصوصا في قارة آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، فلا نرى من حينذاك
علاقة الصين الدبلوماسية إلا بسلاطين المغول فظلت قوية موثقة بالعلاقة الجنسية
حتى زوال الشيبانيين في القرن السادس عشر الميلادي . لكن ملوك (منغ) الذين
قد أخرجوا آل قبلاي خان من ديار الصين - ولو أنهم كانوا يرون من المصلحة
أن يبقوا علاقاتهم بأمراء المغول من آل تيمور في بلاد تركستان وخراسان - لم
يقلدوا في سياستهم الخارجية ، خطوات قبلاي خان وأبناءه بحصر الرابطة السياسية
في أبناء الدم والجنس بل خرجوا على هذا التقليد واستأنفوا سياستهم الخارجية
بمبادلة السفراء بينهم وبين أمراء العرب في البلاد الساسانية في خليج فارس والبحر

الأحمر فأرسلوا سفراءهم إلى الإمارات التي ببلاد العرب مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وظفار واحساء ، وعدن وإلى التي أقامها بسواحل شرق أفريقيا ، كصر ومقدشو وبراو وبلاد السرمال وأشهرها كان في سنة ١٤٢٠ م تحت رياسة الحاج جهان .

وأما الحاج جهان فكان أحد الزعماء المسلمين المقربين إلى ملوك منغ ، ومن أعلام الدولة الذين كانوا يرفدون سيادة الصين على البلاد الساحلية المجاورة لها بين بحر الصين والمحيط الهندي ويكفيك في معرفة شخصية هذا الزعيم أن الصين تفتخر بوجوده في تاريخها باعتبار أنه أكبر البحارين الذين أنجبتهم الصين منذ فجر تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادي . لقد أتت خدمات جليلة للصين خصوصا فيما يتعلق بالعلاقات الدبلوماسية في ذلك الوقت . وبها نال هو مقاما محمودا عند الصينيين . وأما اسمه فيذكر في التاريخ والادب كما يذكر في القصص والروايات . ويظهر أنه عربي الأصل ، نزع أجداده في زمن قبلاي خان من بخارى إلى يوننان ، التي كان السيد الأجل وأولاده يحكمونها مدة طويلة . وأما تاريخ الانساب الصينية ، فنسبه إلى عائلة (ما) ، وكلمة (ما) التي أصبحت اسما رسميا لكثير من عائلات المسلمين في الصين اليوم ، ليست إلا محرقة من محمود ، أو من د أحمد ، أو من محمد ، وأعتقد أنه من أولاد محمود ، أحد أولاد السيد الأجل السابق الذكر . وأما حياته فموضوع البحث والتحقيق . ونود أن نكتب فصلا خاصا عنه في تاريخ الاسلام في الصين فيما بعد ، إن شاء الله تعالى . لقد سافر هذا الزعيم المسلم إلى البلاد الساحلية في جزائر جاوة والهند وخليج فارس ، أكثر من مرة . والذي يهمننا هنا ، من أسفاره ، هو سفره إلى مكة في سنة ١٤٣٠ م . وكان قبل هذا ، قد سافر مرة إلى هرمز في سنة ١٤١٧ م ، بصفته سفيرا من قبل الامراء ورد جينغ جو ، إلى صاحبها في سنة ١٤١٧ م ^(١) غير أن سفره في سنة ١٤٣٠ م ، كان في تجديد العلاقة التي كانت بين العرب والصين

(١) الدراسة عن تاريخ الاسلام في الصين للاستاذ جين كينانغ - ص ١٥٦

في عصور (تانغ) و (سونغ) ، والتي قد قطعها منها ، حكم المغول على أرض آسيا .

فوصل الحاج جهان أولا إلى مدينة كولم بملابار . فلما سمع أن كثيرا من التجار ، يسافرون إلى مكة المكرمة ، التي على مسافة أربعين يوما من هرمز ، كما ذكرها تاريخ (منغ) ، تحرك شوقه إلى زيارة مكة في مركب من مراكب التجار ومضى في ذلك سنة في الذهاب والاياب . فعاد بالعجائب والنوادر من أحجار كريمة وقرون كركدن وأسود ونعام . وكان معه سفير من أمير مكة . فأقام في الصين حتى سنة ١٤٤١ م فرجع في مرافقة سفراء جاوة ، مع الهدايا من امبراطور الصين إلى أميرها . ثم ذكر أن أمير مكة قد بعث ولده السيد علي ، وسفيره السيد حسن ، إلى الصين فوصلوا عن طريق البر إلى قراخواجه ^(١) حيث لقيهما عصابة من اللصوص هجمت عليهما فجرح السيد علي في يده اليمنى ، وقتل السيد حسن . وأما أموالهما فهبت . وأما التحقيقات التي أجراها حكام تلك الولاية بأمر الامبراطور فلم تأت بنتيجة مقننة فذهب دم السيد حسن هدرا

ويظهر من تاريخ الصين أن بعض حكام الصين قد عاملوا سفراء العرب أسوأ معاملة . فلذلك يذكر أن مسلما من العرب ، اسمه علي ، عزم على السفر إلى يوننان ، باحثا عن أخيه نادر الذي استوطن الصين أكثر من أربعين سنة ولم يعد . فشدد رحاله حتى وصل إلى المالاقة . ثم ركب مركبا لتاجر منها إلى الصين ، فاصدا العاصمة لتقديم بعض الهدايا وبعد وصوله إلى كاتون ، صادر وكيل الجمر متاعه . فاشتكى إلى الامبراطور بالعاصمة . فأمر أمين التشرفات أن يقدر اثمان الهدايا المصادرة بجازاه بالنقد تمويضا فأذن له ان يدخل بلاد يوننان ويبحث عن أخيه هناك . لكن وكيل الجمر المذكور الذي خاف من غضب الامبراطور عليه ادعى علي

(١) ومدينة قريبة بطرفان بتركستان .

على بمعونة رجال القصر فرماه بتهمة الدسيسة في بلاد الصين . فأيقن الامبراطور بكلامه وأمر باخراج على من الصين (١) .

ولا نظن أن هذا الواقع غير صحيح وإلا فلم لم يأت مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، ببعض التعليقات عليه وتركه تاما كما وجدته في تاريخ (منغ) في الفصل الذي جاء فيه الحديث عن العرب . لكن على كل حال قد وقع مثل هذا الحادث من حاكم يطعم في أموال السفراء فاعتدى عليه ثم افترى عليه بأقويل لا صحة فيها مطلقا

غير أن العلاقة الدبلوماسية كانت باقية على حالها ولم تتأثر بمثل هذا الحادث . فلذلك نجد أن تاريخ الصين لم يزل يذكر ورود السفارة من قبل السلطان أحمد مع بعثة من سمرقند و طرفان في سنة ١٤٩٠ م ، أتت بالخيول والأبل والعقيق ، هدية الى الامبراطور . ففي سنة ١٥٠٦ م ، أمر الامبراطور بعد استشارة رئيس مربى الخيول ، حاكم ولاية قانسو أن يبحث له عن خيسار الجياد . فسأل الواردين من الغرب . فقالوا : ان الخيول الفائقة من إنتاج العرب . فنشر منشورا يبحث على استيراد الخيول العربية وقد قيل أن سفيرا قد أرسل الى الممالك التي بما وراء النهر ، ليبحث الدعاية بين أمراءها بان يبعثوا الجياد ، ان عزموا على إرسال هدية الى امبراطور الصين . ويظهر أن الخيول العربية قد بعثت من ملوك العرب أيضا ، لان التاريخ يذكر أن الشريف بركت الذي كان يحكم مكة المكرمة من سنة ١٤٩٧ م وتوفي في سنة ١٥٢٤ م (٢) ، قد بعث الهدايا المكونة من الخيول والأبل والصوف والمرجان والاحجار الكريمة ، وسكاكين مصنوعة من عظام الأسماك ، الى امبراطور الصين في سنة ١٤١٨ م وهو « وو - جونغ » . فرد الهدايا بخلعة عليها صورة التنين المصنوعة من خيوط الذهب ، والمسك والأواني الفضية والذهبية . وإذا ألقيت نظرة الى ما جاء في علاقة الصين القديمة بالعرب ، للاستاذ

(1) Ancient China's Relation Whith the Arabs. P. 304

(2) Wustenfeld: Geschichte der Stadt Mecca 1861.

« جانغ سين لانغ ، في جامعة بوزين (بكين) ، تجد تفصيلا يزيد عما ذكرناه هنا من سفارات العرب الى الصين وبناء عليه ، سفارات العرب قد وردت الى الصين من قبل أمير مكة في سنة ١٥٢٥ م وفي سنة ١٥٣٢ م وفي سنة ٥٤٣ م وكانت معهم في المرتين الأخيرين سفارات من أمارات اسلامية بما وراء النهر وتركستان وسمرقند وحامى ، ومن الروم أيضا . غير أننا لا نجد التصديق على هذه الأقوال من المصادر العربية ولا من المصادر الأخرى ثم لم نعر على كتاب يذكر فيه تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب للقرن الذى نتكلم فيه الآن ، ولا عن القرون التى بعد هذا . غير البيان الذى وجدناه في عدة كتب صينية ، للمؤلفين الذين عاشوا في عصر (منغ) ، يصدق على أحوال مكة المكرمة من أكثر النواحي فنلا يقول . أن المسافة بينها وبين هرمز ، تكرون أربعين يوما وليلة في البحر وقد قيل أن طريق البر مفتوح ، بين مكة والصين لكنه يحتاج الى سنة كاملة في قطعه . فالجوفى مكة في الفصول الأربعة مثل أيام الصيف ورجالها يجبون حلق رءوسهم ولبس العمامم ونساوهم يعملن الضفائر من أشعارهن ويلفنهن على رءوسهن ويسترن وجوههن بالحجاب حتى لا تراهن أعين الأجانب ، إن خرجن من بيوتهن .

أما لغتهم ف لغة غربية والخمر عندهم محظور وفي مكة مسجد سموه كعبة ، حرها المسجد الحرام في شكل قلعة لها ٦٦ باب . وللكعبة خمس عوارض مصنوعة من أطيب الأشجار وأرضها مفروشة بالعقيق الأصفر وجدرانها ترش يوميا بماء الورد والكنندر فالروائح الزكية تفوح منها دائما ، وأما البلاط ففيه ٦٧ سارية (١) من المرمر ، تسع وتسعون منها في الجناح الامامى ، و ١٠١ في الجناح الخلقى و ١٣٢ في الجناح الشمالى و ١٣٥ في الجناح اليمينى . وأما الكعبة فعليها ستائر من حرير موركش بخيوط الذهب ، يلبسها في موسم الحج الذى يكون مرة واحدة في كل سنة وذلك في اليوم العاشر من الشهر الثانى عشر في تقويمهم (٢) ، وبمكة بئر يقال له

(١) يقول ابن بطوطة — في المسجد الحرام ٤٩١ سارية

(٢) علاقة الصين القديمة بالعرب — ص ٣٠٩ و ٣١١

مزمزم ، فالحجاج الذين يجيئون إلى مكة يشربون من هذا البئر ويقدمون مائه ،
وهذه هي البلدة التي زارها الحاج جهان في عهد (صوان ته Suan- Teh) (١)
ولم يقصر تاريخ الصين لهذا العصر على ذكر علاقة مكة بالصين بل ذكر أيضا
علائق المدينة بها أيضا ، وقد أرسلت سفيرا إلى الصين في عهد (صوان ته) مع
سفراء مكة وعن هذه السفارة ، جاء في علاقة الصين القديمة بالعرب ما يأتي :- أن
المدينة موطن الاسلام ، وهي قرية من مكة ، وفي عهد (صوان ته) ، بعث
أميرها سفيرا إلى الصين ووصل مع سفراء مكة ثم انقطعت السفارة بينها وبين
الصين (٢) وبعد هذه الكلمات يذهب تاريخ منغ إلى الكشف عن تاريخ الاسلام
وحياة النبي (ص) في المدينة وعمادات المسلمين فيها .

وأما بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فالبلدان التي كانت لها علاقة
دبلوماسية بالصين في القرن الخامس عشر للميلاد ، هي امارة ظفار ، واحساء
وعدن . وقد ذكر تاريخ الصين هذه البلدان في مواضع عديدة ومن المعلوم أن
عدن كانت مركزا للتجارة بين البحر الأبيض والمحيط الهندي .

فالمرآكب الصينية التي كانت ترد إلى سواحل الهند تبخر أحيانا إلى عدن أيضا
لتأخذ البضائع التي جاءت من مصر ومن البلدان الأخرى التي على سواحل البحر
الأبيض . فعلاقتها بالصين اذن كانت من قديم العهد . إلا أن هذه العلاقة قد
ترقت في عهد منغ إلى درجة لم تصل إليها من قبل .

فلذلك نجد معلومات وافرة في السكتب الصينية عن عدن لهذا العهد . وأكثرها
في حاصلاتها ، وبعضها في أحوالها وعاداتها ، وبعض آخر في علاقتها بالصين . واليكم
ما تمس الحاجة إليه . بقول تاريخ منغ في الجزء ٣٢٦ .

(١) كان ذلك بين ١٤٢٦ و ١٤٣٥ م . سافر الحاج جهان إليها مع سبعة أمراء
أخذوا معهم المسك والزخارف والحرير في مركب صيني إلى صاحب مكة فعاد
بعد سنة مع الأحجار الكريمة والسكر كعدن ورسم للسكعبة

(٢) علاقة الصين القديمة للعرب - ص ٣١٣ و ٣١٥

إن عدن بلدة بغرب كولم ، منها الى عدن في البحر ، إذا كانت الريح في موافقة السير ، عشرين يوما وليلة وهي البلدة التي بعث صاحبها وفدا الى الصين في سنة ١٤١٦ م ، جاءوا بجاصلاتها ، هدية الى الامبراطور فرد سفارنها بارسال الحاج جهان لليها . ثم وردت منها أربع سفارات أخرى فأكرمها الامبراطور . ففي سنة ١٤٣٠ م ، أمر الامبراطور ، الحاج جهان ، أن يركب البحر للمرة الثانية الى الغرب . لأن الممالك التي بها قد قطعت ارسال الهدايا الى الصين منذ سنوات . فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور وكانت عدن من البلدان التي وصل اليها في هذا السفر . فبعث أمير عدن وهو الملك نصر ، سفارة الى الصين وكانت تحمل حاصلات بلدها فوصلت الى العاصمة في سنة ١٤٣٢ م ومكثت بها ثلاث سنوات ثم عادت في سنة ١٤٣٦ م

فعدن مدينة كثيرة الخنطة والشعير ، رجالها أقوياء الاجسام وفيها نحو ٨٠٠٠ جندي من المشاة والفرسان والركبان . تخاف منها الممالك المجاورة لها . فالأمير والرايا كلهم يدينون بدين الاسلام ، وملكها يعظم الصين كثيرا حتى خرج مع عساكره لاستقبال الحاج جهان ، عندما سمع أنه قادم سفيرا للصين وشرفه بمقابلة شخصية فرخص لكل أمير من الأمراء أو تاجر من التجار من رعاياه ، أن يخرج ما عنده من النفائس والنوادير في مبادلة ما عند الحاج جهان من البضائع والامتنع واقد سافر أمير من أمراء الصين وهو من عائلة تشو (Chow) الى عدن في سنة ١٤٢١ م ، فحصل في سوقها عين المرة ، بلغ وزنها مثقالين ومرجانا بلغ علوه ذراعين . فرجع بهما والاشياء الأخرى النادرة كالسلاط والياقوت (١) مختلفة الألوان ، والزرافات والاسود والفهود المنجمة الاجسام ، والتعام والكرامكي . وكانت هذه الاشياء في البلاد الأخرى ، لا تبلغ ما في عدن ، من نفاسة وبداعة ويوجد في أرضها فواكه مختلفة الأنواع ؛ وأنعام مختلفة الاجناس ، ألا الاوز والخنزير . وفي سوقها تجار في الكتب ومصانع للاراق الفضية والذهبية . وقد

(١) لأول مرة نجد ذكر الياقوت في الكتب الصينية بكلمتها الاصلية

قيل أن الامبراطور (سى جونغ) Hsi-Chung كان يحب أن يعمل الخواتم من العقيق الأحمر والأصفر. فأمر باتباعه. وقيل له إن هذا النوع من العقيق لا يوجد إلا في عدن. وإذا كان صاحب العرش يحب اقتنائه. فيجب أن يخطو خطوة السابقيين بإرسال سفارة تحمل الهدايا إلى صاحبها وتشترى منها ما يريد من العقاقير فاصغى الامبراطور إلى كلام القائل ونفذ ما أشار به.

ونسكتفي بهذه الاشارات إلى تلك العلاقة الثمينة التي كانت بين الصين وعدن من الناحية الدبلوماسية في عهد منغ، وإن هناك بياناً مفصلاً في كتاب الأستاذ دجانغ شين لانغ، يستوعب ست صفحات مع التعليق عليها، فمن طمع في المزيد من العلم فلا مانع أن يراجعه ويأخذ منه ما يريد.

وأما علاقة ظفار بالصين فنجد الحديث عنها في المصادر الصينية التي جاء فيها الحديث عن عدن وهي تاريخ منغ، وسفارات الممالك الغربية، و دوانغ منغ سيغالو، أو مذكرة عن قانون وانغ منغ، وحاصل ما ورد في هذه المصادر عن علاقة ظفار بالصين، هو أن بلاد ظفار، يصل إليها المركب من كولم في عشرة أيام بآلياتها، إذا كانت الريح موافقة والجو صحواً، ولقد أرسل صاحبها وفداً في سنة ١٤٢١ م، مع وفد إحسان، وعدن إلى الصين. فأمر الامبراطور الحاج جهان أن يسافر إليها، رداً على وفودها. ففي سنة ١٤٢٣ م، جاء وفد منها للمرة الثانية، فرد الامبراطور على هذا الوفد في سنة ١٤٣٠ م بأن بعث الحاج جهان إليها مرة أخرى وكان صاحب ظفار على قد أرسل سفارته إلى الصين للمرة الثالثة، فوصلت إلى العاصمة في سنة ١٤٣٣ م، وأقام بها ثلاث سنوات، فرجع في سنة ١٤٣١ م، تحمل هدايا الامبراطور إلى صاحب ظفار.

لقد وصفت هذه المصادر بلاد ظفار، بما يأتي - أن هذه البلاد بشرقها وجنوبها بحر عظيم وبشمالها وغربها جبال مسلسلة، وجوها في الفصول الأربع، مثل ما في الشهرين الثامن والتاسع في الصين، فيها مختلف الأنواع من الجيوب والفواكه وجميع الأنواع من البهائم والإنعام، وأهلها شديدي البأس وأميرها

ورعاياها كلهم يدينون بدين الاسلام ، وتوجد بها مساجد كثيرة وتعطل الاشغال يوم الجمعة ، وعندئذ تقفل الاسواق ، فيغتسل الأهالي ، كبيرهم وصغيرهم جميعا ، ويلبسون الملابس النظيفة ويتعطرون ثم يذهبون إلى الصلاة ، وفي الايام العادية يبادلون تجار الصين بالكندر والقاطر والكافور وغيرها من البضائع ، وعندهم نعامة شكلها شكل الطاووس رجلها تبلغ ثلاث أو أربع أقدام ، ولون ريشها مثل لون الوبر ومشيا مثل مشية الناقة ، ويهادون الامبراطور بها أحيانا (١) .

ويظهر من المصدر الصيني أن أحساء أيضا من البلاد التي كانت لها علاقة دبلوماسية بالصين وقد بعثت سفارة اليها في عصر منغ ، في السنين التي جاءت الوفود فيها من ظفار وعدن ، وقد وجدنا في الجزء الـ ٢٢٦ من تاريخ منغ ، بعض الكلمات عن هذه العلاقات ، حيث يقول : أن بلاد أحساء يصلها المركب في عشرين يوما وليلة من كورلم في طيب الهوا وهدوء الريح ، لقد بعثت سفارتها الأولى إلى الصين في سنة ١٤١٦ م ، فأمر الامبراطور رد هذه السفارة بارسال الحاج جهان اليها ، ثم جاءت منها سفارات مع التي وردت من عدن وبرابوة (٢) ، فسافر الحاج جهان اليها للمرة الثانية ، ثم انقطعت السفارة منها وانقطع رسم التهادي بينها وبين الصين ، وأن هذه البلاد تقع على شاطئ البحر ، جوها دائم الحر ، وأرضها مجربة لاتصلح للحث ولا للزراع ، والمطر فيها قليل ولا يوجد فيها خضراوات . لكن يوجد بها الكندر والكافور والابل والحراف . وأهلها يصيدون الاسماك في البحر . وكان أميرها قد سمع عن الصين وصيت امبراطورها ؛ فهاذاه بحاصلات بلاده ، فلما تجر عندهم ، هي الفضة والذهب والفلفل والعود ، ويبادلون بها حبر الصين ونفارها والأرز وغيرها مما يحتاجون اليه (٣) .

كانت هناك علاقة دبلوماسية بين الصين وبين بعض ممالك إسلامية بأفريقيا .

(١) تاريخ منغ - فصل الممالك الاجنبية

(٢) بلدة في شرق أفريقيا

(٣) علاقة الصين القديمة بالرب ص ٢٢٨

قد بدأت بمصر في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر من الميلاد، إذ كانت الصين لا تزال تحت حكم المغول من آل قلاي خان، وأما مصر في هذا الوقت، كانت في أيدي المماليك. وعندنا شهادات كثيرة تدل على هذه العلاقة، فقطع المنسوجات الحريرية التي وجدناها في دار الآثار العربية بالقاهرة، تحت أرقام ٢٢٢٥ و ٢٢٢٦ و ٢٢٢٧، تنطق بوجود علاقة متينة بين الصين ومصر. وأنى لا أعتقد أن هذا النوع من المنسوجات الحريرية، من مصنوعات مصر وحركيت فيها صناعة الصين. وإذا كان الأمر على خلاف ما نعتقد، فأنتنا نجد كثيرا من أمثاله في المتاحف ودور الآثار. وقلة وجودها في المتاحف الأثرية تشهد بأن هذه الصناعة كانت إما من تركستان، وإما من الصين. ولقد صنعها أمراء المغول خاصة لمهادة السلطان محمد قلاوون، الذي نسج اسمه في هذه القطع من الحرير. ومن المعلوم أن الحرير الصيني كان من الهدايا الرئيسية التي أهداها أمراطور الصين إلى ملوك الاسلام في العصور المختلفة. فلا عجب إذن أن أمراء المغول قد صنعوا بعض القطع الخاصة من الحرير فأرسلوها هدية إلى السلطان محمد قلاوون، فلذلك ترى قطعة من الحرير الذي تحت رقم ٢٢٢٦ في سجل دار الآثار العربية جامات صينية، في بعضها نسج بالحروف العربية «ناصر الدنيا والدين محمد قلاوون»، وفي بعض آخر «عز أمواتنا السلطان الملك الناصر». وأقوى دليل على أنها ليست من منسوجات مصر هو الحروف الصينية التي تراها في قطعتي تحت رقم ٢٢٢٥ و ٢٢٢٧. فذهبها أولوا الأمر في الدار إلى الكوفية خطأ، لأنهم يرونها تشابه الكوفية إلى حد كبير فعندئذ أصدروا حكمهم بأنها هي الخط الكوفي. وأما الحقيقة فالكلمة التي في قطعة ٢٢٢٥ هي كلمة صينية معناها «سعادة مكررة»، والتي في قطعة ٢٢٢٧ هي كلمة صينية أيضا يراد بها «طول العمر». إلا أنهما كتبتا بطريقة قديمة تشبه الطريقة الكوفية من ناحية الكتابة. فلم يميزوا منها ووقعوا في الخطأ في تقاريرهم العلمية فيما يتعاق بهذه القطع من المنسوجات الأثرية

ثم هناك أربع أوان كبيرة نستطيع أن نسميها «فغفوري»، وهو أحسن وأجود من الفخار أو الغضار في مقابلة كلمة Celadon الانجليزية، محفوظة في دار الآثار العربية. نجد فيها أدلة واضحة على علاقة الصين بمصر في الفرون

الوسطى . فان هذه الأواني الأربعة من صناعة الصين القديمة ، وجدت بجامع السلطان حسن وهي موضوعة الآن في دولاب في القاعة الثالثة عشرة من الدار تحت أرقام من ١٠٣٩ إلى ١٠٤٢ (١)

فالحقيقة أن سلاطين المماليك كانت لهم علاقة وثيقة بأمرام المغول في الصين . ويروى الأستاذ بلوشه أن سلاطين المماليك كانوا يستخدمون الأمرام الصينيين في بلاطهم وكلمته هكذا باللغة الإنجليزية

« In the 14th century in Egypt at the Court of the Mamluke Sultans of Cairo, a Manchu General, Khitai by origin, could write an excellent and remarkable history in a style of great refinement. »

وإذا بحثنا في المصادر الصينية ، وجدنا فيها الحديث أيضا عن هذه العلاقة . ولقد ذكر تاريخ منغ في الجزء الـ ٣٢٢ . أن مملكة مصر ، كانت ترسل سفراءها إلى الصين في عهد الإمبراطور « يونلوى » (١٤٠٣ - ١٤٢٤ م) ، فكانوا يقابلون بحفاوة وإكرام وفي كل محطة من المحطات بأرض الصين ، فالسفارة التي وردت إلى الصين في سنة ١٤٤٦ م ، كانت من قبل السلطان أشرف برسباي الذي حكم على الشام ومصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، فهاداه الإمبراطور « ينغ جونغ » جميع الأنواع من الحرير ، مها مايسمونه « شالو » ومنها (بامر) وأرسل أيضا هداياه إلى الأمرام والأميرات من الأسرة الحاكمة بمصر وكانت الهدايا تختلف على اختلاف درجات المهام إليهم (٢) ولقد عرفتم بما تقدم علاقة الصين بمصر في عهد منغ . غير أن هذه العلاقة لم تنحصر في هذه المملكة من إقليم أفريقيا بل اتسعت إلى البلدان الأخرى . مثلا مقدشو ، وبراو و الجب Jubb بشرق أفريقيا ففي تاريخ منغ بعض الحديث عن علاقة مقدشو بالصين فيما يلي أن بلاد مقدشو ،

(١) رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية للأستاذ حسن محمد الطهوازي ص ٨٤
() يظهر أن بعض الأغلط قد وقعت في تاريخ هذه السفارة ، لأن شرف الدين برسباي قد توفي في سنة ٨٣١ هـ - ١٤٣٨ م ، لكن من الممكن أن سفيره قد غادر مصر قبل وفاته فوصل إلى الصين في سنة ١٤٤٦ م

والسومال وغيرها من بلاد أفريقيا ، قد أرسلت سفراها الى الصين في سنة ١٤١٦ م فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور اليها مع سفرائها ردا لزيارتهم . فجاؤ وفودهم للمرة الثانية فأبحر الحاج جهان اليها مرة أخرى وحمل معه الهدايا الى أمرائهم ، ففي سنة ١٤٢٣ م وردت وفودهم للمرة الثالثة فودعهم الامبراطور بحفاوة وإكرام . مع هدايا الى أمرائهم وأميراتهم . وأما مقدشو ، في بلاد أمامها بحر وخليها جبال ، قليلة المطر والزراعة ، رجالها متحمسون ، يحبون الرماية والفروسية ويطعمون أنعامهم الأسماك ، ولاغنيائهم مراكب التجارة يتاجرون بها في البلاد البعيدة ، وحاصلاتها الابل والغنم ، والخيول والبقر والكافور والسكندر ومناجرهم الذهب والفضة والعود والفخار والأرز . وأمراؤهم يحبون التعارف فيرسلون التحف الى امبراطور الصين^(١)

وأما براوة فهي بلدة تجاور مقدشو . قد بعثت الى الصين أربع سفارات في غضون سنوات بين ١٤١٦ و ١٤٢٣ فقد مواع سفراء مقدشو وبهذا السبب سافر الحاج جهان اليها مرتين بأمبراطور الصين ومرة ثالثة في سنة ١٤٢٠ م . وكانت هذه الأسفار كلها في رد سفارات براوة .

وأما السفارات التي جاءت من بلاد السومال والجب ف وقعت أيضا في هذه السنوات . وكان الحاج جهان قد سافر اليها عدة مرات ردا لسفارتها ومن هذه الناحية كان الحاج جهان ان أكبر المسلمين البحريين الذين أنجبهم الصين وأعظم السفراء الصينيين الى الممالك الاسلامية في العصور الماضية وبعد الحاج جهان انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب حتى القرن العشرين ، القرن الذي تنوع فيه أحوال العالم ، وتغير سلوك بلاد مع بلاد أخرى في الأمور السياسية والدبلوماسية بانشاء القنصليات والمفوضيات والسفارات في البلاد الصديقة أو المتعادلة ومع هذا التطور في الأمور الخارجية بقيت الصين منقطعة عن بلاد العرب من الناحية الدبلوماسية حتى الآن . ولا نعرف متى تأتي فرصة تسمح بإيجاد رابطة جديدة بين الصين والعرب حتى يتعارفا ويتصادقا كما كان في الأيام الماضية^(٢) .

(١) Ancient Chiua's Relation With Africa. P. 221-222.

الباب السابع

في العلاقة الصناعية والفنية

ليس من السهل أن نتكلم في هذا الموضوع إلى حد يقنع كل قارئ أو يرضى به كل طالب لأن المصادر التي نستطيع أن نراجعها، أو نأخذ منها شيئاً من المعلومات، قليلة جداً، ومع قلتها لا نجد فيها إلا إشارة خفيفة في أكثر الأحيان لكن على كل حال أرى من الفائدة أن ألم بهذا الموضوع على قدر الطرفة راجياً أن يتبعها لاحق الباحثين في المستقبل ما لم يتهمياً إلى فيشفي الغليل ويظفي الظماً .

فالمراد بالعلاقة الصناعية، يشمل الصناعات التي كانت من الصين فراحت في الممالك الإسلامية بوساطة العرب، أو من العرب فراحت في الصين، كما يشمل الأشياء التي قد صنعت في الصين لكنها متأثرة بالزخارف العربية والإسلامية أو في الممالك الإسلامية، لكنها متأثرة من صناعة الصين الفنية . فالبحث إذن يحتوي على صناعة الورق وهي من الصين، فأخذها المسلمون والعرب، وعلى البارود ولعله من صناعة العرب، فأخذتها الصين، كما يحتوي على صناعة الفخار والخزف والمنسوجات الإسلامية التي ظهر فيها أثر الصين قليلاً كان أو كثيراً، وصناعة البرنز الصيني الذي فيه أثر العرب والإسلام .

وأما العلاقة الفنية فكلامنا فيها يكون منحصراً في التصوير، لأن الفنون الأخرى مثل الموسيقى وغيرها، لا نجد في عربيتها أثراً صينياً ولا في صينيتها أثراً عربياً أو إسلامياً . نعم، نجد في العمارة علاقة فنية خفيفة، نراها في محاريب مساجد الصين وفي مناراتها، لكنها لا تثير الاهتمام إلى حد أنها تبحث في بحث خاص غير أننا نرى أن المحراب في مسجد كاتون مزخرف على الطراز العربي إلى حد يثير الإعجاب وقد يوجد

مثل هذا المحراب في المساجد الصينية الأخرى القديمة، لكننا لا نعرف حقيقتها حتى الآن. غير أن هذه المسئلة تحتاج إلى بعض التحقيق وقد نقوم بهذا العمل في المستقبل القريب، إن شاء الله تعالى.

١ - صناعة الورق بعد هذه السكلمة التمهيدية نذهب أولاً إلى للبحث عن العلاقة الصناعية. وأول شيء يتناوله الكلام في هذا البحث هو الورق وهو بلا شك من صناعات الصين قد أخذها العرب في سمرقند، ثم روجوها في الممالك الإسلامية، فتعلمها منهم أهل أوروبا.

كان السبب في ذلك على أرجح الشهادات التاريخية، أن العرب، كما عرفتم في باب العلاقة السياسية، قد قاتلوا الصينيين، الذين ذهبوا إلى مساعدة أمراء الأتراك خصوصاً آل أخشيدي بفرغانة وسمرقند فهزموهم شر هزيمة حتى أسروا منهم عدداً كبيراً. وذكر النعماني في «لطائف المعارف» أن أولئك الصينيين الذين وقعوا أسارى في يد زياد بن صالح وكان قائداً لقوات العرب بما وراء النهر، علموا العرب صناعة الورق بسمرقند، وكان ذلك في سنة ٧٥٠ م.

أن تعلم العرب صناعة الورق من أهل الصين بسمرقند من الحقائق التاريخية التي يتفق عليها علماء الشرق والغرب على السواء، غير أن هناك، بعض الاختلافات في وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل هذه السنة. والكلام الذي وجدناه في «لطائف المعارف» للنعماني، يدل على أن مصنع الأوراق لم يكن موجوداً إلا بعد انهزام الجيوش الصينية أمام زياد بن صالح ووقوعهم أسارى في أيدي العرب في واقعة «تالاس» (٧٥٠ م). وكان من بين هؤلاء الأسارى، من يعرف صناعة الورق، فعلموها العرب وأهل سمرقند. فانتقلت منها إلى إيران ثم إلى مكة المكرمة. ومنها إلى صقلية ثم إلى أسبانيا وإلى أوروبا^(١) لكن الأستاذ غسٹاف لبرن، صاحب «حضارة العرب» يعتقد وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل فتح العرب لها، فذلك يقول: «أن صناعة الورق كانت معروفة عند

(1) Legacy of Islam. P. 144.

الصينيين من قديم الزمان، وهذه الصناعة قد أتت إلى سمرقند في القرن الأول الهجري . فلما فتحها العرب؛ وجدوا فيها مصانع الأوراق^(١) واتفق معه الأستاذ (برتولد لوفر Berthold Laufer) باحث أمريكي شهير ومتخصص في العلوم الصينية قال - أن الورق قد جلب إلى سمرقند من الصين لأول مرة في سنة ٦٥٠ م، ثم في سنة ٧٧٧ م . فان ورق الصين كان معلوما في إيران إذ كانت تحت حكم آل السامان . غير أنها كانت تعد من البضائع النادرة المخصصة لرسائل الدولة والملوك، وإنما الرواية المشهورة تقول أن ورق الصين قد أُررد إلى سمرقند في سنة ٧٥١ م، وكان ذلك بواسطة الأسارى الصينيين، وإلى مكة في ٨٣٧ م - ٢١٢ هـ^(٢) .

ولعل هذه الرواية مبنية على ما ورد في لطائف المعارف، للثعالبي وفي المسالك والممالك، للنجيني لكن الباحثين الآخرين يؤكدون ما قال الأستاذ لوفر ومنهم أدوارد جييون، المؤرخ الروماني الشهير الذي قال على ما مش كتابه « انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها » ما يأتي، يوجد بيان غريب عن سمرقند في (Bibliotheca Aradio Hispan . tome I. P.208 H. C.) ، استنادا إلى مقال مدير مكتب كاسيري، الذي روى مستندا إلى شهادة وثيقة، أن الورق قد ورد إلى سمرقند أولا في سنة ٥٣٠ هـ - ٦٣٠ م، ثم نقلت صناعته إلى مكة في سنة ٨٨ هـ - ٧٠٧ م، وفي مكتبة أسكوريال، توجد دفاتر أوراق، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري^(٣) .

واسنا متشككين في قول الأستاذ جييون، إذ قال أن صناعة الورق قد نقلت إلى مكة في سنة ٨٨ هـ - ٧٠٧ م، لأن نفوذ العرب السياسي إلى ما وراء النهر في عهد بني أمية، خصوصا في زمن الوليد بن عبد الملك أوجد احتمالا قويا في

(١) تمدن عرب - ترجمة بلسكراهي ص ٥٤٣

(2) Sino-Iranica: «On Paper»

(3) Gibbon: II. P. 480.

تصديق هذا النقل بعد ثبوت أن صناعتها قد عرفت في سمرقند قبل ٣٥ عاما لكننا نشك في قول الأستاذ كرد علي حيث يدعي أن العرب كانوا يصنعون الورق بسمرقند في سنة ٦٥٠ م بل نقول أن هذا محال، لأن هذه الصناعة لا يمكن أن تجيء إلى علم العرب إلا بعد توغلمهم سياسيا إلى سمرقند، ومن المعلوم أن نفوذهم إلى أواسط آسيا قد توقف عند خراسان بعد الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين حتى زمن الوايد بن عبد الملك (٥٨٦ - ٧٠٥ م) وبناء على هذا أعتقد أن الأستاذ كرد علي، قد أخطأ في حكمه، بحجة أن بعض العلماء يذكرون ورود الورق من الصين إلى سمرقند في سنة ٦٥٠ م. وهذا القول في الحقيقة لا يفيد أن العرب قد مدروا أيديهم إلى هذه الصناعة في تلك السنة، لأنهم لم يفتحوها إلا في آخر عهد الوايد بل يفيد الخبر عن انتشارها من الصين إلى سمرقند في سنة ٥٣٠ - ٦٥٠، وهذا هو ما قاله العلماء الآخرون. وأما معرفة العرب بهذه الصناعة فتلك ممكنة إذا فتحوا سمرقند، ولم يفتحوها إلا سنة ٧٦٥ - ٧٠٥ م.

قلنا فتحها العرب، تعلموا هذه الصناعة من أهلها، ومن الظاهر أنها قد جاءت إلى علم المسلمين قبل واقعة نالاس بخمسين سنة على التقريب. وهذا هو رأي صاحب تراث الإسلام، والأستاذ لوفر، وما وجدناه في جيبون أيضا، يؤكد هذا الرأي، غير أننا لا نجد ما يؤيده في هذه النقطة من المصادر العربية، وما ورد في لطائف المعارف، يذهب بنا إلى ٥٠ سنة متأخرة، وأرجح قول الثعالبي على أقوال غيره، بسبب واقعة نالاس المعروفة في تاريخ آسيا الوسطى، وأما المصدر الصيني فقد انفق مع الأستاذ الثعالبي في هذه النقطة.

والذي اخترع الورق هو تساي لون، على رواية مشهورة عند الصينيين وهو من أهل (هانغ جو)، عاش في القرن الأول للميلاد. وقد كثرت فيها أشجار التوت ويصنع من قشورها الورق. فعمت هذه الصناعة في بلاد الصين وانتفع أهلها بها. فلما حصل الاتصال السياسي بين الصين والعرب في آسيا الوسطى، تعلموها في سمرقند. ثم انتشرت سريعا إلى البلاد الإسلامية الأخرى

حتى قيل أن الورق كان يباع في سوق بغداد في سنة ٧٩٤ م - ١٧٨ هـ فيها سوق خاصة لهذه التجارة . وتوجد في متحف باريس بمض النماذج للاوراق المصنوعة ببغداد لذلك العهد ، عليها كلمات عربية ، وعلى قطعة منها حلول لمسائل رياضية . ويرجع تاريخ هذه القطعة الى سنة ١٧٠ هـ من صناعة شيراز . ويحتفظ متحف لندن أيضا ببعض نماذج من هذه الاوراق (١)

ولقد جاء ورق الصين الى علم المسلمين في شكل آخر ، غير ما ذكرناه - في شكل أوراق مالية . ومن المعلوم أن الصينيين هم الأولون الذين قد أوجدوا أوراق المال . فنقلها المغول الى إيران في سنة ١٢٩٤ م . فالاوراق المالية التي عملها الإيرانيون كانت على شاكلة ما عملها قبلاى خان في الصين بلا أى فرق ، عليها حروف صينية تدل على قيمة الورقة المالية . وأغرب شيء يجب أن نلاحظه في هذا الامر أن المطبعة الخشبية التي استعملها الصينيون من زمن قديم قد استعملت لأول مرة في تبريز في طبع الاوراق المالية في سنة ١٢٩٤ م

لم يحرم الغربيون في القرن الثالث عشر للميلاد من علم الاوراق المالية التي كانت رائجة في الصين فان ماركوبولو كان عالما بصناعتها . ولقد شهد بعينه في الصين أن الخان الأعظم ، كان يأمر الناس أن يأخذوا قشور التوت ويصنعون منها الاوراق . ثم يقطعونها مربعة مستطيلة فيطبعونها فاذا هي أوراق مالية يشترون بها ويبيعون . وبناء على ما رواه ابن بطوطة ، كان أهل الصين في زمنه لا يتبايعون بدينار ، ولا بدرهم ، بل بقطع كاغد ، كل قطعة منها على قدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهو بمعنى دینار عند العرب . واذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار الاوراق المالية فأخذ عوضها جددا . وكانت هذه الاوراق تعتبر عند الناس ثقة الى أقصى حد ، حتى لا يرضوا في التبايع إلا بها .

وكان آخرون من علماء الاسلام غير ابن بطوطة علموا بصناعة الاوراق

(١) سالنامه مجلة كابل (١٩٠٣ م) ص ٢٩١

المالية ورواجها في الصين فنلا أحمد شهاب الدين المتوفى سنة ١٢٣٨ م بالقاهرة .
فانه قد ترك لنا كتابا جليلا في فن الجغرافية في ٣٠ جزءا . فذكر دراهم الكاغد ،
كما سماه ابن بطوطة . إلا أن بيانه لا يختلف كثيرا عما وصفه ابن بطوطة (١)
وكذلك تاج الدين حسن بن الخلال السمرقندي . يقول أنه رأى في الصين نقودا
من الوراق قيمتها من درهم الى أربعين ، الى خمسين ، والى مائة (٢) . وأقوى
الشهادات التي تدل على أن أصل الوراق من الصين فانتشر الى العالم الاسلامي ،
بعد واقعة نالاس ، هي كلمة كاغد ، مستعملة الآن في اللغة الفارسية والعربية
معا . وتستجد بعض التفاصيل عن أصل هذه الكلمة في آخر باب من هذا الكتاب

٢ - البارود : علماء العرب ينسبون البارود وهو سفوف مخلوط من ملح
وكبريت ولحم صالح لفض القذوف المقذوفات ، الى اختراعات الصينيين ، لكن مؤرخي
الصين يتكرونها هذا الفضل على أنفسهم بحجة أن تاريخ الصين يذكر خلاف ذلك .
والذي كان معروفا عند الصينيين منذ زمن قديم ، شيء غير البارود ، يسمى
صواريخ نارية (Fire Works) كانوا يستعملونها في مناسبات الأفراح أو مناسبات
المآتم . ولقد اخترعوا هذه الصواريخ على مبدأ عقود القصب التي اذا أشعلت
بالنار ، تنفجر صارخة مثل صراخ الألعاب النارية اليوم .

وأما القصب فهو كثير في بلاد الصين وبلاد العجم ، يستخدمونه وقودا
بدلا من الحطب والفحم أحيانا . وعندما تشتعل النار فيها ، تحدث صواريخ
عظيمة بانفجار عقودها في الموقد فتتهز جوانبه . فدخل في أذهان الناس شيء من
العجب . فكان تفكيرهم في حدوث هذا الصوت الكبير الهائل في عقود القصب
يؤدي إلى إيجاد صواريخ نارية ، يصنعونها بالكواغد الخشنة ، على شاكلة أنبوب
القصب ، من حيث أن يجعلوا نوعا من سفوف كبريتية في وسط الأنبوب . ثم
يسدون جانبيه بنوع من الطين سدا يشبه عقود القصب . ثم يدخلون فيه خيطا

(1) B. Laufer: Sino-Iranica. P. 564

(٢) نبذة عن الصين لاتبني أبي العز (باشا) ص ٦٠

من ورق رقيق مكبرت فاذا اشعل هذا الخيط المكبرت الى داخل الأنبوب ، انفجر من وسطه بصارخة عظيمة كأنها صوت بندقية . ان هذا هو ما كان معلوما لدى قدماء الصين ، لكنها لا تفيد شيئا في الحرب أو القتال ، كما يفيد البارود في المدفع فشتان بين الصواريخ النارية وبين البارود . عملا وتأثيرا . فأولها لا يكون الانوعا من الألعاب التي كان أهل الصين يستخدمونها في حفلات الافراح ، أو في مناسبات الماتم . وأما الثاني ، فلا يستعمل إلا في القتال والفنك بالارواح وإطارة الروس من الاجسام . ولم يعرف هذا الصينيون إلا بواسطة المغول في أول القرن الثالث عشر للميلاد . وبغض النظر عن المخترع له ، هل كان من العرب أو من أمة غير العرب ويقطع النظر أيضا عن أصل كلمة البارود ، تركية كانت أم فارسية ، ويقطع النظر عن تاريخ هذه الكلمة ، متى عربت ومتى استعملت للمرة الاولى في اللغة العربية ، يقطع النظر عن كل هذا ، نكاد نجزم بأن المغول لم يعرفوا استعمال البارود إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين في الميدان السياسي ، وتعلمهم إياه منهم . ولدينا أدلة تاريخية من المصادر الصينية عن هذه النقطة نوردتها في السطور الآتية .

وفي تاريخ الصين لعهد سونغ ، بعض التفاصيل عن استخدام المغول المدفع والبارود في الحملة على عاصمة الصين الشرقية وهي مدينة (كائ فانغ الحاضرة) . وقد وقع هذا في أول القرن الثالث عشر للميلاد . وخلاصة الكلام ، إن المغول كانوا يستعملون المنجنيق ، كما يستعملون المدافع في حملاتهم على قلعة (لونغ ته) وكانت حصنا حصينا لأسرة كين (Kin) . كان المغول يستخرجون الاحجار من الجبال ، وقطعوها قطعما على حسب مطلوبهم ، منها كبيرة ومنها صغيرة ، مستديرة على شكل البيض وكان على سور المدينة أكثر من مائة برج . فوضعوا على كل برج مدفعا حجرياً (هو منجنيق) يرمون به أحجارا الى داخل المدينة ليلا ونهارا ، حتى امتلأت الأسواق والشوارع من كرات الحجر وهدمت البيوت من ضرباتها . وأما الذين في القلعة فقد حاولوا الدفاع عنها باستخدام جلود الجواميس والابقار وجعلوها معلقة خارج البيوت ، منتشرة عليها مثل الخيام

فاذا وقعت عليها الاحجار لا تؤثر فيها؛ فلا يظهر في الجلود شيئا إلا بعض اعوجاج. فأطلق المغول عليها مدافع نارية تحرق كل ما وقعت عليه من جلود أو أخشاب أو بيرت

وكان المغول، يبنون السور حول معسكراتهم، يمتد في بعض الأحيان إلى الخمسين ميلا، وعملوا عليها أبراجا يلتجئون اليها عند القتال، وحفروا الخنادق حول السور إلى عشرة أذرع عمقا. ثم حددوا بين كل أربعين قدما، موضعا خاصا لنصب مدفع نارى فيه، سموه «صاعقة»، فيها وعاء حديدى للبارود يتفجر بالثار. فاذا انفجر يسمع صوته من بعد ثلاثين ميلا. ويصيب من بداخل أربعة أقدنة. كانت عند المغول بندقية نارية أيضا، ترمى بالنار، تحرق من في حدود عشرة أقدام. فكان للناس يخافون القرب منها

ويثبت من هذا النص، أن المغول قد استعملوا المدافع الحجرية (المجانيق) والنارية في ضرب عاصمة الصين الشرقية. ومن المعلوم أن معارية قد استخدم المجانيق في محاصرة قسطنطينية في سنة ٨٠٨ هـ. وكذلك استعملها الحجاج بن يوسف في محاصرة مكة، إذ كان يقاتل عبدالله بن الزبير سنة ٧٣٣ هـ. وأما المغول فقد تعلموا استعمال المجانيق مباشرة أو غير مباشرة من العرب، في زمن خروجهم على الممالك الإسلامية. وبناء على ما ورد في «جامع التواريخ»، لرشيد الدين فضل الله أن المغول، لما حاصروا مدينة «سيانغ يانغ فو Siang Yang - fu») لم يستطيعوا فتحها، لاستحكام قلعتها وشدة المحافظة عليها. فطلبوا صناع المجانيق من بعلبك ودمشق، وكان من جاءوا إلى الصين، تلبية لدعوة المغول، أبو بكر وإبراهيم، ومحمد وغيرهم من المتعلمين. فعملوا لهم سبع مجانيق وضربوها بمدينة «سيانغ يانغ فو»، ففتحوها (١).

وأما المدفع النارى الذى يحتاج إلى البارود فى قذف مقذوفاته، فثبتت من المصادر الصينية، أنه من صناعات المسلمين، ومن المحتمل أنه من العرب. لأن

(١) جامع التواريخ، فى حكاية أحمد البناكى

عدة كتب في اللغة الصينية ، تذكر استعمال مدافع المسلمين ، هوى هوى هو
في محاصرة سيانغ يانغ فو . لقد ورد في « يوان شي » (أى تاريخ المغول) في
ترجمة القائد على ييحي الأويغوري الذى بعثه قبلاى خان الى مهاجمة سيانغ يانغ فو
قائلا أن فى عسكره مسلحا ، يسمى اسماعيل ، كان يعرف كيف يصنع المدفع النارى
فتمكن القائد المذكور من فتح المدينة بمساعدة هذا النوع من المدافع ، ويذكر فى
ترجمة « يوان سى جو » أى الامبراطور الأول لأسرة المغول - قبلاى خان ،
أن قائدا له يسمى باسم « لانغ كيا » (Lang Kia) ، كان يستحضر كل من
يعرف صناعة المدفع من ولاية « خوى » الى العاصمة ، وكان منهم ستمائة من
المغول والمسلمين والصينيين . فأرسلهم جميعا من المدفعيين الذين كانوا بتادو Taidu
وعلى رأسهم « جانغ لين » الى الحملة على الولايات الشرقية ، فالنوع من المدفع الذى
استعملوه فى هذه الحملة ، كان معروفا بمدفع المسلمين ، (Hui-Hui Bhao)
جاء فى « تهونغ جيانغ » أى تاريخ الصين العام فى الجزء الرابع والتسعين ما يأتى
لقد ظهرت الثورة فى مدينة « فانغ » (Fang) ، فى الشهر الأول سنة ١٤٣٢ م .
فقتل حاكمها . وكذلك ظهرت الثورة فى مدينة « سيانغ يانغ فو » ، فقات فيها كثير
من المغول . فأصدر الامبراطور وهو (قبلاى خان) أمرا الى قائد كبير معروف
باسم على ييحي ، باغاثة المدينتين على عجل . فحمل أولا على مدينة « فانغ » . وكان
المسلون الذين فى جيوشه ، يصنعون له نوعا من المدافع فاستخدمه فى أعماله
العسكرية حتى تمكن من فتحها . ثم توجه بجيوشه الى « سيانغ يانغ فو » و ضربها به .
فوقعت المقدوفات على عمارات عالية البناء ، وقوع الصاعقة عليها . فارتعد السكان
وارتجفوا من رعبه . وأما قواد الثوار فأكثرهم قد تسوروا السور وخرجوا
خاضعين لأمر الجنرال على ييحي . فقبل تسليمهم . ثم دخل المدينة وأمنها باسم الامبراطور
فأقوى الشهادات التاريخية هوما وجدناه فى كلمة « هو » فى ديوان لغات
الصين . ويقول صاحب الديوان عن هذه الكلمة : وهى آلة نارية تستعمل فى
الحرب . لقد صنعها اسماعيل وعلاء الدين من أهل (الغرب) (١) ، للمغول الذين

(١) والمراد من « الغرب » هنا هو الممالك الاسلامية فى آسيا

استعملوها لأول مرة في الحملة على مدينة « سيانغ يانغ فو »، في سنة ١٢٣٢ م. ومن ثم تعلم الصينيون استعمال المدفع الناري في الحرب (١)

وجملة الأقوال تؤدي الى أن البارود والمدفع الناري، وإن لم يكونا من اختراعات العرب فمن اختراعات المسلمين على اليقين. ونقول هذا، بسبب عدم علمنا بنسب اسماعيل وعلاء الدين المذكورين في تاريخ الصين.

وهنا سؤال وهو هل كان البارود والمدفع الناري معروفين قبل اسماعيل وعلاء الدين وبعبارة أخرى، هل سبقهما أحد في صناعة هاتين الآتين الحربيتين ومن كان مخترعهما الأول فهذا لا سبيل لنا الى معرفة حقيقته. غير أن البحث الدقيق في هذا الأمر، يؤدي الى الاعتقاد بأن البارود الذي غير فن الحرب في العالم، منذ يوم اختراعه، كان معروفا عند المسلمين على الأقل قبل القرن الثاني عشر للميلاد. لأن المسلمين كانوا يستعملونه في الحروب الصليبية التي قد نجم قرنهما في أوائل هذا القرن. وكان الصليبيون يصفونه بأنه « عامل مهلك في ازهاق النفوس ». - إذن فلم يأت الى علم الصينيين بواسطة المغول إلا بعد مائة سنة. وكان ذلك في سنة ١٢٣٢ م

ولقد ثبت في تاريخ الاسلام، أن العرب قد استعملوا البارود في الحروب الأخرى ويقول الاستاذ ج كوند في كتابه « حكومة العرب في أسبانيا »، أن العرب كانوا يستعملون البارود في أسبانيا فشلا كان اسماعيل بن فزاز، ملك غرناطة، يستخدم بعض الآلات الحربية في رمى المقذوفات النارية، حين حاصر مدينة بوزا (Boza) في سنة ١١٢٥ م

كما أن المغول قد استخدموه في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد في الصين، كذلك استعملوه في الهند في القرن السادس عشر. فان بابر الذي حارب ابراهيم لودهي

(1) Shin Pao Yueh kan: 15, Oct. 1934. Shanghai

سلطان دهلي في واقعة باني بيت في ٢١ أبريل سنة ١٥٤٦ م، وقد استعمل
قاذقات نارية في الحرب لأول مرة في الهند فقتل ابراهيم لودهي في هذه الواقعة،
وزالت حكومته. قالفاذقات النارية التي استعمالها بار في هذه الحرب، كانت بدون
شك، تحتاج الى بارود وقد عم استعماله في الصين قبل هذا بقرنين، بعد أن تعلموا
من المسلمين الذين هاجروا الى الصين أيام قبلاي خان

الفخار والخزف: ذكر كثير من علماء العرب مهارة الصينيين في الصناعات
منهم الجاحظ والمسعودي وابن الفقيه، وابن بطوطة. فقد قال الجاحظ، أهل
الصين في الصناعات، واليونانيون في الحكم، وآل ساسان في الملك، والأتراك في
الحروب، وقد عرض علينا صورة أجمالية تصور فوارق طبائع أمة من أخرى
من هذه الأمم المعروفة في التاريخ. فالرجل الصيني، خلق صانعا كل وطبيعته تميل
الى الاهتمام في الصناعات، فحذقوها واشتهروا بها من قديم

ومن الصناعات التي نال بها الصينيون شهرتهم في العالم، الحرير والفخار
والخزف والتصوير. فالحرير قد ذكرته ضمن بعض الأبواب السابقة وسأعود
إلى ذكره عند البحث عن المنسوجات الإسلامية التي يتجلى فيها أثر الصين. وهنا
نلم إماما بالفخار الصيني الذي قد وصل عنه إلى العرب في أوائل القرن الثاني
للهجرة. وإذا اعتقدنا بصدق ما قال الطبري وابن الأثير، لزمنا أن نسلم بما وقع
في غزوة كش (١٣٤ هـ). انفق الطبري وابن الأثير في أن أبا داود بن ابراهيم
الذي عينه أبو مسلم الخراساني، قائدا في غزوة كش، لما فتحها العرب بعد حرب
طاخنة، أخذ من الأخرید وأصحابه، من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة التي
لم ير مثلها، ومن السروج الصينية ومتاع الصين، ومن الديباج وغيره ومن
طرف الصين شيئا كثيرا^(١). وهنا وقفنا على تسرب علم صناعة الأواني الصينية
وغيرها من الصناعات الدقيقة إلى العرب. فحأكوا صناعتها بمدينة دسر من رأى،
أيام العباسين وبمدن أخرى بعدهم

(١) الطبري ج ٩ - ص ١٥٠، وابن الأثير ج ٥ - ص ١٨٣

ومن المعلوم جدا أن مدينة سامراء، أو سر من رأى، هي التي بناها الخليفة المعتصم في سنة ٨٣٨ م لنفسه ولحراسه. لكن من جاء بعده من الخلفاء لم يجدوها ملائمة لأقامتهم بها فتركوها في يد الدهر حتى ذهب بزهرتها وجولها الى خربة تبكى عليها اليوم والغريان، فلم ينظر اليها أحد من المؤرخين أثناء هذه المدة الطويلة حتى القرن السابق، إذ جاء عالمان من علماء الألمان^(١) للتقريب عن هذه المدينة على ضوء العلم الأثرى، وعن حالها في القباير فالجهود التي بذلها في آثار سامراء، أدت إلى اكتشاف جديد، يؤكد وجود علاقات صناعية بين الصين وعاصمة الخلافة العباسية في القرن التاسع للميلاد. لأن من بين حضريات سامراء بعض أوان إسلامية، صنعت على شكلة أوان صينية، وعددا كبيرا من خزف الصين التي وردت الى بغداد، أما بواسطة التجار وأما بواسطة السفراء الذين كانوا موقدين الى الصين أو الى بغداد. ولقد خصص مؤلف، ودليل الى الفخار والخزف بالشرق الأقصى، ثمانى صفحات للبحث عن مهمة الكشف للأواني الصينية بخربة (سامراء) وأطلالها. وهي مشتملة على فغفوريات بيض ونخار أبيض ضارب الى الصفرة، وسلادون (Celadon) وخزف على اختلاف أنواعها وغيرها من الصناعات الزجاجية المرقشة بالنقوش، والزخارف المتنوعة. وأن هذه الأنواع من الأواني الصينية، ما عدا ما يسمونه (سلادون) كلها من محاكاة صناعة الصين، وقد وصلت هذه المحاكاة الى درجة يكاد الانسان لا يميز بينها وبين صناعات الصين الأصلية، الا باختبار الطين الذي صنعت منه، فالأواني المقلدة (بفتح اللام) قد صنعت من طين سامراء، اللين الذي لونه يشبه لون الجلد المدبوغ، وتصبح مسجوقا إذا كسرت بالسكين. وأما الفخار الصيني الأصل فيتحمل ضرب السكين ولا يسحق إذا كسر. وأما الفغفوري فأبيض اللون جسما ومن بين الصناعات التي صنعت في سامراء محاكاة للصناعة الصينية، نوع من الأباريق له فم قصير مستقيم ومقبض عليه إذن أو عروة، ونقوش أخرى خاصة

(١) Hobsun's Guide to Islamic Pottery. P. 2.

للأواني الصينية التي قد صنعت في عهد (تانغ) (٦١٨ - ٩٠٦ م) . وهي ذو خطوط زجاجية صفراء اللون ، مع زركشة في لون أحمر قان . وقطعات أخرى حوكي فيها فن الصين منها طاسات ذات أوراق زجاجية .

أن المحاكاة في صناعة الفخار الصينية وفي صناعة الخزف الصينية قد وقعت في بلاد شتى من البلاد الإسلامية ، منها إيران ، وسمرقند ومصر والشام ولقد ظهر أثر الصين قويا جدا في الخزف الإسلامي الذي صنع في هذه البلاد . وأما ناحية المحاكاة فلم تكن منحصرة في الألوان والأشكال فحسب بل في الزخرفة والنقوش أيضا . لقد عثر على بعض نماذج في بلدة سوسا (Susa) ، للفخار الإيراني الذي صنع على شاكلة أواني تانغ . ففي الرسم الذي تحت رقم ١١ في كتاب (ديماند)^(١) نرى صفحا فيه أشكال عجيبة مبنية على خرافات ساسانية مع نيلوفر منقول عن فن الصين . ومن قول الأستاذ ديماند ، أن الإيرانيين قد نجحوا نجاحا تاما في محاكاة الصينيين في صناعة الفغفوري الأبيض اللون ، في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . ولديه بعض النماذج من هذا النوع من الفغفوريات وهناك نوع آخر من الخزف المصقول الذي صنعه الإيرانيون في القرن الثاني عشر والثالث عشر وهو يمتاز عن أنواع أخرى بالرسم والنقوش الملونة . فقيده الأستاذ ديماند برقم ٦٦ في كتابه . فالسهمكة والطيور والأوراق المعوجة التي تراها في هذا الخزف المصقول ، هي من محاكاة فن الصين . مثله نموذجان وصحن يرجع تاريخها إلى سنة ٥٦١٢ - ١٢١٥ م ، في مجموعة ماسي (V. E. Macy)

استمرت هذه المحاكاة إلى القرن السابع عشر من الميلاد ، خصوصا في صناعة الفخار والفغفوري وكان ذلك متأثرا بصناعة الأواني الصينية التي استوردتها امراء إيران وملوكها . فحاكوها في الزخارف وكيفية الصناعة . فثلا أن الصناع الإيرانيين قد سعوا في محاكاة الفغفوري ذي اللونين الأزرق والأبيض ل عهد (منغ Ming) ، مع نقوش زرقاء وبيضاء في طراز صيني . يوجد بعض النماذج لهذا النوع في مجموعة الأستاذ ديماند

(1) Dimand: A Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.

وهناك أنواع أخرى من الفخفوريات بغير النقوش البيضاء وزرقاء ، صنعت في القرنين السابع والثامن عشر ، مشتملة على صحنون وطاسات صلبة الاجسام ، عليها مناظر طبيعية ، وصور طيور صينية الشعور والرموز التي تراها ، بكثرة في الخزف الصيني لعهد منغ .

ويظهر من البحث في آثار الصين في الخزف الاسلامي في إيران ، أن محاكاة صناعة الفخار الصيني وغيره من الصناعات الخزفية ، لم تكن منحصرة في مدينة أو مدينتين ، بل عمت أكثر مدنها . فان جاردين (Gardin) الذي جال خلال الديار الايرانية في القرن السابع عشر للميلاد ، لاحظ أن الفخار وهو من أجمل الصناعات الايرانية ، يصنعونه في كثير من مدنها . وأحسن ما صنع في إيران من الفخار ، هو مرشراز ومشهد ويزد وكرمان وسلطان آباد فالمواد التي كانوا يصنعونها بها ، كانت جيدة ، كجودة المواد الفخية ووربات الصينيات ، وشفافة ، وكشفا فيها ، وجميلة كجمالها والحقيقة أن كثيرا من الناس لما رأوا هذا النوع من الخزف ، ظنوا أنه من الصين فلجل هذا ، كان التجار الهولنديون في تلك القرون يستوردون الفخار والخزف من إيران ويبيعونه في أسواق أوروبا كصنوعات الصين . وكان أهم خصائص هذه الصناعة ، هو ما نقله الايرانيون عن فنون الصين من الخزف والنقوش والزركشة . فالنقوش في الخزف الايراني للقرنين السابع والثامن عشر الميلادي ، كلها تشبه تمام الشبه ، نقوش الخزف الصيني لعهد منغ ، وهو العصر الذي تغلبت فيه الزخرفة البيضاء والزرقاء في الصناعات الخزفية . وهناك طاس مرقوم بـ ٨٢ في كتاب الاستاذ هوبسن ، يشبه تماما ما صنع بالصين (١)

وأشهر الفخار والخزف في إيران ، هو ما صنع بسلاطان آباد وكرمان . ولقد عقد الاستاذ هوبسن فصلا خاصا عن خزف سلطان آباد ، الذي ظهر فيه أثر الصين واضحا قويا . فخزف سلطان آباد ينقسم الى قسمين : قسم يشبه ما صنع بالرى ، ليس فيه شيء من التشابه بينه وبين الخزف الصيني وقسم آخر قلده فيه ،

(1) Hobson : P. 67.

الصناع ، صناعة الصين في الترقيش والتصوير . وفي هذا القسم من الخزف ترى صور حيوان وطيور ، وصور انسان أحيانا ، مع زخارف نباتية وأوراقها على أسلوب ما صنعه الصينيون في بلادهم . واثق تجد في رسم تحت رقم ٦٨ في كتاب الاستاذ هوبسن ، صورة انسان على شكل مغولى ، ورسم نيلوفر يرمز الى شعور صيني . وفي نمـ اذج أخرى ترى صور التين والعنقاء وكلاهما من الرموز الصينية (١)

وإذا اتقلنا من إيران الى مصر ، نجد أثر الصين في صناعتها أيضا فالمدينة التي كانت تشتهر بصناعة الخزف والفخار في القرون الوسطى بمصر ، هي الفسطاط . ففخارها ينقسم الى أربعة أقسام على حسب الألوان منها ماهو مادته رملية من لون أحمر أو رمادى ، ومنها ماهو يشبه ما صنع بالشام وإيران من لون أزرق ضارب الى السواد ، ومنها ماهو في لون أزرق وأسود . وأما القسم الرابع فهو مختلف الألوان وفي هذا القسم الأخير ظهر أثر الصين الصناعى . ويقول الاستاذ هوبسن — أن المصريين قد قلدوا في صناعة الفخار والخزف ، صناعة الصين لعهد سونغ (Sung) وعهد يوان خصوصا في زخارف الأواني التي صنعت في ولاية شيكياغ (Chekiang) ، فان هذه الأواني كانت تنقل كمتاجر من الشرق الاقصى الى الأدنى في أيدي التجار العرب في القرن التاسع من الميلاد وأما المصريون فقد نجحوا الى حد ما ، في محاكاة لوزجاج شفاف في بلادون الصين فنقلوا زخارفها الطبيعية الى صناعتهم ، مثل الاسماك والاطيار والأوراق المنبسطة المعرجة غير أنها مغايرة لآخواتها الصينية من ناحية المادة والشكل الجسمى . فالنماذج لهذا النوع من الخزف المعمرى كثيرة تستطيع أن تراها في دار الآثار العربية (بمصر) ففي هذه الدار ، أربع أوان كبيرة من صناعات الصين ، وقد عثر عليها في جامع السلطان حسن . ويقول الاستاذ هوبسن أن هناك بعض أوان أخرى من صناعات الصين عثر عليها في الفسطاط (٢) .

وكانت زخارف الخزف الشامى في القرنين الرابع والخامس عشر من الميلاد

(1) Hobson: 54.

(2) Hobson: p.61

على الأسلوب العربي الذي تتجلى فيه الحروف العربية المشتبكة في ألوان مكونة من أزرق وأسود وقيزوزى - غير أن هناك قسما آخر صنع في هذين القرنين ، مثل ما صنع بالمسطاط - يغاير الأواني الأخرى بزخارف من مناظر طبيعية وطيور وأزهار صينية في لون أسود ضارب إلى الزرقة - ولقد عثر على بعض النماذج لهذا القسم من الخزف في دمشق ، وهو سخن في وسطه طاووس ومن رأى الاستاذ ديماندا ، أنه من صناعة الشام على أسلوب صيني (١)

وقد ظهر أثر الصين في الفخار التركي أيضا ويوجد هذا الأثر في فخار كوباچه بداغستان - يذكر الاستاذ ديماندا في كتابه ، أن بعض النماذج وجدت في الجامع الأخضر وفي مقبرة السلطان محمد الأول بمدينة بروصة (Brusa) - لأن محراب هذا الجامع الذي بنى في عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١ م) ازدان بزخارف عربية ورسوم الأزهار التي يرى فيها أثر الصين - والسبب في ذلك أن المحراب قد بناه الإيرانيين من أهل تبريز - فرسموه برسوم وزينوه بزخارف لونها يشبه لون الخزف لعهد قبله - ثم أشار إلى اللوحة التي تحت رقم ١٠٥ في كتابه قائلا أنها قطعة من القراميط التي صنعت بروصة في القرن الخامس عشر للميلاد وأثر الصين فيها واضح (٢) واتفق معه الاستاذ هوبسن في هذا للرأى

وأما كوباچه فهي قرية صغيرة بداغستان ، تشتهر بخزفها وفخارها . وأكثرها مدهون بألوان من أزرق وأخضر وأصفر . ومهما نوع وردي اللون يشبه الفخار التركي . فالزخارف فيها عادة من رسوم النساء تحاط بالأزهار والحيوانات على طرز صيني . ولعل هذا النوع من الخزف ، من صناعات القرن السادس عشر أو بعده بقايل (٣)

(1) Dimand P: 164.

(2) DiMand : P. 172

(3) Hobsou : 75.

وبروى الاستاذ ميچون في كتابه « فنون المسلمين » : أن الصينيين قد صنعوا بعض القطع من الخزف على أذواق الإيرانيين فجاء بنماذج لهذا النوع في كتابه ، يتجلى فيها الذوق الأيراني من ناحية الشكل والزخرفة . بيد أن فيها أختاما صينية في أسفلهما ، والظاهر أن هذه القطع صنعت اما في مصانع الصينيين بإيران ، وأما في المصانع الأيرانية الى كان فيها صناع الصين .

وفي الزمن الذي يتجلى فيه أثر الصين في الصناعة الأيرانية بوضوح نرى في بعض الخزف الفخفوري المصنوع بكرمان ، ذوقا إيرانيا وزخارف صينية معا . وهي محاربة التين والعمقاه (١)

٤ - أثر الصين في المنسوجات الإسلامية .

يحد الباحثون في الصناعات الإسلامية ، أثر الصين في المنسوجات أيضا ، وكانت لذلك عوامل كثيرة ، منها غزوات العرب الى أواسط آسيا في القرن الثاني للهجرة . واتقد عرفنا في باب سابق أن أبا داود حينما فتح مدينة كاش ، أخذ من الأخشيد وأصحابه أشياء كثيرة من الديباج والحرير وطرف الصين ، كما ذكر في الطبري وابن الأثير . فالديباج نوع من الحرير المنسوج بخيوط الذهب أو الفضة ، المرسوم من أشكال مخلقة ، من زهور وطيور وتين وعتقاء ، ونيلوفر وأوراق النبات . ولا نشك في أن الطرف الصينية التي نقلت الى يد أبي داود الى بيوت العرب يوجد منها بعض هذا النوع من الحرير . فأصبح نموذجا للمنسوجات الإسلامية فيما بعد ذلك

وهناك احتمال آخر في كرون غزوات العرب الى آسيا الوسطى عاملة في نقل أثر الصين الصناعي الى المنسوجات الإسلامية . وهو أن العرب قد أسروا في واقعة تالاس ، عددا غير قليل من الصناع الصينيين ، ونقلوهم الى مدنهم . فتعلموا منهم تلك الصناعات التي كانت لهم يد عليا فيها - مثلما تعلموا صناعة الورق منهم في سمرقند . وقد حاولنا تحقيق هذه المسئلة من الناحية التاريخية فعثرنا على نص يدل على

(١) Migeon : Maneul D'Aart Mussalmans 11, P. 270.

صحة ما ذهبنا اليه في كتاب صيني ألف في القرن الثامن الميلادي ، يسمى رحلات تووان . وجدنا ما يؤكد ما قلناه من تعلم العرب الصناعات من الاسرى الصينيين . فأن تووان هذا ، كان عالما من العلماء رافق الجيوش الصينية الى سمرقند . فوقع أسيرا في أيدي العرب ، اذ هزم موهم في واقعة (تالاس) . فأخذوه الى العراق وابقوه هناك نحو ١١ سنة ثم أطلقوا سراحه . فركب البحر من البصرة ووصل الى كانتون سنة ٧٦٢ م . ومن ثم سافر الى (سي آن) عاصمة الصين اذ ذلك . فيكتب رحلته المشهورة . وذكر ما رآه في أواسط آسيا وفي مدن العراق من الحاصلات والصناعات . وفي أثناء كلامه عن أحوال الكوفة ، ذكر أن بها الصناعات الصينية وهم الأربعة . فانصو ، وليوجي ، من أهل سي آن . ولو هوان ، وليولي ، من أهل ولاية ها - تانغ ، وكانوا يلمون أهل الكوفة بصناعة الأقمشة الحريرية والصياغة والتصوير (١) فمن المتيقن إذن أن من بين الذين قد وقعوا أسرى في أيدي العرب كثيرا من صناعات الصين فعلموهم ما عرفوا من الصناعات والفنون . وبسبب هذا ، انتقل أثر الصين الى صناعة المسلمين في أوائل العصر العباسي

ومن عوامل التأثير الصناعي العلاقة التجارية التي كانت وثيقة بين الصين والعرب بين القرن التاسع والخامس عشر الميلادي . وكان العرب منذ أواخر القرن الاول الهجري ، أخذوا يركبون البحر إلى الهند لتجارة . ثم وسعوا نطاق حركتهم فوصلوا الى الصين بعد عدة قرون من السنين ، فمن تجار العرب الذين قد سافروا إلى الصين في القرن التاسع الميلادي ، سليمان المعروف بالتاجر السيرافي ، وهو أول من ذكر من العرب لباس الحرير وصناعة الحرير بالصين ثم حدا حذوه علماء آخرون . فلذا نجد في الأسفار الاسلامية كثرة الحديث عن تجارة الحرير والديباج وصناعتها ، فلا غرو ، أن هؤلاء التجار قد حملوا إلى بلادهم بعض القطع

(1) Ancient China's Relation With the Arabs. P. 56.

النادرة من الديباج والحرير ، فحاکوا صناعته وسما ونسجا ، بعد أن تعلموا تربية دود القز واستخراج خيوط الحرير من بطونها .

وهناك عامل آخر يساعد على نقل أثر الصناعة الصينية إلى الصناعات الإسلامية وهو كما ذكرته في باب مستقل ، تبادل السفارات بين الصين والممالك الإسلامية في عصور مختلفة ، وكان ملوك الصين على اختلاف الأمر والعائلات ، قد بعثوا هدايا نفيسة وتحف نادرة من الأقمشة الحريرية ، والكمخاب والديباييج والفغفوريات إلى خلفاء الإسلام وملوك العرب ، بواسطة السفراء الوافدين من الممالك الإسلامية . أو المبعوثين إليها . فأمرأه العرب وكبار الإسلام ، كانوا يعجبون طبعاً بمنتجات الصين الدقيقة وفوادرها . وليس من البعيد أنهم قد هموا بمحاكاة هذه الأشياء صنعا ونسجا . فأمرأه بصنع بعض المنسوجات على شكلة المنسوجات الصينية ، بادخال أساليب التشكيل والرسم الصينية فيها .

وبعد هذا : أقول أن أثر الصين في المنسوجات الإسلامية لم يظهر جليا إلا في الزمن الذي قد اتحدت فيه بلاد الصين بالشرق الأقصى ، مع البلاد الإسلامية بالشرق الأدنى تحت حكم المغول . فمن هذا الزمان ، أخذ تأثير الصين يبدو واضحا قويا في كثير من الصناعات الإسلامية . ولعل السبب في هذا هو وجود أولئك الصناع الذين نقلهم جنكيز خان وهلاكوخان من الصين إلى العراق ووطنهم هناك . ومن قول المحققين أن هلاكوخان قد نقل نحو ألف صانع من الصين إلى العراق (١) .

ولعدم العثور على نموذج أقدم من عصر المغول ، لا نستطيع أن نبحث بحثنا تحليليا عن حد تأثير الصين في المنسوجات الإسلامية قبل هذا العصر ، فاكتملت بهذه الملاحظات التاريخية في بداية العلاقة الصناعية وعواملها ، انصرفنا إلى البحث في تأثير الصين الصناعي في الصناعات الإسلامية في عصر المغول والصور التالية والذي لا يختلف فيه اثنان ، أن ظهور المغول في القرون الوسطى ، قرب الصين إلى الممالك الإسلامية في شتى النواحي ومنها ناحية الصناعة التي نتكلم فيها الآن ومن

(1) Hobson; P. 54,

المعروف عند العلماء أن الصناعات الإسلامية التي ظهر فيها أثر الصين ، منها ما صنع بـايران ، ومنها ما صنع بمصر والشام ويظهر أن بعض منسوجات أسبانيا في عهدها الإسلامي ، لم يكن خالصا من تأثير الصين أيضا .

فأيران التي توسط بين الصين وبين الممالك الإسلامية من الناحية الجغرافية هي التي توسطت في نقل أثر الصين الى الصناعات الإسلامية أو بعبارة أخرى ، أن أثر الصين لم ينتقل الى الصناعات الإسلامية ، إلا بعد توغله في صناعات إيران ومن المحقق أن صناعات الصين كانت معروفة في إيران قبل الإسلام بقرون فأثرت في صناعاتها الى حد ما ، حتى سقط بغداد ، وأما في الوقت الذي اتحد فيه ، الشرقان ، الأقصى والأدنى تحت سيطرة المغول وحكمهم فقد تأثرت الصناعة الإيرانية من تأثيرات الصين الى درجة لم يتأخرا من قبل قط ، ففي المنسوجات الإيرانية التي صنعت في القرن الثالث عشر من الميلاد ، ترى أن أثر الصين الصناعي ، يتجلى فيها بكل وضوح ، حتى خيل لبعض الناس أنها من عمل الصينيين أنفسهم ، ولقد ذكر الأستاذ كهرستيم في مقاله عن « الفنون الإسلامية الصغيرة » ، في كتاب « تراث الإسلام » ، قطعة من الديباج الموشى بالذهب ، عليها زخارف مكونة من أشكال الطير الخرافي الذي يعرف باسم العنقاء عند الصينيين ، وإذا نظرت الى هذه القطعة اعتقدت أول وهلة أنها من منسوجات الصين والحقيقة أنها مصنوعة بـايران في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر من الميلاد .

ولا ندعى أنها قطعة من المنسوجات الصينية ، لأن الكتابة العربية التي نسجت فيها عمل ، استحال على الصينيين أن يفعلوه هم في بلادهم ، لأن الفن العربي أو الإسلامي ، لم يؤثر في الصناعات الصينية حتى ذلك الوقت . وبوجود الكتابة العربية فيها نحكم ، أنها من الصناعات الإيرانية التي أثر فيها فن الصين الصناعي . ومن المعلوم أن الإيرانيين كانوا يقلدون صناعة الصين في الرسوم والزخارف خصوصا في عهد المغول . فالرسوم التي نقلوها الى صناعاتهم ، كانت على

العموم ، صور العنقاء والتنين ووكيلين ، ثم أوراق النباتات الصينية مثل
النيلوفر والحشخاش (١)

ولقد ذكر الأستاذ ديماندا بعض النماذج لسجاجيد إيران التي يرجع تاريخها
إلى القرن الخامس عشر للميلاد أو السادس عشر ، فنلا اللوحـة التي قيدها في
كتابه تحت رقم ١٤٥ وهي من مجموعات آلتمان (Altman) . ويوجد في وسط
هذه السجادة وسام كبير سماه الفنيون (مداليون - Madallion) ، من لون
أبيض مع نجمة زرقاء ذات ثمانية أضلاع فالأساليب الزخرفية فيها منقولة عن
شكل نيلوفر وحشخاش وهما من النباتات الخاصة بالصين (١) .

وفي نموذج قيده تحت رقم ١٤٦ وهو من أبداع ما صنعته يد الرسام في عهد
شاهتا هسب ، ترى تسع وسامات مثل النجوم ، بدلا من وسام كبير رأيناه في
شكل ١٤٥ في كتاب ديماندا . ويتجلى في هذه الوسامات ، أسلوب الزخارف
الصينية ، في هيئة محاربة التنين العنقاء . وفي شكل ١٥٠ صورة سجادة وجدت في
جامع الشيخ الصوفي بأردبيل . فالزخارف المشكلة فيها ، تمثل الأسود والتمور
المهاجمة على وكيلين ، الخرافي الصيني . ومن رأى الأستاذ ديماندا ، أن هذه
السجادة من صناعات إيران العربية ، صنعت في وسط القرن السادس عشر الميلادي
وأثر الصين يوجد في صناعة مصر أيضا . والدليل على هذا ، أن نموذج الحرير
للمعهد الفاطمي الذي ظهر فيه أثر الصين ، يوجد بكثرة في متاحف أوروبا . ولقد
ذكر الأستاذ ديماندا قطعة من منسوجات الحرير التي صنعت ببروكسل ، مزخرفة
بصور الطيور الطائرة بين الأوراق النخيلية ، وعلى اجنحتها عبارات عربية يراد
بها التفاؤل والاستخارة . فاللون في هذه للقطعة ، كالذي وجد في أخواتها وهو
مشمتم على الخضرة والزرق والصفرة والحمرة المتحددة التشكيل ، المتناسبة الرسوم
وطرز هذه القطعة من المنسوجات يذكرنا بلون الفخار المصري اللامع الذي

(1) Dimand: P. 124.

(2) Migeon: P. 238.

كان يصنع في القرنين الحادى والثانى عشر من الميلاد . ولعل هذه القطعة من صناعة ذلك العهد أيضا وظهر الأسلوب الصينى جنبا إلى جنب مع الأسلوب العربى فى المنسوجات الحريرية فى عصر المماليك . فى نموذج قيده الأستاذ ديماندى كتابه تحت رقم ١٢٩ ، ترى حريرا بديعا جميلا ، من صناعة مصر أو الشام ، فى لون أخضر مع لون برتقالى ، وحلقات مكونة من سرب طيور ، وقطعان الجوان الخرافى الذى سماه غربيفين Griffin ، متوازية الصفوف بين الأوراق النخيلية (١) فى متاحف برلين ، وفكتوريا ، والبرت (لندن) ؛ تجد كثيرا من نماذج المنسوجات المصرية لعهد المماليك ومن خصوصيات هذه النماذج أن لقب « ناصر محمد بن قلاوون » ، سلطان مصر والشام الذى حكم عليهما من ١٢٩٣ إلى ١٣٤٠ م ، قد نسج فيها . ومن رأى الباحثين المحققين ومنهم الأستاذ ديماندى ، أن هذه المنسوجات قد تأثرت من الصناعات الصينية التى كانت معروفة فى الشرق الأدنى وقتئذ .

وقد وقع لقب ناصر محمد بن قلاوون ، فى قطع بعض من الديباج المزركش بخيوط الذهب والفضة . وقطعة شهيرة من هذا النوع ، توجد فى كنيسة سانت مارى بدانزيج ، ترى فيها زوجين اثنين من البيغاء والتبين الصينى مع لقب « الناصر » المنسوجة بخيوط الجلد المذهبة على أرض الحرير السوداء . والمراد من « الناصر » كما تعلمون ، هو « ناصر محمد بن قلاوون » .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ، بعض النماذج الحريرية التى ظهر فيها أثر الصين واضحا جليا . على واحدة منها جامات صينية كتب فى داخلها « ناصر الدين والدين محمد قلاوون » ، وعلى غيرها حروف صينية يراد بها طول البقاء والسعادة . وأغلب الظن أن هذه القطع قد صنعت فى آسيا الوسطى للسلطان محمد بن قلاوون كما أشار إلى ذلك الأستاذ ديماندى (٢)

وهناك بعض الديباج ، ظهر فيه أثر الصين وإيران معا . وهو من صناعات

(1) Dimand: P. 227.

(2) Diamnd: P. 211.

أسبانيا . فيغلب في الرسوم أوراق نباتية معرجة وصور طيور منسوجة بخيوط مذهبة على أرض زرقاء ضاربة الى السواد . ومن كلام الاستاذ ديماند ، أن في متحف نيويورك قطعتين من هذا النوع من الديباج . في أحدهما رسوم الأوراق الممرجة والنيولوفر التي يستظل من تحتها زوج من الارانب وفي الأخرى أوراق نخالية مع سرب طيور تشرب من فوارة متدفقة بالماء . وهي من صناعة القرن الرابع عشر للميلاد (١)

٥ - التصوير .

من الفنون الاسلامية التي ظهر فيها أثر الصين فن التصوير الذي كان الايرانيون والمغول يحبونه ويقلدون الصين في صناعته أكثر من غيرهم من الأمم الاسلامية لكن متى بدأ هذا التأثير وبأى طريق؟ ذلك ما لا يمكن ان نحده لعدم وجود دليل قاطع على أبتدائه في زمن معين . غير أننا نقول أن التصوير كان معلوما لدى الأمتين الصينية والارانية ، قبل الاسلام . ومن اليقنين أن علم الصينيين بهذا الفن كان أسبق من الايرانيين ومع هذا لا نقول أن الايرانيين قد تعلموا هذا الفن من الصينيين لاختلاف المبادئ في تصويرهم . فالنصير الايراني القديم اتخذ الدين والعقيدة مبدأ فنيا . بخلاف التصوير الصيني الذي أخذ مبدأه من الطبيعة ومظاهرها ، ومن هذا الاختلاف نعرف أن فن التصوير في إيران كان مستقلا بذاته غير خاضع لامة من الأمم قبل الاسلام .

فلما ظهر الاسلام واتسع نفوذه من طريق إيران إلى الصين أخذ أثر فن الصين ينتقل من مهده أولا الى تركستان ثم إلى إيران والعراق . ولا نعرف تماما هل حدث هذا الانتقال في المهد الأموي أو لم يحدث . غير أننا علمنا من توهوان الأسير الصيني في أيدي العرب الذي قد أشرنا إليه من قبل أن المصورين الصينيين كانوا موجودين بالكوفة في أول العهد العباسي يعلمون صناعة التصوير والصياغة هناك ، ومن الظاهر أن انتقال فن التصوير من الصين إلى العراق قد وقع في

(1) Dimand: P. 227.

أوائل القرن الثامن للميلاد وذلك بعدما سلمنا ما قاله «توهوان» في هذا الصدد غير أن العرب لم يأخذوا من الصين هذا الفن بل رغبوا عنه ، لعدم حاجتهم إليه في حياتهم العلمية حينما كانوا مشغولين في تنظيم الدولة وترتيب الولايات الجديدة وأما أهل الفرس الذين قد سبقت لهم المعرفة بهذا الفن ، فقد قبلوا بمد انضمامهم إلى الخلافة الإسلامية بمحض الأمر من التصوير الصيني من ناحية الأساليب والزخارف ولعلمهم كانوا يحاكون في تصويرهم الزخارف الصينية التي وجدوها في الغضائر والغفوريات لعهد (تانغ) وقد استورد تجار العرب والفرس كمية كبيرة من هذا النوع من الغضائر والغفوريات من الصين إلى بغداد في صدر العصر العباسي . ثم أخذوها مباشرة من المصورين الصينيين الذين وردوا دار السلام بعد استحكام العلاقة التجارية بينها وبين الصين برا وبحرا .

ويثبت من المصادر العربية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري ، أن العرب كانوا على علم بفن التصوير الصيني وأن لم يميلوا إلى تعلمه ، لأن ابن وهبان ابن الأسود ، الذي دعتهم همة إلى أن سار إلى ديار الصين من البصرة ، قد رأى عند ملك الصين صور الأنبياء السالفين والرسل الماضين وقد أخرجها من الخزانة وعرضها عليه ، امتحانا له ، هل كان صادقا في حديثه عن بلاد العرب والإسلام ، أو كاذبا ؟ فقال منزلة محترمة لدى ملك الصين ببد أن تحدث إليه عن قصص الأنبياء ، واتفق أن أغلب ما تحدث إليه عنهم يطابق ما كتب تحت كل صورة من صور الأنبياء لديه . وأما براعة الصين في التصوير فكانت مشهورة في العالم الإسلامي ، حتى قال السمودي : أن أهل الصين أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم أحد من معاشر الأمم . والرجل منهم يصنع بيده ما يعجز عنه غيره . ثم ذكر إنعام الملك على الفنانين البارعين في الفن . وكان الطريق في ذلك أن الرجل إذا عمل صورة بيده يقصد بها باب الملك ، فيأمر بنصبها هناك إلى سنة واحدة ، فإن لم يخرج أحد منها عيبا ، أجاز صانعه^(١)

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ - ص ١٧٧

هذا وأما أهل الفرس فيظهر من التاريخ الأدبي الفارسي أنهم قد اتسموا براعة الصينيين في تصوير كتبهم وتجسيم قصائدهم . وترى هذا في قصيدة رودكى ، التي نظمها لنصر بن أحمد الساماني في سنة ٩٢٠ م

وبناء على تحقيق البروفسير آرنولد ، كان رودكى ، الشاعر الفارسي ، قد عمل نسخة نظمية من حكايات «كليلة ودمنة» ، لهذا الأمير . فكلف بعض الفنانين الصينيين تزيينها بالصور . وهذه الصور تأثير عظيم في التصوير الاسلامى فيما بعد ذلك .

وقد حاول بعض العلماء إنكار هذه الحقيقة بحجة أن الصلة بين تصوير قصائد رودكى والتصوير الايراني في عهد المغول مهدومة فلم يجدوا سلسلة التدرج أو التطور الفنى من العهد الساماني إلى العصر المغولى وكانت بين العصرين فترة تقرب من ثلثائة سنة ، لم يكن فيها اتصال فى أبدا . وكان البروفسير آرنولد يميل إلى جانب الإنكار ، لو لم ير دليلا آخر أقوى من الأول ، فرفع شكوكه ورده إلى اليقين . وهو أن الشاعر الايراني الجامى ، قد حمل زوجة «بوتقار» ، على استحضار مصور صينى ، ليعمل لها صورة مع صورة يوسف فى لوحة واحدة . وهذه اللوحة العذة النادرة ، معروفة الآن عند علماء الفن ، بلوحة «يوسف وزليخا» والواقع أن التصوير الصينى كان له تأثير واضح فى الفن الاسلامى بيران . فانهم كانوا يحبون أن يزينوا كتبهم الأدبية بالتصوير . فلما رأوا أن تصويرهم ينقص من المناظر الطبيعية ، وهى من خصائص التصوير الصينى ، نقلوها إليه بعد معرفة خصائصها وأساليبها

ولا نعرف مبلغ المعلومات التي حصلها الايرانيون عن التصوير الصينى فى القرن العاشر من الميلااد ، غير أننا نستطيع أن نقدر معلوماتهم من قول الثعالبى الذى عاش من سنة ٩٦١ إلى ١٠٣٨ م أنه كان يعجب بالتصوير الصينى ، كما أعجب به المسعودى من قبله . وكان له علم براعة الصينيين فى التصوير وذلك قد حصله إما مباشرة من الصينيين أو بواسطة غيره الذى رأى الصينيين فى صناعة التصوير بعينيه . فلذلك يقول —

أن صانعا صينيا يمكن أن يصور رجلا ضاحكا كما هو في طبيعته في جميع الأنواع من الضحك ولكل نوع طريق خاص.

فستطيع أن تعرف شيئا من معلومات الإيرانيين عن التصوير الصيني ، من سكيندرنامه . . ففي هذه القصيدة الفارسية التي وضعها النظامي في آخر القرن الثاني عشر من الميلاد ، تجد ذكرا عن مباراة مصور صيني وآخر رومي في صناعة التصوير أمام الملك أسكندر ، فوقع في دهشة حينما رأى عمل المصورين ولم يستطع التفريق بينها ، ثم اختبر طريقتهما في التصوير وحقق سر التوجيه بين المبدأ والأسلوب ، حتى كشف أن ما عمله المصور الرومي ، هو أصلي ، وما عمله المصور الصيني هو المنقول عنه . ولقد نقل الثاني من عمل الأول ، وكل ما في تصويره من تخطيط وتلوين وأسلوب في إلى أكمل حد ، حتى لا يستطيع إنسان أن يفرق بين عمل الاثنين فيقول أن هذا أصلي ، وأن ذلك منقول عنه ^(١) ومن كمال الفنان الصيني أنه لا يخطئ ذرة في تصوير أي شيء رآه ، أذ ينقله بريشته كما هو على حاله الطبيعية بدون أي فرق .

نعرف أن هذه القصة خيالية غير حقيقية على أي حال من الأحوال ، لكنها تشير إلى التأثير الذي أحدثه فن التصوير الصيني في أوساط إيران حتى يذكره شاعر من شعرائهم كنظامي في قصيدته وعند ما قرأنا هذه القصيدة ذكرنا ما ورد في رحلة ابن بطوطة عن تصوير الصينيين ، وهذا من مشاهدته التي لا سبيل لنا إلى أنكارها وهو يقول -

أما التصوير فلا يجارهم أحد في أحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أتى ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغذ موضوعة في الأسواق ، ولقد دخلت مدينة السلطان فررت على سوق

(١) سكيندرنامه ج ٢ - ص ١٩٧ (دملي ٣١٦ هـ)

النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشيا ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصور أصحابي منقوشة فى كاغذ قد أصفوه بالخائط ، فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخفى شيئا من شبهه . وذلك لأن السلطان قد دعاهم الى القصر فجعلوا ينظرون الينا ويصرون صورنا ونحن لم نشعر بذلك .

ولا ريب أن أثر الصين فى التصوير الاسلامى فى عهد المغول قد ظهر أقوى مما كان فى عصور قبلهم ، وكان السبب فى ذلك أن هؤلاء الفاتحين قد نقلوا كثيرا من النقاشين الصينيين الى بغداد ، كما نقلوا كثيرا من الصنائع المسلمين الى قراقوم ، ذكر البروفسير آرنولد فى كتابه « الكتاب الاسلامى » ، أو « دى اسلامك بوك » ، أن هلاكوقد أتى بكثير من النقاشين الصينيين والكتب المصورة الى إيران (١) ومن مصادر أخرى علمنا أن الصنائع الصينيين وجدوا فى عواصم إيران فى هذا الوقت ، ويقول رامب صينى - وقد زار إيران عن طريق آسيا الوسطى بين ١٢٢١ و ١٢٢٤ م ، أن الصنائع الصينيين استوطنوا كل مكان بسمرقند (٢) .

ومن المعلوم أن سيطرة المغول على إيران وبغداد قد تمت فى سنة ٣٥٨ . م ، فوضعوا أيديهم على حياطة فن التصوير وشجوه حتى نهض الى درجة لم يبلغها من قبل ، فأصبحت بغداد ، وتبريز وسلطانية هذه المدن كلها مراكز لفن التصوير خصوصا فى عهد « ايلخان » ، ويذكر الأستاذ ديماندا - أن مكتبة مورجان (Morgan) بنيويورك ، تملك نسخة خطية نادرة من كتاب « منافع الحيوان » بالفارسية لابن بختشو ، فيها ٩٤ صورة . لقد ألف هذا الكتاب بحكم غازان خان أحمد أحفاد هلاكو خان بين ١٢٩٥ و ١٣٠٠ م . والأرجح أن هذه الصور قد رسمت فى تبريز ، ولاشك أن بعضها قد احتفظ بطابع إيرانى قديم ، غير أن أكثرها تزين بمناظر الطبيعة وصور الحيوان التى تذهب بنا الى فكرة تلك

(1) The Islamic Book. P. 69

(2) Painting in Islam. p. 86

الرسوم الطبيعية التي نراها في تصوير (سونغ) ، ولعلها من صناعة الفنانين الصينيين وإلا فلا مرية فيها في تقليد الفنون الصينية في الزخارف والأساليب .

ويرجع هذا التأثير ، كما رأى أكثر العلماء ، إلى العلاقة الدبلوماسية التي كانت قائمة بين عاصمة الصين وإيلخان بايران ، وقد يكون لانجذاب المغول بالصوير الصيني ، دخل عظيم في هذا التأثر ، وبناء على قول رشيد الدين فضل الله ، كاتب المغول يستحضرون الكتب المصورة والمصورين والبنائين من الصين .

ومناك مخطوطة أخرى من كتاب «منافع الحيوان» ، بمتحف متروبوليتان بنيويورك ترى فيها لوحة من نسور ومناظر طبيعية ، مثل الغمام والنبات والأزهار فهذه الأشياء كلها من خصائص التصوير الصيني التي تعلمها ونقلها التماسون الإيرانيون في عهد المغول (١) .

وفي مخطوطة لكتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين محفوظة الآن في (جمعية آسيا الملكية بلندن) ترى عدة صور ، أساليبها وأوانها ومناظرها ، كلها صينية محضة . وأمثال هذه الصور ، تجدها في أكثر متاحف أوروبا ، ولقد تحدث اليها كثيرا عنها العلماء المتخصصون في الفنون والتاريخ مثل آرنولد وديماند وبلوشه وغيرهم من الباحثين المشهورين .

ويتصل بأسلوب التصوير في «جامع التواريخ» ، بعض أوراق مصورة لنسخ مخطوطة من شامنامه كتاب الملوك للفردوسي ، محفوظات في مجموعات شخصية بأوروبا وأمريكا ، ففي هذه الأوراق المصورة ، ترى عناصر مختلفة مخطوطة من أساليب شتى ، منها الصيني ومنها الإيراني ومنها المغربي (٢) .

وقد احتفظ أثر الفن الصيني بمركزه في التصوير الإيراني في عصر آل تيمور الذين قد خلفوا آل جنكيز خان على آسيا الوسطى وإيران ، ونماذج الصور لهذا

(1) Dimand: p. 20.

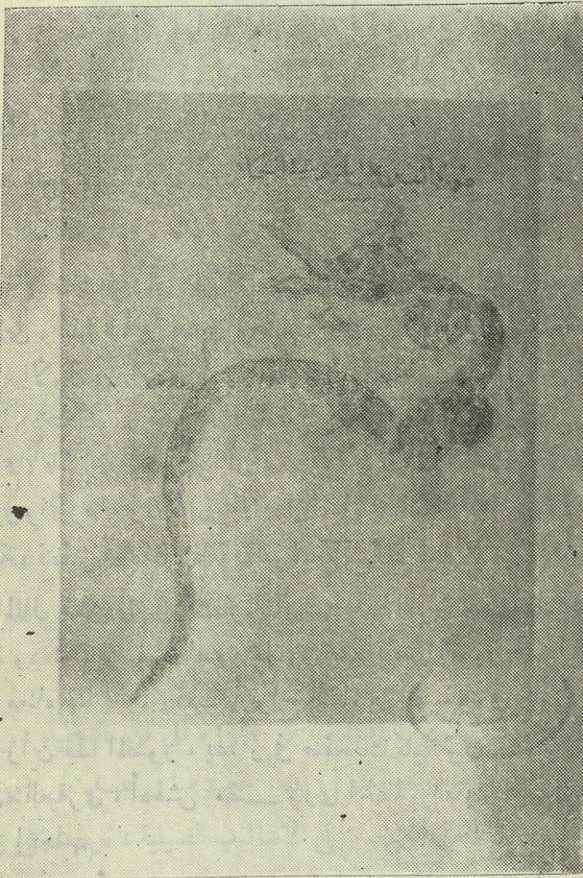
(2) Dimand : P. 21.

العصر ولو أنها نادرة الوجود ، غير أنه من الممكن العثور عليها ، ويذكر الأستاذ ديمازد نسخة مخطوطة لكتاب خواجة الكرماني الذي عاش الى سنة ١٣٥٠ م . فانه قد وصف فيه حالة أمير إيراني تعلق بحب ابنة امبراطور الصين توجد لهذا الكتاب نسخة في متحف لندن . كتبت في سنة ١٩٩٥ هـ - ١٣٩٦ م . وتمت كتابتها ببغداد على يد خطاط شهير معروف باسم « مير علي » التبريزي الذي قد اخزع أسلوب النسبليق في فن الخط . وفي صورة من صور هذه النسخة ، ترى لمضاء جنيد النقاش السلطاني ، كان فارسيا ولعله قد خدم السلطان أحمد (١٣٨٢ م) ، وهذه الصور ان صنعت على أساليب التصوير الصيني ، أثر عظيم في مدرسة « هرات » في عهد شاه رخ .

وليس يخفى أن شاه رخ قد احتفظ بعلاقة ودية مع الصين ، أشد وثقا بما كان عليه أبوه تيمور كوركان . وهذه العلاقات بجانب من الأهمية في استبقاء تأثير الفن الصيني في التصوير الإيراني . وذلك تراه في أن السفراء الذين سافروا بأذن شاه رخ الى الصين بين سنة ١٤١٣ - ١٤١١ م ، قد أخذوا معهم رساما اسمه غياث الدين . فأوصاه شاه رخ بتقييد ما يشاهده ، في الطريق من العجائب والغرائب ، وتصويرها رسما ، اذا دعت الحال الى ذلك (١)

ثم نجد في شخص « باي سنكور ميزا بن شاه رخ ١٤١٧ - ١٤٣٣ م) حبا عظيما للفنون الجميلة وظهر هذا الحب في تأسيس مدرسة فنية بهرات فوظف فيها أربعين شخصا من المصورين والنقاشين والخطاطين والمجلدين من أهل ايران وبعضهم من تلاميذ مير علي التبريزي فساعدت هذه المدرسة على إيجاد منهج جديد للفن الإيراني . لكنها لم تستطع التخلص من تأثيرات الصين التي قد اندمجت في التصوير الإيراني وأصبحت جزءا من أجزائه أسلوبا ومنهجيا . فظهرت هذه التأثيرات في هذه المدرسة التي كسبت لمدينة هرات اسما خالدا وشهرة عظيمة

بين طبقات العلماء والمحبين للفنون الإيرانية التي تجددت في عهد بني تيمور وانتشرت في أواسط آسيا، حتى أصبحت شيراز وتبريز وسمرقند مراكز عظيمة للتصوير وللفنون الجميلة. ولم يكن كل هذا إلا بنهضة هرات وبركة هذه النهضة.



(صورة من الصور الفلكية في زيج أولخ بك، وهي عبارة عن مجموعة الكواكب في صورة التنين الصيني كما صورها عهد الرحمن الصوفي السمرقندي ١٤٣٧ م)

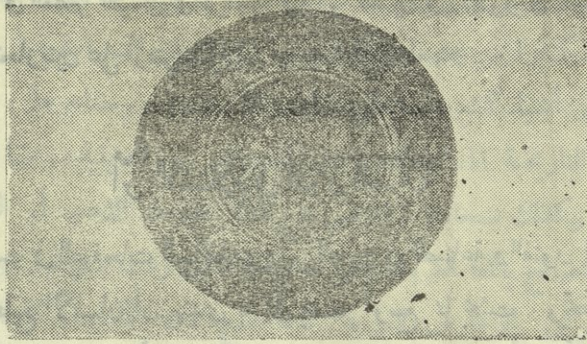
وتقول المصادر الفارسية، أن أولغ بك بن شاه، رخ وكان حاكما على ما وراء النهر من سنة ١٤٠٩ - إلى ١٤٤٦ م - ، قد شيد مرصدا يسمرقند ووظف فيه بعض العلماء البارزين في علم النجوم والهيئة ليطلقوا الأجسام السماوية ويراقبوا حركاتها، ولطوؤاء العلماء تصانيف كثيرة، أشهرها زيج أولغ بك، توجد في متحف تيبوروك. نسخة مخطوطة في علم الهيئة منسوبة إلى هذا العصر، فيها خمسون رسما فلكيا، قلد فيها الأسلوب الذي كان سائدا في أول عهد تيمور. ويقول الأستاذ ديماندا أنه يملك ١٢ لوحة من صور شاهنامه، يرجع تاريخها إلى عصر أولغ بك، ومن القصص المشهورة في شاهنامه، (محاربة رسم الخيل رخش، وقبضته عليها) والنظر في هذا الرسم: منظر طبيعي، عظيم الشأن، مكون من الأشجار الصينية وأوزة طائرة بين أوراقها.

وبما لا شك فيه أن فن التصوير الصيني قد ترك أثرا عميقا في الفن الإيراني الإسلامي ولهذا التأثير صدى واضح في الأدب الفارسي، وضحه الأستاذ آر نولد بمثابة الأول أن ابن الوردى الجغرافي الذي عاش في أول القرن الخامس عشر للميلاد، ذكر من بين الصناعات التي فاق فيها الصينيون غيرهم من الأمم، تصويرهم، فاهم قد استطاعوا أن يصوروا بريشاتهم الخاصة، الأشجار والحيوانات والطيور والأزهار والأثمار والإنسان، في مختلف الأوضاع والأشكال على حالتها الطبيعية، فظهر أمامك ناطقة بالقوة، نابضة بالحياة (١).

والمثال الثاني أنه في الشطر الثاني من هذا القرن، حينما ظهرت ترجمة فارسية لكليلا ودمنة، يوسف المصور الذي وضع بعض الصور لهذه النسخة الجديدة، بما هو معناه هنا - وقعت أرواح النقاشين الصينيين في وادي التعجب والخيرة عند ما رأين هذا المصور، يصرف في صفحات كليلا ودمنة، ويرسم الوجوه فيها، لأن قلبه العبقري، أدهش مصوري الخطا (الصين) وسحرهم واستولى على مواطن إعجابهم.

ظل هذا التأثير في التصوير الفارسي، إلى عصر شاه العباس. وتوجد نماذج بكثرة وافرة لهذه المدة الطويلة. وانظر إلى هذه اللوحة التي في أول صفحة ٢٧٣ تعرف أثر الصين فيها.

(١) خريطة العجائب ص ١٦٨ (القاهرة)



صحن بور سلين ايراني ، يتجلى فيه زخارف صينية —
من صناعة الشاه العباس (القرن السابع عشر)

فأثر الصين على العموم ، يظهر في صور الغنم والوكيلين ، والتنين والغمامة المتراكمة وكذلك في النيلوفر والخشخاش والمناظر الطبيعية التي امتاز بها فن التصوير الصين عن غيره فان وجدت شيئاً من الاشياء المذكورة في نسخة فارسية أو عربية من الكتب المصورة فتق بأنها مأخوذة أو متأثرة بالفن الصيني . ويمكنك أن تحدد مبلغ هذا الأخذ أو الأثر ، بمقدار الخصائص الفنية الصينية ، التي ظهرت في التصوير الاسلامي .

ولم يقف أثر الصين عند تصوير الكتب ، بل تجاوزه الى فن التجليد . ومن المعلوم أن هذا الفن قد نال درجة رفيعة في إيران ، خصوصاً في عهد بني تيمور فالنماذج الجميلة المزخرفة بالمناظر الطبيعية على الاساليب الصينية ، توجد على عدة نسخ من المخطوطات التي يرجع تاريخها إلى ٨٤٢ و ٨٥٠ و ٨٨٧ و ١٤٣٨ و ١٤٤٦ و ١٤٨٢ م ، محفوظة الآن في متحف الأوقاف باستنبول . ومنها نسخة في داخل غلافها رسم جامه صينية منقوشة في الجلد وهي من آثار سنة ٨٥٠ م ١٤٤٦ م ، تشبه نسخاً أخرى ضمن مجمرعات الأستاذ ديماند ، التي يرجع تاريخها

الى هذا العهد أيضا . وفي شكل ٣٠ من كتاب الأستاذ ديماند ، نرى نموذجا بديعا
لفن التجليد في العصر التيموري ، يتجلى فيه أثر الصين في الاوراق المعرجة وفي
العناوين المنحاربتين على أرض سوداء .

ب -

أثر الاسلام في فنون الصين

لقد تكلمت في الصفحات السابقة عن أثر الصين في الصناعة والفنون الاسلامية
الى حد يستطيع الانسان أن يمتدى به إلى بحث أوسع مما بحثت . وتحقيق أصح
مما أوردت فطالب لمزيد أن يزيد ما يشاء ، وللباحث المدقق أن يأتي بأبحاث
مفيدة ، تماما لما قصرت فيه : تكميلا لهذا الموضوع الطريف الذي قلما طرق باحث
بابه حتى هذا الحين ، هذا جانب من العلاقة الصناعية والفنية والى جانب هذا جانب
آخر غير ما ذكرنا في السطور السابقة ، وهو أثر الاسلام في صناعات الصين وفنونها .
فالحق هذا بسماور تبيانا لهذه الناحية من العلاقة الفنية ، لكي نستطيع أن نكون
فكرة أولية عن تأثير الاسلام في فنون الصين ومبلغ هذا التأثير فيها .

من كتاب علاقة الصين القديمة بالعرب الذي أخذنا منه معلومات كافية ، عن
العلاقة الدبلوماسية بين الصين والعرب ، وقفت على كتاب باللغة الصينية من
مؤلفات الاستاذ جنوان أستاذ التاريخ في جامعة بكين ، فعقد فيه فصلا خاصا
عن الفنون الاسلامية في الصين^(١) وقد كنت ولا أزال حريصا على الحصول على نسخة
من هذا الكتاب ، لأطلع على ما كتب في هذا العدد . غير أن جهودي في تحصيل
بعض المعلومات من المصادر الصينية ، لم تثمر حتى الآن وذلك لصعوبة المواصلات
والمراسلات بسبب الحرب القائمة في أووبا وفي الشرق الأقصى . وبالرغم من كل
هذا وجدت من الميسور أن أراجع الاستاذ برتولد لوفر ؛ الذي قد نشر مقالة ممتعا
في مجلة الفنون الاسلامية ، التي تصدر من أمريكا تحت عنوان « البرنز الصيني

الاسلامى^(١) ، وقد زار هذا الاستاذ بلاد الصين مرتين - مرة في سنة ١٩٠١ -
١٠٩٤ م ، والآخرى في ١٩٠٨ - ١٩١٠ م . وكانت كتابتهما للمهمة العلمية . فأفاد
أنه قد شاهد كثيرا من مجتمعات المسلمين وآثار الاسلام العمرانية فيها . فجمع أثناء
زيارته للصين أشياء كثيرة ، تتعلق بالحياة الاسلامية وومظاهرها ، منها صور
الكتابات التاريخية بالمساجد القديمة ، في اللغتين العربية والصينية ، ومنها المطبوعات
الاسلامية وكذلك سبحات وقلانس مزركشة بخيوط الذهب أو الفضة عليها
المواعظ والنصائح باللغة العربية ، وهي خاصة بالمصلين وقت صلواتهم . ومنها البرنز
الصينى المنقوش بالزخارف العربية . لقد جمع هذه الأشياء كلها المكتبة
(نوبسرى) بنيويورك وهي التي قد أوفدته إلى الصين لهذه الاغراض العلمية .
نظرا إلى أن الاسلام قد دخل الصين في القرن الاول للهجرة ونهض في عهد
المغول ، ثم اتسع نطاقه في عصر (منغ) ولا يزال يحتفظ بروح قوية تؤثر في
الاخلاق والعادات في أمة الصين ، فانه من المعقول ، أن يكون له أثر في صناعات
الصين وقنونها أيضا ، غير أن الباحثين لم يلتفتوا حتى الآن ، إلى هذه المسئلة ولم
يعنوا بها ، ومن الجائز أن عالما ذكرها مصادفة أثناء بحثه عن الأمور الأخرى التي
تتعلق بالاسلام في الصين لكنه لم يفرد لها بحث خاص ولا يستطيع أن يأتي ببحث
خاص . إذ لم يجد مصادرا يراجعها ، لكن الاستاذ برنولد لوفر الذي يولع بحضارة
الصين ومدنيته ، خصوصا بتلك الناحية من الحياة العمرانية ، التي لها علاقة وثيقة
بالامم الاسلامية في الشرق الأدنى ، قد بذل جهودا جبارة في البحث عن هذه
الناحية من التأثيرات المدنية ، فالماذج التي جمعها من أنحاء الصين ، وعرضها الآن ،
في مكتبة نوبسرى) ، تساعده على تحليل بعض النقاط المهمة ، عن أثر الاسلام في
صناعات الصين .

(١) أشكر الدكتور محمد زكى حسن ، أمين دار الآثار العربية (سابقا) ،
وأستاذ الآثار الاسلامية في الجامعة المصرية (حاليا) على المساعدة التي قدمها إلى
في تلخيص ما جاء في مقالة الاستاذ برنولد لوفر (بدر الدين)

ولا شك أن النماذج التي جمعها من الصين ، أثناء جولانه بها ، لا تكون إلا قطعاً معدودة من الصناعات الإسلامية الصينية ، التي قد ضاع أكثرها في حوادث الدهر وزالت آثارها من صفحات الوجود ، بيد أني أعتقد أن قطعا غير قليلة من هذا النوع من الصناعات الفنية ، لا تزال محتفية في بيوت عامة الناس متفرقة في البلدان المختلفة في طول بلاد الصين وعرضها ، وأذا كان أحد من الباحثين يصرف جانبا من همته في البحث عن هذه الصناعات الإسلامية الصينية ، ويجمع نماذجها فن اليقين أنه سيفوز فوزا عظيما وسيأتي بأعظم جمهرة ممكنة ، يرجع إليها الباحثون فيما بعد .

أما متى بدأ تأثير الإسلام في صناعة الصين وفنونها ؟ فهذا سؤال يصعب على أي إنسان أن يجيب عنه ، أقول هذا ، لأنني جاهل بتاريخ هذا التأثير ، إذن فن الصعب علينا أن نحدد زمن ابتدائه ومن المحتمل أنه قد بدأ قبل عصر المغول ، إذ كثير الرواد من العرب إلى موافى الصين في القرن التاسع للميلاد وفيما بعده ، غير أن تأثير الإسلام في صناعات الصين ، قد ظهر واضحا جليا في عهد المغول (١٢٧٧ م) ، وذلك نراه ، في صناعة المدفع واستخدام الخنازير في المهات العسكرية ومن التابت في المصدر الفارسي ، أن المغول ، لما فتحوا البلاد الإسلامية نقلوا كثيرا من الصناعات المسلمين من العراق إلى قراقرم^(١) ومن المعقول أن هؤلاء الصناعات المسلمين قد تركوا بعض آثارهم الصناعية والفنية في عاصمة مغوليا لذلك العصر ، ومن تحقيق الأستاذ جنيوان ، أن مسلما معروفا في تاريخ الصين باسم «بختير»^(٢) ، قد اشترك في بناء قصر قبلاي خان ، الذي سماه ابن بطوطة (خانقو) بخانباتق وواضح إذن ، أن المسلمين كان لهم دخل عظيم في إيجاد بعض الصناعات وأدخل بعض الأساليب العربية فيها .

(1) Dimand: 68.

(١) يظهر أن التحريف قد وقع في هذا الاسم . ولعل أصله بختيار (صاحب

البخت) ، يستعمله الترك والإيرانيون في التسمية دائما .

ونَهضت الصناعات الإسلامية بالصين في عهد (منغ) ، خصوصاً في القرنين الخامس والسادس عشر للميلاد ، فاستمرت حركة هذه النهضة إلى القرن الثامن عشر ثم فترت في منتصف القرن الماضي فلم يجدد نشاطه حتى اليوم .

وأما حد التأثير الإسلامي فيها ، فلا نستطيع الإجابة على هذا السؤال ، إلى حد كافٍ أو مقنع لقلّة المصادر والمراجع التي تحت أيدينا ومن المناسب ألا نبدى أى رأى في هذا الصدد حتى نتمكن من الحصول على وسائل كافية للبحث التحليلي وأدلة مفصلة للنقد العلمى .

ويذكر الاستاذ لوفر سيبا آخر يعوق بحشنا عن مبلغ التأثيرات التي أحدثها الإسلام في صناعة الصين خاصة وفي ثقافتها عامة ، وهو أن المسلمين في الصين يلتزمون السكوت دائماً . وهم ليسوا كمثل البوذيين الذين كانوا يعرفون قيمة الاعلان والدعاية ولم يتعبوا منها أبداً ، فأستفادوا من الاعلان والدعاية بطرق مختلفة وتدابير منظمة لدينهم وثقافتهم الدينية . فلذا نرى اليوم واضحا جليا مبلغ التأثير الذي أثر دين البوذية في مدينة الصين وثقافتها - لكن إذا سأل سائل - الى أى حد أثر الإسلام في حضارة الصين ومدينتها فلا تحير ، جواباً ، لان الآداب الإسلامية في اللغة الصينية وغير اللغة الصينية لم تتناول هذا الجانب من البحث ، بل أهملتها أهمالاً تاماً حتى لا سيئل لنا الى معرفة حقيقة هذا التأثير من المصادر الإسلامية فعلى الباحثين الذين يهتمون بهذه المسئلة العلمية أن يبحثوا من المصادر الصينية في صناعاتها وفنونها مثل البرنز والفضة والمنسوجات والتصوير خصوصاً في الصناعات التي يرتبط تاريخها بعصر منغ ، لكي يمكنهم أن يفرقوا بين الصناعات الأصلية والتي تأثرت من الإسلام اسلوباً وزخرفة .

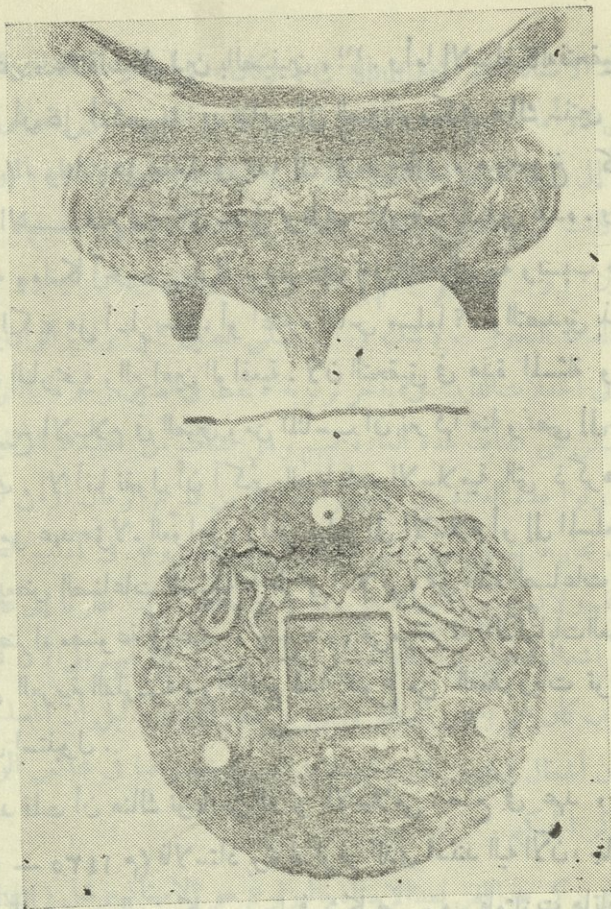
ومن تحقيق الاستاذ برتولد لوفر أن أول من كتب من الاوربيين عن فنون الصين هو الاستاذ باليولوج N · qaliologue وهو أول من بحث قليلاً عن البرنز الإسلامى في الصين أيضاً . فوضحة بثلاثة نماذج من هذا الفن عليها كتابات عربية لكنه لم يأت بترجمة لها . وأنه قد أخذ هذه النماذج من مجموعة فيه

تحت يد الاستاذ شفر (C·Shuffer) وكان مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس . وأما تاريخ هذه النماذج فيرجع كما هو ثابت من نقوش الأختام . في اسفلها إلى أول القرن الخامس عشر من الميلاد . ويمتد الاستاذ بالبولوغ أن هذه القطع كانت مر (طقم) واحد يستعمل في خدمة الرسوم الدينية عند المسلمين الصينيين . ومن هذا (الطقم) عليه صغيرة لوضع عيدان البخور فيها ومبخرة وأناه . للمقاط البخور . ولاشك في أن مسلمي الصين كانوا ولا يزالون يوقدون عيدان البخور في الحفلات الدينية في مبخر برنزية صنعت في الصين مزخرفة بالبرنية والصينية معا . لكن متى نشأت هذه العادة فيهم وهل نشأت من تقليدهم للوثنيين الصينيين الذين ورثوا هذه العادة من آبائهم وأجدادهم من قديم الزمان أو من تأثيرات إيران التي كان تجارها يستوردون منها عيدان البخور المعروفة في آداب الصين بالبخور الايرانية ، ولاستطيع الاجابة على هذا برأى قاطع ، وإذا نظرنا إلى عادات العرب نجد أن أشعال البخور في الحفلات الرسمية لا يزال رائجا فيهم إلى الآن فلا غرو اذن أن العرب كان لهم بعض الدخل في تروبيج هذه العادة بدليل أن المسلمين في الصين يرون أن أشعال البخور لازم للحفلات الدينية خصوصا في مجالس الوعظ وتلاوة أى الذكر الحكيم .

والذي ذكر هذا الفن بعد الاستاذ بالبولوغ هو الاستاذ بوشل (W·Bushall) وأنه طبع في كتابه «الفنون الصينية» صورة لمبخرة نحاسية عليها كتابات عربية صنعت في عهد «صوان ته» (١٤٢١ - ١٤٣٥ م) وصورتين أخريين للاواني الزجاجية القائمة اللون عليها الزخارف العربية وتحمل احدهما تاريخا يدل على أنها قد صنعت في عهد «يونغ جنغ» (١٧٢٣ - ١٧٣٥ م) . والذي كتب حديثا عن الفن الاسلامي في الصين هو الاستاذ كاله (Prof·kahle) بجامعة بن Bonn University لقد تحدث عن خطاى نامه «الكتاب الذي ألفه عالم ايراني اسمه على أكبر في القرن السادس عشر من الميلاد ، ووقف علماء أوروبا على هذا الكتاب بواسطة الاستاذ شفر الذي قد ترجم بعض فصوله الى اللغة الفرنسية في

اتمام بحجه عن د علاقات المسلمين بالصينيين ،^{١١١} . وأما الاستاذ كاله فتحقيقه أو صله إلى معرفة أن علي أكبر هذا قد سافر إلى الصين ومكث هناك سنتين (١٥٠٥ : ٥٠٦ م) . وبناء على ما جاء في علمه ان الامبراطور هيو جونغ كان شديد الميل إلى الاسلام لذا كان يفضل توظيف المشرفاء المسلمين عنده . ويظهر أن د جينغ ته ، ما-كا آخر من ملوك د منغ ، قد تعلم اللغة العربية وبسبب هذا اشتهر اسلامه . لكنه هل أسلم حقا ، أو اعتبره الناس مسلما ؟ . والتصديق بذلك يحتاج إلى الادلة التاريخية والبراهين الواقعية . لأن التحقيق في هذه المسئلة وفي مثلها ، يتطلب بتاريخ الاسلام في الصين ومن المناسب ان نتركها هنا ونمضى إلى ما نحن فيه من البحث . إلا أننا نقول أن أكثر الصناعات الاسلامية التي ذكرها الاستاذ كاله كان من عهد هؤلاء العواهل ، ولعل ميلهم إلى الاسلام أو إلى المسلمين أثر في أخراج بعض الصناعات الصينية على طراز إسلامي ، فن هذه الصناعات الفغفوريات بيضاء خضراء مصنوعة في عهد د جينغ ته ، وهي مزخرفة بالكتابات العربية ومزينة بالقوش العربية الفارسية ، والنماذج لهذا النوع من الفغفوريات توجد بكثرة في سراى استنبول .

واقدمت أن هناك نوعا من البرنز الاسلامي ، صنع في عهد د صوان ته ، (١٤٢٦ - ١٤٣٥ م) فالاستاذ برتولد لوفر الذي استند إليه الآن ، جاء بصورتين من هذا النوع من البرنز كما ترونهما في شكل ص ٨٠ فامتازت هاتان المبخرتان عن أخواتهما بتاريخ معين وبسته حروف صينية ، يكشف بهما بعض الأمور التاريخية الهامة . وقد حصلهما في مدينة د سي آن ، في سنة ١٩٠٨ م ، من تاجر مسلم ، وكان مشهورا بكونه تاجرا في العاديات (انتيكات) . ويقول الاستاذ لوفر ، أن المسلمين في تلك المدينة ، كانوا قابضين على ناصية سوق الصناعات الفنية تماما ولهم وحدهم احتكار في تجارة العاديات والصناعات الفنية



فوق:

صورة مبخرة برنزية صينية اسلامية ذات

ثلاث أرجل ، صنعت في سنة ١٤٣١ م

أسفل:

ناحية تحتية للمبخرة ، عليها كتابة صينية

ذكر فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة

وان هاتين المبخرتين اللتين، أخرج الاستاذ لوفر صورتها نموذجا لأخواتهما
الأخرى التي توجد بأسواق الصين بكثرة حتى اليوم تشبه أحدهما الأخرى،
شكلا وصناعة. وقد صنعتا في المسبك الإمبراطوري بيكين، أحدهما في سنة
١٤٣٠ م والأخرى في سنة ١٤٣١ م ولاشك انهما دقيقتا الصناعة، جميلتا السبك
وكان الصانع هو د ووبونغ تسو (Wu Pong Tso) وذلك عرفناه من الخاتم
الذي وجدناه في أسفل المبخرة

ولقد طبع الاستاذ لوفر منظيرين للمبخرة الأولى مع مقالته في مجلة الفنون
الاسلامية. وهي في لون أدهم لامع يمتاز به الفن البرنزي في عهد صوان ته.
وترى فيها كلمة التوحيد، وهي (لا آله الا الله محمد رسول الله) في خط بديع جميل.
وللاستاذ برتولد لوفر، بحث طويل في غرض د ووبونغ تسو، في نقش هذه
الكلمة التي هي أساس دين الاسلام، في المبخرة. هلى كان يقصد بهما استعمال
الإمبراطور د صوان ته، الى الاسلام، أو يريد بها اظهار جمال الحروف العربية
التي تلائم أوضاعا زخرفية في الاواني والنخ. . او قصد بها ذكرى للترقية التي
قد نالها في تلك السنة من منصب الوكيل الى وزير الأشغال. فاستنتج على كل
احتمال من هذه الاحتمالات، ان د ووبونغ تسو، كان مسلما غيوراً، وقوى
دليله بوجود كبار المسلمين الموظفين في بلاد الصين في ذلك الزمان

ولا شك ان هاتين المبخرتين اللتين، أخرج الاستاذ لوفر صورتها نموذجا لأخواتهما

الأخرى التي توجد بأسواق الصين بكثرة حتى اليوم تشبه أحدهما الأخرى، شكلا وصناعة.

وقد صنعتا في المسبك الإمبراطوري بيكين، أحدهما في سنة ١٤٣٠ م والأخرى في سنة ١٤٣١ م

ولاشك انهما دقيقتا الصناعة، جميلتا السبك وكان الصانع هو د ووبونغ تسو (Wu Pong Tso)

وذلك عرفناه من الخاتم الذي وجدناه في أسفل المبخرة ولقد طبع الاستاذ لوفر منظيرين

للمبخرة الأولى مع مقالته في مجلة الفنون الاسلامية. وهي في لون أدهم لامع يمتاز به

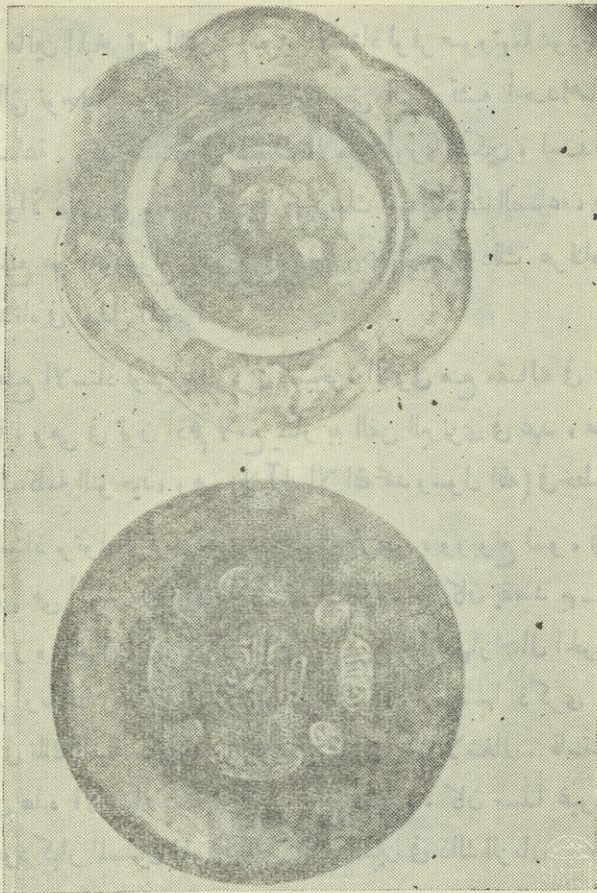
الفن البرنزي في عهد صوان ته وترى فيها كلمة التوحيد، وهي (لا آله الا الله محمد رسول الله)

في خط بديع جميل. وللأستاذ برتولد لوفر، بحث طويل في غرض د ووبونغ تسو، في نقش هذه

الكلمة التي هي أساس دين الاسلام، في المبخرة. هلى كان يقصد بهما استعمال الإمبراطور د

صوان ته، الى الاسلام، أو يريد بها اظهار جمال الحروف العربية التي تلائم أوضاعا زخرفية

في الاواني والنخ. . او قصد بها ذكرى للترقية التي قد نالها في تلك السنة من منصب الوكيل



صحنان برنزيان، أولهما ذو ستة أضلاع مقوسة، والثاني مستدير الشكل.
فالزخارف العربية فيهما يشابه بعضها بعضاً - من صناعة عصر (منغ)

ومن النماذج البرنزوية التي جمعها الاستاذ لوفر، صحنان مضروبان من النحاس،
مركبان من عدة فصوص وفي وسط كل فص يحوى الحروف العربية، غير أنها
صارت غير واضحة وصعبة القراءة ولعلمها كلمات عن أركان الاسلام ومبادئه،
مثل كلمة التوحيد والصلاة والصيام والحج وغيرها من الدعاء والذكر. فهذان
الصحنان يشبه أحدهما الآخر في الصناعة والتركيب والزخرفة بالعربية. غير أن
الأول على شكل مسدس والثاني على شكل دائرة



فوق:

غطاء علبة نحاسية ، عليه زخارف عربية بدبعة

أسفل:

ثلاث زهرات وهى من صناعة عصر (منغ) تشهد بأثر الاسلام فيها

من مجموعة الاستاذ لوفر ، علبة نحاسية مستديرة الشكل كما تراها فى الشكل الأعلى على غطائها زخرفة عربية . فالسكتابات العربية المنقوشة فيه تقرأ ه محمد ؛ محمود ، أحمد ، حامد ، وفى الحواشى زخارف عربية مكونة من أربع وحدات ، وبين كل وحدة وأخرى ترى أوراقا باسطة الوجوه ، مختلطة بالعساليح وموس الطيور .

وأما الزهريات الثلاث التي تراها مع العلبة النحاسية في شكل واحد، فانها من صناعات آخر عهد منغ، على الرأي الأرجح، وليكل منهما عروتان بديعتان. والتي بالشمال والوسط مزخرفتان برسوم الازهار، الواضحة النفوس على عنقهما. فالكتابة العربية في الأولى من الشمال، سبحانه الله، وفي الثانية ومحمد، وفي الثالثة، والحمد لله. ومن النماذج، نفهم أن الفنون الاسلامية في الصين كان لها شأن عظيم، خصوصا في عهد (منغ)، الذي هو عهد النهضة الاسلامية أدبيا وفيها. غير أن الباحثين لم يلبثوا الى هذه الناحية من آثار الاسلام. لكن على كل حال سنواصل البحث عن أثر الاسلام في فنون الصين ونود ان نأتي بزيد تفاصيل، بعد عودتنا الى الصين لأن المعلومات التي تتعلق بهذا الموضوع تحتاج الى الجمع والبحث من المصادر الصينية وهي غير متيسرة في مصر

الذي يجب علينا ان نقول هنا، هو أن الاسلوبين من الزخارف الخطية - الصينية والعربي - اللذين لم يكن بينهما أية صلة لسانية، قد ازدوجا في أرض الصين، ازدوجا يوافق أحدهما الآخر، ذوقا وتنسيقا، لا يظهر بينهما أى تباعد او تنافر. ومن العجيب أيضا أن الحروف العربية قد أظهرت صلاحيتها الفنية في أواسط فنون الصين، وأثبتت فعلا أنها تنسجم مع حياة الصين الفنية. لا بل زادت فيها نوعا من الجمال والجلال لم يكن موجودا فيها. وبفضل هذا الازدواج ظهر نوع حديث من الفن معروف عند العلماء الآن، باسم الفن الاسلامي الصيني الذي لم يكن شيئا مذكورا قبل عصر (منغ).

الباب الثامن

النتائج

بعد ذكر هذه العلاقات التي تناولت ستة نواح وهي السياسية ، والعلمية والتجارية ، والدينية ، والدبلوماسية ، والصناعية الفنية ، أرى لزاما على أن أكتب كلمة عن نتائجها ، أتماما للبحث الذي لا يزال فيه حتى الآن ، وهذه النتائج كما وجدتها ، أما مرتبة على العلاقة السياسية وأما على العلاقة الدينية وأما على العلاقة التجارية ، وأغلبها رتب على آخر الذكر ، فالتى رتب على العلاقة السياسية هي دخول الاسلام برا ، إلى شمال الصين وغربها واختلاط دم العرب بالدم الصيني بملك الباحة من البلاد ، وانتشار صناعة الورق إلى الممالك الاسلامية ثم إلى أوروبا .

لقد سبق البحث في وصول هذا النوع من الصناعة الصينية إلى سمرقند وغيرها من البلدان الاسلامية ، ولا حاجة بنا إلى تكرار ما قلنا هناك في هذا الموضوع . غير أننا نشير إلى نتيجة رتب على انتشار هذه الصناعة في الممالك الاسلامية وهي كلمة «كاغد» ، التي يستعملها بعض كتاب الاسلام كما فعل ابن بطوطة في القرن الثالث عشر للميلاد ، ككلمة عربية وأجرى عليها قاعدة اللغة العربية بجمعها على «كواغد» أن هذه الكلمة لم تكن فارسية الاصل ، كما زعم بعض اللغويين ، وأصلها من الصين ، من كلمة (Kukdz)^(١) وهي الورقة التي تصنع من قشر التوت فعربت هذه الكلمة الصينية إلى اللغة الايرانية ، بعد واقعة «تالاس» في شكل محرف إلى «كاغد» ، فعم استعمالها في بلاد الفرس ، ثم نقلت إلى لغة الضاد ، على أغلب الظن في عهد المغول ، وهي مستعملة الآن في اللغة العربية ككلمة «معربة» ، خاصة للقواعد العربية ككلمة «أصيلة»^(٢) .

(1) Laufer: Sino-Iranica: On Paper

(٢) جاء في القاموس «الكاغد والكاغد والكاغد القرطاس معرب»

وأما وصول الاسلام إلى الصين برا كنتيجة من نتائج العلاقة السياسية فواضح جدا لا يحتاج إلى مزيد تفصيل ، لأن زحف قتيبة بن مسلم الباهلي إلى أواسط آسيا وفتحها لكاشغر في سنة ٩٦ هـ - ٧١٥ م ، كانه منذر لصاحب الصين بقدم الاسلام الذي يتطلب استعدادها للقبول أو الخضوع إلى حكمه ، لقد بعث قتيبة بن مسلم بالفعل وفدا إلى امبراطور الصين برياسة هبيرة بن مشمرج يطالبه بقبول أحد الامور الثلاثة - الاسلام أو الجزية ، أو الحرب - وأن قتيبة لم يحقق أمه بسبب وفاة الوليد بن عبد الملك ، لكن حالة الصين الداخلية بعد أيام قلائل ، قد هيأت الاسباب من تلقاء نفسها لاستقبال الاسلام ، فالثورة الهائلة التي ظهرت في شخصية آنلوشان (An Lushan) واستمرت من سنة ٧٥٤ إلى ٧٥٧ م أكرهت امبراطور الصين على الاستنجاد بقوات المسلمين بأواسط آسيا ، في قمعها ورد الحكم إلى يده. فجاء بضعة آلاف من عساكر المسلمين بقيادة يعقوب ، من التتار والاوغرة والعرب ، إلى اعانة سوتسونغ ، الذي قد ارتقى العرش ، عند غياب أبيه عن العاصمة وانقطاع اخباره ، وبفضل هؤلاء العساكر المسلمين أو بيأسهم ، قد تمكن من إخماد تلك الثورة الهائلة ، حتى رد النظام إلى نصابه . فأرسلهم وعظمتهم بغيرهم في الإقامة أو العودة فعاد بعضهم واستوطن الآخرون . فأنشأ للمقيمين مسجدا في العاصمة ودور الضيافة فيها ، حتى طابت لهم الأرض واستقرت حالهم . فاختار أغلبهم الإقامة الدائمة في شمال الصين فانتشروا فيها من يومئذ .

وطبعي أن إقامتهم هناك ، لا تستقر إلا بأن تكون معهم عائلاتهم . فالذين كانوا يجعلون العائلات معهم أيام الحرب ، استوطنوا حيث وجدوا أو طانا جديدة لهم في تركستان أو غير تركستان . وأما الذين توغلوا في الصين بناء على دعوة امبراطورها ، ولم تكن معهم عائلات ، فالو طبعاً إلى تأسيس بيوتهم بمصاهرة الصينيين بعد اختيارهم للإقامة هناك^(١) فتزوجوا وتناسلوا حتى كونوا في الأيام المتأخرة نوعاً جديداً من النسل لم يكن موجوداً في الصين .

(١) جيني مسلمان المؤلف ص ١٠٠ ، الفهرست (٢)

فالعلماء الذين يبحثون عن أصل المسلمين في شمال الصين وغربها وجدوا هناك ثلاثة أجناس من المسلمين^(٢) ، جنس فيه دم العرب ، وآخر فيه دم الأواغرة وثالث فيه دم المغول . وأحسنهم صورة وقامة . هم الذين ينتمون إلى العرب . ثم الذين يمتزجون بدم الأواغرة . ان هولاء طوال القامة قوور الأعصاب ، شاعخو الأانوف مستطيلو الرقوس ، كشيفو اللحي ، واسعو الجبين كبيرو العيون ، أقرب شها وهيئة بأولئك القوم الذين بشمال الهند أو جنوب افغانستان أو بخارى وهم أشد الناس تمسكا بأحكام الاسلام ، وأكثرهم حبا للغة العربية والفارسية ويوجد فيهم العلماء الكبار الذين يفهمون الفقه والحديث ، إلا أنهم لا يجيدون التأليف ، بل يكتبون بما ألف علماء العرب والعجم ومصر والهدمن الكتب الدينية والعربية .

٢ - نتائج العلاقة الدينية .

وأما النتائج التي ترتبت على العلاقة الدينية فتشمل عدة أمور - منها انشاء المساجد وازدياد المسلمين ، ومنها ادخال اللغتين العربية والفارسية للاغراض الدينية ومنها نقل العلوم العربية إلى الصين . وهأنذا أتكلم عن هذه الأمور على سبيل الإجمال

من الطبيعي أن انشاء المساجد يتوقف على انتشار الاسلام وازدياد المسلمين في الصين . ولقد عرفتم في باب سابق ، أن الاسلام قد وصل إلى الصين سنة ٦٥١ م في عصر (تانغ) . فأخذ ينتشر شيئا فشيئا في عصر (سونغ) ثم قوى وازدهر في عصر (يوان) أو المنول وعصر منغ (وأما عصر مانشو Manchu فكان عصر المصائب والكوارث على المسلمين لقد هلك فيه ملايين) فالباقون على قيد الحياة لم يستطيعوا التنفس في هواء الحرية ولا الاستشاق من نسيم التقدم ، اقتصاديا كان أو اجتماعيا ، دينيا كان أو محتويا . لأنهم كانوا مقمدين في هذا العصر المشثوم الذي علا فيه الطغاة في أرض الصين بالقيود الثقيلة في كل ميدان من العمل حتى

(2) C. F. Andrew ; The Crescent in the North - West Chine

في الميدان الأدبي - إلا أنهم لم يجرؤوا من السجود في المساجد فاستمروا في هذه الحالة المظلمة إلى انقلاب الصين في سنة ١٩١١ م

ويرجع تاريخ انشاء المساجد في الصين إلى سنة ٧٤٢ م ، وهي السنة التي أسس فيها ، أول بيت لله في (جانغ - آن) عاصمة الصين حينذاك . ثم مسجد آخر بكانتون ثم ثالث بنانكين ، وبما لا شك فيه أن هذه المساجد الثلاثة ، هي من مؤسسات عصر (تانغ) ، فالأول كان للعساكر المسلمين الذين جاؤوا من وراء الهر واختاروا أقاتهم في عاصمة الصين وأما الثاني والثالث فالتجار الذين وردوا عن طريق البحر إلى الصين ، فكان منهم الإيرانيون ، لكن أكثرهم من العرب ، فلما انتشر الاسلام في عصر (سونغ) بعض الانتشار ، بسبب التجارة الزاهرة التي كانت تربط الصين بالمسلمين ربطا وثيما ، أخذوا ينشئون عدة مساجد أخرى في مدينة (جوان شو) و (هانغ شو) ، وبألقاء نظرة سريعة إلى تواريخ هذه المساجد ، نفهم ، أن الاسلام حتى آخر عصر (جونغ) ، لم يصل إلى غير عدة مدن ساحلية بالصين لكن مع ظهور المغول في ميدان السياسة وسيطرتهم على الصين ، وجد الاسلام فرصة سانحة للتوغل في الولايات الداخلية ، حتى أنشئت في خانباقي (بكين) وحدها ستة عشر مسجدا ، منها ستة شيدت على نفقة الأمير آنده (١) بتسع لمائة ألف نسمة من المصلين . وأما غير هذه المساجد الستة ، فأنشئت على نفقات شيكوم ، أحد ملوك المغول بالصين . ومع وجود هذه المساجد الجديدة ، لا يجد بعض المسلمين عملا اصولاتهم

أقد تقدم الاسلام في عصر المغول بسرعة البرق في ولايات الصين وأرجائها حتى وقف العلماء في هذا العصر حيارى في تعاليل هذا التقدم ولا يدرون - هل كذب المؤرخون أو بالغوا في بياناتهم ، والحقيقة أن أحدا لا يمكن أن يصدق مثل هذا القول إلا إذا علم به من مصادر وثيقة كجامع التواريخ ، لرشيد الدين فضل الله ، أن ثمانيا من اثنتي عشرة ولاية من الصين في هذا العهد ، كان عليها حكم مسلمون ،

غير وزير المالية شمس الدين الملقب بالسيد الأجل، ووزير الحربية علي يحيى الأيورغرى .

وبقي الاسلام مزدهرا في أرض الصين إلى عهد بعيد حتى بعد انقراض الدولة المغولية منها، وكان السبب في ذلك، أن كثيرا من زعماء المسلمين، قد اشتركوا مع الوطنيين الصينيين في قلب الدولة المغولية . فقالوا أكبر حفظ من الاكرام والتقدير من الحكومة الجديدة التي قامت بعد المغول وإذا تصفحت تاريخ (منغ)، تجد أعلام المسلمين فيه مذكورة وكانوا من أركان الدولة وأعمدتها، وعلى اكتنافهم وقعت أكثر الأمور الهامة .

وأما مبلغ التقدم الاسلامي في هذا العصر، فيمكنك أن تقدره من تلك المساجد التي أنشئت في هذه الأيام . يوجد الآن في ربوع الصين، آلاف من المساجد ثلثها يحمل تاريخ (منغ) على اختلاف سنواتها بين ١٢٥٠ و ١٦٥٠ م . فالكتابات الحجرية التي وضعت تخليدا لتواريخ تأسيس المساجد في هذا العصر، أكثرها نقشت بالعربية والفارسية ومنها ما بالتركية أيضا، أن هذه المساجد امتازت عن أخواتها بسعة ساحتها و ضخامة مبانيها ومشابهاها لهما كل كانفوشيوس هيمة وجلالا كما تراها في جامع (نيوكاى) أو في جامع (البرج الرابع الشرقى) ببكين .

وتوقف انتشار الاسلام بعد عصر (منغ) بسبب فقد العوامل المشجعة والأسباب المعززة التي وجدت في عصر المغول أو في عصر (منغ) من ناحية . ومن ناحية أخرى، بسبب نفور حكام (مانشو) من وجود المسلمين في الادارات الحكومية واضطهادهم لهم لقد نشأ هذا الاضطهاد من خوفهم من توحيد الصفوف بين أنصار أسرة (منغ) وهم الصينيون الخالص، وبين زعماء المسلمين وكانت لهم أباد بيض في إقامة الحكم لاسرة منغ على أرض الصين أمام هذه الموانع كان الاسلام في عصر (مانشو)، لايسنطيع الحصول على اتباع جدد بل كان سير الأمور يجرى على العكس . فهلك آلاف، بل ملايين في الثورات التي ساقطت مظالم الحكام المانشوريين المسلمين في شمال الصين الغربي إلى ايقاد نارها

متوقعين منها الخلاص والنجاة. لكن يد الحكام الحديدية أنقل وأوقع فكان الثوار من الهالكين بعد كفاح متواصل وجهاد دام أكثر من نصف قرن، فإن هذه الحوادث المؤلمة تحتاج إلى مجلدات ضخمة في سردها وبيانها وتركناها هنا لأنها من موضوع آخر غير ما نحن بصدده ومع كل هذا كان المسلمون قد احتفروا بمراكزهم في المجتمعات خارج الهيئات السياسية والإدارات الحكومية فظهرت نهضة مباركة في الميدان الأدبي الإسلامي، ولولا المراقبة الشديدة من الحكومة القائمة على هذه الحركة لاتسعت إلى الدوائر الفكرية غير الإسلامية. فتغير أفكار الآخرين إلى ما يقرب من الإسلام، لكن هذا لم يكن من مشيئة الله، فحبطت أيما حبوط.

ومع ذلك، بقيت بعض آثار هذه النهضة الأدبية الإسلامية في الصين، منها تلك المؤلفات التي تركها قلم الاستاذ ليوتشي Liu Chih والاستاذ الشيخ يوسف مافوصو^(١) باقية في عالم الأفكار، خالدة بميزاتها، محتفظة بمراكزها بين أدب الإسلام في الصين مهما وصل ازدهار العلوم الإسلامية في الصين في المستقبل. وبما هو جدير بالذكر، أن كتابا من مؤلفات الاستاذ ليوتشي قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان (النبي العربي^(٢)) والحقيقة أن تصانيف هذا الاستاذ والتي بقلم الشيخ يوسف مافوصو، تلفت أنظار غير المسلمين إلى أبعد حد، فيرجعون اليهما في فهم بعض حقائق الإسلام وسمو أفكاره.

ان الإسلام في الصين قد أصبح محروما من الدوامل الخارجية بعد عصر (منغ) مثل التجارة، وزيارات السفراء، ومناصب الحكومة، في تقوية قضيته، غير أن عاملا فطريا، قد هياه الله من صميم الفطرة، لحفظ الإسلام في الصين والدفاع عنه بطريق سلمى صامت، فكان هذا العامل الفطرى لم يقعد عن العمل أو يقف عن السير، يوما من الأيام لم يكن هذا العامل الطبيعي الذي حفظ الإسلام من الاندثار في بلاد وثنية قام بها حكم الطغاة الوثنيين، غير التفرع من الأصل

(١) أنظر في وجيني مسلمان، ص ١٠٤

(2) The Arabian Prophet

والازدياد في النسل فخطر على المسلمين المخدرات ومنهم من استعمال المسكرات وبذلك استطاعوا أن يحفظون قوتهم الجسمية من الضعف والانحلال فترى أغلبهم أحسن . جسما وبنية وصحة من الصيادين الآخرين الذين اضطربت أعصابهم ، وتراخت عضلاتهم ، بسبب أدمان ما لا فائدة منه من المأكولات الضارة والمسكرات الفناكة للاجسام والعقول ، فهزلت قواهم ، وانحطت أخلاقهم .

وقد يكون هذا سرا من الأسرار التي أراد الله بها الإبقاء على المسلمين في بلاد الصين صالحين لمواجهة جميع المشقات في سبيل المحافظة على الحياة صابرين على الشدائد في ميدان العمل الذي لا ينجح فيه إلا أقوياء البدن والأعصاب، ومع أنهم كانوا تحت مظالم قاسية في عصر (مانشو) قد تمكنوا من رفع مستواهم الاقتصادي بالتجارة والزراعة الى منزلة محترمة حتى قدروا على تربية عدد غير قليل من الاطفال الذين تركهم آباؤهم الوثنيون البائسون على قارعة الطريق بين مخالب الموت وأظفار الجاعة ، وكان ذلك من نزول الآفات السماوية على حقولهم وممتلكاتهم المادية مثل القحط والفيضان وأن هذه الآفات تزور الصين حيناً بعد آخر بدون سابق أنذار فتتقاضى من أهلها آلافاً من الضحايا الأدميين . فالاطفال الذين فقدوا حنان الأبوة أو تركوا في الطرق بدون مأوى ولا ملجأ يلقطهم المسلمون ويضمونهم الى صدورهم ضم الآباء الأبناء فيدخلونهم في حظيرة الاسلام التي يجدون فيها ظل الرحمة الواسعة والرعاية التامة لأرواح مشردة .

وهكذا كثر المسلمون في عصر (مانشو) خصوصا في آخر هذا العهد حين أغرق الأمراء في الفسق والفجور . فأتهم الآفات من حيث لا يشعرون . وأما الآن فيبلغ المسلمون على أصوب تقدير أربعين مليوناً أو يزيد وأن كان هنا قائلون بأكثر من خمسين مليوناً (١) فإن هؤلاء يتفرقون في جميع الولايات والمدن ولهم مراكز خاصة وبيئات خاصة في الجهات التي يقطنون بها . وأما أكثرهم في ولايات يوننان وقانسو والولايات المجاورة لها .

(١) تجد في آخر باب من كتابي جيني مسلمان بحثنا وافيها في تضارب الآراء في سكان المسلمين بالصين رأيت فيهم .

وبما لا شك فيه أن مراكزهم الاجتماعية والدينية هي المساجد التي أنشأوها من حين لآخره محافظة على حياتهم الاجتماعية وعلى الحقوق التي يستحقونها في مجتمعات الصين. ولولا هذه المساجد ، لفنى الإسلام في الوثنية في الغابر ، أو الدهرية في الوقت الحاضر ، لكن الله يريد لهم باقين أحياء رغم دوران الأفلاك عليهم فأصبحت هذه المساجد عند المسلمين في الصين ، أركاناً ركنية وحصوناً حصينة يلتجئون إليها في حل مشاكلهم الاجتماعية وعقد مسائلهم الدينية . ثم هي مجتمعات التعارف بين المسلم وأخيه ، ومعامل التعاون والتعاقد ، إذا انقلب عليهم الدهر ودارت عليهم الأفلاك لسبب لا يدرونه ، ثم أنها يتابع تفجر منها مياه الحياة ، يقصد إليها كل مفلس من أن كان يشرف الأخلاق ، ونشفي غليل كل متعطر إلى الفضائل والمكارم . فيرتد فرحاً مسروراً بعد ما أشرف على الموت يائساً ساقطاً في فساد الدهر وأنها لقوة جبارة في حفظ حياة المسلمين من النماء ، بصفة أنها مراكز للتعليم الديني واثناثة الإسلامية ، وفي منع الإنسان من السقوط إلى درجة الحيوان أو أدنى منها . ولولا هذه المساجد لكانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة . وعددها يقدر في الوقت الحاضر بعشرة آلاف يحفظ المسلمون بها وجودهم وخصوصياتهم في أنحاء الصين العامرة .

ومن نتائج العلاقة الدينية تسرب اللغتين العربية والفارسية إلى الصين وتأثيرهما في بعض نواحي حياتها : لا أقول انتشارهما لأن النشر يحتاج إلى مساع منظمة . فدخل مانين اللغتين وأثرهما في مجتمعات الصين لم يكن بطريق منظم كما كانت اللغة العربية والفارسية في الهند أو ما وراء النهر ، بل من طريق لم يشعر به إنسان . ثم الانتشار يقتضي تأثيراً عميقاً ونفوذاً واسعاً يتغلغل في الحياة الفكرية أو الحياة الاجتماعية . فحالة العربية أو الفارسية لم تصل إلى هذه الدرجة من قوة النفوذ والتأثير فلذا قلت أنها تسربت إلى الصين من طريق خفي وآثارها موجودة في الواقع غير محسوسة في الظاهر ، ثم أن تأثيرها محدود في بعض بيئة خاصة معدوم ، من أغلب المجتمعات الأخرى فلذا لا نستطيع أن نحكم على الإطلاق بأن اللغة العربية منتشرة أو مفهومة حيث يوجد المسادون في الصين وكذلك حالة الفارسية .

ولقد بيت آتفا أن المسلمين ينتشرون في جميع ولايات الصين بل في جميع المدن غير أن اللغة العربية غير مفهومة في كل ولاية أو في كل مدينة نعم في كل مدينة يوجد من بين المسلمين بعض أفراد يعرفون كيف يقرأون السور القصيرة من القرآن الحكيم ، لكن على الطريقة الصينية يجعل ، الرام ، لاما ، وبالبا ، با ، والسين ، ثاء ، و ، الشدة ، ، تونينا ، و ، المدة ، قصرا ، و ، زيادة ، ، النغمة ، في أكثر الحروف لكن هؤلاء المساكين لا يفهمون ما يقرأون في كالبغاء التي لا تفهم ما تنطق به . فيرون بعد ذلك في عدم فهم القرآن أعجاز القرآن :

هذه هي حالة اللغة العربية في أكثر المدن ، والحقيقة أن المسلمين في الصين منهم واحد في الألف يسعى جهده إلى تعلم بعض الصلوات العربية والسور القصيرة حفظا عن ظهر قلب لقيادة عامة الناس في تأدية الأمور الدينية ولولا الصلاة التي أوجبت عليهم تعلم ما تيسر من القرآن لما تعلموا كلمة واحدة من العربية ولولا الخوف من النار أو رجاء الجنة لما تعلموا بعض الصلوات الضرورية ولما عرفوا شيئا ما عن العربية .

هذه هي الحال العامة بالنسبة إلى نفوذ اللغة العربية في بيئات المسلمين . غير أن هناك بعض المستثنيات التي يجب علينا ألا نتغاضى عنها مثلا قانسو ويوننان . فالمسلمون في تلك الولاياتين منهم عدد غير قليل يفهمون اللغة العربية إلى حد ما ويتكلمون بها أيضا في بعض الأحيان . وذلك من كثرة مطالعتهم الكتب الدينية من الفقه والنفاسير والأحاديث فتدوقوا حتى استطاعوا أن يتبادلوا الآراء في الأحكام الدينية والمسائل الشرعية بواسطة اللغة العربية ، وذلك فضل من الله يؤتبه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وهناك بعض العوامل التي تستميل المسلمين في قانسو ويوننان إلى الإقبال على لغة القرآن . لينالوا نصيبا منها . ومن هذه العوامل كثرة عددهم . فالمسلمون في قانسو قد بلغوا ٤٠ في المائة والذين في يوننان ٣٥ في المائة ومنها اختلاط الدم بين الصيني والعربي وغيرهم من الاجناس ومن المحقق أن المسلمين في قانسو ليسوا

من الدم الصيني الخاص . بل مزيج من الدم العربي والصيني أو الأيوغرى . فيرتب على هذا الاختلاط تمسكهم بالدين ورغبتهم في العربية وتصبهم للاسلام أكثر من المسلمين في الولايات الأخرى . ومنها قريتهم من تركستان وما وراء النهر - البلاد التي كانت العلوم الإسلامية تزدهر فيها من القرن الثاني الهجرى إلى ظهور المغول وأما المسلمون في يونان ، فيثبت من التاريخ ، أن أكثرهم من أولاد السيد الأجل الذى نزح من بخارى إلى الصين في زمن قبلاى خان . ولقد تولى منصب وزارة المالية ، ثم القيادة العامة إلى يونان ففتحها وأمنها ، وقد أعقب سبع أولاد ناصر الدين ، يان تشار ، حسن ، حسين ، مسعود وجعفر ومحمود - فانتشرت منهم عدة عائلات فكثرت نسلهم ، وأما مسلمو يونان اليوم فأكثرهم ينتمون إلى أولاد السيد الأجل . من أعقاب المشهورين ، الشيخ يوسف ما فوسو ، الذى ذكرناه في مناسبة سابقة ، مع اسم الأستاذ ليوتشى ، ومنهم الحاج نور الحق الذى ستمتسب بعض كلماته نموذجاً للمكانة العربية ، التى وصل علماء الصين إليها .

وبوجود هذه العوامل في هاتين الولايتين ، نالت اللغة العربية في العصور الماضية أكبر نصيب من العناية فيهما . وأما حالتهما في الولايات الأخرى ، فغير جديرة بالذكر ، فما سمعت عن تعليمها في بكين في هذا القرن ، هو من عناية الخلافة العثمانية قبل الحرب العظمى الأولى . ولقد أرسل الأزهر الشريف الى إحدى مدارسها الإسلامية شيخين موقرين لاقاء بعض الدروس الدينية والثقافية الإسلامية في سنة ١٩٣٤م وبعد أربع سنوات عاد الى مصر على أثر نشوب الحرب الصينية اليابانية في سنة ١٩٣٧م فإذا تكون نتيجة هذه الحركة الجديدة ، سوف يجتبرنا بها الزمان .

وبالنظر إلى هذا العدد الهائل من المسلمين في ديار الصين ، يتخيل إلى المسلم المتدين ، أن اللغة العربية ، لا مندوحة لها من أوفر حظ من العناية والانتشار بين اللغات الحية في الصين ، هذا لاشك ينطبق على حالة اللغة العربية في البلاد الأخرى غير الصين ، مثل جاوة والهند لكن حالتها في الصين قديماً أو حديثاً ، لا يمكن أن

تقدر - بكثرة عدد المسلمين فيها . ولاجل هذا لا نجد لهم في طبقات العلماء الاسلاميين اسما واحدا مع أن الاسلام قد دخل الصين منذ ١٣ قرنا ، بل أكثر ،

يبد أننا نجد في الكتيب التاريخية ، بعض الاشارات التي نفهم منها جانبا عن أحوال اللغة العربية في الصين . فأبو زيد الحسن السيرافي ، الذي عاش في القرن الثالث للهجرة ، ذكر في الجزء الثاني من « سلسلة التواريخ » ، أن ابن وهبان من ولد هبار بن الأسود ، لما مثل بين يدي ملك الصين ، أخبره بما جرى في بلاد العرب والعجم بواسطة الترجمان ، ، حين سئل عنها وعملا لا شك فيه ، أن ابن وهبان ، كان يحاوره باللغة العربية التي لا يفهمها ملك الصين . وإنما كان في قصره بعض أناس يفهمون هذه اللغة . فوسط بينهما في الحوار حتى تمكن أحدهما من فهم كلام الآخر . وهذا يدل على أن هذه اللغة كانت مفهومة على الأقل في عاصمة الصين ومن المتصور أيضا أن اللغة العربية ، كان يتكلم بها في الموانئ التي كانت بها تجار العرب وإيران . غير أنها لم تترك أثرا في المجتمعات بتلك الجهات . فانتهى تداولها بين الناس ، بعد رجوع أولئك التجار في الأيام المتأخرة . لكن المسلمين في عصر المغول ، قد نالوا منزلة عظيمة في البلاد ، فوجوا استعمال اللغة العربية والفارسية في الصين إلى حد ما . وكان ذلك بفضل كثرة المسلمين في الحكومة ونفوذهم فيها . وقد قيل أن قبلاى خان قد أنشأ مدرسة لأبناء المسلمين بتايدو ، بخانبا التي (١) . ومن المظنون أن اللغة العربية كانت من المواد اللازمة في برنامج هذه المدرسة . أما الجهات التي كان للغة العربية أعظم أثر فيها في عصر المغول ، فهي « تانغوت » - ولاية قانصو الحاضرة - و « بروى » الأستاذ هووورت عن المصادر الفارسية ، أن الأمير آنده . كان مسلما غورا ، قد بذل أقصى جهده في نشر الاسلام في تلك الجهة وكان حافظا يستطيع أن يسمعك القرآن كله ، عن ظهر قلب . وكان يجيد كتابة العربية . وأنه قد جمع حوله جماعة كبيرة من المسلمين

(1) Howor'h: Vol. 1. P. 257.

من التتار والایرانیین والعرب^(١) . ویفاہر أن هؤلاء قد بذلوا نصیباً عظیماً من جهودهم فی ترویج اللغة العربیة هناك .

والحقیقة أن اللغة العربیة قد انتشرت إلى تركستان الصینیة قبل ظهور المغول بعدة قرون . فقالت عناية فاقه من أهلها وترقت إلى درجة لا تقل عن التي نالتها فی بغداد فی القرن الخامس الهجری .

ونستطیع أن نستشهد من كلام الشیخ محمود الكاشغری الذی ألف باللغة العربیة كتاباً ، سماه « دیوان لغات الترك » . والیک بعض الاقتباسات من مقدمة هذا الكتاب .

« قال العبد محمود بن الحسین بن محمد الكاشغری - لما رأیت أن الله ، وتعالی قد اطلع شمس الدولة فی بروج الأتراك ، وأدار بملكهم دائرات الافلاك . فسماهم « الترك وولاهم الملك وجعلهم ملوك العصر ووضع فی أيديهم أزمة أهل الدهر ، و فقیضهم علی الخلق وأيدهم علی الحق . وأعر من انتمى الیهم وسعى بین أيديهم ونال ، « منهم بلغة فی المراد وسلم من معرفة أوباش العباد ، حتی لکل ذی لب التمسك بحالمهم ، « توقیا عن وقع نبالهم ، ولا ذریعة لديهم أحسن من التواطن بلسانهم لاصغاثهم الیه ، « أسماهم واستماله جنانهم . فاذا اعتصم به عدوه من فرقمهم ، وآمنوه من فرقمهم ، فیلوذ به غیره ویکشف عنه ضمیره .

وإذا قارنا بین هذه الكلمات و بین ما كتبه أدباء بغداد فی هذا العصر ، لا نجد أى فرق بین هذه وتلك . فاستجمات التي تراها فی أسلوب الكاشغری ، تجعلك تعتقد بلا تردد ، أن صاحب المقال قد عاش فی العصر الثالث من العصر العباسی وإن لم تلم تاریخ ولادته أو وفاته .

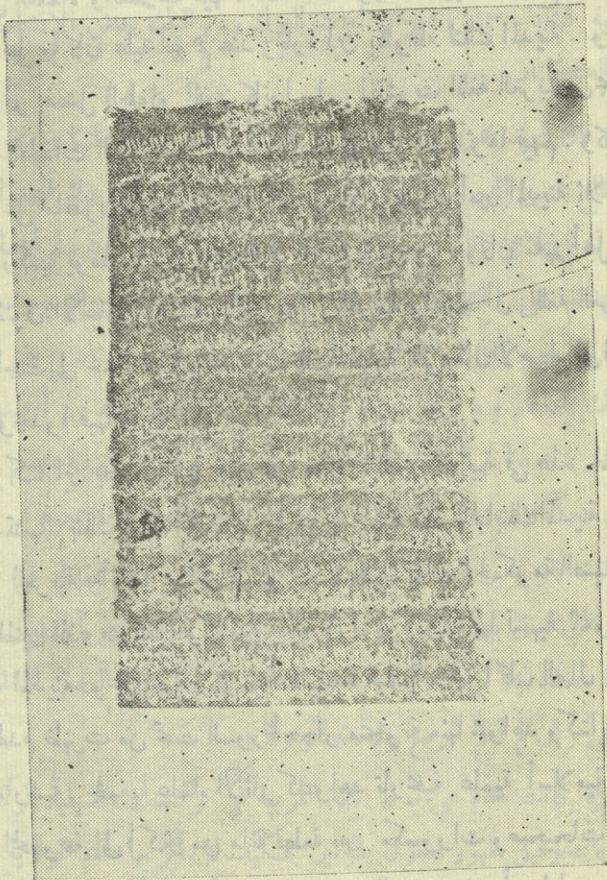
وإذا كانت هذه هی حالة اللغة العربیة فی تركستان الصینیة الواقعة علی باب ولاية قانصو قبل ظهور المغول بقرنین ، فكیف لانتأثر بها هذه الولاية فی عهد المغول وكان علیها أمير مسلم غیور متدین ، حوله جماعة من العلماء الكبار .

حقاً أن اللغة العربية في هذا العصر لم تكن محددة بهذه الولاية. بل كان لها رواج في المدن الأخرى أيضاً فقد أخبرنا ابن بطوطة بكثرة علماء الإسلام بمدينة الخنساء (هانغ جو) منهم أنغر الدين وهو قاضي المدينة وشيخ الإسلام فيها، ومنهم أولاد عثمان المصري أحد التجار الكبار في مصر. لقد استحسن هذه المدينة واستوطن فيها، فهناك طائفة إسلامية عرفت بالنسبة إليه فإنه قد أسس جامعاً بها ووقف عليه وعلى الزاوية التي كانت اللغة العربية والعلوم الدينية تدرس فيها أوقافاً تدر ريعها على العلماء والطلاب فيها، فلما مات أورث ذريته هانغ جو، الجاه والحرمة فهم على ما كان عليه أبوه عند زيارة ابن بطوطة لتلك المدينة. وبوجود هذه الزاوية أو بفضل العلماء الذين كانوا بها. انتشرت اللغة العربية من مجتمعات المسلمين إلى الطبقات العالية من غدير المسلمين وتركت أثرها فيهم. وكان قول ابن بطوطة على ما نقول شهيداً، كان ابن بطوطة في ضيافة أمير المدينة ثلاثة أيام وكان له ابن ركب يوماً مع ابن بطوطة في خليج هانغ جو، وكان معهم أهل الطرب والموسيقى يغنون الأغاني الصينية والفارسية والعربية وأعتقد أن اللغة العربية وقتئذ قد راجت إلى حد بالغ في مجتمعات تلك المدينة حتى مال الأمراء إلى الاستماع إلى أغانيها فوجدوا فيها طرباً وسروراً.

وإذا تركنا ابن بطوطة فيما قال عن حالة الثقافة العربية في هذه المدينة نستطيع الاستشهاد بتلك الكتابات التاريخية التي اكتشفت حالياً بتلك المدينة في أثبات انتشار اللغة العربية وأثرها فيها في السنوات الماضية وكانت الحكومة الصينية تأمر بهدم السور المتين الذي ضرب حول المدينة منذ أول يوم من بنائها تسهلاً للمواصلات داخل بين المدينة وخارجها وتوسيعاً لمساحة البلدية. فبينما كان العمال يشتغلون في أعمال الهدم ظهرت من تحت السور أحجار منحوتة منها شواهد وكتابات باللغة العربية والفارسية. فجمعها علماء الآثار كشواهد تاريخية علمية إسلامية، لقد وصلت هذه المجموعة إلى أكثر من مائة قطعة بين مكسورات وصحيفات، فقلت إلى دار الآثار التاريخية ببيكين لأجراء البحث والتحقيق غير أن الحرب الصينية اليابانية حالت بين هذه البحوث فتركت فيها كما هي. وما لاشك فيه أن هذه

الشواهد والكتابات لها شأن عظيم فيما يتعلق بعبائر الاسلام في تلك المدينة وأثر العربية فيها. وإذا بحثت وحملت فستكون لدينا معلومات جديدة هامة عن تاريخ الاسلام فيها.

وهناك بعض كتابات عربية تاريخية لانزال منصوبة محفوظة في (جامع العنقاء) هانغ جو، منها ما قد يحى بعض حروفها إلى حد لا نستطيع أن نميزها أو نقرأها ومنها ما بقيت واضحة بحروفها بالعربية الجميلة كما ترى في هذه اللوحة وهي تحمل تاريخ سنة ٥٧٠٧ -



كتابة عربية جميلة بمدينة (هانغ تشو) لعصر منغ

تحدثنا تاريخ (منغ) عن تعلم الامبراطور « جنينغ - ته » (Cheng Teh) اللغة العربية وميله إلى الاسلام ، وقد أشرت إلى هذا في مناسبة سابقة والحقيقة أن اللغة العربية في عهد (منغ) وخصوصا في صدر هذا العهد قد لقيت عناية عظيمة من ملوكها حتى أثرت في صناعات الصين وفنونها . وهو العهد الذي نقلت فيه بعض العلوم الاسلامية بواسطة العلماء المسلمين فنالت اهتماما عظيما عند طبقات العلماء بالصين .

وأما عهد (مانشو) فلاشك أن ملوكهم كانوا ينظرون إلى الاسلام بين السخط والنفور، غير أن المسلمين الذين قد انتشروا في أنحاء الصين ولهم قدم راسخة في المجتمعات ، ورغبة صادقة في الأشغال العلمية العربية والاسلامية كانوا يحملون في الميدان العلمى بكل هدوء وسكينة صابرين على سخط الحكام وأرلى الأمر ، صامتين في أعمالهم الوضيعة راضين بالحالة التي ساقهم إليها ولاية البلاد، غير مباليين بتلك المراقبة الشديدة أو العقوبات المتوقعة التي فرضت عليهم حتى تمكنوا بمعونة الله من أخراج بعض كتب قيمة باللغة الصينية وغير اللغة الصينية في موضوعات اسلامية ، فالكتب الدينية - العربية أو الفارسية . التي تتداول الآن في أيدي المسلمين بالصين أكثرها من ثمار هؤلاء المجاهدين الصابرين في هذا العهد . ويظهر أن اللغة العربية قد ارتقت في آخر هذا العهد إلى درجة حسنة محودة من ناحية التفكير والأسلوب والتسلسل المنطقي واليكم هنا قطعة من أمثالها :

لما تجلى وجود الحق ظهرت حقائق الاشياء وصورها . فالحقائق مودعة في علم الله تعالى والصور مرئية بقدرته فعلمه تعالى هو قبل وجود الملكوت وقدرته تظهر في وصولها من الملكوت إلى الملك . والملكوت إنما ظهرت بأجسام وصور الملك إنما تصورت بأرواح فلما توافقت طبقاتها استقرت كل درجة من الأرواح في طبقته فلما اجتمعتا وتصورتا ظهرت صفات الله تعالى لإلأنها في حق الإنسان تسمى بالعلم والقدرة . وفي الاشياء بالخصائص ، أن الروح الانسانية متساوية غير أن الروح النفسانية متفاوتة . فلذا صار بعضهم جاهلا . وبعضهم عالما ، ولأن ذات الحق أحدية وصفاته متفاوتة . فظاهرها توافق حالها ، أن اتحاد العلم والقدرة

مع الحق انما يكون لنفس خاتم الانبياء واستعمالهما بالرضا من الله وتخييره
يكون لنفوس أولى العزم والانقياد بهما والاجابة الى نور هدايتهما نفوس
المسلمين وبهما أظهار الدعوة والتبليغ لنفوس الانبياء وبهما الطمع في الخير والنقى
للتقوى لنفوس الاولياء، وبهما تحصيل معرفة الحق لنفوس العارفين، وبهما اتقان
المحافظة لنفوس الزاهدين، وبهما طلب العبودية لنفوس العابدين، وبهوى النفس
تصرفها لنفوس العاصين ..

وهذه القطعة من رسالة للاستاذ الشيخ الحاج نور الحق الذى عاش الى القرن
الثالث عشر للهجرة سماها مبادئ الطبيعة عند العرب ، تكلم فيها عن تفريق
الناس إلى طبقات مختلفة من جهة الفطرة التى فطرهم الله عليها فى الازل ، فبين بهذه
الكلمات الوجيزة المميزات التى تمتاز بها كل طبقة من غيرها من درجة خاتم
الانبياء الى درجة العاصى .

لقد تحدث هذا العالم عن نفسه فى مقدمة كتاب آخر له سماه الدعوة الكبرى
بأنه ينتمى الى السيد الأجل الذى نزع الى يوننان فى زمن قبلاى خان وكان هذا السيد
ينسب الى السلطان عبد الملك بن عبد الجليل ببلاد بخارى وله شرف الانتساب
الى شجرة صاحب الرسالة

وأما ولادته فلم تذكر . وانما ذكر عن حجه الى مكة المكرمة فى سنة ١٢٣٦ هـ .
ثم ولى مدرسة كبيرة فى جهة الغرب بولاية يوننان فى سنة ١٢٩٠ هـ . ويظهر أن
جميع مؤلفاته على اختلاف اللغات ، صينية كانت أم عربية ، أو فارسية ، كلها من
مجموداته العلمية بعد الحج . وله معاصرون من العلماء الكبار . فألفوا بلغات شتى ،
أكثرها طبعت بالمطبعة الخشبية فى تلك الولاية وتجدد فى مكتبته الجامع الازهر
الشرىف ، بعض نسخ لهذه المطبوعات . وهى هدية تذكارية من قبل البعثة الصينية
الى الازهر

ومن آثار العلاقة الدينية ، رواج الاصطلاحات الفارسية فى أمور الدين
وتداول بعض كلماتها فى مجتمعات المسلمين فى الصين . وأما تاريخ دخول اللغة
الفارسية ، فكما أعتقد ، قد بدأ قبل زمن المغول بقليل . لأن الكلمات الفارسية ،

قلما توجد في أدب الصين قبل القرن الثاني عشر من الميلاد. لكن مع سيطرة المغول على أمور الصين السياسية، دخلت اللغة المارسية وراج استعمالها في بعض الإدارات الرسمية أولا. ثم توغلت بأثرها الى المجتمعات العامة وكان ذلك بفضل احتكاك الصين مع المسلمين في آواسط آسيا من التتار والعرب واليرانيين. ثم هجرة عدد كبير من الذين تضرعوا في اللغة الفارسية مع المغول الى الصين، تساعد على رواج الفارسية في المجتمعات الاسلامية بولايات مختلطة.

لم تكن للمغول الذين حكموا الصين من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٦٧ م، لغة معروفة. فاضطروا الى اختيار الاصطلاحات للإدارات الحكومية، أما من الفارسية وأما من الصينية. فلذلك تراهم يستعملون «كتوال»، وهو رئيس البوابين، و«يرد دارية»، وهم أصحاب الحجابة، وأصحابية، وهم الرماة، و«نيزدارية»، وهم أصحاب الرماح و«تيدارية»، وهم أصحاب السيوف، مع «جنكسانغ»، الوزير الأعظم، و«زوجينغ» وزير اليسار، و«يوجينغ»، وزير اليمين، و«لجون»، «كاتم السر»، في مراتب حكومتهم

وكان للغة الفارسية رواج عظيم في مدينتها هانغ جو، لأن كثيرا من الكتابات الفارسية التي اكتشفت أخيرا، تحمل تاريخ المغول. ويظهر أن نفوذ هذه اللغة كأختها العربية، لم يكن منحصر في مجتمعات المسلمين فحسب، بل توغل الى مجتمعات غير المسلمين أيضا. ومن رواية ابن بطوطة أن ابن أمير هانغ - جو، (الخنسا)، الذي وضع له دتوة عظيمة، كان معجبا بالغناء الفارسي الذي كان أهل الطرب يغنون له به، اذا كان متنها مع ابن بطوطة وأصحابه في زوارق بخليج هانغ جو فأمرهم بتكراره المرة بعد المرة، حتى حفظه ابن بطوطة من أفواههم. وقال: وله تلحين عجيب في القصيدة الآتية:

در بحر فكر أفتادهم

تادل بمحنت داديم

قوى بهر باب أندريم

چون در نماز استاديم

وابن بطوطة ما كان يعرف اللغة المارسية ولا كان يجيد نطق جميع حروفها .
فلذا نراه يقع في اغلاط املائية ويظهر أنه حفظ البيت المذكور عن المطربين .
والصحيح هو كما يلي وهو بيت واحد فقط (لا بيتان كما ذكر في رحلة ابن بطوطة) .
تادل بمهرت داده ام در بحر فكر افتاده ام

چون در نماز ايستاده أم كوى بهجرات أندري^(١)
ومعناه - عندما نذرت لك قلبي حبا وقعت غريقا في بحر الافكار
فلما اقف قائما للصلاة كأنى أراك في وسط المحراب
والبيت من قصيدة مشهورة للشيخ السعدي رحمه الله ومطلعها :-
آخر تسكاهي باز كن وقتيكه برما بكندري

كر كبر منعت ميگند كز دوستان ياد آوري
ومعنى هذا البيت - أن يمنعك المكبرياء عن ذكر الاحباب ، فالق على نظارة
الوداع عند المرور ببابي .

كان ملوك منغ ، يعرفون قيمة هذه اللغة ، ويقدرونها حتى كان بعض الامراء
في القصر يتعلمونها فأجادوا الكتابة بها . ففي مطلع السعديين ، لعبد الرزاق
السمرقندي ، رسالة فارسية منسوبة إلى ملك الصين ، دائميك ، . ولقد نقلتها في
باب العلاقة الدبلوماسية . وهي الرسالة التي بعثها إلى شاه رخ في سنة ٨٢٢ هـ -
١٤١٩ م بهرات . مكتوبة بلسان فارسي فصيح ، خال من الضعف والغريب .
غير أنها على نمط الرسائل الصينية التي من خصائصها ، وضع كل كلمة تفخيم
وتعظيم وتجليل ، في صدر سطر جديد . وهذه الرسائل التي وجدناها في مطلع
السعديين ، ، أن لم تكن بتلم الملك نفسه ، فبقلم أحد أمراءه على وجه اليقين . لأن
عددا غير قليل من رجال القصر في ذاك الوقت ، قد أجادوا التكلم والكتابة
باللغة الفارسية ومنهم من عرفوا اللغة التركية أيضا ،

لقد كثر المتعلمون للغة الفارسية في عصر ما نشو ، ، حتى تمكنوا من
التأليف بها . وأنتك لتستطيع أن ترى آثار النهضة الفارسية في المؤلفات التي تركها

(١) الايرانيون لا يفرقون بين نطق الماء والحاء ولا بين نطق القاف والغين

علماء يونان في القرن التاسع عشر للميلاد في مختلف الموضوعات ، منها ما في النحو والصرف ، ومنها ما في التوحيد والكلام ومنها ما في أحكام الدين وأداب الإسلام ولهذا الكتيب رواج عظيم بين المسلمين فاستفادوا منها واستفاد أبنائهم من بعدهم والحقيقة أن اللغة الفارسية ، قد نالت حظا من النفوذ في حياة المسلمين العامة أكبر من أختها العربية وأنك إذا ذهبت إلى ولاية يونان ، تسمع فيها لغة شائعة بين طبقات المسلمين بمنازل مختلفة عما يتكلم بها غيرهم من الصينيين ، بسبب الكلمات الفارسية التي أدمجوها في كلامهم فتصبح غامضة على أخوانهم الصينيين في فهمها وأدراك معانيها الحقيقية ، مع أن كلامهم لم يخرج عن الأسلوب الصيني العادي . وكان عامل الغموض هو تلك الكلمات الفارسية التي وردت على لسانهم قصدا في بعض الأحيان ، وبدون قصد أحيانا أخرى وقت حوارهم أمام غيرهم ولا يريدون أن يفهموا ما دار بينهم من الكلام . فالكلمات الفارسية التي ترد على لسانهم في أغلب الأحيان هي — نماز ، روزه ، آبدست ، كناه ، بامداد ، يشين ديكر ، شام ، خفتن ، كسي ، ديدن ، خراب ، خوشنودی ، أستاذ ، شاکرد ، آخوند ، بنده ، خدا ، سرجین ، بهشت ، دوزخ ، قبول کردم ، دادم ، خوب ، زشت ، تو نکرد ، خاوند ، زن ، دزده ، بانگ ، چشم ، کوش ، دستار ، سر ، بائی ، دست خوردن ، درم ، نام ، موئی الخ .

مع هذه الكلمات الفارسية ، قد دخلت على لسانهم بعض الكلمات العربية التي صارت جزءا لا يتفك عنها فلا — نیت ، ایمان ، میت ، عذاب ، غسل ، حج ، بخیل ، زکات ، سخی ، برکت ، شهوت ، صدقت ، قربان ، تعظیم ، حقیقت ، روح ، نفس ، صبر ، قدرت ، وعظ ، صورت ، رزق ، شفقت ، عالم ، جاهل ، سائل ، حشو ، شفاعة ، حق ، باطل ، کذب خراب الخ .

فالصينيون يستعملون هذه الكلمات العربية ككلمات فارسية . ولدينا عدة أدلة تؤيد نظريتنا هذه .

أولاً — أن الكلمات العربية التي أخرجها نام ، يكتتبونها مفتوحة غير معقودة ولذا لا يقفون

عليها فيقولون مثلاً « قدرة » بل يكسرونها مع الامالة ، فيقولون « قدرت » ، هذه طريقة قراءة التاء المفتوحة عند الايرانيين والذين شاركهم في لغتهم كالبخاريين والافغانيين والتر كستانيين .

ثانياً - أن التغيير قد يقع في معاني بعض الكلمات - منها كلمة النفس فإذا وردت هذه الكلمة على لسانهم أثناء الكلام ، فلمراد منها على العموم « الغضب الشديد » . فيقول المسلمون الصينيون دائماً « ويودون نفس » ، إذا نقلناه الى العربية حرفياً فيكون المعنى « لا تحرك نفسك » ، لكن المعنى المصطلح عليه هو « لا تغضب » ، ومنها كلمة « خرابات » ، إذا سمع العرب أو علماء العربية هذه الكلمة تخرج من فم صيني يفهم لأول وهلة أن المراد منها الالال الدارسة أو الاماكن الموحشة التي هجرها الساكنون . لكن معناها في الفارسية ليس كذلك بل يراد بها أماكن الشراب التي فيها دوران الكؤوس مع الرؤس ، أو الخمار التي فيها نساء يحترفن البغاء . هذا التعبير هو أقرب الى ما عند الايرانيين فهما وتعبيراً بعيداً عما يريد به العرب . وأن كان متصلاً بمفهومه الاصل في اللغة العربية من جهة ما .

ثالثاً - أن المسلمين الصينيين لا يسمون أيام الاسبوع بالاسماء العربية غير الجمعة فيطلقون على أيام السبت ، والاثنين ، والثلاثاء ، والاربعاء ، والخميس : شنبه ، يك شنبه . دو شنبه . سه شنبه . جار شنبه ، وبانج شنبه . نجمه . والجمعة هنا ؛ لا تكون غير تابعة للاصطلاحات الفارسية . وما لاشك فيه انهم لا يعقدون نياتهم للصلوات الخمس بالعربية ، بل بالفارسية فيقولون لصلاة الفجر مثلاً - نيت كردم كه بکوارم دورکت نماز بامداد ... الخ

فن الواضح اذن أن هذه الكلمات العربية التي جرت على لسان المسلمين الصينيين وأصبحت أجزاء من لغتهم الخاصة ، قد دخلت مع أخواتها الفارسية ، تابعات لها استعمالاً وتعبيراً

وللغة الفارسية نفوذ آخر في مجتمعات المسلمين بالصين ، لم تستطع العربية أن تكتسبه . فالحكايات والقصص التي فيها جانب من المواعظ الدينية أو الارشادات الاسلامية ، أغلبها محفوظ في اللغة الفارسية ، سار في المجالس والمحافل ، جار على ألسن الأطفال والسيدات . فكثير من الصينيين يستطيعون أن يقصوا عليك ،

واقعة كربلاء، واستشهادة الحسن والحسين باللغة الفارسية عن ظهر قلب بدون فهم لما يقصون كما يستطيع كثير من السيدات أن يحكين لمن تحضر المجالس الدينية من جنسهن حياة أم المرزبان خديجة رضى الله عنها، وحياة فاطمة الزهراء، أم السيدين الحسن والحسين، باللغة الفارسية. وإذا ذهبنا إلى جمع أحاديثهم بالفارسية لا يتنا بكيتاب ضخمة لا يتسع له هذا المقام فسينا هذه الاشارة الحاطقة هنا، تاركا التفصيل لموطن آخر

غير أن اللغة العربية، مع أنها لم تؤثر في حياة المسلمين العامة خارج الدائرة الدينية، لها نوع آخر من التأثير في الصين لم يكن للغة الفارسية حظ فيه. فاللغة العربية هي الاداة التي نقلت منها بعض علوم المسلمين ولا سيما علم الطب وعلم الهيئة.

ولست عالما في الطب العربي ولا عارفا بتاريخ نشأة هذا العلم فيهم. فليس من مقاصدي أن أدخل في موضوع تاريخ الطب العربي، ورواجه في العالم. بيد أنني أرى من المناسب أن أشير إلى عناية الصين بعلم الطب العربي (أو الطب الاسلامي كما هو معروف في الصين بهذا الاسم) في العصور التي ازدهر فيها الاسلام وبهذه المناسبة أقول: أن نقل علم الطب العربي والهيئة الاسلامية إلى الصين، نتيجة من نتائج العلاقة الدينية.

ومن المعلوم أن الاسلام قد تقدم كثيرا في الصين في عهد المغول. فابتداء دخول العلوم العربية فيها من هذا الزمان. لأن المغول بعد أن فتحو دار السلام، (بغداد) ونهبوها، نقلوا كثيرا من رجال العلم إلى الشرق الأقصى حيثما مرت مساعيهم هناك.

ويظهر أن الداعي الذي كان يدعو إلى نقل علم الطب العربي إلى الصين، هو الحروب التي كانت دائرة بين ملوك منغ وچنكيزخان وآله فكان هؤلاء المغول لم يعرفوا شيئا عن فن الطب والمعالجة. غير أنهم قد وجدوا في الكتب العربية

خزانه مملوءة من المعلومات الطبية . فاستفادوا منها بواسطة العلماء المسلمين في علاج الجرحى حين اشتد النضال بينهم وبين الصينيين فلما فتحوا الصين واستقر الحكم لهم فيها ، أمروا بنشر هذا العلم في عواصمها . ولهذا الغرض ، أسسوا دائرة طبية عربية يركبون الادوية فيها ، على حسب التشخيصات العربية ، علاجا للحراس والعساكر واليتامى والمساكين . وكان فيها ، ووظفون مسلمون منهم من تولى منصب الرياسة لشعبة ترتيب الادوية ، ومنهم من تولى توزيع الادوية (١١) . وكانت هذه الادوية تؤخذ أو تستخرج طبعا من الاعشاب والنباتات ، ولمعرفة الخصائص الدوائية في النباتات ألف كثير من الاطباء كتباً قيمة في هذا الموضوع ، منها

أصول المآكل والمشارب **欵膳正要** لمسلم معروف في تاريخ الصين

باسم خوشحال **和斯輝** ، ألفه في سنة ١٢٣١ م ولقد بحث في هذا الكتاب خصائص النباتات التي تفيد الجسم غذاء ودواء ومن هذه النباتات ما ينبت في الصين وما ينبت في الممالك الاسلامية ، ومن قول مؤلف الدراسات في تاريخ الاسلام في الصين أن مكتبة بكين تحتوي على نسخة من التشخيصات الطبية الاسلامية في ستة وثلاثين جزءاً (١٢) . واذا كان عالم من علماء الطب العربي ، يأتي يبحث تحليلي عن هذه التشخيصات ، ومبلغ العلم الطبي الذي وصل اليه العرب أو المسلمون في الأيام الغابرة ، فمن اليقين أنه سيضيف الى هذا العلم معلومات لم تكن معروفة في العالم .

وأما علم الهيئة الاسلامية فقد نقل إلى الصين أيضاً في عهد المغول . وكان له رواج عظيم في أول عهد منغ ، أي في القرن الرابع عشر للميلاد ، ولقد ذكر غستاف لبون ، أن قبلاي خان ، لما فتح الصين ، استحضر كثيراً من كتب الهيئة من بغداد ومن القاهرة . فحصل علماء الصين من هذه الكتب ، وعلى الاخص ، كوشوكينك علم الهيئة العربية .

(١) جيني مسلمان . ص ٢٧

(٢) الدراسات ص ١٥٠

وكانت في الممالك الإسلامية بالشرق ، ثلاثة مدارس لعلوم الهيئة . مدرسة بغداد ، ومدرسة سمرقند ومدرسة القاهرة فان الجبير البتاني المتوفى سنة ٩٣٠ م وأبو القاسم عبد الله بن المأجور (٩٣٣ م) وأبو الوفا المتوفى سنة ٩٨ م ، من مدرسة بغداد . والذين اتصلوا بتيemor وأولغ بك ، وهم من مدرسة سمرقند . وأما مدرسة القاهرة ، فلم تنشأ إلا لما نفاة بغداد . فخلفاء مصر قد وضعوا العلم تحت حمايتهم . فأسسوا على جبل المقطم مرصدًا إلى جانب القلعة ، وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٧ م ، يدير هذا المرصد في عهد الحاكم . فعمل له زيجًا معروفًا عند العلماء بزيج الحاكم ، كما اشتهر الذي بسمرقند بزيج أولغ بك . فأبطل ابن يونس بزيجه ، ما وضعه غيره من الزيجات . ولقد نقل هذا الزيج إلى لغات كثيرة ، منها اللغة الصينية ، نقله إليها عالم صيني اسمه كوشوكنك ، في سنة ١٢٨٠ م .

ومن المصادر الصينية نعرف أن أمراء المغول في الصين قد جمعوا عددًا كبيرًا من الكتب العربية ، على اختلاف العلوم والفنون ، ومنها ما يتعلق بعلم الهيئة ، فخرنوها في المكتبة الإمبراطورية المغولية بخانبالق . ولقد نقل بعض من هذه الكتب إلى اللغة الصينية في أول عهد منغ ، إذ كان الإمبراطور منغ تائي جو على العرش (١٢٦٨ - ١٣٩٩ م) ، بقلم شيخ المشايخ وقاضى المسلمين ، حمدر عطف الدين ^(١) . ومن المرسوم الذى أصدره منغ تائي جو ، إلى شيخ المشايخ في سنة ١٣٨٣ م ، بشأن ترجمة الكتب التى فى علم الهيئة والنجوم ، نعلم أن هذا الملك كان مولعًا بالعلوم العربية ومعجبا بها ، فكانت الأغراض من ترجمة هذه الكتب العربية إلى الصينية هى الاستعانة على أصول الاستنباط الكائنة فى هذه الكتب فى تحقيق المسائل الفلسفية . تصويبا لما قد أخطأ فىه من التقارير والآراء فى ظواهر الكون وحركات الأفلاك السيارة . وكان فى الصين فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، علماء مسلمون مشهورون فى علم الهيئة ، منهم السيد الأجل . وجمال الدين وكال الدين . ولكل واحد من المذكورين الآخرين ، تأليف فى التقويم ،

معروف بين طبقات العلماء حتى الآن (١). واللاستاذ هجنويان ، أبحاث دقيقة عن شخصيات هؤلاء العلماء وأعمالهم العلمية في كتابه ، تصين المسلمين في عصر المغول ، وسنرجع اليه عند ما ندرس تاريخ الاسلام في الصين في المستقبل إن شاء الله تعالى . نتائج العلاقة التجارية : وأما النتائج التي ترتبت على العلاقة التجارية بين العرب والصين فترويح استعمال إبرة المغناطيس في الملاحة البحرية ، ونقل استعمالها بواسطة العرب إلى الغرب . ثم نقل بعض الكلمات الصينية إلى الألسن الاسلامية ، وبعض النباتات مع أسمائها العربية إلى لغة الصين ، وهنا نبحت قليلا عن هذه الكلمات واستعمالها في الصينية أو في العربية .

لكن قبل الدخول في هذا البحث ، نلقى نظرة إلى رواج استعمال ابرة المغناطيس في الملاحة والاسفار البحرية . وهذا من أهم نتائج العلاقة التجارية بدون نزاع .

ولقد قلت في باب العلاقة التجارية ، أن التجارة البحرية قد تقدمت كثيرا في القرن الثاني عشر للميلاد ، بسبب معرفة استعمال ابرة المغناطيس التي كانت معروفة عند الصينيين منذ زمن قديم باسم ، الأبرة المشيرة الى الجنوب ، وبناء على ما ورد في فجر الجغرافية الحديثة ، للاستاذ بينلي (٢) أن الصينيين كانوا يستعملون هذه الأبرة في أسفارهم البحرية البعيدة من ميناء كانتون الى سواحل ملابار في القرن الثالث من الميلاد . لكن الاستاذ أسبك يقول - أن الصينيين كانوا يستعملونها في الملاحة منذ القرن الأول الميلادي (٣) . ولقد حقق المستشرقون استعمال ابرة المغناطيس في الملاحة من المصادر الصينية ، فوجدوا الحديث عنها في الكتب الصينية المؤلفة في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد (٤) ، وهو أقدم ما ذكرته المصادر الصينية . وأما المؤلفات للقرن الحادي عشر فذكرتها في مواضع كثيرة

(١) الدراسات ص ١٤٧

(2) Beazley : Down of the Modern Geography. P. 490

(3) E. Spekz : Handel Geschichre des Alterthumes. P. 1, 29, 209

(4) E. H. Parker : China Review XVIII 197.

ويقول الاستاذ رينان الذى نقله جغرافية أبى الفدا ، الى اللغة الفرنسية فى خاتمة البحث عن معلومات العرب عن استعمال الأبره المغناطيسية هكذا - يثبت من الأدلة السابقة ، أن هذا النوع من الأبره ، قد عم استعماله فى الشرق والغرب عند نهاية القرن الثانى عشر وابتداء القرن الثالث عشر من الميلاد^(١)

ظهر أمامنا من الأقوال السابقة أن العرب قد سافروا الى الشرق الأقصى فى هذه القرون فتعلموا استعمال الأبره المشيرة الى الجنوب من الصينيين فى أسفارهم البحرية . ثم تعلم منهم أهل أوروبا بواسطة البرتغاليين . لأن وسكودى غاما ، لما وصل فى سنة ١٤٩٨م الى ماليندى Malindi بساحل أفريقيا الشرقية عن طريق رأس الرجاء ضل عن سبيله الى الهند غير أن ربانا عربيا معروفا باسمه د أحمد بن عبد المجيد ، جاء الى مساعده فأراه الطريق الى الهند . ويذكر المصدر البرتغالى أن هذا الربان العربى كان يحمل معه خريطة مفصلة عن البحار والأدوات التى تتعلق بالأسفار البحرية ، منها الأبره المغناطيسية^(٢) . وصاحب المقال فى تراث الاسلام يؤكد الاستاذ أسبك والاستاذ بيزلى بقوله أن علم استعمال الأبره المغناطيسية عند الصينيين كان من القرن الثانى للميلادى فتعلم منهم العرب فى القرن الثانى عشر بعد احتسكا كههم معهم تجاريا فى بحر الصين وسواحل الهند .

وأما ماورد فى بعض المؤلفات من ادعاء أن الأبره المغناطيسية من اختراعات الفرنجة ، فدحضه كثير من العلماء مثل الاستاذ هيرت ، مترجم جوفانسكى تذكره عن البلاد الأجنبية . والاستاذ كراموس ، صاحب المقال بعنوان الجغرافية والتجارة فى كتابه تراث الاسلام ، وأقواهم برهانا وحجة هوما وجدناه فى أبحاث الاستاذ كاركورن ، مؤلف تاريخ ممالك جين بلسان الاردو . وأنه قد خصص ثلاث صفحات من كتابه فى هذا الكتاب وفيه تفاصيل لمن أراد التوسع فى هذا الموضوع .

(1) A. D. Reinand : Geographie d'Abdul Fida. 1. 111 cc 1V.

(2) Legacy of Islam : P. 96.

أن آراء العلماء تجتمع على تعلم العرب استعمال هذه الأبرة من الصينيين ثم تعلم أهل أوروبا منهم فأصبحت الآن آلة لا يمكن الاستغناء عنها في الاسفار البحرية وهذه المعرفة هي إحدى نتائج العلاقة التجارية بين الصين والعرب في القرون الوسطى وانتقل الآن الى نقطة اخرى من نتائج هذه العلاقة . وهي نقل بعض السكبات الصينية الى العربية بواسطة أو بلا واسطة. وهذه السكبات كما وجدت هي « كاغذ ، وكنخاب ، والشاي ، ويمكن ان نضيف اليها كلمة « بك » .

لقد تكلمت في نتائج العلاقة السياسية عن كلمة « كاغذ ، وأصلها . فأتركها هنا اكتفا . بما قلت هنالك . وأما كلمة « كنخو ، بفتح الكاف والحاء وسكون الميم والواو فانتقلت الى العربية بواسطة الفارسية ، وكان الايرانيون يستعملونها في شكل كمنخا أو كمنخاب (Kamxwa Or Kamxwab) بالآف ، أو بالباء بعدها . وهو نوع من الديباج ^(١) أي الحرير الصيني المنسوج بخيوط الذهب يسمى باللغة الصينية « كمنخا ، بكسر الكاف (Kimxwa - 金锦花) ولا شك أن الايرانيين كانوا يستوردون الحرير من الصين من عهد قديم ، وللكثرة احتكاكهم مع الصينيين عن طريق التجارة برا ، تعلموا من أهل الختن ، تربية ديدان القز ، فخر بوها في بلدة جيلان ، ونجحوا الى حد ما ، وأما الديباجة الصينية فكانت مشهورة في ايران في عهد الاسلام حتى ذكرها الفردوسي في « شاهنامه » ، في عدة مناسبات وذكر أيضا نوعا آخر من الحرير الصيني سماه « برنيان » ، لا أعرف حق المعرفة هل هناك علاقة لسانية بين كلمة « Silk » ، الانجليزية وكلمة ابرسيم المعربة من ناحية وبين كلمة 絲 الصينية والظاهر أن العلاقة بين هذه السكبات موجودة ، وأعتقد أن كلمة

Soie ، في الفرنسية صورة محرفة من كلمة « Sie » الصينية ، لكن الجرم بهذه العلاقة يحتاج إلى تحقيق اللسانيين ، وليس ذلك من مقاصدي الآن وإنما أقول أن كلمة « كمنخا ، أو كمنخاب ، أو كمنخا ، أو كمنخو ، في العربية والفارسية والتركية والهندوستانية ، وهي نوع من الديباج

(١) وكلمة الديباج « معناها « الحرير الصيني . وفي مركبة من ، ديباش چهن

الصيني مأخوذة بدون شك من كلمة **花** ، الصينية . لقد ذكر هذه الكلمة ابن خرداذبه وابن بطوطة - والمقدسي في كتبهم .

الشاي : من الصعب أن نقف على تاريخ دخول كلمة الشاي في اللغة العربية ، غير أننا نقول أن سليمان التاجر السيرافي ، صاحب (سلسلة التواريخ) قد أتى بمعلومات صحيحة عن استعمال أوراق الشا عند الصينيين كمشروب عادي ، فسماه في كتابه الساخ . ومن العجيب أن كتاب العرب الذين كتبوا بعد سليمان ، لم يقولوا شيئاً عن هذه البضاعة . فلذلك لا نجد في الكتب الجغرافية التي تتعلق بالبلاد الشرقية في القرون الوسطى أي ذكر عن الشاي ، وأبو المنصور الذي كتب (كتاب الأبنيات عن حقائق الأدوية في سنة ٩٨٥ م ، لم يذكر هذا النبات أيضاً وكذلك ابن البيطار . وإذا نظرنا إلى المصادر الصينية للعصور التي بين القرن الثامن الميلادي وبين الثاني عشر ، لا نجد ذكرها من بين البضاعات الصادرة إلى الخارج ومع هذا ، نعتقد أن زراعة الشا في الصين كانت من أيام قديمة واستعماله كشراب منزلي كان وأنجا من أول يوم زراعته غير أن هذه العادة لم تنتشر إلى غرب آسيا قبل القرن العاشر الميلادي . وأغلب الظن أن عادة شرب الشا انتقلت في عهد المغول إلى الممالك الإسلامية . ثم إلى أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي لأن الأستاذ راميسو Ramiso ذكر بالتأكيد في المقدمة التي قدمها لطبعة جديده لرحلة ماركو بولو ، في سنة ٥٤٥ م ، أن أول أوروبي تعلم شرب الشا من تاجر إيراني اسمه حاجي محمد^(١) ولم يكن للشاي رواج عظيم في أسواق إيران حتى القرن السادس عشر للميلاد . ومن رواية مانديل سلو - A. D. Mande slo الذي قد زار إيران في سنة ١٦٦٢ م أن الإيرانيين كانوا يستعملون القهوة بدلا من الشاي

وهذا من جهة تاريخ تجارته في العالم . وأما من جهة اللغة فكلمة الشاي في الصينية هي **茶葉** Tcha - Yeh أي أوراق الشاي ونجد هذه الكلمة بعينها في

(١) L'orient; Sin - Iranica P. 55

اللغات البرتغالية والروسية والتركية والفارسية، والهند وسنانه يظهر أن كلمة Thé في الفرنسية محرفة من جائي Tcha - i الفارسية وكلمة Tea الإنجليزية من Thé في الفرنسية. وأما نطق الجائي الفارسية فهو أقرب إلى النطق الأصلي وهو Tcha من نطقها في العربية - لأن العربية ليس فيها حرف . فبدلها الناطقون بالضاد ، بالميم وهي أقرب صوت إلى الحميم الفارسية

ونظرا إلى أن بعض اللغويين يزعمون أن أصل كلمة الشاي (شاه) فيرون من الصحيح أن ينسب إليه بأن يقال ، شاهي) أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الكلمة الصينية قد دخلت في اللغة العربية ، بواسطة إيران . والدليل على صحة هذه النظرية أن اللغويين يحسبونها معربة من كلمة الجائي الفارسية ، جملا لأصلها الحقيقي وهو **茶** Tcha - Yeh هي مركبة من كلمتين صينيتين (١) **茶** (أى) تشا

و(٢) **葉** (أى) (ى) فمعناها أوراق الشاي فالصينيون يشربون الشاي ولا يشربون الشاي لأن الشاي هو الورق اليابس . وأما الشاي فهو عصير الورق في الماء الساخن .

لقد ذكر الأستاذ برتش نايدر في كتابه الدراسات عن القرون الوسطى ، أن علاه الدين ، وكان سفيرا من سفراء العرب إلى الصين في القرن الخامس عشر من الميلاد ، بعد تقديم الهدايا إلى الإمبراطور (منغ تائي جو) والرسالة التي بعث لأجلها . التمس من الإمبراطور ، أن يمنحه كمية من الشاي . ولا أعرف حق المعرفة هل لهذا الواقع علاقة بكلمة الشاي المستعملة في اللغة العربية الآن ؟ والظاهر أن العرب قد عدوا هذه الكلمة قبل هذا الزمان .

بك . أضيف إلى هذه الكلمات الثلاث ، كلمة بك ، ، لا لأنها نتيجة من نتائج العلاقة التجارية بل لأنها كلمة صينية الأصل ، استعملت كثيرا عند كتاب العرب والإسلام في الخلافة العثمانية وفي الوقت الحاضر . وهي كلمة تدل على درجة من الألقاب المدنية أدنى من الباشوية بدرجة واحدة فقط ولعل اللغويين يعتقدون أنها كلمة تركية اختار كتاب العرب استعمالها من عهد العثمانيين إلى يومنا

هذا ، وظلوا في استعمالها إلى ما شاء الله . ولا أخالفهم في هذا ، غير أنني أقول أن هذه الكلمة متركة (أى مدخولة في التركية) من كلمة صينية الأصل وهى (Pak) . وهى كلمة بك نطقا ومعنى بدون الكاف وكان الصينيون من عهد قديم ، قد أوجدوا ، أو وضعوا القابا ودرجات الشرف للرجال العسكريين والمسدينين . فقسموها إلى « قون » (Kun) و « خير » (Khew) و « بك » (Pak) وبما لاشك فيه أن هذه الكلمة قد تسربت إلى لغات الترك قبل هجرتهم إلى آسيا الصغرى وأما المسلمون بتركستان ، سواء كانوا من المغول أو من الترك فيكتبون اليوم (بى) بالباء والياء بدون الكاف وهو الأصح نطقا واملاء . قد يكتب (بيك) وقد يكتب (باى) ، غير أن كتاب العربية يكتبونه بالباء والكاف (١) .

هذه من جهة الكلمات الصينية التى راجع استعمالها فى اللغة العربية بنطقها صحيحا أو محرفا ومعناها بدون تغيير . وأما من جهة أخرى فقد دخلت بعض الكلمات العربية فى أدب الصين بواسطة التجارة منها (زعفران) ، و (ياسمين) و (يابروه) و (حناء) و (حلبة) ومن المظنون أن هناك كلمات أخرى دخلت فى أدب الصين ، غير أننا لم نعر عليها لقله معلوماتنا عنها . ونكتفى بهذه الكلمات الخمس كبراهين لتنفيذ تجارة العرب فى الصين وآثارهم الدائمة التى تركوها فى أدب الصين .

الزعفران وهو زهرة معروفة فى البلاد الإسلامية ، وصل علمها إلى الصينيين قبل الإسلام تحت اسم (فانونغ خوا) أى الزهرة الحمراء الأجنبية . ومن المعلوم أن فى الزعفران فوائد كثيرة والناس يستعملونه كصبغة أو كتابل ، (كعطر أو كدواء) وهو من البضائع التجارية المحبوبة التى قد لعبت دورا عظيما فى التجارة الشرقية فى العصور الإسلامية . فكثرت التجارة فيه فى عهد المغول فأتى المسلمون به إلى أسواق الصين وباعوه بأعلى ثمن . وللكثرة تجارة الزعفران ، دخلت هذه الكلمة فى أدبيات الصين اشكلها العربى مع تحريف يسير ، من (زعفران) إلى زافوران .

(١) ومعانى هذه الكلمات (قون) الامير . و (خيو) الباشا . و (بك) البك .

والذى قد ذكر هذه الكلمة في الكتاب ، هو (لى شيجين) من أهل عصر المغول ويظهر أن (Safron) في الإنجليزية أيضا محرقة من زعفران . ومن رأى الأستاذ لوفر ، أن العرب أتوا بالزعفران أولا إلى الأندلس ومنها إلى بلاد أخرى أوروبية والشاهد على صحة هذه النظرية ، أن الاسبانين يسمونه (Azaftron) والبرتغاليين (Acafrao) والاطليان (Zafferan) والفرنسيين (Safran) والرومانيين (Sofran)^{١)} .

٢ الياسمين - في وصف النباتات الشرقية ، أقدم كتاب لعالم معروف باسم د كيخان ، وكان وزيرا لامبراطور (هوى) الذى عاش في آخر القرن الثالث الميلادى . وقد ذكر أن « الياسمين » ، يأتي بها الأجانب من الغرب . فغرسوها في ولاية (كوانغ تونغ) - فالذين يقطنون بالجنوب ، يحبون روائحها . فلذا يزرعونها بكثرة .

وذكر كاتب آخر في القرن التاسع الميلادى د أن ياشيمى ، أتى بها الايرانيون إلى الصين وروجوا استعمالها فيها . وفي الكتب الأخرى يوجد حديث عن هذه الزهرة أيضا .

ولا شك أن كلمة « ياسمين » ، أو ياشيمى ، في الكتب الصينية منقولة عن الياسمين د الفهلوية وهذه الكلمة صور جديدة في « ياسمين » الفارسية الحاضرة والعربية المعربة

وقد أخطأ الأستاذ لوفر في نسبة كلمة « ياسمين » ، إلى أصل العربية . فلا غرو أنه لم يقيم لبيان (كيخان) أى وزن . وبناء عليه قال من غير الممكن أن تتسرب كلمة عربية إلى لغة الصين في القرن الثالث الميلادى ! والحقيقة أن كلمة (ياسمين) في العربية هي معربة عن الفارسية وغير أصيلة فيها . فكلمة يسمين في كتاب (كيخان) كلمة مصينة من الفهلوية التى تفرعت منها الفارسية الحاضرة .

ومما لا ريب فيه أن الايرانيين كانت لهم تجارة في الياسمين مع الصين قبل الاسلام، غير أن العرب الذين نهضوا كأمة تجارية في القرون الوسطى، قد ورثوهم في هذه التجارة. فأتوا بكمية كبيرة من رياحين الياسمين وزبوتها إلى الصين فروجوا استعمالها فيها، كما أنهم قد روجوا استعمالها في بلاد الغرب. فلذا ترى اليوم أن جملة اللغات الأوروبية قد اختارت هذا الاسم في صورته المعربة.

أن زيت الياسمين كان حاصلًا مشهورًا عند العرب والاييرانيين والهنود. ويسميه العرب «دهن الزئبق». وأما التركيب لصناعة زيت ياسمين فيوجد في كتاب ابن بطار. وينسب على قول الاصطخري أن في ولاية (دارا بيجرد) بایران، نوعًا من زيت الياسمين لا يوجد في مدن أخرى كانت سابور وشيراز مشهورتين بزيت الياسمين. ويذكر (كوى زى صون) وهو كاتب عاش إلى نهاية القرن الثاني عشر للميلاد أن زيت الياسمين يصنع بایران والشام. ثم قال «أن ياسمين زهرة بيضاء مثل الثلج بيضاء جاء بها العرب والاييرانيون من البلاد (الغربية) إلى مدينة (كانتون). فحببت إلى كل متنفس يسكن هناك. لقد وردت في وقائع كانتون، بيانات عن استيراد زبوت الياسمين من البلاد الاسلامية قائلًا أن زبوت الياسمين تستورد في المراكب، لأن المسلمين يجمعون أزهار الياسمين ويعصرون الزيت منها. وهو يفيد للجذام والبرص. فان أطباء العرب يستعملونه كإعلاج لأمراض الفالج والصرع»^(١) وأما الصينيون فاختاروا اسمه مصيغًا، بتحريف يسير.

٣ يابروة - وهي إبرة الراعي، من النباتات التي جاء بها العرب إلى الصين في عهد (سونغ). وأول من ذكر هذا النبات باسمه الغربي من علماء الصين، هو تشوى، (١٢٣٠ - ١٣٢٠ م) ولقد خصص الأستاذ لوفر عدة صفحات لبحث هذا النبات وخصائصه في كتابه (La Mandragore) باللغة الفرنسية. الخناء دخلت هذه الكلمة في اللغة الصينية في شكل محرف إلى «هاى نا» (Hai na) نوع من النبات، ذو صبغة حمراء. تصبغ بها النساء أظفارهن وفي بعض الأحيان كعقوفهن. ومن رأى الأستاذ لوفر، أن عادة استعمال الخناء كزينة

(1) Sino- Iranica. p. 383

فرحية لم تكن موجودة في نساء الصين قبل عصر (سونغ) فظهرت من ذلك العهد رائحة في الصين الى الآن . ولا شك أنها من آثار المسلمين في الحياة الاجتماعية الصينية ، فأقدم المصادر التي ذكرت رواج استعمال الحناء في الطبقة النسوية في الصين هي رسالة « كوى شين Kuishiu Tsache » بقلم الأستاذ « تشوى ، الذى قد ذكرناه في مناسبة سابقة . فعقد الملاحظات التالية على استعمال الحناء وكيفية استعمالها فقال : عند الناس عادة باستعمال أوراق « فون شيان » (الحناء) في صبغ الأظفار أذياتون بأوراق هذا النبات على اختلاف أنواعه من اللون الأحمر فيسحقونه في هاون ويخلطونها بمسحوق من حجر العب . فالأظفار يجب أن تنظف جيدا . ثم توضع عليها عجينة الحناء فتربط بشريط من الحرير من أول الليل إلى الصباح حتى يأخذ أثر الحناء في الأظفار . وهكذا يكرر ثلاث مرات أو خمسا . ولونه أحمر قان لا يذهب بالغسل إلى عشرة أيام والنساء الملمات يخبين الآن أن تصبغ كفوفهن بهذه الصبغة ولا شك أن تركيب الحناء وطريق استعمالها في الصين في عهد (سونغ) يوافق ما وجدناه في جميع الممالك الاسلامية الآن . ومن المعلوم أن هذه الزينة كان لها رواج مقبول في غرب آسيا وفي الممالك الاسلامية حول حوض البحر الابيض فالمصريات يخبين أن يصبغن أيديهن بأوراق بوكر Puqer من قديم الزمان . ولهذا العادة انتشار عظيم في طبقات المسلمين في أنحاء العالم حتى تعدت إلى بعض الرجال يصبغون بها أشعارهم ولحاهم ، وأما الايرانيون فهم أكثر الناس استعمالا للحناء . ويروى الاستاذ لوفر عن اولى آريوس Olfarius أن الايرانيين لهم عادة في صبغ أيديهم وعلى الأخص أظفارهم بلون أحمر ضارب إلى الصفرة او البرتقالية ، ومنهم من يصبغ بها رجله وهي زينة لازمة لمجالس الافراح وحفلات الزواج . فيؤتى بالحناء وتوزع بين حاضرات الحفلة . فلا يذهب أثرها إلى خمسة عشر يوما ولو غسل بالماء عدة مرات كل يوم .

وأما الهند فهي غنية بالحناء وهي تنبت بكثرة بسواحل كورو - مندل . وتزرع هناك على أنها حاصلات زراعية واما عادة استعمال الحناء فأصبحت عامة بين النساء المسلمات الهنديات ومنهن انتشرت إلى الهندوكيات أيضا . ومن تحقيق الأستاذ جورب Goret أن الحناء لم تكن مزروعة الا من أيام المسلمين . وفرواجها

وأما نقله إلى الصين، فيظهر أنه من إيران أو من الهند وكان ذلك في عصر (سونغ).
الحلبة: علم أطباء الصين بحبة أجنبية باسم هولوبال *Holubal* فاستعملوها في الدواء
وَمَا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ كَلِمَةَ هَوْلُوبَا فِي الصِّينِ هِيَ كَلِمَةُ حَلْبَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَمِنَ الْمَظْنُونِ
أَنَّ شَجَرَتَهَا قَدْ نَقِلَتْ إِلَى الصِّينِ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ لِلْمِيلَادِ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَكَرَ هَذِهِ
الْحَبَّةَ مِنْ عُلَمَاءِ الصِّينِ هُوَ جَان يَوْشِي الَّذِي عَاشَ إِلَى ١٠٦٤ م. وَمِنْ قَوْلِهِ أَنَّ الْحَبَّةَ
تُزْرَعُ فِي كَانْتُونٍ وَيَقُولُ مَصْدَرُ آخِرِ أَنَّ بَذُورَ الْحَبَّةِ قَدْ أَتَى بِهَا مِنْ جَزِيرَةِ هَاي نَانِ
وَالْبِلَادِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْآخَرَى. فَالْتِجَارُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى كَانْتُونٍ، أَلْفَوْا بَذُورَهَا فِي
أَرْضِهَا فَنَبَتَتْ وَأَثْمَرَتْ إِلَّا أَنَّ بَذُورَهَا لَمْ تَبْلُغْ مَا تَبْلُغُ مَا جَاءَتْ مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ جُودَةً
وَأَمَّا الْأَبْحَاثُ عَنِ اسْتِمْعَالِ الْحَبَّةِ وَفَوَائِدِهَا الطَّبِيَّةِ، فَتَوْجَدُ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمَتَعَلِّقَةِ
بِالنباتات والأدوية تحت عنوان هولوبا. وإذا نظرت إلى كتاب الابنيسات عن
حقائق الأدوية لأبي منصور. فتجد أنه قد بحث خصائصها الطبية تحت اسم
حلبت بالناء المفتوحة ونظرا إلى أن هذه الكلمة قد حُرِّفَتْ إِلَى شَكْلِ هَوْلُوبَا
نَمِيلُ إِلَى الْإِعْتِمَادِ بِأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ إِيْرَانِ وَخَلِيْجِ فَارِسِ فِي آخِرِ عَهْدِ تَانْغِ. لِأَنَّ هَذَا
العهد ينسب أكثر الأشياء الأجنبية إلى هـ، أي إيران وما يجاورها من البلاد.

كلمة ختامية

هذه العلاقات التي قرأنا في الأبواب السابقة، وهذه النتائج التي رتبنا آنفا لم
أكن قاصدا كتابتها. غير أنني أرى أن تحقيق تاريخ الإسلام في الصين - موضوع
قلما يلتفت إليه علماء الإسلام - يحتاج في الخطورة الأولى، إلى معرفة هذه
العلاقات في جمعت المعلومات عنها من مصادر شتى بين بلغات شتى. ثم رتبنا هذا
الترتيب على حسب الموضوع وعصره. ليكون أول معلومات عن صلوات العرب
بالصين وآثار الإسلام فيها حتى نهد الطريق للبحث في موضوع تاريخ الإسلام
في الصين مع تعليل انتشاره وبقائه هناك إلى اليوم وهذا من أسمي مقاصدي وأنا
جاد في سبيل الدراسة والبحث وإذا فيه وفقني الله وألهمني الصبر والمواظبة على
البحث فسأخرج كتابا جامعا في هذا الموضوع في المستقبل القريب.
وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

من ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ - ١٤ / ٩ / ١٩٤١ م

بدر الدين الصيني

كتب المراجع

- (١) باللغة الصينية -
- (١) أصل المسلمين في الصين (هوى هوى يوان لاني)
- (٢) أليات الصين .
- (٣) تاريخ (شيما جيانغ)
- (٤) تاريخ (نانغ) القديم والجديد .
- (٥) تاريخ (منغ) .
- (٦) تهونغ جيانغ
- (٧) جوفانكي .
- (٨) الدراسات عن تاريخ الاسلام في الصين .
- (٩) ديوان لغات الصين .
- (١٠) مجلة (توه جوه) ٢٢٠ ج ٥٥ .
- (١١) مجلة (شين باو) ١٥ / ١١ / ١٩٣٤ .
- (١٢) مختصر حضارة الصين .
- (١٣) علاقة الصين القديمة بالعرب .
- (١٤) علاقة الصين القديمة بالتركستان .
- (١٥) النسل من الغرب (شى لاني تشونغ بو) .
- (٢) باللغة الفارسية والآرديه :
- (٦) أويماق مغرل - للاستاذ آغا جان محمد خان (طبعة أمرتسر) الهند
- (١٧) تاريخ ممالك جين - للعلامة كاركورن (طبعة كلكته) .
- (١٨) تاريخ الوصاف .
- (١٩) جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله .
- (٢٠) جيني مسلمان - لبدر الدين الصيني (طبعة دار المصنفين) .
- (٢١) تمدن عرب - ترجمة بلكرامى (حيدرآباد - دكن) :
- (٢٢) ختائى نامه - لأكبر على .

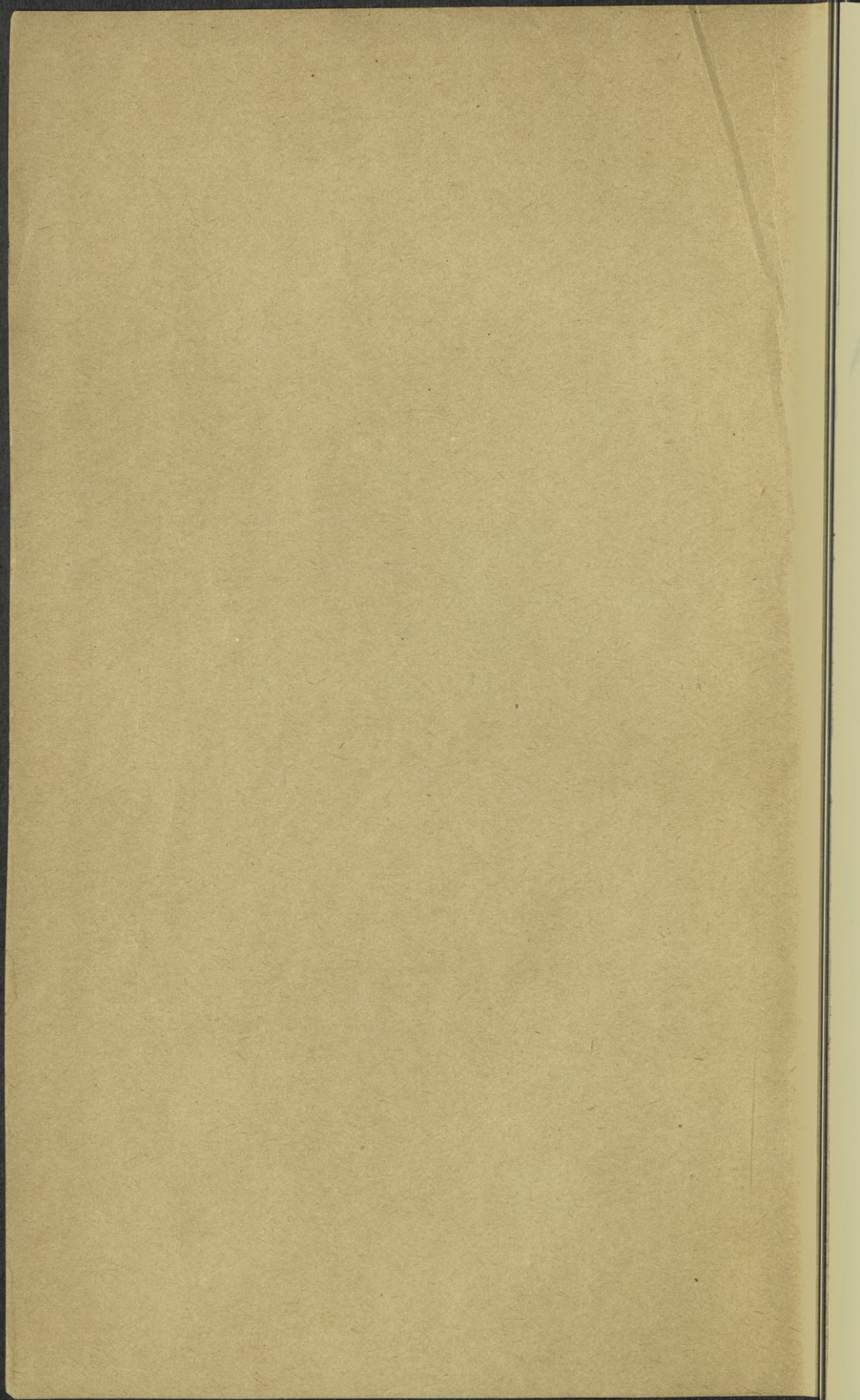
- (٢٣) ساهه نامه مجلة كابل ١١٣٢ .
- (٢٤) عرب و هند كي تعلقات - م للعلامة السيد سليمان الندوى .
- (٢٥) مطلع السعدين - لعبد الرزاق السمرة قندى ،
(٢) باللغة العربية .
- (٢٦) آثار البلاد وأخبار العباد - للقزويني
- (٢٧) الاسلام وتركستان الصينية - لبدر الدين الصيغى .
- (٢٨) أقاليم الارض - للاصطخرى .
- (٢٩) تاريخ ابن الاثير .
- (٣٠) تاريخ الطبرى .
- (٣١) تاريخ ابن الوردى .
- (٣٢) التصوير فى الاسلام عند الفرس - للدكتور محمد زكى حسن .
- (٢٣) رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية بالقاهرة .
- (٣٤) تحفة النظار فى غرائب الامصار - لابن بطوطة .
- (٢٥) تعليقات على - حاضرم العالم الاسلامى .
- (٣١) ديوان لغات الترك - لمحمود الكاشغرى .
- (٣٧) تحفة الالباب .
- (٣٨) صبح الأعشى .
- (٣٩) صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار - للشيخ بىرم التونسى
- (٤٠) سلسلة التواريخ لسليمان وأبى زيد الحسن السيرافى .
- (٤١) العقد الفريد .
- (٤٢) القهرست .
- (٤٣) كتاب الممالك والمسالك - لابن خرداذبه .
- (٤٤) معجم البلدان .
- (٤٥) مروج الذهب - ومعدن الجواهر
- (٤٦) نبذة عن الصين - لآثر بنى أبى العز (باشا)
- (٤٧) نزهة المشتاق - للادريسي

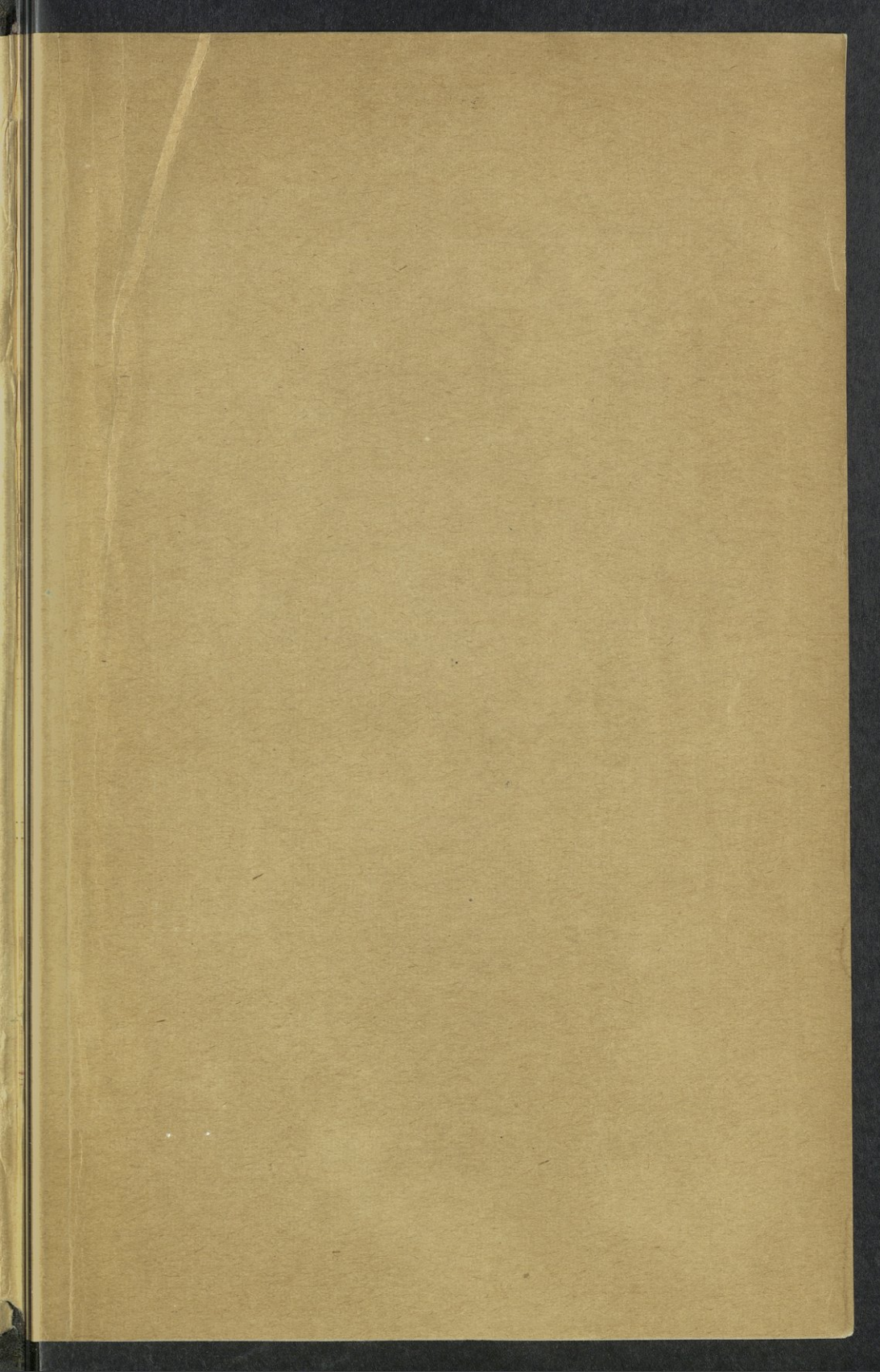
المراجع الاثرية

- (1) C. F. Andrew : The Crescent in the North-West China.
- (2) Arnold: Islamic Book; Painting in Islam.
- (3) Ameer Ali: The Short History of Saracens.
- (4) Blochet: Mussalman Painting; Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadllah.
- (5) Berthold: Turkistan Down to the Mongol Invasion.
- (6) Breitschneider: The Ancient Chinese Knowledge on the Arabs.
- (7) Broomhall (Marshall): Islam in China.
- (8) E. Browne: The Literary History of Persia.
- (9) Dimand: Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.
- (10) Eliot (Sir): History of India.
- (11) Ferand: Relations des Voyages.
- (12) Gibb: The Arab Conquests of Central Asia.
- (13) Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire.
- (14) Hadi Hasan: History of Persian Navigation.
- (15) Hirth: Chao Ju Kua.
- (16) Hirth: China and the Roman Orient.
- (17) Hobson: A Guide of the Islamic Poltery.
- (18) H. Howorth: History of the Mongols.
- (19) Huart: Ancient Iranian Civilization;
- (20) Legacy of Islam.
- (21) B. Laufer: Sino-Iranica.
- (22) E. H. Parker: China and Religion.
- (23) Sladin & Migion: Manuel D'Art Mussalman.
- (24) C. Schuffer: Les Relations de Mussalman avec Chinois.
- (25) Vambery: History of Bukhara.
- (26) Wilson: The Persian Gulf.

(۲۰) المراجع الاثرية

(۲۱) المراجع الاثرية



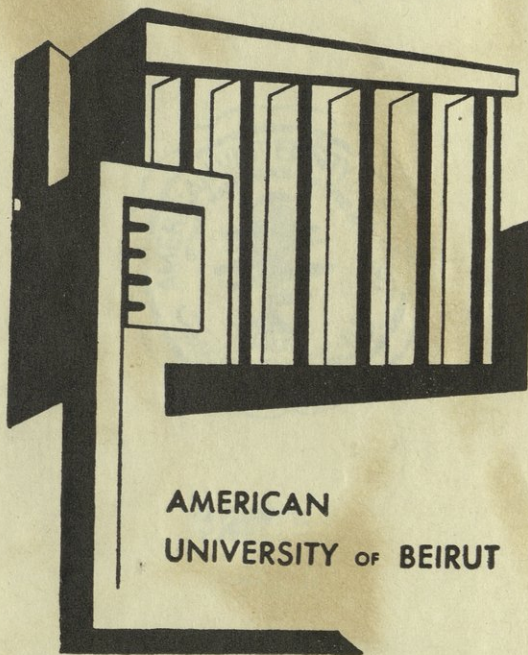


حى الصينى، بدر الدين
العلاقات بين العرب والصين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01205604



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

